

لماذا
لا يثور المصريون؟

دار الشروق

لماذا
لا يثور المصريون؟

الطبعـة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٣٥٧٨/ ٢٠١٠
ISBN 978-977-09-2769-8

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

علاء الأسواني

لماذا
لا يثور المصريون؟

دار الشروق

المحتويات

لماذا لا يثور المصريون؟!(*)

وقعت هذه الحادثة منذ بضعة أعوام:

كنت أسير في شارع طلعت حرب ساعة الظهر، وكان الجو حارًّا للغاية، وقد امتلأ الشارع بالسيارات المتكدسة العاجزة عن السير من فرط الزحام. ورأيت ضابط شرطة برتبة رائد يقترب من سائق تاكسي ويتبادل معه الحديث، لم أسمع ما دار بينهما لكن الضابط، فجأة استشاط غضبًا وهوى على وجه السائق بلطمة عنيفة.. وأصدر السائق صوتا معترضًا ومد يده ليمنع الضابط من ضربه وهنا، جن جنون الضابط وانهال على وجه السائق ورأسه بضربات شديدة متلاحقة جعلته ينزف دمًا من فمه وأنفه، ثم أمسك الضابط بالسائق وأخرجه من التاكسي وراح يجرجره في الشارع وهو يضربه.. ووجدتني أسير خلف هذا الموكب الدموي وتبعني بعض المارة.. وعندما وصل الضابط إلى نقطة الشرطة القريبة وقف على بابها وهو ممسك بالسائق من قميصه (الملطخ الآن بالدم).. واستدار الضابط ناحيتنا نحن المتفرجين وقال باستهانة.

حد فيكم يحب يعمل راجل ويشهد ضدي في المحضر؟!

أخذ الضابط يتفحصنا بنظرة متحدية، كان الواقفون نحو عشرة أشخاص، تدل هيئة معظمهم على رقة الحال، وكدت أسمع همهمة مستنكرة من أحد الواقفين بعيدًا، لكنها خمدت فورا وران علينا جميعًا صمت ثقيل.. ونهرنا الضابط بقوة.

يالله.. امش من هنا أنت وهو..

(*) الأهالي ١١/ ١١/ ١٩٩٨.

وابتعدنا جميعًا بخطوات ثقيلة مرتبكة (كأنها خجلى) وهمس رجل عجوز بجواري: «ربنا على الظالم» وبعد لحظات كنا قد تفرقنا في الزحام.. وجثم عليَّ شعور مؤلم بالكآبة والعجز، ورحت أتساءل: لماذا لم أرد على الضابط؟!

لقد أهاننا جميعًا، وتحدى رجولتنا.. ولو أنني رددت عليه لربما تشجع الآخرون على مقاومة الظلم. وما إن وصلت إلى البيت حتى جلست وكتبت خطابًا مطولًا إلى بريد الأهرام، حكيت فيه الواقعة بالتفصيل، وكتبت اسمي كاملًا وأعلنت استعدادي للشهادة أمام جهة التحقيق.

ومرت أسابيع ولم ينشر بريد الأهرام رسالتي، ثم مرت أسابيع أخرى ونسيت تلك الحادثة، لكنها تعاودني دائمًا إذا ما طرح السؤال: «لماذا لا يثور المصريون»؟

والحق أن في مصر من الظلم والفساد والاستبداد ما يكفي لإشعال عشر ثورات في بلد آخر.. فلماذا لا يثور الناس في بلادنا؟! أتذكر وجوه الواقفين ذلك اليوم أمام الضابط.. كانوا يدركون كل شيء وقلوبهم مفعمة بالمرارة والحنق لكنهم برغم ذلك أذعنوا حتى تمر العاصفة «هل أذعنوا لأنهم جبناء؟!» الإجابة بالنفي إنهم فقط يعرفون جيدًا معنى أن تتحدى ضابط شرطة في مصر.

ضرب وحجز وتلفيق قضايا، وهم فقراء لا يملكون ترف الدخول في معارك رومانسية.. لأنهم يخوضون كل صباح معركة مريرة ضارية ينتزعون آخرها الطعام لهم ولأولادهم.

إن ما يمنع المصريين من الاحتجاج خبرتهم الأليمة بالقمع ويأسهم الكامل من الإصلاح وقد تعود المصريون أن يبتعدوا عن السلطة بقدر الإمكان: يتجاهلونها ويتحملون أذاها بين الحين والحين ويسخرون منها فيما بينهم ثم يصنعون ـ بعيدًا عنها ـ عالمهم الصغير الحقيقي: يعملون ويكسبون ويربون الأولاد وينعمون ببعض المتع الصغيرة.. والحق أن المصري لا يعبأ كثيرًا بمن يحكمه: أولًا لأنه لم يسمح له أبدًا باختيار حكامه. وثانيًا لأن معظم الحكام عادة ما يتشاجرون في الظلم والفساد.. وفي المرات القليلة التي اندلعت فيها الثورة في مصر.. كان هناك زعيم حقيقي ومخلص، صدقه الناس وعقدوا عليه الأمل وثاروا بقيادته على الظلم.

هكذا حدث مع سعد زغلول ومصطفى النحاس وجمال عبد الناصر.. حتى أنور السادات اجتمع حوله المصريون ليخوضوا حرب التحرير عام ١٩٧٣ فلما انتهى السادات إلى الصلح مع إسرائيل.. عاد المصريون وانسحبوا إلى داخلهم وراحوا يتفرجون على الأحداث.

اللجنة العليا لحماية «الجزرة»:

قاد السير «ونستون تشرشل» الأمة البريطانية إلى النصر في الحرب العالمية الثانية، وتبوأ بذلك مكانة عظمى في تاريخ بريطانيا ووجدانها، وبرغم ذلك، وما إن أجريت أول انتخابات عامة بعد الحرب عام ١٩٤٥ حتى خسر «ونستون تشرشل» منصبه كرئيس للوزراء أمام «كليمنت أتلي» الزعيم العمالي، والسبب في ذلك أن الرأي العام البريطاني اعتبر أن وزارة الحرب قد أنهت مهمتها وأن مرحلة البناء التي تلي الحرب تحتاج إلى عقول وأفكار جديدة.. ولم ينقص سقوط «تشرشل» في الانتخابات من تقدير البريطانيين له فقد أنعمت عليه ملكة بريطانيا بلقب سير عام ١٩٥٣ وعندما توفي «تشرشل» عام ١٩٦٥ أقيمت له جنازة رسمية مهيبة وقامت السلطات بإيقاف عقارب ساعة «بيج بن» الشهيرة ساعة خروج جثمان «تشرشل» وقيل إن ذلك يرمز إلى «أن الزمن البريطاني قد توقف لأن قائدًا وطنيًّا عظيمًا قد رحل».

وأود هنا أن أقارن بين السير «ونستون تشرشل» والمهندس «سليمان متولي» وزير المواصلات (ويالها من مقارنة).. فالأول قد انتصر في حرب عظمى لكنه فقد منصبه، والثاني يحتفظ بمنصبه منذ عشرين عامًا برغم كل كوارث المواصلات التي قتلت وجرحت مئات الضحايا من الركاب في عهده الميمون.. والفرق بين هذا وذلك هو الفرق بين الديمقراطية وغيرها، فالوزراء في نظام ديمقراطي ساسة منتخبون، يؤدون واجبهم ثم يقرر الناخبون بعد ذلك استمرارهم في مناصبهم أو رحيلهم عنها.. أما الوزير في مصر فليس سوى موظف كبير، يعينه الرئيس لأسباب لا يعلمها سواه ويقيله من منصبه إذا أراد في أي لحظة، ومن هنا لا يعبأ الوزير المصري إطلاقًا بالرأي العام، لأن كل ما يهمه هو إرضاء الرئيس، ولذلك ترى الوزراء عندنا يبالغون في الحديث عن حكمة الرئيس وعظمة قيادته وسداد توجيهاته (في كافة المجالات.. سيادتك!) وترى الوزراء يقومون إذا قام الرئيس ويجلسون إذا جلس ويضحكون ملء أفواههم إذا عَنَّ للرئيس أن يبسم أو يتفكه قليلًا.. ولا يمكن لمثل هؤلاء الوزراء أن ينجزوا شيئًا ذا بال ولا يمكن أبدا أن يعلنوا مسئوليتهم عن تقصير أو خطأ، والكارثة الأخيرة لقطار كفر الدوار تكفي لإقالة حكومة بأسرها في بلد ديمقراطي ولكن.. في بلادنا؟!.. هيهات!!

ولسوف يستمر وزير المواصلات في منصبه ولو مات الناس جميعًا بسببه.. وقد كان

هم الوزير منذ بداية الكارثة أن يبحث عن مسئول ما يلقى عليه باللائمة، وكان هذا نفس ما يشغل بال رئيس هيئة السكة الحديد، الذي حاول أن يوحي بأن سائق القطار المنكوب كان مسرعًا أو مريضًا بالقلب أو أنه تعاطى مخدرًا أو خمرًا.. ثم ثبت أن ذلك كله غير صحيح.. ولم يجد المسئولون في النهاية شيئًا يعلقون عليه مسئولية الكارثة.. سوى الجزرة!.. والجزرة ـ فيما يقولون ـ هي فرامل القطار التي تكون على سطحه.

ويزعم المسئولون أن المواطنين الذين يفضلون الركوب على سطح القطار هم وحدهم المسئولون عن كل حوادث القطارات في مصر، إذ إن هؤلاء «المسطحين» الأشقياء يحبون دائمًا أن يلعبوا بأصابعهم في جزرة القطار وهذا اللعب المستمر في الجزرة يخرج القطار عن القضبان فورا وقد يدفع به إلى خارج المحطة كلها فينطلق القطار (الملعوب في جزرته) عندئذ ليدهس المارة في الشوارع كما حدث أخيرا في كفر الدوار.. من هنا يؤكد المسئولون أهمية حماية الجزرة من أي عبث أو تصرف غير مسئول، وقد تشكلت بالفعل لجنة هندسية عليا لبحث وسائل حماية الجزرة والضرب على يد كل من تسول له نفسه أن يلعب فيها، وانتهت اللجنة إلى توصية (أراها عميقة وحكيمة) مفادها أن المشكلة ليست في الجزرة ولكن في اللاعبين في الجزرة.. وقد ناشدت اللجنة المشرع لكي يضع قانونًا يجعل عقوبة التسطيح على القطار غرامة ألف جنيه والحبس الوجوبي ثلاث سنوات على الأقل.. وأنا في النهاية أضم صوتي إلى أعضاء لجنة حماية الجزرة وأتقدم باقتراح، بسيط وعملي، أراه كفيلًا بالقضاء على ظاهرة التسطيح نهائيًا.

واقتراحي أن تتم كهربة أسطح كل القطارات في مصر بحيث يستطيع سائق القطار في أية لحظة أن يضغط على زر صغير فيصعق كل الركاب المسطحين بالكهرباء وإذا تعذر تنفيذ هذا الاقتراح فمن الممكن في رأيي الاستعانة بفرق قناصة متخصصة من القوات المسلحة بحيث يأخذ القناصة مواقعهم عند مداخل المحطات، وما إن يقبل القطار حتى يفتحوا نيرانهم المحكمة على الركاب المسطحين فيموتون جميعا.. وهكذا يتم القضاء على التسطيح والمسطّحين..

عاشت اللجنة العليا لحماية الجزرة..

عاش المهندس سليمان متولي وزيرا للمواصلات (ولك الله يا مصر).

صناعة الطغيان(*)

مصطفى الكاشف..!!

لا يعني لنا الآن هذا الاسم شيئًا، ولكنه منذ مائة وخمسين عامًا، كان يعني الكثير لسكان القاهرة، فقد شغل الكاشف آنذاك منصب المحتسب واشتهر بالقسوة البالغة وكان كل صباح يجمع وراءه الجلادين والحرس والسيافين (حملة السيوف) ويطوف في أنحاء القاهرة يراقب الأسواق ويفحص الموازين والمكاييل عند الباعة فإذا ما اكتشف تلاعبًا من أي نوع أمر مساعديه فقبضوا على التاجر المخالف وألحقوا به عقابًا فوريًا.

وكانت عقوبات الكاشف تتراوح بين القتل والجلد وقطع الأذن أو الأنف، على أنه حرص دائمًا على ابتكار عقوبات جديدة. فقد عاقب جزارًا باع لحمًا ينقص عن الوزن الحقيقي أوقية ونصفًا. بقطع هذا الوزن من ظهره بالسكين، وأمر بخرم أنف جزار آخر ووضع فيها كلابة.. علقت فيها قطعة من اللحم.. أما بائع القلل الفخارية الذي كذب على أحد الزبائن فقد أمر الكاشف أتباعه بتكسير عشرات القلل على دماغه حتى مات، وكذلك بائع الكنافة الذي حصل على زيادة في الثمن تافهة فقد أمر الكاشف بتجريده من ثيابه ووضعه عاريًا على الصينية النحاسية المستديرة، حيث تسوى الكنافة وظل البائع المسكين موضوعًا على النار حتى احترق احتراقًا رهيبًا.. إلى هذا الحد وصلت القسوة بالكاشف. والغريب أنه كان مع صرامته الظاهرة مرتشيًا فاسد الذمة، فكان يقبض من كبار التجار ويتركهم يحددون أثمان البضائع على هواهم، بل إنه كان يحمل في موكبه ميزانًا كبيرًا مملوءًا بالزئبق يستعمله في ترجيح أية كفة يشاء (حسب الأحوال) ويحكي المستشرق «إدوار لين» في كتابه «المصريون المحدثون» عن مصطفى الكاشف أنه مرّ يومًا

(*) الأهالي ٢٤/ ٣/ ١٩٩٩.

بحمام عمومي (وكان الناس آنذاك يستحمون في حمامات عامة) ونادى الكاشف صاحب الحمام، وطلب منه أن يدخل حصانه إلى الحمام ليغتسل وسط الناس.

بل وأمره أن يعد العدة لاستقبال الحصان والعناية بتحميته وتنعيم جلده وكان الطلب شاذًا للغاية (إذ كيف يختلط الحيوان مع الناس وهم يستحمون) لكن صاحب الحمام خاف أن يرفض فتظاهر بالرضا وقال للكاشف.

«سيدي.. يسعدني حقًا ـ يعلم الله ـ أن أعتني بهذا الحصان الطاهر وأغسل جسده بيدي لكنني أخاف عليه كما أخاف على أولادي.. إن أرضية الحمام من الرخام يا سيدي وأخشى أن ينزلق الجواد فيصيبه أذى كما أن الجو في الحمام ساخن، وقد يصاب الحصان المحبوب ببرد يؤذيه».

..ظل مصطفى الكاشف صامتًا يتفحص بعينيه القويتين صاحب الحمام الذي تشجع فأضاف: «أقترح يا سيدي أن ننقل الماء الساخن إلى الإسطبل حيث يقيم الحصان ثم أذهب إليه هناك وأغسل بيدي جسده الحبيب جزءًا جزءًا»..

كانت مناورة بارعة من صاحب الحمام لكن مصطفى الكاشف لم يلبث أن قال: «إني أرى السبب غير ذلك يا صاحب الحمام.. أنت لا تريد أن يذهب جوادي إلى حمامك..» ثم استدار الكاشف وأمر أتباعه فطرحوا صاحب الحمام أرضًا وأخذوا يضربونه على رأسه بالعصي الغليظة حتى سالت دماؤه ثم شهق وفاضت روحه..

كان هذا ما يحدث في القاهرة، ولم تكن الحالة في الريف أفضل كثيرًا، ويصف «إدوار لين» حياة الفلاحين آنذاك فيكتب: «يتعدى أغلب حكام الأقاليم في طغيانهم حدود السلطة التي خولهم الباشا «محمد علي» إياها، وتكون للرشاوي وأواصر القرابة والمصاهرة أثرها في تصرفات الحكام فيخففون الظلم عن البعض بينما يضاعفونه على البعض الآخر، وفي وقت جباية الضرائب كثيرًا ما ينال شيخ القرية من الضرب أكثر مما ينال مرءوسوه، إذ إنه عندما لا يورد سكان القرية المبلغ المطلوب يتم ضرب شيخ القرية لتقصير الفلاحين وهو لا يدفع دائمًا نصيبه حتى يشبع ضربًا، ويفتخر الفلاحون المصريون جميعًا بما يتركه الكرباج على أجسادهم من آثار لرفضهم دفع الضرائب.. وكثيرًا ما يتباهون بعدد الضربات التي نالوها قبل أن يدفعوا نقودهم».

* * *

هذه الوقائع الدامية المحزنة تدفعنا إلى التساؤل: «كيف تحمّل المصريون هذا القمع الوحشي على مدى عشرات السنين؟!» لقد تعاقب على مصر حكام شتى في كل العصور لكن المصريين لم يأمنوا يومًا واحدًا على أنفسهم من بطش الحاكم، وقد اختلفت الحكومات المصرية قبل الثورة وبعدها في أشياء كثيرة لكنها تساوت جميعًا في استعدادها الدائم للتنكيل بكل من يعارضها.. وبدلًا من «مصطفى الكاشف» ظهر ضابط أمن الدولة الذي يتفنن في تعذيب المعتقلين وإهدار آدميتهم لمجرد أنهم يفكرون بطريقة مختلفة عن النظام. وظهر ضابط المباحث الذي يضرب المشتبه فيهم حتى يعترفوا أحيانًا بجرائم لم يرتكبوها من شدة التعذيب.

إن القمع بكل أسف سلوك مألوف في مصر، بل هو تراث نحمله داخلنا جميعًا، ولقد رأيت بنفسي ضباط شرطة يستوقفون بعض البسطاء من راكبي الميكروباص في ساعة متأخرة من الليل فيصفعون الناس على وجوههم، قبل أن يفحصوا بطاقاتهم الشخصية. يصفعونهم بلا أدنى سبب (مجرد إجراء روتيني!!) والمحزن أن المواطنين استسلموا للصفعات بغير احتجاج ثم استأنفوا رحلتهم بعد ذلك وكأن شيئًا لم يحدث.. إن حجم الاستبداد الذي حدث في مصر لا أظنه قد تكرر في تاريخ بلد آخر، وكما تحسب لشعبنا العظيم قدرته المذهلة على الاستمرار والإبداع في أسوأ الظروف، فالمؤكد أيضًا أن تعايشنا الطويل مع الظلم قد ترك آثارًا سيئة في سلوكنا..

فقد تعلمنا نحن المصريين كيف نداهن السلطة الغاشمة لمجرد اتقاء شرها، تعلمنا أن نفعل مثل صاحب الحمام مع «مصطفى الكاشف»، أن نظهر غير ما نبطن حتى ننجو.. ولعلنا ننفرد بين شعوب العالم بتعدد ألقاب التفخيم والتعظيم التي نخاطب بها رؤساءنا ونتوقع من مرءوسينا أن يخاطبونا بها.. إن السلطة الظالمة عاصفة هوجاء وقد تعلم المصري كيف ينحني أمامها حتى تمر، وتعلم مضطرًا أن ينافق ويكذب حتى يستمر في الحياة.. وفي عدة دراسات علمية لمقارنة معدل الكذب بين المرضى النفسيين والأصحاء سجلت الدكتورة «زينب عبد السلام» (أستاذ الطب النفسي في جامعة القاهرة) اكتشافًا مذهلًا. فقد كان معدل الكذب أعلى دائمًا بين الأصحاء مما هو بين المرضى مما يرجح أن توائم المصريين النفسي مع المجتمع صار مشروطًا بقدرتهم على الكذب إلى حد ما.. لقد جعلنا الاستبداد الطويل نتجنب مواجهة من يقمعنا ونستعيض عن ذلك بالبحث عن سلطة صغيرة لأنفسنا نستطيع من خلالها أن نعيد إنتاج القهر الذي وقع علينا وفي داخل كل

مقموع يكمن طاغية صغير يتحين الفرصة لكي يمارس ولو لمرة واحدة الاستبداد الذي مورس عليه.. وليس المدير الذي يتعالى على موظفيه أو مسئول الأمن في أية مؤسسة الذي يتلذذ بوقوف الناس أمامه، حتى ينتهي من فحص بطاقاتهم على مهل قبل أن يسمح لهم بالدخول، أو شرطي المرور الذي يستمتع بإذلال سائق التاكسي، حتى يعيد إليه رخصة قيادته المسحوبة، أو حتى تلك الموظفة المصرية في سفارة أجنبية التي تحتقر المصريين وتعاملهم بتعجرف، ليس هؤلاء إلا نماذج للمصريين الذين شوه الاستبداد مفهومهم للسلطة، فصارت السلطة والاستبداد في أذهانهم كلمتين بمعنى واحد، بل إن التشوه امتد إلى مفهومنا للحوار، ولقد عرفت مثقفين كبارًا يكتبون كل يوم عن الحرية والديمقراطية لكنهم في نفس الوقت يضيقون بأية مناقشة لآرائهم وسرعان ما يحتدون على من يختلف معهم، وقد ينتهي الحوار إلى سباب ومشاجرة.

إن الاستبداد مرض معد ينتقل دائمًا من السلطة إلى الناس ويؤثر في سلوكهم اليومي. فنحن مثلًا نهتم بنظافة بيوتنا من الداخل لكننا لا نهتم أبدًا بنظافة الردهات الخارجية ومداخل العمارات ومناورها.. ونحن نحرص للغاية على ممتلكاتنا الشخصية، ولا نحرص إطلاقًا على سلامة المرافق العامة مثل مقاعد القطارات وزهور الحدائق العامة. إن كل ما يقع «خارجنا» لا نشعر أبدًا بأنه ينتمي إلينا، لقد علمّنا الاستبداد أن نحصر اهتمامنا في ذواتنا وأسرتنا وأولادنا وأن نترك ما عدا ذلك للحاكم يصنع به ما يشاء.. إن الانتماء العام لأي شعب يتوقف على المعاملة العادلة التي يلقاها من حكومته وأيضًا على مدى مشاركته في صناعة القرار، ونحن في مصر محرومون من العدل ومن المشاركة السياسية الحقيقية وكل مصري علمته الخبرة أن يقاطع صناديق الانتخابات التي يعرف الجميع نتائجها سلفًا، نفس هذا المواطن سوف يبذل قصارى جهده حتى يتهرب من الضرائب، لأنه ببساطة لا يثق إطلاقًا بنزاهة حكومة مفروضة عليه ولا يملك تغييرها..

وأخيرًا، إن المحاولات المتكررة لتحقيق النهضة في مصر قد فشلت جميعًا لأنها تمت في ظل الاستبداد.. وها نحن نبدأ القرن الحادي والعشرين وما زلنا نعاني من التخلف والفقر والمرض وقد آن لنا أن ندرك، بعد كل تجاربنا الأليمة أن الديمقراطية هي البداية الوحيدة الصحيحة للمستقبل.

عن العدل والغش.. والمبايعة «عَدْوًا»(*)

عرفت چون دانيال منذ أكثر من عشرة أعوام.. كان يعمل أستاذًا لعلم الأنسجة في جامعة إلينوي في «شيكاغو» حيث كنت أدرس للحصول على الماچستير، وكان مظهره أمريكيا قحا: بجسده الرياضي الضخم وبنطلونه الچينز وحذائه المطاطي وبشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين وعلبة الكوكاكولا التي لا تفارق يده حتى أثناء المحاضرات.. ولقد كرهت چون دانيال منذ البداية عندما لقيته ذات صباح في ردهات الكلية، فابتسمت محييًّا، وقلت «صباح الخير».. فإذا به يرمقني بقرف ثم يغمغم ويشيح بوجهه بعيدًا وشعرت بالإهانة والغيظ ولم أفهم لماذا يعاملني دانيال بهذه الطريقة. لكن زميلًا مصريًا في الكلية شرح لي أن «چون دانيال» متعصب يكره الأجانب ويحتقرهم وأنه ينتمي إلى هؤلاء الأمريكيين الجنوبيين المتعصبين ويسمونهم هناك «الرقاب الحمراء» (The Red Necks) (إشارة إلى كونهم مزارعين احمرت رقابهم من حرارة شمس الجنوب). وقد كان تعصب دانيال شديدًا حتى إنه أحضر ابنته الصغيرة ذات مرة في حفلة أقامتها الكلية، وكانت طفلة جميلة ولطيفة فرحت أداعبها أنا وزملاء مصريون فإذا بالسيد «دانيال» يهرع ناحيتنا ويجذب ابنته بعيدًا (وكأننا متوحشون نأكل الأطفال). وزادت كراهيتي لـ«دانيال» المتعصب، حتى إنني صرت إذا لقيته في أي مكان أنظر إليه باحتقار.. وأكاد أتحرش به من فرط غيظي.

اختير «چون دانيال» ليكون مشرفًا على فصل دراسي أنا فيه. وكان النجاح في هذا الفصل يعتمد على تقدير المشرف لجهود الطلبة، مما يجعل دانيال متحكمًا تمامًا في الدرجة التي سأحصل عليها، وتوقعت بالطبع متاعب جمة وكنت إذا ذهبت إلى مكتب دانيال لأسأله في أحد الدروس عاملني كعادته بتعالٍ وغطرسة. وقد دفعني هذا

(*) الأهالي ٧/ ٧/ ١٩٩٩.

الاضطهاد إلى مضاعفة جهدي في الاستذكار وكأنني أتحدى «دانيال» بتفوقي. وكنت أتوقع أن يحاول أن يقلل بقدر إمكانه من التقدير الذي سأحصل عليه في نهاية الفصل، ثم ظهرت النتيجة وكانت المفاجأة: إذ منحني چون دانيال تقدير «ممتاز» وكنت واحدًا من اثنين حصلا على هذا التقدير في فصل من عشرة طلاب (معظمهم أمريكيون).

والحق أنني ذهلت. وذهبت إلى «دانيال» في مكتبه، فوجدته هناك جالسًا يقرأ في كتاب وحييته.. فلم يرد كالعادة، ورفع نظره إليَّ وقال ببرود:

ـ «ماذا تريد»؟

ـ «دكتور دانيال.. لقد جئت لأشكرك».

ـ «ولماذا تشكرني»؟!

ـ «لأنك منحتني تقدير ممتاز».

ـ «إنه التقدير الذي تستحقه».

هكذا قال بهدوء ثم استأنف القراءة متجاهلًا وجودي.

«لماذا تصرف چون دانيال بهذه الطريقة؟!»..

فكرت طويلًا في هذا السؤال. وبدا لي غريبًا أن يكون المرء عنصريًا متعصبًا وأن يحرص في الوقت نفسه على تحقيق العدل، مع الذين يتعصب ضدهم.

تصرف «دانيال» لا يعكس فضيلة شخصية بقدر ما يعكس مفهومًا صحيًّا وصحيحا، يجعل تمسك المرء بالعدالة جزءًا من شرفه الشخصي، وبالتالي فقد منحني «چون دانيال» تقدير «ممتاز» لأنه ببساطة يكره أن يكون ظالمًا ولا يطيق أن يخالف ضميره ولأنه لو ظلمني، لشعر بالعار أمام نفسه على الأقل، لقد كان إحساس «چون دانيال» بالواجب أقوى من كراهيته العنصرية، هذا الشعور العميق القاهر بضرورة العدالة ينشأ عند المواطنين في البلاد الديمقراطية فعندما يعامل الإنسان من الدولة بطريقة منصفة، وعندما تؤدى إليه حقوقه الإنسانية كاملة يكون صعبًا عليه بعد ذلك أن يتقبل الظلم أو يقترفه، أما في الأنظمة الاستبدادية، فإن القمع الواقع على المواطنين يفسد شعورهم بالعدل.. وهذه بديهية، فالمواطن الذي يستطيع أصغر ضابط شرطة أن يعتقله بلا سبب ويعتدي عليه وينتهك حرماته، هذا المواطن المحروم من حقه الطبيعي في العمل

والسكن والعلاج والتعليم، بل المحروم قبل ذلك من حقه في اختيار حكامه.. مثل هذا المواطن لا يمكن أن نطلب إليه أن يكون منصفا مع الناس؛ إذ إن أحدا لم ينصفه يوما.. إن أمراض الاستبداد الاجتماعية أخطر بكثير من أضراره السياسية المباشرة. والحق أن الغش والكذب والرشوة والنفاق والفساد والانتهازية، ليست كلها إلا نتائج محتومة للديكتاتورية.. فمتى ندرك هذه الحقيقة في مصر..؟!

الغشاش الأكبر:

دخل رئيس لجنة الثانوية العامة، وسأل التلاميذ قبل بداية الامتحان «من أشطر التلاميذ في هذه اللجنة؟!» ودلّه التلاميذ عليهم... فاقترب رئيس اللجنة، وقال للتلاميذ المتفوقين: «يجب عليكم أن تساعدوا زملاءكم في الامتحان».. ثم خرج وجاء مراقب اللجنة وسمح للتلاميذ بالغش وقال لهم بالحرف: «خذوا راحتكم (في الغش) وسوف أقف أنا على الباب أراقب الطريق وإذا جاء تفتيش (خارجي) سوف أنقر على الباب نقرتين وعندئذ تأخذون حذركم..».

هذه الواقعة حدثت منذ أيام في إحدى مدارس وسط القاهرة، ولن أذكر اسم المدرسة لأن ما حدث في رأيي ليس تقصيرا فرديا ينتهي بعقاب مرتكبه وإنما ظاهرة اجتماعية، ينبغي أن نفهم أسبابها. وكل مصري لديه أبناء يمتحنون في الشهادات العامة يعلم يقينا أن الغش الجماعي صار ظاهرة، بل قاعدة تتكرر في معظم المدارس، والمفترض أن يتلصص الغشاش ويتحايل خفية حتى يسرق مجهود زملائه، لكن ما يحدث في مصر الآن على العكس من ذلك. فالمراقبون يعتبرون الغش نوعا من المساعدة الواجبة عليهم تجاه تلاميذ بمثابة أولادهم، والتلاميذ يعتبرون الغش نوعا من التعاون الواجب والتلميذ الذي يرفض الغش يتهم من الجميع بالأنانية والتزمت، بل إن مراقبا في الزقازيق رفض أن يسمح للتلاميذ بالغش، فاعتدوا عليه بالضرب المبرح حتى نقل إلى المستشفى.. والسؤال الآن: لماذا تشوهت مفاهيمنا إلى هذا الحد؟! ما الذي يجعل مراقبا يخالف ضميره ويسمح للتلاميذ بالغش؟!.. لو أنه يعطيهم دروسا خصوصية مثلا لكان الأمر منطقيا، لكن المراقبين في الشهادات العامة يراقبون في غير مدارسهم.. نحن إذن إزاء مدرس يراقب تلاميذ لا يعرفهم، لكنه مع ذلك يساعدهم على الغش بحماس..

في اللجنة التي ذكرتها ذهب التلاميذ بعد نهاية الامتحان ليشكروا المراقب الذي

سمح لهم بالغش فقال لهم بالحرف: «أنا لا أساعدكم أنتم.. أنا أساعد آباءكم الذين يصرفون دم قلبهم على تعليمكم».. هذه الجملة تكشف في رأيي السبب الحقيقي وراء انتشار الغش الجماعي.. إنه نوع من التضامن ضد الدولة بطريقة ما، نفس الشعور الذي يجعل المارة يحذرون الباعة المتجولين من شرطة المرافق القادمة لمصادرة بضائعهم، الشعور الذي يجعل المصري يحرص على تسديد ديونه الشخصية بمنتهى الأمانة وفي الوقت نفسه يتهرب من الضرائب أو يعبث بعداد الكهرباء في منزله حتى يدفع أقل من استهلاكه، شعور المواطن بأن الحكومة تظلمه وتخدعه وتسرقه وبالتالي فهو يعطي لنفسه الحق في أن يخدعها بدوره في أول فرصة يأمن فيها من العقاب. إن المراقبين الذين يسهلون الغش للتلاميذ في الامتحانات يبادلون الدولة غشا بغش، وهم يساعدون التلاميذ ليحصلوا جميعًا على أعلى الدرجات نكاية في الحكومة التي ظلمتهم وظلمت التلاميذ معهم.. إن الثانوية العامة لم تعد تشكل مشكلة في مصر إلا للطبقة المتوسطة وما دونها أما الأثرياء الكبار فهم يشترون لأولادهم النجاح عن طريق شهادات أجنبية معادلة للثانوية وأسهل منها (أَوَلَا يعد هذا غشا من الدولة؟!). والأثرياء في مصر قادرون بأموالهم على تعليم أبنائهم الفاشلين في أرقى كليات الجامعات الخاصة فتكون فرصتهم أحسن بكثير من المتفوقين الفقراء (أوليس هذا غشا آخر تقترفه الدولة؟!).. أولم تغش الدولة ملايين المصريين عندما وعدتهم بحياة كريمة ثم مرت السنون فصار نصف المصريين من الفقراء المعدمين..؟! أليس غشا أن تطبق القوانين بصرامة على البسطاء وترفع تماما عن الكبار والأغنياء؟! أليس تزوير الانتخابات واستمرار الحكومة في السلطة رغما عن إرادة الناس غشا في غش؟!!.. قبل أن ندين الغش الجماعي في المدارس علينا أن ندرك جيدا.. من هم الغشاشون الكبار..

عن العذاء الكبير.. عبد الناصر:

الخصال الحميدة التي يتمتع بها المستشار ماهر الجندي، محافظ الجيزة كثيرة وكبيرة، ربما أهمها أنه رجل صريح ومستقيم لا يحب أن ينافق (سواء بالفتح أو بالكسر) وقد انتهز السيد الجندي فرصة تجديد ولاية الرئيس مبارك علينا، فأقام في محافظة الجيزة العديد من المسيرات والمهرجانات والاحتفالات من أجل إعلان مبايعة الرئيس لفترة جديدة، ويبدو أن حماس ماهر الجندي قد زاد قليلًا فجعله يعقد اتفاقا غريبا مع

شخص يقال له «العدَّاء عبد الناصر» على أن يجري هذا الأخير من محافظة الجيزة حتى يصل إلى توشكى!! أي حوالي مسافة ١٣٥٠ كيلو مترا.. يقطعها العداء عبد الناصر بأقصى سرعة وذلك من أجل إعلان مبايعته للرئيس مبارك!!.. وهذه الطريقة في «المبايعة عدْوًا» لا شك جديدة تماما لكنها تثير بعض الأسئلة الملحة «هل حاز العدَّاء عبد الناصر على بطولات في العدْو من قبل أم إنه لُقِّب بالعدَّاء لأنه يجري في الشارع أحيانا إذا كان مستعجلا؟!».. ثم.. لماذا اكتفت الكاميرات بتصوير العدَّاء عبد الناصر عند نقطة البداية وعندما عاد من رحلته الشاقة؟! لماذا لم تتابعه الكاميرا وهو يعدو بين المحافظات؟ لقد أشاع بعض الخبثاء أن العدَّاء عبد الناصر لم يذهب إلى توشكى لكنه بعد انتهاء التصوير اختفى في مكان ما، ثم ظهر بعد شهر.. وكأنه عائد من توشكى؟! بل أكد هؤلاء أن صحة العدَّاء عبد الناصر ليست على ما يرام وأنه لا يتحمل الجرى مائة متر كاملة بغير أن يلهث ويسعل! وقال آخرون إن البطل العدَّاء عبد الناصر في الفترة التي أعلن فيها عن عدْوه بين المحافظات، شوهد أكثر من مرة في مقاهي السيدة زينب يدخن الشيشة.. كلام كثير يقال وكنت أتمنى أن يرد المستشار الجندي على هذه الشائعات والبلبة حتى لا يستغلها الحاقدون والمتربصون.. فكرة أخيرة أطرحها على المستشار الجندي لكي ينفذها في المبايعة القادمة (بإذن الله).. لماذا لا يجمع محافظ الجيزة كبار الموظفين في المحافظة ثم يجرون جميعًا بجوار العداء عبد الناصر حتى يصلوا إلى توشكى من أجل مبايعة الرئيس؟ ألا يكون جميلا أن نرى المحافظ وقيادات المحافظة وقد ارتدوا جميعًا الملابس الرياضية (بألوانها الخلابة) وانطلقوا يركضون بأقصى سرعة مبايعين الرئيس؟.. على أن يعقدوا عند عودتهم حفلا كبيرا ويجرح كل واحد فيهم إصبعه (بإبرة أو موس صغير) أمام كاميرات التليفزيونات ثم يكتب بدمه السائل وثيقة مبايعة.. هذه فكرتي للمبايعة القادمة وأنا واثق أنها ستعجب المستشار ماهر الجندي كثيرًا.. بكل ما نعرفه عنه من نزاهة واستقامة.

لماذا كل هذا الإذعان؟(*)

لم يكن مظهر طارق بك ينم أبدا عن طبيعة عمله.. كان شابا وسيما ورشيقا وأنيقا وسلوكه رقيق للغاية يتحدث بلباقة وأدب وصوت خفيض وينحني أمام السيدات ويحترم الجميع. وعندما قدمه إليّ صديقنا المشترك بقوله: «طارق بك.. ضابط في مباحث أمن الدولة» دهشت للغاية ورحت أتأمله وأتساءل «هذا الشخص الرقيق كيف يعمل في أمن الدولة؟!.. وجمعتنا عدة سهرات في منزل صديقنا، وظل طارق بك على سلوكه اللطيف مع الجميع إلا أنه كان دائمًا يسرف في الشراب.. وذات ليلة، جاءت جلستي بجواره، فتحدثنا في أمور عامة ثم سألته بصراحة كيف يستطيع رجل لطيف مثله أن يضرب المعتقلين ويعذبهم كل يوم؟.. وكان ثملا فأطلق ضحكة، وقال بحماس: «إنت فاهم غلط. الناس فاهمة أمن الدولة غلط.. شغلتنا مش ضرب وتعذيب وخلاص.. بالعكس، ممكن يجيب نتيجة عكسية».

ـ أمال إزاي سيادتك تنتزع منهم الاعترافات؟!

وهنا بانت نظرة جادة في عينيه وقال في زهو:

ـ ما هي دي الشطارة.. ضابط أمن الدولة لازم يستعمل علم النفس، ثم سحب نفسا عميقا من السيجارة واستطرد موضحا: «متهم أمن الدولة مختلف تماما عن المجرم التقليدي الذي يقتل ويسرق.. المتهم عندنا صاحب عقيدة، وهو مخلص لها ومستعد يموت في سبيلها، والتعامل مع هذا النوع يحتاج إلى ضغط نفسي بطريقة معينة»...

(*) الأهالي ١٨/ ٨/ ١٩٩٩.

وطلبت منه مثلا توضيحيا فقال ببطء وهو يصب لنفسه كأسا جديدا: «يعني مثلا لو فيه متهم تحمل الضرب يوم ويومين، ورفض يعترف، ممكن أجعله يكتب اعتراف بكلمتين».

ـ إزاي.. سيادتك؟!

ـ أروح له متأخر الساعة ٢ أو ٣ صباحا، وأطلب استدعاءه، ويجيء طبعا، وهو مضروب جامد، أوقفه أمامي وأقول له: بص يا بني.. شفت انت انضربت وتبهدلت قد إيه؟ عارف الضابط اللي ضربك طوال النهار فين دلوقت؟ راح بيته أكل عشاء ساخن ونام مع مراته وعياله. وأنا جئت مطرحه، أنا لسه جاي من بيتنا، وحافضل أضرب فيك طول الليل لغاية لما يصحى الضابط الثاني، وييجي الصبح يستلمك مني ويضرب فيك تاني.. إيه يا بني اللي انت عملته في نفسك دا؟!.. فيه حد يحارب الحكومة؟!.. إحنا الحكومة يا بني..! فاهم إنك تقدر على الحكومة؟!.. حتى إذا استحملت الضرب حتستحمل اللي حنعمله في مراتك؟! تحب نبعت نجيب مراتك دلوقت، ونقلعها هدومها قدامك؟!

ـ وبعدين؟ هكذا هتفت منفعلا فقال طارق بك:

ـ الكلام بهذه الطريقة يؤثر في المتهم مهما كانت مقاومته. وأنا أكلمه كده لغاية لما يبكي.. وأول ما يبكي لازم يعترف فورا.

ـ ليه؟

ـ ما هو كده يبقى خلاص.. نفسه انكسرت، حيعمل أي حاجة تطلبها منه.

استرجعت في ذهني ما قاله لي الضابط المخمور تلك الليلة، وفكرت بعد ذلك أن طريقته مع المعتقلين ليست مجرد أسلوب لانتزاع الاعترافات، لكنها للأسف تعكس مفهوم النظام السياسي كله في التعامل مع الناس.. إن القليل من القمع، أو حتى الكثير منه قد يولد مقاومة عنيفة. أما القمع الكامل فهو يسحق مقاومة الناس ويجعل منهم مخلوقات فاقدة الإرادة تتقبل كل ما يجري عليهم بغير اعتراض. وهذا القمع الكامل لإرادة المواطنين قد مارسته جميع الحكومات المصرية بعد الثورة، على اختلاف توجهاتها وشعاراتها ومن هنا نفهم انصراف الناس في مصر عن الاهتمام بالقضايا العامة وإذعانهم الدائم للحكومة، فالمواطن المصري يقف أمام حكامه تماما كما يقف المعتقل المنهار أمام

الضابط الجلاد.. إنه يدرك عجزه الكامل عن المقاومة وقد علمه الطغيان أن يقصر اهتمامه على لقمة العيش. أن يكافح فقط من أجل الرزق وتربية الأولاد ثم يترك ما عدا ذلك للحكومة تفعل به ما تشاء، إن الانسحاق والعجز والسلبية هي الخسائر الفادحة التي منيت بها الشخصية المصرية من جراء الحكم الفردي، والمرء يعجب ويحزن عندما يرى المواطنين في أنحاء العالم يعلنون احتجاجهم العنيف على أي قرارات تهدد مصالحهم بينما يتقبل المواطن المصري الظلم الفادح بإذعان كامل، إن قرارات وسياسات خطيرة مثل انتزاع الفلاحين الفقراء من أرضهم وتطبيق قانون الطوارئ والاعتقالات العشوائية، وتزوير الانتخابات والفساد السياسي، وسقوط ما يقرب من نصف المصريين في قبضة الفقر هذه المظالم البالغة كانت كفيلة بإثارة مقاومة شعبية عنيفة إذا حدثت في بلاد أخرى، لكنها في مصر قوبلت كالعادة بالإذعان (باستثناء بعض محاولات المقاومة التي قمعتها الدولة فورا وبحسم..). إن السلبية والفردية والجبن والنفاق والخوف من اتخاذ القرار، وضعف الانتماء للوطن بل وكراهية المجتمع، كلها آفات تسربت إلى المصريين من جراء الديكتاتورية.. فمتى يكون بمقدورنا أن نشترك في حكم بلادنا؟

حماس جنوني

عزاؤنا في كرة القدم.

في الإسكندرية رأيت مئات الشبان محتشدين في زقاق صغير حتى سدوه تماما واعتلوا السيارات والشرفات، كل ذلك حتى يتابعوا المباراة بين مصر والسعودية على شاشة كبيرة معلقة أمام أحد المقاهي، وفي مصر كلها قضى مئات الألوف ليلتهم في الشوارع حتى الصباح من أجل مشاهدة المباراة وعندما منيت مصر بهزيمتها الثقيلة انفجر غضب المصريين جميعًا واندلعت المظاهرات الصاخبة مما أدى إلى إصابات واعتقالات والسؤال لماذا كل هذا الحماس من أجل الكرة وفي مصر أشياء كثيرة ومهمة تستحق الحماس ولا تجد من يهتم بها؟.. لماذا لم يتظاهر المصريون ضد الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية، أو من أجل تطبيق الديمقراطية في بلادهم، بالقوة نفسها التي يتظاهرون بها ضد الجوهري وحكم المباراة المنحاز ضد الفريق المصري؟.. إن هذا الحماس الجنوني للكرة في مصر في رأيي ظاهرة مرضية يجد الناس فيها تعويضا عن كبتهم السياسي وعجزهم عن الفعل الحقيقي إن الشاب المصري الذي يعاني من الفقر والبطالة، والعاجز عن التعبير عن نفسه،

وعن المشاركة في حكم بلاده.. هذا الشاب سوف يعزيه كثيرًا أن يتعلق بكرة القدم، حيث يمارس شعورا بالقوة والإثارة والمنافسة الحرة العادلة، والانتصار والزهو، وكل المشاعر التي حرمته منها الحكومة..

وقد يحتج البعض بأن جنون الكرة ظاهرة عالمية لكن القياس هنا مع الفارق. فالمواطنون في البلاد الديمقراطية يمارسون حقوقهم السياسية كاملة وهم يقاومون بشراسة أية محاولة من السلطة للتعدي على حرياتهم من حقهم بعد ذلك أن يتلهوا بكرة القدم كما يشاءون أما في مصر فإن الحكومة تستعمل كرة القدم من أجل إلهاء الناس عن أوضاعهم البائسة وإبقائهم في حالة الإذعان إن كرة القدم تخدرهم فلا يفكرون في حقوقهم المضيعة ولعلنا ندرك الآن سر ذلك التركيز الإعلامي على كرة القدم ونفهم أيضا لماذا تسمح السلطة في مصر بالمظاهرات الحاشدة من أجل عودة حسام حسن إلى البساط الأخضر. أما عندما يتظاهر طلاب كلية التربية أو عمال المصانع احتجاجا على الفقر والبطالة فإن السلطة لا تعرف عندئذ إلا القمع والمنع والمطاردة.

صاحبة الجلالة.. الغيبوبة!(*)

هذه الواقعة قرأتها من سنوات..

خرج الخليفة هارون الرشيد بجيشه غازيا وشن هجوما على إمارة في بلاد الروم ففتحها وهزم جيشها وضمها إلى مملكته وقد هرب ملك الروم مع أسرته وحاشيته وبعد أيام تلقى الرشيد رسالة من ملك الروم فتوقع أنه أعد جيشا جديدا ليسترد به إمارته السليبة.. لكن الرشيد قرأ الرسالة فوجد الملك المهزوم يستعطفه حتى يبحث في مئات الروميات الأسيرات لديه عن جارية معينة ويتوسل أن يعيدها إليه بأى ثمن لأن ابنه الأمير الشاب يحبها بشدة ولا يطيق فراقها وهو يخشى أن ينتحر حزنا عليها.. واستغرب الرشيد من الرسالة وقال لجلسائه: «عجبت لملك الروم.. تضيع مملكته ويذهب شرفه ويقتل الآلاف من جنوده ثم هو لا يعبأ بعد ذلك إلا بامرأة يحبها ابنه يريد أن يجمعه بها.. هكذا تضيع الممالك..».

هذا السلوك الغريب تكرر على مر التاريخ فكثيرا ما تنسى الشعوب المهزومة هزيمتها وشرفها الضائع وتستغرق في الاهتمام بمسائل غاية في التفاهة وهذه ظاهرة نفسية لها ما يبررها: فالقدر المتوسط من الضغط النفسي يشحذ همم الناس ويولد لديهم المقاومة أما إذا كان الضغط ساحقا يفوق قدرتهم بمراحل فإنهم عندئذ قد ينهمكون في الانشغال بأمور ثانوية في محاولة بائسة لنسيان ألم الواقع.. نوع من الغيبوبة المؤقتة المريحة التي تؤجل مواجهة المشاكل إلى أجل غير مسمى وقد لاحظ الروائي الروسي الكبير فيودور ديستوفسكي أن بعض المحكوم عليهم بالإعدام عندما يقترب موعد إعدامهم يتصرفون

(*) العربي ١٢/ ٢٠٠١.

بطريقة طبيعية جدا ويطلبون مأكولات بعينها يلتهمونها بشهية وينامون بعمق وكأنهم لا يعرفون أنهم سيعدمون بعد ساعات.. هذا النزوع المرضي إلى الهرب من الأزمة هو ما يفسر في رأيي، ذلك الاهتمام المدهش الواسع الذي أثاره في مصر مسلسل «عائلة الحاج متولي».. فالمصريون يمرون هذه الأيام بفترة مظلمة في تاريخهم.. الاقتصاد منهار والبطالة متفشية وملايين الناس لا يجدون عملا ولا سكنا وأكثر من نصف المصريين يعانون من الفقر.. حتى بلاد الخليج التي كان المصريون ينزحون إليها ليوفروا دخلا معقولا أغلقت أبوابها في وجودهم. فإذا أضفنا الفساد والفشل الحكومي والانتخابات المزورة وانعدام الأمل في المستقبل والقمع الذي يحرم الناس من التعبير عن أنفسهم.. وتلك المهانة العميقة التي يحسها المصريون وهم يرون إخوانهم الفلسطينيين يذبحون كل يوم على أيدي السفاحين الصهاينة والقنابل العنقودية الأمريكية تمزق المسلمين الأبرياء في أفغانستان.. والولايات المتحدة تهزأ بالمسلمين وتدهس كرامتهم بالأحذية فتقتلهم بالآلاف ثم تلقي إليهم بإفطار رمضان وكعك العيد بل وتعلن بوضوح أنها سوف تقتل المزيد من العرب والمسلمين في الصومال والعراق وأماكن أخرى لم تحددها بعد. كل هذا يضاعف من إحساس المصريين بضآلتهم وعجزهم وكرامتهم المهدرة.. وقد استقبل المصريون شهر رمضان المعظم وهم في حزن عميق وإذا بهم بعد أسبوع واحد يتركون كل شيء ويتهكمون في مناقشة تعدد الزوجات هل يجوز أو لا يجوز.. وتعدد الزوجات لم يكن أبدا قضية ملحة في مصر فقد حسم المجتمع المصري هذا الأمر منذ فترة طويلة والمصريون يكنون احتراما حقيقيا للمرأة ولعل مصر أول بلد عربي وإسلامي تتبوأ فيها المرأة كل المناصب وترتقي في التعليم بجوار الرجل سواء بسواء والغالبية الساحقة من المصريين لا يرضون إطلاقا لبناتهم وأخواتهم أن يتزوجن رجلا على زوجته، بل إن ما يقرب من نصف الأوائل في الثانوية العامة والكليات العملية من البنات فهل يقبل أهل هؤلاء المتفوقات لبناتهن أن يصبحن يوما مثل زوجات متولي ينتظرن في المضاجعة الجنسية طبقا لجدول؟!.. (تأمل الفظاظة والسوقية التي يروج لها المسلسل) المفارقة أن معظم الشباب في مصر يتزوجون بشق الأنفس بسبب الفقر والبطالة والمتزوجون أنفسهم يعانون الأمرين من أجل إعالة أسرة واحدة.. تعدد الزوجات، إذن ليس قضيتنا إطلاقا فما الذي جعلنا نترك قضايا الوطن وتنهمك في نقاش فارغ حول الحاج متولي وحريمه..؟!.. لا أجد تفسيرا لذلك إلا أننا وقعنا في غيبوبة مريحة نتناسى بها الواقع المهين لكن الغيبوبة ليست مصادفة وإنما خطة

رسمتها الحكومة لإلهاء الناس عن مشاكلهم.. المزمنة التي تسببت فيها بغلّها وفسادها إن النظام في مصر يستعمل بعض مسلسلات التليفزيون لشغل الرأي العام بعيدًا عن السياسة.. وعندما اندلعت انتفاضة الأقصى تعاطف معها ملايين المصريين وتظاهروا بشدة تضامنا مع إخوانهم في فلسطين واعتصم الطلاب في جامعات مصر جميعًا ثم جاء رمضان الماضي فأذاع التلفزيون مسلسلا تافها آخر بعنوان «أوان الورد» فتح علينا قضية فارغة أخرى هي زواج المسيحيات من المسلمين وهذه ظاهرة نادرة جدا في مصر ولا تستحق الالتفات إليها لكنها (بتخطيط الحكومة) صارت قضية الساعة فعقدت الندوات ودبجت الدراسات لمناقشة الزواج المختلط وكأنه قضية قومية بل إن بعض الإخوة المسيحيين رفعوا قضايا ضد كاتب المسلسل مما دفع الكنيسة المصرية للتدخل وعقد الصلح وتم تبادل الكلمات الودية وهدأت النفوس والتقطت الصور التذكارية وانتهى هذا العبث بعد أن انشغل الناس طويلا عن إخوانهم الشهداء ومصير الوطن.. وهكذا.. كلما تأزمت الأوضاع المصرية والقومية، افتعلت الحكومة قضية وهمية لشغل الناس من حكاية السويركي إلى فضيحة جريدة «النبأ» إلى «أوان الورد» ثم «الحاج متولي» وللأسف فإن بعض الكتاب المحترمين تخدعهم هذه القضايا الفارغة فينجرفون إلى الجدل العقيم.. قضيتنا الآن ليست الزواج من أربع زوجات.. قضيتنا الديمقراطية والحرية والعدل وتوفير أقل شروط الحياة الإنسانية لملايين المصريين.. عندما نوفر لكل مواطن في مصر مسكنا وعملا وغذاء وعلاجا ومستقبلا آمنا.. عندئذ فقط قد نملك ترف الحديث عن تعدد الزوجات

* * *

في البلاد الديمقراطية يسمح بتكوين الأحزاب السياسية بدون قيد أو شرط وتخوض هذه الأحزاب انتخابات حقيقية ويشكل الحزب الفائز الحكومة التي يمهلها المواطنون فترة محددة لتنفيذ وعودها الانتخابية وبناء على ذلك ينجح الحزب الحاكم في الانتخابات التالية ويستمر في السلطة، أو يفشل فيختار الناخبون حزبا آخر لتشكيل حكومة جديدة.. وهكذا يتيح النظام الديمقراطي الفرصة لكل المهارات والكفاءات لتعطي أفضل ما عندها من أجل مصلحة الوطن.. أما في الأنظمة الاستبدادية فيظل الحاكم قابضا على السلطة طوال حياته وقد يورثها لأبنائه من بعده.. ومهما خلصت نية الحاكم الفرد وصدق حماسه من أجل الإصلاح فإن مجهوده محكوم عليه بالفشل لأن الاستبداد السياسي يستدعي

عدة نتائج حتمية فانفراد إنسان واحد بقرارات بلاده لا بد أن يدفعه إلى الخطأ وتكون النتيجة كوارث يدفع ثمنها الشعب، كما يولد الاستبداد طبقة من المنتفعين الفاسدين الذين يحيطون بالحاكم ويزينون له رغباته ويمتدحون كل قراراته بغض النظر عن صحتها، ويصير هذا النفاق أهم مؤهل للمناصب الكبرى.. وينتهي الأمر دائمًا باستبعاد المحترمين من أصحاب الكفاءات الحقيقية والاستعاضة عنهم بالمهجرين والانتهازيين وتكون النتيجة أن تتخبط الدولة وتفشل سياساتها.. هذا الفارق الجوهري بين الديمقراطية والاستبداد أتمنى بصدق أن يفكر فيه أهل الحكم عندنا مرة واحدة.. فالسبب في الأزمة الاقتصادية الحالية لا يكمن في قرار أو إجراء معين بل في الطريقة التي تحكم بها مصر أساسا.. فمتى يدرك حكامنا أن الإصلاح الديمقراطي هو البداية الوحيدة الصحيحة.. وكل ما عدا ذلك سوف يجر عليهم وعلينا المزيد من النكبات..؟!

* * *

في الصيف يحرص الوزراء المصريون على افتتاح المشروعات الجديدة في الإسكندرية ومرسى مطروح أما أثناء الشتاء فيفتتحون المشروعات في الأقصر وأسوان.. ولم نسمع أبدا عن مشروع قومي في الصعيد افتتحه وزير في شهر أغسطس مثلا.. وطبقا لهذه العادة ثم موجة البرد الأخيرة، ذهب رئيس الوزراء عاطف عبيد ووزير الصحة إسماعيل سلّام ليفتتحا مستشفى الأقصر العام. كان الجو في الأقصر مشمسا دافئا ورأينا على شاشات التليفزيون المستشفى في منتهى النظافة والانضباط وظهر وزير الصحة متألقا مرتاح البال وأنيقا كعادته وصرح سيادته بأن هذا المستشفى العملاق إنجاز تاريخي يعود الفضل في تحقيقه طبعا إلى توجيهات الرئيس مبارك. الأمر الذي أكده فورا رئيس الوزراء الذي بدا بتقديم الشكر والثناء للرئيس مبارك ثم صرح بعد ذلك بأنه أثناء دخوله إلى المستشفى تفقد بنفسه مريضة عجوز وسألها إن كان أي شيء ينقصها أو حتى يضايقها؟!.. فما كان من المريضة إلا أن دعت بحرارة لرئيس الوزراء بالصحة وطول العمر.. وقال الدكتور عبيد إنه لا يجد بعد هذه الدعوة الصالحة أي شك في النجاح العظيم لوزارة الصحة وبعد أيام قليلة من افتتاح مستشفى الأقصر تقدم النائب بهاء أبو الحمد ببيان في مجلس الشعب أعلن فيه أنه ما إن انتهى الاحتفال بافتتاح المستشفى وانصرف منه المسئولون حتى هجره معظم الأطباء وأكد النائب أن الرعاية الطبية في المستشفى منعدمة والمرضى يعانون من

الإهمال الشنيع وضرب مثلا بمريض بائس دخل إلى حجرة العمليات من أجل تغيير ركبته اليمنى وعندما أفاق من التخدير فوجئ بأن الجراح قد قام بتغيير الركبة اليسرى السليمة وترك له الركبة العليلة كما هي.. وهنا ثار وزير الصحة واحتد على النائب وأعلن عن وجود مؤامرة من أجل تشويه سمعة الأطباء المصريين بل وأكد سيادته أن هذا الجراح (المتهم في واقعة الركبة) من أمهر جراحي العظام في مصر والشرق الأوسط.. ثم انسحب الوزير وغادر القاعة في منتهى الغضب.. وللحق فقد تعاطفت فعلا مع الوزير فأظن أنه لا يليق بالنائب أبو الحمد أو سواه أن يتصيد بعض الأخطاء البسيطة من أجل تشويه سمعة الطب المصري، فمن المعروف علميا أن اللخبطة في نقل الركب بالذات مسألة واردة وعادية جدا.. حيث إن الركبة اليسرى تشبه اليمنى تماما فكيف يستطيع الجراح أن يميز بينهما.. بالله عليك يا شيخ؟ وفي مستشفيات وزارة الصحة ما أكثر الركب والمفاصل والغضاريف التي تم تركيبها في غير مكانها ولم يحدث شيء.. فعلام هذه الضجة الكبرى؟!.. وهل تستحق ركبة واحدة لمواطن (يمنى أو حتى يسرى) أن يهاجم النائب أبو الحمد معالي الوزير..؟..؟!.. وبالنسبة للمريض الذي استبدلت ركبته بطريق الخطأ نقول له احمد ربنا ألف مرة.. قدر ولطف والحمد لله أنك خرجت أصلا من العملية حتى ولو فسدت ركبتك السليمة كما أن الإنسان الحكيم يستطيع الاستغناء عن ركبتيه الاثنين ويعيش في سلام بدلا من العمليات والبهدلة تحية كبيرة لوزير الصحة العظيم أما السيد رئيس الوزراء فأتمنى من الله أن يحقق له دعاء المريضة العجوز ودعاء جميع المصريين أيضا.

* * *

في محاولة للتغلب على الأزمة الاقتصادية الطاحنة ومن أجل محاربة الفساد قرر السيد رئيس الجمهورية إعلان إقرارات الذمة المالية لكل الوزراء على الرأي العام ومنعهم جميعًا من الدخول في أية مشروعات تجارية أثناء توليهم الوزارة سواء بأنفسهم أو عن طريق زوجاتهم وأولادهم، كما قرر سيادة الرئيس أن يبدأ بنفسه فيعلن للشعب إقرارا بحجم ثروته الحالية هو وأولاده بل وأن يكتفي باستراحة واحدة ومقر رئاسي واحد وطائرة رئاسية واحدة ويعلن بيع بقية الممتلكات الرئاسية في المزاد العلني لصالح الشعب الذي يعاني من الفقر والبطالة.

... كل هذا وقائع حقيقية حدثت الأسبوع الماضي.. في الأرجنتين.

أفعال مبنية للمجهول(*)

حدثت هذه الواقعة في عام ١٩٧٠.

فقد وجهت الدعوة إلى قيادات الاتحاد الاشتراكي من أجل اجتماع عاجل برئاسة الأستاذ ضياء الدين داود (عضو اللجنة التنفيذية العليا) واجتمع القياديون في مكتب الأستاذ داود وهم لا يعرفون الغرض من الاجتماع، كل ما يعرفونه أنهم قد جاءوا لأمر مهم ولا يقبل التأجيل.. ووصل الأستاذ داود إلى الاجتماع ثم وجه حديثه إلى المجتمعين بلهجة جادة قائلا:

«أيها الإخوة: لقد اجتمعنا اليوم من أجل إنجاز مهمة ضرورية كلفنا بها الرئيس جمال عبد الناصر.. فبعد أيام قلائل سوف تحين الذكرى المئوية لميلاد لينين. قائد الثورة البلشفية ويجب علينا، باعتبارنا قياديين في الاتحاد الاشتراكي، أن نتخذ التدبيرات اللازمة في هذه المناسبة».

وهنا وقف أمين الاتحاد الاشتراكي في الإسكندرية وقال بحماس:

«يا فندم، نحن بحمد الله جاهزون للمهمة ونحن نتوقع طبعا شغب وبلبلة من الشيوعيين في هذه المناسبة وباعتباري مسئولا عن الإسكندرية فقد جمعت كل المعلومات عن الشيوعيين في المدينة.. أسماءهم وعناوينهم وأماكن تجمعهم وأرسلت المعلومات كلها إلى مباحث أمن الدولة حتى تتصرف معهم ونحن بهذا قد أنجزنا مهمتنا كتنظيم سياسي ويبقى دور الأمن في التعامل مع الشيوعيين يا فندم..»

(*) الأهالي ٥/ ١/ ٢٠٠٠.

ونظر الأستاذ داود إلى مسئول الإسكندرية ثم صمت لحظة وأكمل حديثة قائلا:

«يا حضرات.. الرئيس عبد الناصر كلفنا بأن نشارك في الاحتفال بعيد ميلاد لينين، الرئيس عبد الناصر يريد منا أن نثبت للصديق السوفييتي مدى الحب والتقدير الذي يكنه المصريون جميعًا للاشتراكية والاشتراكيين والدليل على ذلك أن نحتفل مع السوفييت بعيد ميلاد لينين».

وساد في القاعة صمت عميق، فالذي قاله داود على لسان عبد الناصر لم يكن أحد يتوقعه لكن مسئول الإسكندرية نفسه لم يلبث أن قام من جديد وقال بحماس:

«يا فندم نحن جاهزون تماما، وقد امتلكنا زمام المبادرة يا فندم وكل المعلومات التي جمعتها في الإسكندرية سوف تنفعنا في الاحتفال مع أصدقائنا الاشتراكيين وبإذن الله تعالى نعمل احتفالا كبيرا بمناسبة عيد ميلاد الزعيم لينين».

هذه الواقعة العجيبة وردت في مذكرات الدكتور رفعت السعيد التي صدرت مؤخرا (عن دار المدى) ولا يمكن أن تقرأها بغير أن تتوقف طويلا أمام تصرف هذا الرجل المدهش الذي لم يتحرج إطلاقا من تغيير رأيه إلى النقيض في دقائق معدودة.. وهو لم يخجل من ذلك لأنه ببساطة موظف، يرى كل واجبه في تنفيذ التعليمات (مهما كانت) بدقة وحماس إذا أراد عبد الناصر أن يعتقل الشيوعيين نعتقلهم وإذا أراد أن يحتفل بهم نحتفل بهم.. المهم أن ننفذ ما يطلبه «الرجل الكبير».. ولقد مضت على هذه الواقعة أعوام طويلة تغيرت فيها حكومات وتعاقب وزراء كثيرون لكن طريقة تنفيذ التعليمات في مصر لم تتغير.. ففي البلاد الديمقراطية يكون الوزراء سياسيين حقيقيين ينتخبهم الشعب لتحقيق سياسات معينة ومن هنا يسارع الوزير الديمقراطي بالاستقالة من الحكومة عندما يفقد اقتناعه بتوجهاتها (ولعلنا نذكر في حرب الخليج كيف استقال وزير الدفاع الفرنسي اعتراضا على دخول فرنسا الحرب) والوزير الذي يستقيل هناك يحافظ بذلك على ثقة الناخبين فيه وبالتالي على مستقبله السياسي وهو يعلم أنه يترك الوزارة اليوم وسوف يعود إليها غدا، في أول انتخابات عامة ومن هنا يدافع عن رأيه بشجاعة ووضوح، أما الوزراء في مصر فهم مجرد موظفين لم ينتخبهم أحد لكن الرئيس يعينهم ويقيلهم لأسباب يعلمها هو وحده ولا يعلمها الناس، ومن هنا فإن ولاء الوزراء في مصر يكون فقط للرئيس وهم يعتبرون أنفسهم منفذين لا أكثر لتعليمات الرئيس وتوجيهاته،

بل إن كثيرًا من هؤلاء الوزراء لم يمارسوا العمل السياسي إطلاقا قبل توليهم مناصبهم وكثير منهم كانوا اشتراكيين عندما كانت الدولة الاشتراكية فلما تحول النظام إلى الانفتاح صاروا دعاة متحمسين للخصخصة واقتصاد السوق وهم في كل الأحوال ينفذون ما يطلب منهم فورا حتى ولو خالف ذلك قناعتهم الشخصية.. (وهل يغامر وزير بمناقشة الرئيس في تعليماته؟! وماذا لو غضب الرئيس منه؟ ماذا يصنع حينئذ؟!) والحق أن إدارة البلاد بهذه الطريقة لها نتائج وخيمة فيكون على الرئيس وحده أن يتخذ القرارات جميعًا في كل شيء بدءا من العلاقات الدولية حتى سياسات التموين، والرئيس مهما تكن قدراته بشر يخطئ ويصيب وهو يحتاج إلى من يناقشه ويراجعه قبل أن يتخذ قراره وخصوصا لو كان القرار يؤثر في مصير شعب بأسره.. ولكن هيهات لأن الوزير في بلادنا ليس منصبا سياسيا وإنما وظيفة تنفيذية وما يحدث هذه الأيام يؤكد ذلك. فقد تبنت الحكومة المصرية من فترة عدة مشروعات أسمتها «المشروعات القومية الكبرى» ورصدت لها مليارات الجنيهات من أموال المصريين (الذين يعاني أكثرهم من الفقر والمرض والبطالة) وقد تنافس الطبالون والزمارون في الإشادة بهذه المشروعات الجبارة بل إن الضجة التي صاحبت مشروع توشكى مثلا لم تصاحب مشروعا آخر فقد عقدت اللقاءات الموسعة للإشادة بتوشكى واستدعي الخبراء الكبار ليشرحوا لنا أنواع الخيرات التي سوف تنهمر علينا من توشكى وعندما اعترضت بعض الأصوات المخلصة المتخصصة على المشروع تم إسكاتها فورا واتهم المعارضون جميعًا بالحقد والجهل.. بل إن أحد أساتذة التاريخ ظهر في التليفزيون ليعلمنا كيف ننطق كلمة توشكى بالطريقة الصحيحة.. وقد ذهب إلى زيارة توشكى والاحتفال بها كل الناس تقريبا: مسئولون حكوميون ورجال أعمال وصحفيون وممثلون ولاعبو كرة وشعراء وراقصون شعبيون.. وأقيمت الاحتفالات الساهرة ودبجت الأناشيد والقصائد وقدمت الاستعراضات الغنائية المرحة من أجل توشكى الخضراء بل إن الشركة الوطنية للدخان أنتجت نوعا جديدا من السجائر أسمته توشكى تبركا بالمشروع الخالد (وإن كان البعض اعترض على أن يطلق اسم توشكى الحبيبة على مجرد علبة سجائر صغيرة ومضرة بالصحة أيضا).. واستمرت الاحتفالات على قدم وساق حتى أقيل الدكتور كمال الجنزوري فجأة. وبدأت حملة شرسة في الهجوم على الجنزوري، الذين يهاجمون الجنزوري اليوم كانوا أكبر منافقيه بالأمس ولكن الوضع تغير فلا بد أن يتغيروا وقد نما إلى علم المسئولين أن الرئيس مبارك يراجع بعض التقارير عن توشكى

ففهموا أن الرئيس قد أعاد النظر في المشروع فما كان منهم إلا أن هاجموا توشكى بنفس الحماس الذي هللوا به لها من شهور فالمشروع التاريخي في رأيهم صار «عبئا على خزانة الدولة» و«خطوة متسرعة من الجنزوري». ولم يلبث الرئيس مبارك أن أعلن أنه ما زال متحمسا لتوشكى عندئذ.. سكتت الجوقة لحظة ثم عزفت من جديد نشيد التحية لتوشكى.. والأمر بهذه الطريقة لم يعد يحتمل فلا يمكن أن تدار بلد كبير وعريق مثل مصر بمجموعة من الموظفين منفذي التعليمات ومن البديهي أن مثل هؤلاء لا يمكن أن يحققوا أي إنجاز حقيقي والطريق الوحيد لمستقبل بلادنا هو تحقيق الديمقراطية الفعلية: انتخابات حرة وبرلمان منتخب ووزراء سياسيون وطنيون وحريات سياسية كاملة وإلغاء قوانين الطوارئ.. هذه، وحدها، شروط النهضة في مصر إلى أن تتحقق الديمقراطية.. سوف نظل جميعًا في انتظار تعليمات الرئيس.

* * *

عندما صدر القانون ٩٣ الذي يؤدي إلى حبس الصحفيين اعترض عليه المثقفون بشدة وصرح مسئول كبير عندئذ ليطمئن المعترضين قائلا: «لا تخافوا.. القانون صدر صحيح لكنه نائم ولن نوقظه أبدا» وقالت لي صحفية صديقة تعمل في جريدة أجنبية إنها تعبت جدا في ترجمة هذه العبارة للإنجليزية، إذ كيف يفهم مواطن أجنبي في دولة ديمقراطية أن القانون ينام ويصحو؟! لكنها للأسف عبارة مصرية صحيحة فالقانون في بلادنا يستعمل فقط حين يراد استعماله (ويراد فعل مضارع مبني للمجهول) والدليل على ذلك ما يحدث الآن مع السيد ماهر الجندي الذي تجرى معه تحقيقات موسعة بتهمة الفساد والرشوة والصحف تتسابق كل يوم في اتهام الجندي بوقائع مشينة للغاية لو صحت يكون السيد الجندي مرتشيا من طراز نادر فهو لا يكتفي بالرشاوي المالية لكنه أيضا لا يمانع في أن يقبض الرشوة في أشكال عينية متواضعة جدا مثل بدلة جاهزة أو قطعة صوف إنجليزي أو حتى أكلة «كباب وكفتة» يوقع بعدها السيد المحافظ على الأوراق المطلوبة. والسؤال هنا.. لقد تولى ماهر الجندي أكبر المناصب في الدولة فكان محاميا عاما ثم محافظا للغربية وبعدها الجيزة فهل تبوأ الجندي هذه المناصب باستعمال القوة المسلحة أم إنه اختير بالاسم لهذه المناصب (وهنا فعل آخر مبني للمجهول)؟ ألا يتحمل الذين اختاروه مسئولية تمكين رجل مثله من رقاب ملايين الناس وأرزاقهم؟! وسؤال آخر:..

هل ارتكب ماهر الجندي كل هذا في يوم وليلة أم إنه ظل يخالف القانون أعوام طويلة قدمت خلالها الأجهزة الرقابية ضده عشرات التقارير التي تم تجاهلها؟! لمصلحة من تم تجاهل هذه التقارير؟! ومن يضمن لنا ألا يكون بين كبار المسئولين الآن من هو مثل الجندي لكن التقارير الرقابية ضده يتم تجاهلها لسبب ما؟! الحق أن محاكمة المسئولين بتهمة الفساد في بلادنا قرار سياسي. وليس إجراء جنائيا، وفي النظام الديمقراطي يحاكم أي مسئول فاسد بمجرد اكتشاف فساده أما في مصر فإن المسئول الفاسد يعاقب عندما «يراد» عقابه..!! لماذا يراد عقابه اليوم وقد تم تجاهل فساده بالأمس؟!.. ولماذا لم يعلن كل عام عن الذمة المالية للوزراء والكبراء ومخصصاتهم المالية حتى يتأكد للرأي العام نظافة يدهم؟!.. بل ولماذا لا تعلن التقارير الرقابية ضد المسئولين ويؤخذ بها فورا؟!.. كلها أفعال مبينة للمجهول.

ظاهرة محيرة:

المتهمون في بلادنا صاروا ينتحرون في أقسام الشرطة فلا يمر شهر بغير أن يعلن عن انتحار متهم في حجرة المباحث أثناء التحقيق معه؟! إنها ظاهرة محيرة حقا وأنا أدعو علماء الاجتماع لدراستها؟ لماذا ينتحر المتهمون بهذه الأعداد الكبيرة وهم في ضيافة الشرطة التي هي في خدمة الشعب؟ إننا نعرف ـ جميعًا ـ أن ضباط المباحث العامة (وزملاءهم الأفاضل في مباحث أمن الدولة) يعاملون المتهمين بمنتهى اللطف والكياسة فماذا يدفع المتهمين إلى إلقاء أنفسهم من النوافذ والشرفات؟!.. هل يوجد في حجرات المباحث منظر معين حزين ومقبض مثلا يدفع الناس إلى الانتحار أم إن معاملة الضباط الرقيقة تؤثر في نفسية المتهمين فتجعلهم يشعرون بتأنيب الضمير على جرائمهم مما يدفعهم إلى الانتحار تخلصا من عقدة الذنب.

غاسلو الصحون.. شقاء بلا ثمن(*)

خلال حياته القصيرة (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) عاش الكاتب البريطاني چورچ أورويل في فقر بالغ، كثيرا ما جعله يتضور جوعا، وفي مدينة باريس اضطر أورويل للعمل كغاسل صحون في أحد الفنادق فقد سجل هذه التجربة في كتابه «متشردا في لندن وباريس» وهو يصف في الكتاب طائفة غاسلي الصحون هؤلاء البؤساء الذين يعملون من السابعة صباحا حتى منتصف الليل في أقبية قذرة مظلمة وخانقة ويخضعون دائمًا لقمع صاحب العمل واستغلاله، وهم يجهدون أنفسهم في غسيل الصحون طوال اليوم مقابل أجر قليل، يفي بالكاد بثمن الطعام ويلاحظ أورويل أن غاسلي الصحون هؤلاء يعاملون بعضهم بعضًا بمنتهى الشراسة والوقاحة وهم لا ينقطعون أبدا عن التشاجن والتشاجر وتبادل الشتائم المقذعة، ويحلل أورويل هذا السلوك العدواني لغاسلي الصحون، فلا يرجعه إلى الفقر ولا ظروف العمل الشاق لكنه يعزو شراستهم البالغة إلى فقدان أملهم في التغيير إلى الأفضل، إن حياتهم تسير بلا هدف ولا آفاق. فهم يعملون ويأكلون وينامون ثم يعملون من جديد ولا يشعرون بأي أمل في تحسن الأحوال، وحالة الإحباط هذه تخرج من نفوسهم أسوأ ما فيها من مشاعر الشر والحقد والكراهية.. وملاحظة أورويل في رأيي تنسحب على الأفراد والشعوب جميعًا، فأي شعب في الدنيا سوف يتحمل الفقر إذا شعر بأن حكومته عادلة، وسوف يتحمل الفقر والظلم إذا أحس بأن ثمة مهمة وطنية كبرى عليه أن يؤديها لبلاده. أما إذا تأكد للناس أن شقاءهم بلا ثمن ولا هدف ولا نهاية، فإن إحساسهم بالهوان والهزيمة يدفعهم حتما إلى التناحر والكراهية، في هذا السياق، أولًا، علينا أن نفهم ما حدث مؤخرا في واقعة «الكشح» المحزنة.. فالأسباب ليست كما تصورها

(*) الأهالي ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٠.

الحكومة مشاجرة عابرة أو خلافا على أكشاك ومتاجر، ولا ترجع فقط إلى تقاعس أجهزة الأمن أو تجاوزها عن الحق، والمؤكد أن تغيير اسم الكشح إلى «مدينة السلام والمحبة» لن يفيد كثيرا (وإن كان يقدم نموذجا للطريقة الهزلية التي تتعامل بها الحكومة المصرية مع المشاكل الجادة).. إن التعصب الكريه الذي ظهر في الكشح كان نتيجة حتمية لحالة الإحباط التي يعاني منها ملايين المصريين الذين يخوضون كل يوم قتالا مريرا وغير عادل، من أجل انتزاع رزق قليل يكفيهم وأولادهم بالكاد، وهم يعانون مع ذلك من الفقر والبطالة والقمع اليومي من أجهزة النظام، ويشاهدون أمامهم مئات من النصابين واللصوص والمسئولين الفاسدين ينعمون بالملايين من مالهم الحرام، فلا يحاسبهم أحد على جرائمهم، بل وكثيرا ما يحظون بالتقدير والتكريم. إن المصريين محرومون من حقهم الطبيعي في اختيار من يحكمهم أو حتى من أدنى مشاركة في تقرير مصيرهم. وقد فقدوا الشعور بالعدل وبجدوى أي مشروع وطني حقيقي يستطيعون إنجازه.. وفي مثل هذا الإحباط لا يمكن أن نتوقع منهم التحلي بمكارم الأخلاق، فالإحباط يولد دائمًا سلوكا عدوانيا كما يؤكد علماء النفس.

والقارئ لتاريخ الحوادث الطائفية في مصر لا بد أن يستوقفه تشابه الظروف العامة التي حدثت فيها.. فقد وقعت خلافات بين المسلمين والأقباط في الإسكندرية والخانكة عام ١٩٧٢ وفي أسيوط وسمالوط في عام ١٩٧٧ وفي مصر كلها عام ١٩٠٨.. أما في عام ١٩٧٢ فكان المصريون مهزومين وأرضهم محتلة بلا أمل في تحريرها. وفي عام ١٩٧٧ كان السادات يستعد للصلح مع إسرائيل بعدما أطلق في مصر نظام الانفتاح الذي تسبب في إفقار ملايين المواطنين. أما في عام ١٩٠٨ فكانت مصر قد وقعت تحت الاحتلال البريطاني ويئس المصريون أو كادوا من إخراج الإنجليز من وطنهم ووسط حالة الإحباط العام ظهرت دعاوى في غاية التعصب من المسلمين والأقباط معا وظلت الفتنة مستمرة حتى عام ١٩١١ عندما عقد الأقباط المؤتمر القبطي في أسيوط الذي أعلنوا فيه ما سمي آنذاك بـ«المطالب القبطية» وقد رد المصريون المسلمون على هذا المؤتمر بمؤتمر آخر أسموه المؤتمر المصري (الإسلامي) وظلت الخلافات الدينية مشتعلة ولعبت بريطانيا كالعادة دورا كبيرا في إذكائها بدعوى (حماية الأقباط المضطهدين) حتى اندلعت ثورة ١٩١٩ فماذا حدث؟.. انصهرت مشاعر الأقباط والمسلمين معا.

وشعر المصريون جميعًا بأنهم مواطنون أحرار يقررون بالثورة مصير وطنهم. فظهرت

طبيعتم النبيلة بل إن كثيرا من رموز الفتنة الطائفية في ذلك الوقت مثل الشيخ عبد العزيز جاويش وقرياقس ميخائيل مراسل صحيفة الوطن في الإسكندرية وتادرس شنودة المنقبادي صاحب صحيفة مصر.. وغير هؤلاء كثيرون كانوا من دعاة التعصب. فلما قامت الثورة تحولوا إلى الدعوى للتسامح الديني والوقوف صفا واحدا من أجل تحقيق الاستقلال. بل إن القمص الشهير مرقص سرجيوس الذي ملأ الدنيا بالحديث عن مظالم الأقباط تحول بمجرد قيام الثورة، إلى واحد من أكبر زعمائها المناهضين للاحتلال والمدافعين عن الوحدة الوطنية. وأخذ سرجيوس (القبطي المتطرف سابقا) يلقي خطبه الوطنية في آلاف المصلين في الجامع الأزهر وعندما أعلنت بريطانيا أنها تبقى في مصر من أجل حماية الأقباط رد عليها القمص سرجيوس من على منبر الأزهر قائلا: «إذا كان الإنجليز يتمسكون باحتلال مصر من أجل حماية الأقباط فأنا أقول لهم: فليمت القبط وليعش المسلمون أحرارا». بل إن الروح الوطنية بلغت حدا جعل الأقباط يرفضون أية امتيازات سياسية يختصون بها دونا عن المسلمين فرفض زعماء القبط أثناء الإعداد لدستور ١٩٢٣، تخصيص مقاعد محددة في البرلمان من أجل الأقباط وقالوا في تفسير ذلك «قد يكون الأقباط أقلية دينية في مصر لكنهم بالتأكيد ليسوا أقلية سياسية في نظام وطني ديمقراطي».. هذه هي الروح التي يقدمها المصريون في حالات المد الوطني عندما يشعرون بأنهم مواطنون حقيقيون يشاركون في بناء وطنهم وتقرير مصيره أما عندما يحبطهم القمع والظلم والفساد عندئذ تعلو الدعاوى الطائفية والدرس الذي يجب على النظام أن يعيه من أحداث الكشح هو أن الوضع الاجتماعي في مصر قد بلغ أقصى توتره بما ينذر بعواقب وخيمة إذا لم تعالج أسبابه ولا يمكن أن يبدأ الإصلاح الجاد إلا بتحقيق ديمقراطية حقيقية، بعيدًا عن تزوير الانتخابات وقوانين الطوارئ واحتكار السلطة عندئذ فقط، نعالج الأسباب الحقيقية لأحداث الكشح..

عن الانتخابات المضبوطة:

صرح السيد «كمال الشاذلي»، زعيم أغلبية الحزب الوطني في مجلس الشعب بأن خبراء الحكومة عاكفون الآن على صياغة تشريعات جديدة تهدف إلى «ضبط» الانتخابات في مصر بحيث تكون في منتهى «الشفافية والنزاهة» وهذا التصريح يعطي الانطباع بأن تنظيم الانتخابات بطريقة سليمة مسألة في منتهى الصعوبة تحتاج إلى جهد الخبراء المتخصصين

والموضوع أبسط من هذا بكثير فالطريقة الوحيدة لعمل انتخابات سليمة في مصر هي أن تمتنع الحكومة عن تزويرها فالانتخابات في مصر تتم دائمًا تزويرها لصالح الحزب الوطني وهذه حقيقة يعرفها الصغار والكبار. الناس لا يذهبون للإدلاء بأصواتهم لأنهم يعرفون النتيجة سلفا، وبطاقات الانتخابات تسدد لصالح الحزب الوطني بمعرفة المشرفين على اللجان الانتخابية وكثيرا ما تستعين الحكومة بأسماء المواطنين الموتى في التزوير. وقد صدرت أحكام قضائية كثيرة تؤكد تزوير الانتخابات الأخيرة وبالتالي فإن مجلس الشعب الحالي غير شرعي لكن الحكومة لا تنفذ أحكام القضاء إذا كانت تهدد مصالحها ونحن نشكر للأستاذ كمال الشاذلي وخبرائه الانتخابيين جهودهم الكبيرة، لكن ما يتمناه المصريون فعلا أن يقلع الأخ الشاذلي عن هوايته في «ضبط» الانتخابات.. ولو مرة واحدة.

بين رئيس الوزراء.. والفقراء:

في خطته «الطموحة المتكاملة» للقضاء على الفقر..!! كلف الدكتور عاطف عبيد حكومته بإحصاء المصريين الذين يكسبون أقل من عشرين جنيهًا شهريا أي الذين لا يكسبون شيئًا على الإطلاق، ويعيشون هكذا بالصدفة ووفقا للظروف.. وقد وجدت الحكومة أن مليون أسرة أي ما يقرب من خمسة ملايين مصري يعيشون على هذا الحال.

وقد أمر رئيس الوزراء بصرف مبلغ خمسين جنيها شهريا لهؤلاء المعدمين (وهذا مبلغ كبير كما ترى) والغريب أن رئيس الوزراء لم تستوقفه كثرة أعداد المعدمين فإذا كان خمسة ملايين مواطن لا يكسبون شيئًا فلا شك أن الفقراء (الذين يكسبون أقل من احتياجاتهم) يبلغ عددهم أضعاف المعدمين. ومثل هذه المحنة لن يحلها صرف خمسين جنيها شهريا. فملايين الفقراء يعانون من الشقاء نتيجة لسياسات اقتصادية ظالمة وفاسدة تسببت في إفقارهم. وما لم تتبع الحكومة سياسة عادلة نحوهم فإن الحلول المؤقتة قد تؤجل الانفجار لكنها بالتأكيد لن تمنعه.

لماذا تتوالى علينا الكوارث؟(*)

في أقل من شهر، توالت على مصر مجموعة من الكوارث.. احترق ألف مواطن على الأقل في قطار الصعيد وهم محشورون كالبهائم في عربات مغلقة عليهم بأسياخ الحديد.. ثم انهارت عمارات عديدة في محافظات مختلفة على رءوس سكانها وتعاقبت بعد ذلك كوارث مترو مدينة نصر وقطار إيتاى البارود وقطار أسوان وتسمم مئات التلاميذ في المنصورة ولا زلنا بالطبع نذكر كارثة العبارة سالم إكسبريس وانهيار عمارة الحاجة كاملة على سكانها وخروج قطار كفر الدوار ليدهس عشرات المارة في الشارع وغير ذلك كثير.. وفي كل بلاد العالم تحدث من حين لآخر حوادث مؤسفة يذهب ضحيتها بعض المواطنين لكن الكوارث التي تنهال علينا في مصر لا يمكن أن نجدها في بلد آخر.. كوارث رهيبة تقتل مئات المواطنين كل عام حتى صار عدد شهداء الكوارث في الأعوام القليلة الماضية لا يقل عن شهدائنا في أي حرب خضناها.. وفي أعقاب كل كارثة تسارع الحكومة كالعادة بتشكيل لجان وفتح تحقيقات ويدلي كبار المسئولين بتصريحات تتوعد المتسببين في الكارثة وتعد المواطنين بالإصلاح الكامل وربما أدت فداحة الكارثة إلى تغيير وزاري محدود كما حدث في الأسبوع الماضي.. ولكن هل تؤدي هذه الإجراءات إلى منع الكوارث في المستقبل..؟! الإجابة طبعا بالنفي ونفس الكلام الذي يقولونه اليوم سمعناه بعد كل كارثة تسببوا فيها بفشلهم وفسادهم.. مجرد شعارات فارغة عن تشديد الإجراءات وتحقيق الانضباط لا تتحقق أبدا، وقد نشرت الصحف تحقيقات عن قطارات الصعيد بعد الحادث المروع بأيام فتبين أن الأسباب التي أدت إلى كارثة القطار المنكوب لا زالت كما هي.. وكل كارثة جديدة تكشف عن إهمال يصل إلى حد الإجرام في مرافق

(*) العربي ١٧/ ٣/ ٢٠٠٢.

الدولة المختلفة فالذين احترقوا في قطار الصعيد تم إلقاء جثثهم وكأنها أكياس قمامة على أرض مشرحة زينهم واستخسرت فيهم الحكومة ثمن التحاليل الطبية التي تكشف عن شخصياتهم فلم يستطع معظم أهالي الضحايا التعرف على جثث أبنائهم وإخوتهم، وحتى أثناء الجنازة الجماعية لم ترحمهم الحكومة فتعرض أقارب الضحايا للضرب على أيدي جنود الأمن المركزي.. ولا يمكن أن يصدق أحد ما حدث في دمياط عندما انهار عقار على رءوس الناس فاستنجدت فتاة من تحت الأنقاض بشرطة النجدة عن طريق تليفونها المحمول فإذا بضباط النجدة يرفضون إنقاذها لأنها لا تتحدث من تليفون منزلي غير محمول!!.. وفي مدينة نصر انطلق المترو بدون السائق (الذي تركه عند انقطاع التيار ليقضي مصلحة!!) مما تسبب في قتل وإصابة العديد من المواطنين بينهم طفلة صغيرة احترق جسدها وعندما هرع بها أهلها إلى معهد الحروق رفض الأطباء هناك علاجها أو حتى استقبالها !!.. أما أطفال المنصورة الذين تسمموا (للمرة الثالثة على التوالي) من أكل بسكويت وزارة التعليم فقد رفضت مستشفيات وزارة الصحة استقبال كثير منهم واضطر أهلهم إلى علاجهم على نفقتهم.. كل هذه الصور البشعة للاستهانة بحياة الناس تؤكد أن الأوضاع في مصر قد تدهورت إلى درجة فادحة صارت معها أجهزة الدولة عاجزة بمعنى الكلمة عن أداء وظيفتها في حماية المواطنين.. هذا الانهيار الحكومي الشامل لن يتم إصلاحه بتغيير مدير أو وزير لأن السبب وراء هذه الكوارث ليسوا الأشخاص وإنما الطريقة التي تحكم بها الدولة، إن احتكار الحزب الوطني الأبدي للحكم وتزوير الانتخابات وتعيين المسئولين بناء على ولائهم للنظام بغض النظر عن كفاءتهم كل ذلك أدى إلى إعطاء المناصب إلى غير مستحقيها واستبعاد الكفاءات الحقيقية عن مواقع المسئولية كما أدت سيطرة الحزب الوطني بالتزوير على مجلس الشعب إلى تعطيل وظيفته الرقابية والتشريعية معا حيث يوافق نواب الحكومة فورا على كل ما تريده الحكومة، وبالتالي انعدمت الرقابة على الوزراء مما أدى إلى تفشي الفساد والكذب على الرأي العام والاستهانة بأرواح الناس لأنه ما دام الوزير يتمتع بالرضا السامي فلا شيء يؤرقه حقا مهما كان عدد الأرواح التي تسبب في إزهاقها، بإهماله، والوزير في النظام المصري ليس رجل سياسة جاء بإرادة الناخبين كما يحدث في البلاد الديمقراطية وإنما هو في الواقع مجرد موظف عند رئيس الدولة همه الوحيد إرضاؤه بتنفيذ تعليماته والإشادة بحكمته في كل مناسبة.. إن الكوارث المفجعة التي تنهال علينا هي في الواقع

إنذار (ربما يكون الأخير) لأهل الحكم في بلادنا حتى يغيروا من طريقتهم في الحكم.. إن تطبيق الديمقراطية الحقيقية وتداول السلطة وعمل انتخابات نظيفة تأتي بمجلس شعب حقيقي.. هي الطريقة الوحيدة للإصلاح وغير ذلك عبث في عبث.

* * *

أثناء موسم الحج الأخير، أصيب حاج مصري بالتهاب رئوي حاد وساءت حالته حتى أخذ يتقيأ دما، وهرع به زملاؤه الحجاج إلى سيارة الإسعاف المخصصة للبعثة المصرية فإذا بسائق الإسعاف يرفض نقل المريض ويصيح في الناس:

«أنا مش شغال عند حد».

ثم أخرج السائق طعام الغداء من السيارة وجلس يأكل باستمتاع بينما المريض يتلوى غارقا في دمائه وعندما بحث الحجاج عن رئيس البعثة ولم يجدوه كما لم يجدوا أحدا من الأطباء الذين يفترض أن واجبهم رعاية المرضى ولم ينقذ المريض المصري البائس إلا أجهزة الإسعاف السعودية.. أما السادة ضباط الشرطة الذين سافروا مع البعثة لحمايتها فقد قاموا بطرد الحجاج من الغرف المكيفة بالفندق وأرغموهم على النوم كل أربعة حجاج في حجرة واحدة وذلك حتى يستأثر كل باشا من الضباط مع زوجته بغرفة مكيفة على حساب الشعب المصري المسكين بل إن عقيد شرطة أرغم الحجاج على النوم في طرقات الفندق ليستمتع سيادته مع زوجته بالإقامة في جناح فاخر كما قام سيادة العقيد بالاستيلاء على الغسالة الوحيدة في الفندق لحسابه ورفض أن يستعملها معه أي شخص من الحجاج البؤساء.. هذه الوقائع المذهلة التي ذكرها الأستاذ أسامة داود في العدد الماضي من جريدة «العربي» بقدر ما تصدمنا لا بد أن تدفعنا إلى التأمل.. فذلك الاستهتار بحياة المصريين والتعدي على أبسط حقوقهم الإنسانية ليس جديدا لكن الجديد والغريب أن تقترف هذه الجرائم في موسم الحج فالسائق الذي رفض إسعاف المريض والضابط الذي طرد الحجاج من حجرتهم لينام فيها ورئيس البعثة الذي تركها واختفى بمجرد وصوله، كل هؤلاء كانوا يؤدون مراسم الحج فلم يؤنبهم ضميرهم الديني لحظة واحدة، ولم يساورهم أدنى شك في أن الله سيتقبل حجهم برغم ما يفعلونه أي أنهم لا يعتبرون تقاعسهم عن واجبهم الإنساني أو المهني مؤثرا في نقاء إسلامهم.. هذا الانفصال بين شعائر الدين والسلوك ظاهرة مؤسفة استفحلت في المجتمع المصري.. ولا أظن المصريين طوال

تاريخهم كانوا أحرص على أداء شعائر الإسلام مما هم اليوم.. فالمساجد مكتظة بالمصلين ولا يخلو مكتب حكومي واحد من زاوية للصلاة ومعظم المصريين يصومون ويسعون جاهدين لأداء الحج والأثرياء منهم يؤدون العمرة أكثر من مرة وأحيانا كل عام وبالرغم من انتشار مظاهر التدين فقد انحدرت الأخلاق الاجتماعية إلى أدنى مستوى حتى صار الكذب والغش والنفاق والتعدي على حقوق الناس أنواعا مألوفة من السلوك اليومي.. ما السبب في انتشار هذا التدين الكاذب..؟! وما علاقته بالاستبداد السياسي..؟ سؤال أفكر فيه كثيرا وأتمنى أن أجد إجابة..

* * *

منذ أسبوعين كاملين وصورة الشيخ عطية صقر تتصدر معظم الصحف ووسائل الإعلام والسبب أن فضيلته توصل أخيرا إلى فتوى مهمة للغاية مفادها أن مصافحة الرجال للنساء حرام لأنها تدفع المسلمين إلى الزنا.. وقد أصر الشيخ عطية على فتواه وكررها وعندما قيل له إن الإمام العظيم أبو حنيفة أباح المصافحة غضب الشيخ عطية وقلل من أهمية أبي حنيفة في الفقة الإسلامي!!.. وفتوى الشيخ عطية نموذج مؤسف للدعاوى المتخلفة التي يطلع بها علينا بعض المشايخ من ذوي الاتجاهات السلفية. فالمرأة عندهم ليست إلا مطية جنسية ولا يمكن أن يفكروا فيها على نحو آخر، والرجل عندهم لا بد أن يشتهي أية امرأة بمجرد أن يراها حتى لو كانت زميلته في العمل أو طبيبته التي تعالجه أو حتى أستاذته في الجامعة لا فرق، بمجرد أن يصافحها الرجل سوف يتهيج جنسيا وقد يقفز عليها ليجامعها فورا!!

والحق أن الرجال والنساء في مصر يختلطون في الحياة اليومية منذ عشرات السنين ويتصافحون باحترام فلا يقفز الرجل ليغتصب المرأة كما يتوهم شيخنا الجليل بل إن المصريين من أكثر الشعوب الشرقية احتراما للمرأة ومصر أول بلد عربي إسلامي يمنح للمرأة حقوقها في التعليم والعمل.. وقد سئل الشيخ عطية عن السبب في اختياره لهذا التوقيت بالذات لإطلاق فتواه فأجاب بأنه قد تقدمت به السن ويخشى أن يلقى ربه بغير أن يحذر المسلمين من ذنب المصافحة.. وأنا واثق طبعا من أن الشيخ عطية لا يخاف في الحق لومة لائم (كما يؤكد هو بنفسه) ومن هنا أتمنى أن يفتينا فضيلته في بعض القضايا التي تهم المسلمين ما رأي الإسلام مثلا في الحاكم الذي يمنع شعبه من نصرة المسلمين الذين يذبحهم الصهاينة كل يوم في فلسطين؟!.. وما حكم الدين في

تزوير الانتخابات واعتقال المعارضين السياسيين وتعذيبهم ببشاعة..؟! وهل يسمح الإسلام باغتصاب السلطة وتوريثها للأنجال؟!.. كل هذه قضايا نتمنى أن يسمعنا الشيخ عطية الشجاع رأيه فيها.

وقفات:

* أصدر الدكتور جلال أمين كتابا جديدا يشرح فيه بأسلوب واضح ومبسط السياسة الاستعمارية الظالمة للبنك الدولي، الكتاب عنوانه «كشف الأقنعة عن نظريات التنمية». أتمنى أن يقرأه المصريون جميعًا ليفهموا أبعاد المصيبة التي أوقعنا فيها المسئولون عنا بانصياعهم وتخاذلهم.

* في عهد أنور السادات.. كتب الدكتور محمد حلمي مراد مقالا شهيرا بعنوان «ما الصفة الدستورية لنشاط السيدة حرم رئيس الجمهورية.؟!..».

.. رحم الله الدكتور محمد حلمي مراد.

* نشرت هيئة الإذاعة البريطانية تقريرا خطيرا ذكرت فيه أن ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكي قد التقى بالقوات الأمريكية المتمركزة في مصر وخطب فيهم ليحثهم على الاستعداد لضرب العراق.. وهنا نسأل هل يوجد قواعد أمريكية في مصر..؟!.. وأين هي..؟! ولماذا لم يعرف الشعب المصري بها من قبل..؟ وهل يجوز أن تستعمل هذه القواعد في ضرب العراق هل نقبل أن تنطلق الطائرات الأمريكية من مصر لتقتل أهلنا في العراق..؟

.. كل هذه الأسئلة من يجيبنا عليها..؟

* يبلغ الرئيس روبرت موجابي من العمر ٧٨ عاما ـ أمده الله بالصحة والعافية ـ وهو يحكم بلده زيمبابوي منذ أكثر من عشرين عاما.. ومنذ أيام قام موجابي بتزوير الانتخابات ليستمر في الحكم، وقد صرح مواطن غاضب من زيمبابوى للصحافة العالمية لماذا يريد الرئيس موجابي أن يحرم الشعب من حقه الطبيعي في اختيار حاكمه ألا تكفيه كل هذه السنوات في الحكم؟

أخي المواطن الغاضب من زيمبابوي.. صدقت والله..

هل تخافون علينا أم على عروشكم؟!(*)

عندما تولى إدولف هتلر قيادة ألمانيا وبدأت الجيوش النازية في الاعتداء على أوروبا، تباينت ردود الفعل داخل بريطانيا حول الأسلوب الأمثل للتعامل مع النازي، فكان نيفيل تشمبرلين (رئيس الوزراء آنذاك) متمسكا باستمرار السلام مع ألمانيا النازية بأي ثمن وأخذ يردد كلاما كثيرا عن بشاعة الحرب وعدم إنسانيتها وأن طاقة الأمة البريطانية ينبغي أن توجه إلى البناء والرخاء وليس إلى الهدم والدمار.. إلى آخر هذا الكلام وعلى النقيض من ذلك وقف الزعيم ونستون تشرشل يحذر الحكومة البريطانية من الاستسلام لأوهام السلام الزائف ويدعوها للاستعداد الجدي للحرب مع ألمانيا النازية التي لا تعترف إلا بلغة القوة وبالتالي فكل معاهدات السلام معها تظل بلا قيمة لأنها سوف تخرقها بمجرد أن تتاح لها الفرصة.. على أن سياسة مهادنة ألمانيا ظلت سائدة في بريطانيا حتى أفاق البريطانيون على جيوش النازي وقد ابتلعت أوروبا بلدا بعد الآخر ثم هاجمت بريطانيا نفسها وفي عام ١٩٤٠ استقال نيفيل تشمبرلين وانتخب البريطانيون ونستون تشرشل رئيسا للوزراء وألقى في البرلمان خطبته الشهيرة التي قال فيها لشعبه «ليس لديَّ ما أقدمه لكم إلا العرق والدم والدموع.. إنه قدرنا أن نحارب لندافع عن بلادنا وحريتنا وإنه لقدرنا أيضا أن ننتصر..» واستطاع تشرشل العظيم بشجاعته وحكمته أن يقود بريطانيا وحلفاءها إلى النصر النهائي. والطريف أنه بعد كل هذه الأمجاد التي حققها لبلاده سقط تشرشل في أول انتخابات أجريت في بريطانيا بعد الحرب لأن الناخب البريطاني فضل أن يختار لمرحلة ما بعد الحرب رئيس وزراء جديد بأفكار جديدة.

(*) العربي ٧/ ٤/ ٢٠٠٢.

الدروس التي نتعلمها من هذا التاريخ كثيرة فالصهاينة كالنازيين لا يفهمون إلا القمع والقتل والتوسع وبالتالي علينا ألا نثق أبدا في تعهداتهم لأن إسرائيل التي خرقت كل الاتفاقات التي وقعتها مع الفلسطينيين ليس هناك ما يمنعها من خرق معاهدة كامب ديفيد ومهاجمة مصر في أول فرصة سانحة ولكن شتان للأسف بين الطريقة التي قاد بها تشرشل أمته وذلك العجز المشين الذي يتخبط فيه حكامنا العرب الآن (الثوريون والملكيون على السواء) والفرق هنا ليس في أشخاص الحكام وإنما في الطريقة التي يتولى بها الحاكم السلطة فالأنظمة الديمقراطية وحدها القادرة على وضع المسئول المناسب في المكان المناسب وقد فكر البريطانيون أن تشرشل الذي حقق النصر في الحرب قد لا يكون أفضل من يصلح لقيادة البلد في زمن السلم وبالتالي يذهب مشكورا ويأتي من هو أفضل منه، وهكذا يتحقق الانتخاب الطبيعي ويتم تصعيد الكفاءات إلى مواقع المسئولين فتحرر البلاد تقدما شاملا وبدون هذا الفرز الديمقراطي يستحيل التقدم، فالناخبون البريطانيون الذين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع ليأتوا بتشرشل من بيته إلى رئاسة الوزراء لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك لو أن بريطانيا كانت تحكمها قوانين طوارئ وانتخابات مزورة واستفتاءات الـ ٩٩٪ التي نكبنا بها في عالمنا العربي.

ولعلنا المنطقة الوحيدة في العالم التي نجد فيها ملوكا يحكمون بلا قانون سوى إرادتهم وكأنهم في العصور الوسطى ونجد، رؤساء يسعون بوقاحة إلى توريث السلطة لأنجالهم الأعزاء وصار من الشائع العبث بالدستور حتى يحكم الرؤساء طوال حياتهم المديدة، وآخر من انضم إلى هذه النوعية الجنرال برويز مشرف الذي تراجع عن وعده بعقد انتخابات رئاسية وقرر أن ينظم لنفسه استفتاء من طراز الـ ٩٩٪ ليستمر في السلطة ولا تجد إلا في العالم العربي والإسلامي حكاما تولوا السلطة وهم في شرخ الشباب ومرورا بأطوار الرجولة والكهولة ثم الشيخوخة وهم في مقاعد السلطة لا يبارحونها أبدا. ولدينا والحمد لله وزراء خالدون في مناصبهم لأكثر من عشرين عاما.. إن أزمتنا الحقيقية في الأنظمة التي تحكمنا وكل من يتأمل الغضب العارم الذي يعم الوطن العربي هذه الأيام لا بد أن يتساءل عن سر الفجوة الكبيرة بين مواقف الشعوب الواعية الشجاعة وتخاذل وعجز الحكام، والحق أن الطريقة التي يصل بها الحاكم إلى السلطة تحدد طريقة استعماله لها. فالرئيس المنتخب سوف يعمل على إرضاء ناخبيه وتحقيق إرادتهم أما الرئيس الأوحد فلا يحترم الرأي العام لأنه يستند إلى الجيش في تدعيم حكمه وإلى أجهزة القمع في التنكيل

بمعارضيه وبما أن السلطة المطلقة تؤدي إلى فساد مطلق فإن الرئيس الأوحد عادة ما يكون غارقا مع أولاده وأتباعه في الثروة الحرام المنهوبة من قوت الشعب وبالتالي من المستحيل مطالبة هؤلاء باتخاذ مواقف قومية جادة قد تؤدي إلى الحرب أو مواجهة الدول الكبرى لأن الحرب تعني بالنسبة إليهم خطرا داهما قد يحرمهم من نعيم السلطة.. إن منظر هؤلاء الحكام المنعمين المتخمين في قصورهم واستراحاتهم، المرتعدين من مجرد ذكر الحرب المتوسلين إلى الراعي الأمريكي لبذل الجهود لإعادة الاستقرار إلى المنطقة (وكأنما الاستقرار هدف في حد ذاته بغض النظر عن كيفية تحققه وعلى أي أساس).. كل تهافتهم هذا وقتلهم المحموم يؤكد أنهم لا يخافون علينا من ويلات الحرب وإنما يخافون على أنفسهم وقصورهم وطائراتهم الخاصة وودائعهم المهربة في الخارج ومصير العمولات التي يقتنصها أولادهم وأتباعهم بالملايين.. إنهم لا يخافون علينا وإنما على عزهم وعروشهم.. ولو أن إسرائيل اتخذت المسجد الأقصى مقرا للحكومة الإسرائيلية أو حتى قامت بهدمه من أساسه لما زاد هؤلاء الحكام شيئًا عما يفعلونه الآن.. نداءات وبيانات ومناشدات ورسائل عاجلة واتصالات هاتفية بلا نهاية ولا فائدة.. إن المحنة الكبرى التي يمر بها الشعب الفلسطيني ونمر بها معه إنما تؤكد بوضوح أن النظام السياسي العربي فاشل وفاسد حتى النخاع.. إن هزيمتنا تأتي أساسا من قصورنا الرئاسية والملكية ليقوم بتنفيذها فينا بعد ذلك الجيش الإسرائيلي.. أزمتنا غياب الديمقراطية وبدون تحقيقها ليس ثمة أمل..

* * *

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ استعمل نابليون بونابرت مجموعة من كبار مشايخ الأزهر لإقناع الشعب بعدم جدوى الثورة ضد الفرنسيين، وقد قبل بعض المشايخ هذا الدور الحقير واستعملوا علومهم الدينية في خدمة المحتل الفرنسي وقد لعب هؤلاء دورا مؤسفا في إخماد ثورة القاهرة الأولى فلما اندلعت ثورة القاهرة الثانية ذهب هؤلاء المشايخ للقاء الجنرال كليبر قائد الحملة آنذاك ثم توجهوا بعد ذلك إلى الثوار ليقنعوهم بعدم جدوى الثورة وأن طاعة ولي الأمر واجب شرعي كما أن التمرد فتنة والفتنة أشد من القتل، لكن الناس ثاروا عليهم هذه المرة وقد أدركوا خيانتهم ويكتب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ما فعله الثوار بالمشايخ الخونة فيقول:

«قاموا عليهم وسبّوهم وشتموهم وضربوهم ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون: هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيين وأخذوا دراهم من الفرنسيين ومرادهم خذلان المسلمين».

هذا المصير العادل لكل من يخون أمانته الوطنية والعلمية ويتحول إلى بوق للحاكم ضد الحق والعدل أتمنى أن يحدث ذات يوم لكل هؤلاء المنافقين الذين يستعين بهم التليفزيون هذه الأيام ويقدمهم باعتبارهم «خبراء إستراتيجيين» ليقنعونا نحن المشاهدين بأن الموقف المصري من القضية الفلسطينية في منتهى العظمة وأن السياسة المصرية قد حاصرت إسرائيل وعزلتها وتوشك أن تقضي عليها بعدما اقتنعت الإدارة الأمريكية بتغيير موقفها وتأييد السلام العادل.. إلى آخر هذا الكلام الفارغ الذي ينتهي بالطبع دائمًا بوصلة طويلة من النفاق للرئيس مبارك، ويكون الخبير المنافق عادة أستاذا جامعيا أو صحفيا أو مسئولا في الحزب الوطني وهو في كل الأحوال يقدم السبت ليقبض الأحد لأنه يدرك أن النفاق أضمن وأسرع طريق لتولي المناصب الكبرى في بلدنا المنكوب.. ويشترك في وصلة النفاق المذيع طبعا وأحيانا ما يؤدي التنافس على النفاق إلى مهزلة كما حدث عندما تكلم نائب رئيس تحرير جريدة قومية (ويريد طبعا أن يتولى رئاسة التحرير) وقد بدأ الخبير كلامه بحمد الرئيس مبارك والثناء عليه بما يستحق لمدة عشر دقائق كاملة.. ثم خرج علينا بمأثرة جديدة نسبها للرئيس مفادها أن إسرائيل تعمدت أن تحاصر الرئيس عرفات يوم الجمعة حيث يكون الرؤساء والملوك العرب في إجازتهم الأسبوعية إلا أن الرئيس مبارك بقدرته على العمل في كل أيام الأسبوع قد فوت على إسرائيل الفرصة وأفسد مخططها تماما..!!

ولا أجد لوصف هذا الخبير الإستراتيجي وأمثاله أفضل مما قاله أجدادنا ثوار القاهرة العظام هؤلاء المشايخ خونة.. قبضوا دراهم. ومرادهم خذلان المسلمين..»

* * *

في الساعة الخامسة صباحا وتحت حراسة مشددة تم دفن جثمان الطالب محمد السقا من جامعة الإسكندرية وقد منعت قوات الأمن زملاء محمد من وداعه الأخير، أذاعت وزارة الداخلية بيانا تحدث عن مندسين تسربوا إلى المظاهرات مما دفع رجال الشرطة إلى إطلاق النار كما قررت النيابة حبس عشرات الطلاب بتهمة التجمهر وإثارة البلبلة

والتحريض على ازدراء النظام.. نفس المصطلحات البالية الظالمة التي تستعملها الحكومة دائمًا لتبرير قمعها الوحشي لكل من يعارضها، ما معنى إثارة البلبلة؟ ولماذا تكون البلبلة جريمة؟!.. ألا يمكن أن يكون البلبلة مفيدة في هذا الفساد والعفن الذي نعيشه؟! وما معنى أن يحبس مواطن بتهمة ازدراء النظام في بلد يدعي الديمقراطية؟! على أن الطالب محمد السقا قد مات، قتلوه قبل أن يكمل عامه الحادي والعشرين. أطلق عليه ضابط شرطة رصاصة اخترقت صدره فسقط قتيلا.. لم يكن محمد السقا مجرما ولا خارجا على القانون كان شابا في مقتبل العمر وطبيبا متحمسا أغضبته المجزرة التي يتعرض لها إخوانه الفلسطينيون وأراد أن يعبر عن تأييده لهم ويبدو أنه صدّق ما يقال في وسائل الإعلام عن الديمقراطية المزدهرة التي ننعم بها.. صدق محمد هذه الأكاذيب حتى أصابته الرصاصة في قلبه فعرف عندئذ الحقيقة، وقد وقف كمال الشاذلي في مجلس الشعب الموقر فتحدث عن شرذمة من المندسين والحاقدين الموتورين إلى آخر هذا الكلام المعتاد.. أما الوزير مفيد شهاب فقد قلل من أهمية الواقعة فصرح سيادته قائلا إنه لم تحدث سوى بضع إصابات بين الطلاب ولم يسقط إلا قتيل واحد، والحق أن مئات الطلاب قد أصيبوا من رصاص الشرطة وكثير منهم في حالات خطيرة كما أن الإشارة إلى موت طالب قتلا بالرصاص على أنه «مجرد قتيل واحد» تحمل قدرا بالغا من الاستهانة بحياة الناس، ولو كان القتيل ابن الوزير مفيد شهاب لأدرك سيادته عندئذ أن الموضوع أكبر وأفظع من أن يوصف بأنه مجرد قتيل واحد. كيف تفهم والدة محمد السقا أن ابنها قد مات.. ابنها الذي حملته وأرضعته وفرحت به وهو يكبر يوما بعد يوم واحتضنته وزغردت من فرحتها وتقبلت التهاني عندما نجح في الثانوية والتحق بالجامعة. كيف تفهم أن ابنها محمد التي كانت لا تهدأ قبل أن تطمئن على طعامه وراحته وصحته والتي كانت لا تنام من جوعها إذا أصابته وعكة بسيطة كيف نشرح لهذه الأم أن أعز من لديها في الدنيا قد مات.. قتلته رصاصة صوبها إلى صدره ضابط مصري وأن الوزير المسئول عن تعليم محمد وزملاءه يصفه بأنه «مجرد قتيل واحد».

سلام على روحك الطاهرة يا محمد.. ما أشرفك وأشجعك وأنقاك وأنت تلقى ربك لتشكو إليه الظلم الذي يطحن مصر كلها.. ولسوف ترى في الجنة رفاقك وأحبابك.. آيات الأخرس ووفاء إدريس وسليمان خاطر وكل شهداء الأمة الأبرار الذين لن تنساهم أبدا ولسوف ننتقم لهم يوما أظنه قد صار وشيكا.

هنا.. جمهورية «كأن»![*]

منذ أعوام كان لي صديق تخرج في كلية العلوم وجاء تعيينه في مكان بعيد يحمل هذا الاسم: «المركز المتقدم لمراقبة الجراد».. وكانت وظيفة العاملين في هذا المركز تتلخص في مراقبة الجو في المنطقة حتى إذا لمحوا جحافل الجراد سارعوا عندئذ بالاتصال بالجهات المعنية لاتخاذ اللازم من أجل مكافحة الجراد قبل أن يلتهم المحاصيل.. والبديهي أن يحتاج مركز كهذا إلى وسائل اتصال سريعة وفعالة لكن صديقي لما ذهب هناك وجد أن وسائل الاتصال مقطوعة وأقرب تليفون يبعد كثيرًا عن المركز، مما يعني عمليًا انعدام فائدة المركز من أساسها.. وظل صديقي يواظب على الذهاب إلى المركز في مواعيد العمل بلا فائدة حتى ضاق بهذه الحال فواجه رئيسه بالسؤال:

ـ ما فائدة هذا المركز إذا كنا لن نستطيع أن نحذر أحدًا من الجراد إذا هجم علينا؟!

فأجابه الموظف المخضرم قائلًا:

ـ وجود المركز شيء وفاعليته شيء آخر.. المركز موجود عند الحكومة ولا بد أن يظل موجودًا.

ـ لكنه مركز وهمي وأنا لا أعمل فيه شيئًا.

وهناك ضحك المدير وقال:

ـ يا سيدي اعتبر وكأنك تشتغل فعلًا.. وكأن المركز في منتهى الكفاءة.

تذكرت هذه الواقعة وأنا أشاهد في التليفزيون المؤتمر الحاشد الذي أقامه الحزب

(*) العربي ٦/ ١٠/ ٢٠٠٢.

الوطني مؤخرًا.. فقد انتظم آلاف الأعضاء في الحضور وقامت القيادات السياسية بإلقاء خطب سياسية مطولة تناولت فيها خطط التطوير والتغيير.. الشكل رائع أما المضمون فمختلف.. فقد كان الغرض الوحيد من هذا المؤتمر إلحاق السيد جمال مبارك بمقعد في القيادة السياسية لمصر تمهيدًا طبعًا لمنحه القيادة نفسها يومًا ما.. أما الكلمات والشعارات والمناقشات.. فكلها من عينة «المركز المتقدم لمراقبة الجراد».. مظهر بلا جوهر.. والمتأمل في الحياة المصرية سوف يجد ظواهر كثيرة تندرج تحت حالة «كأن».. فعندما يتم الإعلان رسميًا عن فتح باب الترشيح لرئاسة الحزب الوطني يبدو الأمر وكأن المنافسة مفتوحة على المنصب لكن الحقيقة أنه حكر على الرئيس مبارك وحده.

وقضايا الفساد التي يتم الإعلان عنها تعطيك انطباعًا وكأننا في بلد ديمقراطي يتساوى فيه الناس جميعًا أمام القانون لكن الحقيقة أن معاقبة الفاسدين تتم أساسًا بتوجيه سياسي بغرض التأديب المحسوب أو الإبعاد عن مقاعد السلطة وأمام كل فاسد يسقط يوجد عشرة فاسدين كبار لا يجرؤ أحد على المساس بهم بل ويطالعوننا كل صباح بوجوه متخمة مطمئنة ليحدثونا عن طهارة اليد ونزاهة الحكم، والحكومة تعلن عن مواعيد الانتخابات وتحدد دوائرها وتحصر الناخبين في جداول وتعتني بالمقار الانتخابية، فيبدو الأمر وكأنها انتخابات جدية لكن الواقع أن التزوير يتم دائمًا لمصلحة الحزب الحاكم.. وأعضاء مجلس الشعب ينهمكون في نقاش حاد أمام شاشات التليفزيون فيهيأ لك أحيانًا وكأنهم أعضاء في برلمان حقيقي لكنهم في الواقع يأتمرون بأمر الحكومة التي يأتمر أعضاؤها أنفسهم بأمر رئيس الجمهورية الذي يحكم مصر وحده بمطلق مشيئته وكل ما عدا هذا ديكور زائف.. إن الحكومة المصرية بعدما تأكد فشلها السياسي الذريع لم يعد لها إلا الشكل تحرص عليه.. والحكومات في العالم كله تتم محاسبتها عن إنجازاتها كل بضعة أعوام أما حكومتنا نحن فتظل جاثمة على أنفسنا بغض النظر عن فشلها وعجزها وفسادها.. إن ملايين المصريين الذين يئنون من وطأة الفقر والبطالة فقدوا الأمل في الإصلاح كما فقدوا ثقتهم في الحكومة.. وهم لا يستمعون إلى خطب المسئولين لأنها أكاذيب ولا يذهبون إلى صناديق الاقتراع لأن النتيجة معروفة سلفًا.. ولكن هل يستمر صمت المصريين وتحملهم للقمع والظلم إلى الأبد؟.. لا أظن.

* * *

في مثل هذا اليوم منذ ٢٩ عامًا كنت طالبًا في الصف الأول الثانوي واندلعت حرب أكتوبر فرأيت لأول مرة الوجه العظيم للشعب المصري.. كنا مجموعة من التلاميذ والتلميذات نطوف في منطقة جاردن سيتي لجمع التبرعات من أجل الجيش وكان عشرات الناس يعطوننا نقودًا كثيرة وأحيانًا جنيهات ذهبية وكانت بعض السيدات يخلعن حليهن الذهبية ويعطينها لنا عن طيب خاطر.. وما زلت أذكر كيف أن المارة في شارع قصر العيني كادوا يفتكون بخادمة تحمل صاجات كعك العيد لخبزها في الفرن وراحوا يصيحون.. «كعك إيه.. ما فيش عيد وأولادنا بيموتوا في الجبهة».. بل إن أقسام الشرطة كلها من أسوان إلى الإسكندرية خلال أسابيع الحرب، لم تسجل حادث سرقة أو حتى مشاجرة عادية.. لقد اجتمع المصريون جميعًا على قلب واحد وإرادة واحدة، حتى اللصوص والنشالون امتنعوا عن مخالفة القانون احترامًا لدماء الشهداء.. هذه الروح يجب أن نستعيدها في ذكرى أكتوبر بدلًا من الاكتفاء بالأناشيد السخيفة والأفلام المملة التي حفظناها عن ظهر قلب وانتهاز المناسبة من أجل إغداق المزيد من كلمات النفاق على شخص الرئيس مبارك.. حقيقة أخرى يجب أن نعيها عن حرب أكتوبر أن أنور السادات أجهض مكاسبها السياسية تمامًا.. فالصلح الذي وقّعه مع إسرائيل كان معروضًا على عبد الناصر بدون حرب.. وفي الاجتماع الذي عقده الزعيم عبد الناصر في استراحة المعمورة يوم ٥/ ٨/ ١٩٦٩ مع قادة القوات المسلحة وكبار الخبراء العسكريين السوفييت.. قال لهم بالحرف «الإسرائيليون يعلنون استعدادهم لإعادة سيناء إلينا بشرط ألا نتدخل في استعادة الأراضي العربية الأخرى، وهذا يعني انتهاءنا عربيًا، ولذلك رفضنا الاقتراح من جانبنا».. وهنا رفض عبد الناصر برغم الهزيمة ما قبله السادات بعد النصر.. وهكذا أهدر السادات المكاسب السياسية التي حققها الجنود المصريون بأرواحهم ودمائهم.. ونفذت مصر الخطوة الأولى في المخطط الصهيوني المستمر حتى اليوم.

❋ ❋ ❋

المستر نواز والمستر نزبت والمستر بنخوست.. ثلاثة مواطنين بريطانيين تصدرت أخبارهم الصحافة البريطانية هذا الأسبوع، فقد اعتنقوا الإسلام وتعلموا اللغة العربية ثم رحلوا إلى مصر من أجل تقوية إسلامهم ولغتهم العربية.. لكن السلطات المصرية قبضت عليهم وأحالتهم إلى محكمة أمن الدولة طوارئ بتهمة التخطيط لقلب نظام الحكم.. وقد

شكا البريطانيون الثلاثة من تعرضهم للتعذيب الشديد أثناء التحقيق.. وأكدوا أن الضباط من أجل إجبارهم على الاعتراف بأفعال لم يرتكبوها، كانوا يحرمونهم النوم والماء والطعام ثم يعلقونهم من أقدامهم كالذبائح ويضربونهم ويصعقونهم بالكهرباء وبعد ذلك (كنوع من التغيير) يقومون بإنزال رءوسهم في المراحيض لفترة معينة.. وقد ثارت السلطات البريطانية لهذا الأمر مما دفع السفير البريطاني للقاء النائب العام المصري بشأن البريطانيين الثلاثة.. لكن السلطات المصرية نفت بشدة أن يكونوا قد تعرضوا لأي تعذيب وأصدرت السفارة المصرية في لندن بيانًا نفت فيه بشدة أن يكون أحد قد صعق البريطانيين بالكهرباء، وأكدت أنهم تمتعوا في المعتقل بمعاملة ممتازة حتى إنه قد تم صرف تليفون محمول لكل منهم حتى يطمئن على أهله وأحبابه في إنجلترا.. والحق أنني أصدق البيان المصري تمامًا فالمعروف أن معاملة المعتقلين السياسيين في مصر من أجمل ما يمكن.. وقد صرح السيد وزير الداخلية مرارًا وتكرارًا أنه يعتبر المعتقلين السياسيين جميعًا مثل أبنائه وهو يحبهم كما نحب نحن فلذات أكبادنا لا أقل.. وربما تسبب هذا الحب الأبوي في بعض اللبس للإخوان الإنجليز.. فالأب قد يقسو أحيانًا على أبنائه من أجل تقويم سلوكهم المعوج.. ألا يتفق لنا أحيانًا أن نضرب أبناءنا بشدة؟.. من منا لم يضرب أولاده أو يعلقهم من أقدامهم أو يجبرهم على شرب قليل من مياه المراحيض أو حتى يصعقهم بالكهرباء على خفيف؟! إنها معاملة أبوية ممتازة ربما لا يفهمها الإنجليز لكنها في مصر معتادة ومفهومة.. ومن هنا فأنا أحيي السيد وزيرالداخلية على معاملته الأبوية للمعتقلين الإنجليز والمصريين على السواء.. وأتمنى من الله ـ بجد ـ ألا يعتبرني سيادته يومًا من أبنائه!

كلمات مأثورة:

* «جميع المبيدات المسرطنة التي دخلت إلى مصر كانت بتوجيه مباشر من الدكتور يوسف والي والأوراق كلها تحمل توقيعه»

يوسف عبد الرحمن

* «مسئوليتي أن أحمي طهارة الحكم وأصون نزاهة العمل الوطني»

من كلمة الرئيس مبارك

بعد انقضاء فترته الرئاسية الثانية وقبل بداية فترته الثالثة منذ عشرة أعوام

* «إشادة الرئيس حسني مبارك بالدكتور يوسف والي وتحيته له أكبر دليل على أن مصر وفية لأبنائها».

سمير رجب

* «أريد أن أطمئنكم جميعًا على موضوع الثوم.. الثوم المصري يتمتع والحمد لله بمكانة مرموقة عالميًا».

يوسف والي

* «إذا كان القول إن الاختلاف أو الصراع الفكري محسوم على مستوى الأمانة العامة والقيادات المركزية فهذا تبسيط لأن انحصاره في هذا المستوي المركزي سيكون سهلًا».

الأستاذ جمال مبارك

* «١٨ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر».

تقرير للأمم المتحدة

..لماذا فقدنا الإحساس؟(*)

(١)

العالم كله يتظاهر ضد الحرب.. مليون متظاهر في بريطانيا ومثلهم في روما.. ملايين البشر في ٣٠٠ مدينة عالمية (حتى في أمريكا نفسها) خرجوا من أجل إيقاف العدوان الإجرامي على العراق.. أما نحن في مصر فنبدو وكأن الأمر لا يعنينا.. الحياة مستمرة وهادئة ما عدا مظاهرة واحدة هزيلة انفضت بسرعة بعدما دهمتها جحافل الأمن المركزي (جيش الاحتلال المصري).. مظاهرات جمهور الكرة احتفالا بفوز الزمالك بكأس السوبر، كانت أكبر بكثير من مظاهرات التضامن مع العراق.. ماذا حدث لنا؟.. هل فقدنا الإحساس بما حدث في العالم؟.. هل يخاف الناس من قمع السلطة إلى هذه الدرجة؟!.. هل نجح الإعلام المصري الفاسد في إحداث غيبوبة جماعية تمنعنا من استيعاب الأحداث؟!.. أم إن الفقر قد طحن المواطن المصري حتى أصبح لا يفكر إلا في توفير الطعام لأولاده؟!.. كل هذه العوامل لا شك مؤثرة في لامبالاة المصريين لكن السبب الرئيسي يتضح لنا عندما نقارن بين واقعتين مدهشتين حدثتا الأسبوع الماضي!

الواقعة الأولى حدثت في جزيرة قبرص اليونانية التي يقل عدد سكانها عن مليون نسمة (أقل من سكان حي شبرا).. فقد قرر رئيس جمهورية قبرص السيد كليريدس أن يخوض الانتخابات ليحكم بلاده لفترة رئاسية أخرى وقد خاض الانتخابات ضده مرشح يدعى بابادوبلوس.. وأشرفت الحكومة القبرصية على نزاهة الانتخابات فكانت النتيجة أن خسر رئيس الجمهورية منصبه أمام السيد بابادوبلوس.. حيث حصل رئيس

(*) العربي ٢/ ٢٠٠٣.

الجمهورية على ٣٨٪ من أصوات الناخبين مقابل ٥١٪ حصل عليها منافسه.. وكان أول ما فعله السيد بابادوبلوس بعد ما فاز بالرئاسة أن اتصل هاتفيا بالرئيس السابق وعزاه عن خسارته بعبارات لطيفة ثم طلب مقابلته حتى يستفيد من خبرته في حكم الدولة ونشرت الصحف صورة الرئيسين (السابق والحالي) وهما يتصافحان ضاحكين، حيث عقدا لقاء تبادلا خلاله المشورة من أجل مصلحة الوطن.. هذه واقعة أما الواقعة الأخرى فبطلها الأستاذ جمال مبارك الذي تم اختياره ليسافر إلى أمريكا على رأس وفد رسمي مصري.. ومعنى ذلك ببساطة أن جمال مبارك أصبح يمثل مصر رسميا ويتفاوض باسمها مع الحكومة الأمريكية.. والذي نعرفه أن الأستاذ جمال مبارك لا يتولى أي منصب رسمي في الدولة.. فهو ليس وزيرا ولا محافظا ولا حتى عضوا في مجلس الشعب فنقول إن الناس انتخبوه، كما أن منصبه في الحزب الوطني لا يتيح له إطلاقا أن يتحدث باسم مصر مع رؤساء الدول.. لكن جمال مبارك سافر وتفاوض وعاد بسلامة الله ولم يعترض أحد.. (ومن يجرؤ على الاعتراض؟!).. وقد أثارت رئاسة جمال مبارك للوفد الرسمي تعليقات كثيرة في الصحف الأمريكية فكتب جاكسون دييل في جريدة واشنطن بوست مؤكدًا أن جمال مبارك هو الحاكم القادم لمصر وأن الحكومة المصرية تسعى لإقناع المسئولين في واشنطن بقبول مبدأ توريث السلطة في مصر.. وقال الصحفي الأمريكي إن إجابة مصر للطلبات الأمريكية في الفترة الأخيرة مثل الإفراج عن سعد الدين إبراهيم وتعويم الجنيه ودعوة شارون إلى زيارة مصر.. كل هذه محاولات تودد مصرية من أجل أن تقبل واشنطن بجمال مبارك كحاكم مصر المقبل.. وفي لقائه بكبار المسئولين الأمريكيين أكد الأستاذ جمال مبارك أن سياسته سوف تركز على تطبيق القواعد الصحيحة للسوق الحرة والخصخصة في مصر كما أكد سيادته للأمريكيين أن مصر بلد ديمقراطي جدا وأن الانتخابات في مصر، من القاعدة إلى القمة، تجري بمنتهى النزاهة بلا أدنى تدخل ولا تزوير.. وقد أثارت هذه التصريحات تعليقات لاذعة ومؤسفة في الصحافة الأمريكية.. لكن المهم أن جمال مبارك قد صار يمثل مصر باعتباره رئيسها المقبل.. وهنا لا بد أن نقارن بين ما يحدث في قبرص وفي مصر.. هناك رئيس الجمهورية يخسر الانتخابات التي تنظمها حكومته فيتقبل النتيجة بروح طيبة ويسعى إلى مساعدة الرئيس المنتخب الجديد.. وهنا يظل رئيس الجمهورية في منصبه مدى الحياة عن طريق الاستفتاءات المعروفة ولا يلبث

بعد ذلك أن يعد ابنه لخلافته في الحكم.. المواطنون هناك يشتركون بطريقة مباشرة في حكم بلادهم ولذلك فهم يشعرون بالثقة في أنفسهم وفي قدرتهم على التغيير.. والمواطنون في مصر لا يستشيرهم أحد في شيء ورأيهم لا يهم في قليل أو كثير.. المصريون عاجزون، منذ عقود، عن تغيير وزير أو حتى مأمور قسم فما بالك برئيس الجمهورية!.. المواطن القبرصي الذي أسقط رئيس الجمهورية عن طريق الانتخاب الحر يشعر بقيمته كإنسان وحقوقه كمواطن ولذلك ينظم المظاهرات وكله ثقة في أنه يستطيع أن يوقف الحرب.. أما المواطن المصري المقهور، المحروم من حقه الطبيعي في اختيار حكامه فإنه يشعر بعدم جدوى المظاهرات لأن كل شيء في حياته مقرر سلفا ورغما عنه..

عندما كنت أقرأ عن جرائم اغتصاب السيدات كنت أندهش من أن السيدة المغتصبة تظل مستسلمة أياما عديدة لمن يغتصبها حتى إنها أحيانًا تعد له الطعام أو ترقص أمامه وهي تنزف دما، كنت أتساءل لماذا لا تستجمع المرأة المغتصبة قوتها فتجهز على من يغتصبها أو تقاومه؟!.. ثم وجدت الإجابة في بحث نشرته مجلة علم النفس فهمت منه أن المغتصب يبدأ دائمًا بقمع الضحية بالضرب المتواصل العنيف حتى تنكسر إرادتها تماما فتذعن له.. إن الاغتصاب لا يتحقق إلا بتحطيم إرادة الضحية، وهو يبدأ دائمًا في الذهن وبعد ذلك يجري تنفيذه في الجسد.. عندما تقتنع الضحية بعجزها الكامل عن المقاومة يستطيع عندئذ المغتصب أن يفعل بها ما يحلو له.. وما أشبه الشعوب المقهورة بالمرأة المغتصبة.. فعندما يُحكم الشعب رغما عنه ويقمع بشدة لسنوات طويلة يسيطر عليه الإحساس بالعجز والضآلة ويفقد ثقته في نفسه وقدراته.. إن المصريين لم يفقدوا الإحساس بالأحداث وهم لا شك يشعرون بتعاطف عميق مع إخوانهم في العراق وفلسطين كما أنهم يدركون تماما كل ما يجري حولهم لكنهم يفضلون الصمت لأنهم فقدوا الإحساس بجدوى الاعتراض على أي شيء.. وكما تفقد المرأة المغتصبة ثقتها في قدرتها على المقاومة فتستسلم للاغتصاب وهي أقرب للموت منها للحياة.. فإن المصريين الذين اغتُصبت إرادتهم وقمعوا طويلا ولم يستشرهم أحد في أحداث بلادهم لا يلجأوا إلى التظاهر لأنهم لا يشعرون بجدوى التظاهر.. ولكن إلى متى يستمر هذا الإذعان؟.. ليس لأحد أن يتوقع.. ففي تاريخ الشعوب كما في جرائم الاغتصاب.. تحدث دائمًا المفاجآت في النهاية..

(٢)

كان المفكر المعروف الدكتور جلال أمين ينتظر موعدا له في حي الزمالك فقرر أن يمضي بعض الوقت في حديقة الأسماك وذهب ليقطع تذكرة فإذا بعامل الشباك يقطع له تذكرتين من غير أن يسأله واندهش الدكتور لكنه فهم السبب عندما دخل الحديقة فوجدها ممتلئة عن آخرها بالعشاق.. شبان وشابات يتبادلون العواطف والكلمات واللمسات.. ولاحظ جلال أمين أن الفتيات جميعهن محجبات لكن الحجاب لم يمنعهن من ممارسة حياتهن الطبيعية.. وهنا يخلص جلال أمين إلى أن الحجاب الذي بدأ في مصر خلال السبعينيات كواجب ديني قد تحول مع الوقت إلى نوع من الزي الشعبي الذي لا يقيد الفتاة بتصرفات معينة بل إن الكثيرات لا يمنعهن الحجاب من تزيين الوجه بالماكياج أو تضييق ملابسهن على الموضة.. هذه الملاحظة العميقة أوردها جلال أمين في كتابه الجديد «عصر الجماهير الغفيرة» (دار الشروق).. وفيه يسعى جلال أمين إلى رصد التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي حدثت في مصر خلال خمسين عاما.. وهو بذلك يستأنف ما بدأه في كتابه.. «ماذا حدث للمصريين؟!» الذي لاقى رواجا كبيرا وأعيد طبعه مرات عديدة.. وفي مصر العظيمة التي لا تتوقف يوما عن إنجاب المواهب الكبيرة تشكل كتابات جلال أمين طرازا فريدا من الأدب السياسي الرفيع.. فهو يستعمل معلوماته الغزيرة كمثقف موسوعي وأستاذ اقتصاد في تحليل أدق الظواهر الاجتماعية التي يلتقطها بعين الفنان ويعبر عنها بأسلوب شيق وممتع وجميل.. بلا أدنى حذلقة ولا تقعر.. وقد أوتي جلال أمين موهبة التعبير حقا فهو يبسط لك أعقد النظريات الاقتصادية بأسهل عبارة.. ومن خلال كل ما يكتبه تشعر بتلك المحبة الغامرة الصادقة التي يكنّها للمصريين البسطاء.. يذكرني الدكتور جلال أمين (الذي تربطني به صداقة أعتز بها) بجيل الرواد العظام.. طه حسين ومحمد مندور وتوفيق الحكيم وغيرهم.. الذين تعلموا في الغرب وعاشوا فيه سنوات طويلة وكان بمقدورهم أن يشغلوا أرفع المناصب لو أنهم ظلوا في المهجر لكن حبهم العميق لبلادهم جعلهم يعودون إليها ليقضوا حياتهم كلها يكافحون ضد الاستبداد والجهل والقمع ويحلمون بيوم تنال فيه بلادهم المكانة اللائقة التي تستحقها.. تحية للدكتور جلال أمين وأتمنى أن يقرأ المصريون جميعًا كتابه الجديد حتى يدركوا من أين نبدأ.. لكي تنهض مصر.

كلمات للتأمل:

* «المصريون يلزمون الصمت حتى لا يثيروا غضب النظام الاستبدادي الذي يحكمهم بقانون الطوارئ منذ ٢٢ عاما».

جريدة لوموند

* «في بلد مثل مصر، تسمي نفسها جمهورية دستورية، تجري الاستعدادات لنقل السلطة من الرئيس مبارك إلى ابنه جمال مبارك..».

جريدة الواشنطن بوست

* «يوما بعد يوم.. يتساءل العرب جميعًا عن فائدة وجود حكامهم أساسا..»

للكاتب البريطاني روبرت فيسك

* «لا يمكن لأي أحد إيقاف أمريكا.. وإذا أصدر مجلس الأمن قرارا فلا أعتقد أن بلدا واحدا في العالم سوف يعارض ضرب العراق..»

الرئيس حسني مبارك

حان وقت الحساب(*)

(١)

لم أذهب إلى بغداد أبدًا لكنني أعرفها جيدًّا..

.. قرأت التراث العربي فوقعت في عشقها: حاضرة الدنيا التي أشرقت منها شمس الحضارة على العالم قرونا طويلة، بغداد التي أنجبت آلاف العلماء والفلاسفة والفنانين العرب الذين علموا الدنيا وأخذت عنهم الجامعات الغربية أسس النهضة.. بغداد الجاحظ وإسحاق الموصلي وأبي نواس والبياتي وسعدي يوسف والسياب ونازك الملائكة.. تتعرض إلى عدوان همجي إجرامي لا يشبهه في تاريخها الطويل إلا يوم سقوطها في أيدي التتار.. عشرات الصواريخ الأمريكية المحملة باليورانيوم والقنابل العنقودية، المحرمة دوليا، تنهال في كل لحظة على سكان بغداد فتقتلهم وتمزقهم إلى أشلاء محترقة.. نصف مليون طفل عراقي ماتوا خلال السنوات الماضية بسب انعدام الأدوية نتيجة الحصار المفروض بواسطة أمريكا.. مئات الألوف من الأطفال العراقيين يولدون وهم يحملون سرطان الدم من تأثير قنابل اليورانيوم الأمريكية التي ألقيت في حرب الخليج.. ولم تكتف أمريكا بهذه الجرائم بل جاءت اليوم لتواصل اعتداءها على أهل العراق، الأبرياء الذين تمزق أجسادهم الصواريخ الأمريكية اليوم ليسوا غرباء عنا، إنهم عرب مسلمون ومسيحيون مثلنا، إنهم أهلنا وأخواتنا وأولادنا وقد وقفوا معنا دائمًا.. أثناء العدوان الثلاثي وعدوان ٦٧ وكل الحروب التي خاضتها مصر، كان الشعب العراقي دائمًا معنا، يناصرنا بقوة وإخلاص، فماذا فعلنا نحن من أجل إخوتنا في العراق؟.. المواطنون في

(*) العربي ٣/ ٢٠٠٣.

مصر لا يسمح لهم بأي فعل سياسي إلا عن طريق الحكومة.. فماذا فعل حكامنا من أجل العراق؟!.. اتصالات ومشاورات ومباحثات بلا نهاية ولا جدوى.. ثم مظاهرة حاشدة في إستاد القاهرة للألعاب الرياضية، نظمتها الحكومة وحشدت لها مئات الموظفين المساكين الذين تم حشرهم في أوتوبيسات الحكومة وتولت قيادتهم كوكبة من المناضلين الثوريين: كمال الشاذلي وصفوت الشريف ويوسف والي.. وبخلاف هذه المهزلة لم تبذل الحكومة المصرية أي مساع جدية لمنع الحرب.. بل وأخذ حكامنا يرددون بلا خجل الدعوة الأمريكية لنزع سلاح العراق وكأن إسرائيل التي تتحرش يوميا بحدودنا الشمالية لا تمتلك أسلحة دمار جبارة.. لكن من يجرؤ على محاسبة إسرائيل؟.. لقد تبنى حكامنا المنطق الأمريكي تماما حتى إن مسئولا مصريا كبيرا كان يجيب على أسئلة الصحفيين الأجانب بعبارة: «الرئيس بوش قال» و«الرئيس بوش يريد» (وكأنه يعمل في مكتب الرئيس بوش).. وعندما بدأت المذبحة لم تجرؤ الحكومة المصرية على إدانتها ولم تطالب حتى بإيقافها.. لكنها تقدمت بطلب إلى الحكومة الأمريكية لصرف مبلغ ٤ مليارات دولار كتعويض لمصر عن أضرار الحرب.. إلى مثل هذا الحضيض انحدرت الحكومة المصرية؟.. أن تطلب رسميا ثمن سكوتها على ذبح إخوتنا في العراق؟.. إلى متى هذا الهوان؟!

(٢)

الذي يقول إن أمريكا تعتدي على العراق لتحقيق الديمقراطية إما جاهل أو منافق.. لأن قتل مئات الألوف من الأطفال والنساء بقنابل اليورانيوم والقنابل العنقودية لا يحقق الديمقراطية وثانيًا لأن الولايات المتحدة نفسها دعمت نظام صدام حسين أعواما طويلة ولم يكن أيام صداقته لها أكثر ديمقراطية مما هو الآن وثالثا لأن صدام حسين ليس الديكتاتور الوحيد في المنطقة.. والولايات المتحدة التي ترتبط بتحالف وثيق مع دول الخليج ومصر والأردن تغمض عينيها عن الديكتاتورية والفساد والقمع المنتشر في تلك الدول، وأخيرا فإن تاريخ الولايات المتحدة في صناعة ودعم الأنظمة الاستبدادية في أنحاء العالم يحتاج إلى كتاب كامل لتسجيله.. ومن ثلاثين عاما في دولة شيلي تم انتخاب سلفادور الليندي لمنصب رئيس الدولة ونظرا لتوجهاته الاشتراكية التي أضرت بمصالح الشركات الأمريكية الكبرى، فقد خططت المخابرات الأمريكية ـ باعترافها ـ

لإحداث القلاقل في شيلي ثم دبرت انقلابا عسكريا أدى إلى قتل الليندي (الرئيس المنتخب) ووضع دمية أمريكية في السلطة هو الچنرال بينوشيه السفاح الفاسد الذي ظل يتمتع بتأييد أمريكا لفترة طويلة.. إن الحرب الإجرامية التي تشنها أمريكا وبريطانيا على العراق أهدافها استعمارية خالصة تقف وراءها الشركات الأمريكية العملاقة في مجالات النفط والسلاح والمقاولات التي أصرت على ضرب العراق من أجل مضاعفة أرباحها بمليارات الدولارات، شركات النفط ستحتكر الآبار العراقية وفيها ثلث احتياطي العالم. وشركات السلاح سوف تبيع الأسلحة للجيش الأمريكي أما شركات المقاولات فتنتظر دورها بعد الحرب لإعادة بناء ما هدمته القذائف الأمريكية وكلما زاد التدمير زادت أرباح المقاولين الأمريكيين، وقد أعلنت الخارجية الأمريكية رسميا أنها سوف تقتطع من ثمن النفط العراقي ما يعوضها عن تكاليف الحرب، أي أنهم سيقتلون العراقيين بأموال العراقيين، وسوف يدمرون العراق تماما ثم يعيدون بناءه بأموال العراقيين.. هذا السلوك الإجرامي من طبائع الرأسمالية الأمريكية التي لا تسعى إلا لمضاعفة أرباحها بغض النظر عن أي اعتبار أخلاقي.. ويكفي أن نعلم أن قنابل اليورانيوم التي استعملتها أمريكا عام ١٩٩١ قد أدت إلى إصابة ٥٧ ألف جندي أمريكي بأمراض خطيرة، وقد أخفت وزارة الدفاع الأمريكية جميع التقارير الطبية التي تشير إلى مرضهم كما تم منع هؤلاء الجنود المرضى من مقاضاة الحكومة الأمريكية التي كانت تعلم بلا شك الأضرار الخطيرة لاستعمال أسلحة اليورانيوم، لكن الأرباح الخيالية لتجارة أسلحة اليورانيوم جعلت الحكومة تتغافل عن أضرارها، خصوصًا أن معظم المتطوعين في الجيش الأمريكي قادمون من أفقر الطبقات في أمريكا مما يجعل صحتهم أقل أهمية عند الإدارة الأمريكية.. هذه هي الطريقة الأمريكية في دعم الديمقراطية.

(٣)

أثبتت هذه المحنة أن الأنظمة العربية لم تعد تعبر عن شعوبها، وأنها جميعًا (الثورية والملكية) فاشلة وفاسدة ومستبدة وقد أدت بنا إلى الفقر والجهل والتخلف، وبعد نصف قرن من الاستقلال لم يبدأ العالم العربي خطوة واحدة في طريق النهضة التي لا يمكن أن تتحقق إلا بديمقراطية حقيقية تسمح بإطلاق طاقات المواطن العربي المحروم من المشاركة في حكم بلاده.. لا يوجد حاكم عربي واحد انتخبه الشعب لكنهم جميعًا

اغتصبوا السلطة بانقلابات عسكرية أو ورثوها وحافظوا عليها بالقمع والإجرام، وهذا طبيعي فالحاكم المنتخب يحافظ على مصالح ناخبيه حتى يعيدوا انتخابه، أما من يغتصب السلطة فلا يهمه سوى الاحتفاظ بها بأي ثمن وتوريثها لأولاده من بعده.. من هنا نفهم حديث حكامنا الدائم عن «أهمية الاستقرار في المنطقة» وإذعانهم المشين للرغبات الأمريكية، لأنهم يعلمون جيدا كم ينقم عليهم الناس لفسادهم وظلمهم ويعلمون أنهم يحتفظون بعروشهم بفضل الحماية الأمريكية وبالتالي يحرصون عليها حرصهم على الحياة.. ومن بين الأنظمة العربية يشكل النظام السعودي تناقضا صارخا.. إذ إن شيوخ السعودية الذين يتوارثون الحكم باسم الإسلام ويتشددون في تنفيذ ما يعتبرونه تعاليم إسلامية، هؤلاء الذين يرغمون المواطنين على الصلاة قهرا ويقطعون يد السارق ويقتلون المتهمين بالزنا في احتفالات عامة، الذين لا يتهاونون أبدًا في أن تكشف المرأة جزءًا من ذراعها ويمنعون النساء من قيادة السيارات حرصا على الأخلاق الفاضلة، هؤلاء الحكام أنفسهم، هم الذين أضاعوا من قبل على الأمة فرصة النهضة عندما أودعوا عائدات النفط في بنوك أوروبا وأمريكا وبددوا ثرواتهم على النساء والقمار في لاس فيجاس ومونت كارلو.. وهم أيضًا الذين يفتحون اليوم بلادهم، بلا أدنى خجل، للقواعد الأمريكية لكي تنطلق منها الطائرات والصواريخ لتعتدي على العراق المسلم العربي فتقتل مئات الألوف من الأبرياء.. هذه المفارقة تكشف لنا نوعين من الإسلام: إسلام الحق والعدل.. وفقه السلاطين الفاسدين، الذي يتشدد في القشور والتوافه ليغطي بذلك على تفريطه وخيانته للأمة.

.. أخيرًا.. فإن المذبحة التي يتعرض لها أهلنا في العراق لا تُسأل عنها أمريكا أو بريطانيا بل نحن الذين تخلينا عن العراق بصمتنا وخوفنا.. حكامنا أضاعوا حقوقنا وكرامتنا وأذعنوا للمشيئة الأمريكية حتى ولو كان الثمن دماء ملايين العرب والمسلمين.. والكلمة اليوم للشعب المصري العظيم.. الذي لم يتخل يوما عن أشقائه في أوقات المحنة.. ولا أظن المصريين سوف يقفون يتفرجون والصواريخ الأمريكية تحصد أرواح العراقيين في كل لحظة.. وحكامنا يصافحون القتلة ويشيدون بحكمتهم ويضحكون معهم أمام شاشات التليفزيون.. آن لمصر أن تصحو.. وحان وقت الحساب لكل الذين أوصلونا إلى هذا الذل.. الذين ضللونا وخذلونا وتواطئوا علينا من أجل مصالحهم.. حان وقت حسابهم وسوف يكون عسيرا..

قلب بغداد، ملايين الحناجر
صرخت بالموت: كلا..
هزمت ليل المقابر
عرت الأشباه والخصيان من تيجانهم
داست على أنف المكابر
نزعت أنياب نمر الورق المحشو بالقش
وأثواب المخانيث العواهر
فإذا الكل على مزبلة التاريخ أصفار وأشباه قياصر..

عبدالوهاب البياتي

ما بعد الحضيض(*)

عاش الكاتب الإنجليزي الكبير چورج أورويل (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) حياة قصيرة مضطربة ومثيرة للجدل.. وذات صباح استيقظ أورويل ليجد نفسه في وضع مأساوي للغاية: كان مريضًا وعاطلًا ومعدمًا ومحتجزًا في فندق مشبوه في باريس وسط المتشردين والمجرمين ولم يكن يملك أجرة الفندق ولا حتى ثمن طعام يوم واحد. وقد كتب أورويل يومئذ قائلًا: «أدركت ذلك الصباح أنني قد هبطت إلى الحضيض.. أصابتني تعاسة بالغة لكنني لدهشتي بعد قليل أحسست بنوع من الراحة.. فالتدهور الكامل لا يخلو من فوائد: أولها أنك تتخلص من القلق لأن ما كنت تخشى من وقوعه قد وقع وانتهى الأمر.. وثانيها لأن الكوارث تزيل عن ذهنك الأوهام فترى الحقائق بوضوح.. كما أنه لا يكون لديك ما تفقده وبالتالي فلو أنك تمالكت نفسك قليلًا فإن خطواتك القادمة ستكون حتمًا إلى الأمام».

تذكرت هذه الكلمات وأنا أعيش مع ملايين العرب والمسلمين النكبة الكبرى التي أصابتنا في العراق.. وبالرغم من الألم والمهانة فإنني أرى في هذه المحنة جوانب إيجابية ستتحقق لو أدركنا بعض الحقائق:

١ ـ لم تنتصر الولايات المتحدة في هذه الحرب لكن العراق هو الذي انهزم، وقد أربكت المقاومة الشعبية العراقية قوات التحالف الجبارة وأرهقتها على مدى ثلاثة أسابيع. وفجأة.. انهار الجيش العراقي في لحظة غامضة، وسواء كان السبب الخيانة أو هرب القيادة أو مصرعها، فالدرس هنا أن الأنظمة الاستبدادية لا يمكن

(*) العربي ٤/ ٢٠٠٣.

أن تنتصر لأنها تحمل عوامل هزيمتها داخلها، فالجيش الذي أعد لحماية النظام لا يمكن أن يحمي الوطن والضباط الذين يقمعون المواطنين لا يمكن أن يدافعوا عنهم والحكام الجاثمون على أنفس شعوبهم لا يملكون شجاعة القتال حتى النهاية.. إن النصر العربي الوحيد الكامل صنعه بضعة آلاف من مقاتلي حزب الله ألحقوا بإسرائيل الجبارة هزيمة منكرة كانت الأسوأ في تاريخها.. ويعلمنا التاريخ أن من ينتصر في الحرب ليس هو الأقوى تسليحًا وإنما الأكثر إخلاصًا لقضيته.. ومن هنا يستحيل أن ينتصر نظام قمعي مهما يكن تسليحه، ومن هنا أيضًا عجزت إسرائيل، بالرغم من المذابح اليومية البشعة، عن أن تخضع الشعب الفلسطيني وتكسر إرادته.. وإذا كانت الحرب الأمريكية على النظام العراقي قد انتهت فإن الحرب مع الشعب العراقي قد بدأت، وقد فرح العراقيون ـ ومعهم حق ـ بسقوط الاستبداد وسرعان ما أفاقوا ورفضوا الاحتلال وبدأوا يكيلون الضربات الموجعة لقوات التحالف.. وسوف تدرك أمريكا، بثمن باهظ، أن القضاء على نظام فاسد أسهل بكثير من القضاء على مقاومة شعب.

٢ ـ كشفت المجزرة التي تعرض لها آلاف الأبرياء في العراق أن الغرب الذي يرفع لواء الحضارة والحرية له وجه آخر استعماري عنصري في غاية البشاعة، فمن أجل ضمان تفوق إسرائيل ومن أجل تحقيق عقود بمليارات الدولارات للشركات الأمريكية لا يتورع أبناء الحضارة الغربية عن شي جلود الأطفال والنساء بالقنابل العنقودية وقذائف اليورانيوم التي يمتد أثرها المدمر إلى عدة أجيال.. كل هذه الجرائم تتم يوميًا ببساطة ويشار إليها في بيانات التحالف باعتبارها «أخطاء غير مقصودة» وهذا التعبير في حد ذاته يدل على مدى الاستعلاء الغربي الذي يهتم بحماية الدرافيل والثعالب النادرة بأكثر بكثير مما يهتم بحياة العرب والمسلمين.. وعندما ظهر الأسرى الأمريكيون في التليفزيون العراقي جُنّ القادة الأمريكيون غضبًا وصاحوا بأن هذا يخالف معاهدة جنيف.. أما عندما يركل العرب بالأحذية ويساقون بالحبال من رقابهم كالأغنام وتضرب السيدات بالبنادق على رءوسهن ويتم تصويرهن وهن يبكين ويرتجفن رعبًا أمام المدافع الأمريكية.. فإن كل ذلك يشاهده الغرب المتحضر بلا غضاضة ولا حرج.. أضف إلى ذلك التشفي والإذلال في معاملة جنود الاحتلال للمواطنين في العراق.. فما الذي يدفع الجنود إلى قطع المياه عن السكان وسرقة

مخازن الغذاء ثم إعادة توزيعها على طوابير السكان البائسين أمام الكاميرات؟! ولماذا يصر جنود التحالف على خلع ملابس النساء العربيات وتحسس أجسادهن أمام أزواجهن بدعوى التفتيش؟! مع العلم بأن جيش الاحتلال يضم مجندات من الممكن أن يعهد إليهن بتفتيش النساء.. إنها فقط الرغبة في إذلال العرب والمسلمين جميعًا.. إما انتقامًا من أحداث ١١ سبتمبر أو حتى نشعر جميعًا بأنه لا مكان لنا في هذا العالم إلا بجوار أحذية أسيادنا الغربيين.

٣ـ رأينا في هذه المحنة إلى أي مدى يمكن للحكام العرب أن يذهبوا من أجل إرضاء أمريكا.. وفي حالة الكويت وللمرة الأولى في التاريخ توافق دولة على أن تحتلها جيوش أجنبية ويتم الاحتلال برضا حكامها بل وسعادتهم وفخرهم.. ولأول مرة في التاريخ العربي تنطلق الطائرات الأمريكية والبريطانية من أراضٍ عربية لتحصد أرواح مواطنين عرب في بلد مجاور.. ولم تكتف الحكومة السعودية بذلك بل إنها زادت من إنتاجها النفطي بأكبر كمية منذ عشرين عامًا، ولم تعبأ بما يسببه ذلك لها من خسارة مليارات الدولارات لأن غرضها الأهم أن تجعل سعر النفط رخيصًا على الحليف الأمريكي الحبيب.. والمدهش أن خبراء الاقتصاد يجمعون على أن سيطرة أمريكا على نفط العراق سيصيب دول الخليج بأضرار بالغة لكن يبدو أن عشق هؤلاء المشايخ للأمريكان تجاوز كل الحدود.. أما المسئولون المصريون فقد حقق أداؤهم أثناء الحرب ما يسمى في المسرح بالكوميديا السوداء (التي تثير الضحك والحزن معًا).. فقد ظل المسئولون يدلون بتصريحات بائسة يبدون فيها قلقهم وخشيتهم. (ماذا يفيد القلق؟ وإذا كان صانع القرار المصري لا يملك أمام المذبحة إلا التعبير عن خشيته فماذا يفعل المواطن العادي؟!).. ولم يجرؤ رجل واحد في الحكومة المصرية على أن يصف الحرب بأنها عدوان.. وظلت الأسلحة والقذائف الأمريكية تتدفق عبر قناة السويس لتقتل إخوتنا في العراق وقد أكد خبراء القانون الدولي أن من حق مصر قانونًا أن تمنع مرور السفن الحربية للتحالف.. ولكن عبثا فقد كانت رغبة الحكومة المصرية في إرضاء أمريكا أقوى من أي اعتبار آخر، أقوى حتى من احترام مصر لتوقيعها على اتفاقيات الدفاع المشترك، فقد تنصلت حكومتنا المحترمة من توقيعها ولم تحترمه، مع أن هذه الاتفاقيات نفسها اعتمدت عليها الحكومة المصرية عام ١٩٩١ عندما ذهبت لتقاتل العراق من أجل تحرير الكويت، لكنها في الحالتين

كانت تنفذ الرغبات الأمريكية قبل أي شيء آخر.. وبقدر تخاذل المسئولين العرب أمام أمريكا بلغ قمعهم الوحشي لمواطنيهم حد الإجرام، ولا بد أن يتوقف المرء أمام مقتل مواطنين أبرياء في اليمن والسودان رميًا بالرصاص لمجرد أنهم تجرأوا على التظاهر ضد الحرب.. كما أن القمع الرهيب الذي شهدته شوارع القاهرة لم يسبق له مثيل، فمع الضرب الوحشي والاعتقال العشوائي لآلاف المواطنين بلغ انتهاك الحرمات إلى درجة أن يقوم الضباط بتعرية أجساد الطالبات وسحلهن على الأرض عاريات أمام الناس.. كل ذلك يعلمنا أن النظام المستبد عندما يشعر باهتزازه لن يتورع عن إزهاق الأرواح وارتكاب أفظع الجرائم حتى يحتفظ بالسلطة.

٤ ـ مع سقوط بغداد انهارت شرعية النظام العربي، ملايين العرب اليوم قد يختلفون في أشياء كثيرة، لكنهم يتفقون جميعًا على أن الأنظمة العربية لم تعد تصلح بل وأنها السبب الأول فيما حاق بأمتنا من هزائم وكوارث.. وسواء كان الحاكم العربي ملكيًا أو ثوريًا أو بين بين.. فإن همه الأوحد البقاء في السلطة وتوريثها لأولاده الأعزاء من بعده، بأي طريقة وأي ثمن.. ولنا كلمة أخيرة عن مصر.. الذي حدث يومي ٢٠ و٢١ مارس له دلالة خطيرة لأن المظاهرات الحاشدة التي اجتاحت القاهرة والمحافظات لم تكن فقط بغرض الاعتراض على ضرب العراق.. وإنما انتفض عشرات الألوف من المصريين ليعلنوا أن ما يحدث في مصر لم يعد يحتمل.. الفقر والبطالة والفساد والقمع والتبعية المطلقة وانعدام الكرامة الوطنية.. لقد آن أوان الإصلاح الحقيقي في مصر.. ولا يمكن أن تحكم بلادنا إلى الأبد بالمحاكم العسكرية وقوانين الطوارئ واستفتاءات الـ ٩٩٪ وانتخابات مزورة تأتي بمسئولين مخلدين لا يتركون مواقعهم إلا بانتقالهم إلى الحياة الأخرى.. نريد حقوقنا الطبيعية البسيطة في أن ننتخب من يحكمنا وأن نحكم بالقانون وليس بتحريات أمن الدولة.. أن يتمتع المواطن المصري، كما يحدث في العالم كله، بالكرامة والأمن والحق في التعليم والسكن والعمل والعلاج.. وإذا كان المسئولون الحاليون قد فشلوا في تحقيق الرخاء والتقدم للبلاد. فلماذا لا يستقيلون باحترام حتى يمنحوا الفرصة لوجوه وعقول جديدة لكي تحكم مصر؟!

برغم قسوة المحنة وبشاعة المذبحة، فالمؤكد أن عجلة التغيير في العالم العربي قد بدأت ولن تتوقف.. ولن يسلم منها أحد.

كلمات للتأمل:

* «نحن سعداء اليوم لأننا انتصرنا على العراق.. أخطر دولة عربية كانت تهدد إسرائيل..»

المندوب البريطاني في الاتحاد الأوروبي

* «الدفاع عن العراق فرض عين على كل مسلم..»

مجمع البحوث الإسلامية

* «سيسألني الله عن كل ما يحدث للمسلمين.. والله لو أن بغلة تعثرت في أرض العراق لسألني الله عنها يوم القيامة..»

عمر بن الخطاب

* «.. هو كل ما حد من العرب يتزنق.. يقول أين مصر..؟!»

الرئيس حسني مبارك

* «أيها المواطنون.. بينما يعيش كثيرون منكم في فقر شديد فإن رئيس الجمهورية راح يكدس الثروة من أموال الدولة حتى صار من أغنى أغنياء العالم وهو يبني القصور الفارهة ليتنعم فيها هو وولداه وحاشيته بينما الشعب يعاني.. أما من يعارضه سياسيا فليس له إلا الضرب والتعذيب والاعتقال لسنوات طويلة..»

من كلمات توني بلير

(وهو يقصد هنا ـ بالطبع ـ الرئيس العراقي)

سيادة الرئيس.. هل رأيت جثث الشهداء؟(*)

لن يسامحنا الله أبدًا على تقاعسنا عن نصرة إخوتنا في فلسطين.. مستحيل أن يتقبل الله صلاتنا وصيامنا بينما نحن نتفرج على إسرائيل وهي تذبح الأطفال والنساء والشيوخ كل يوم.. ما قيمة الصلاة والحج والعمرة وغيرها من الشعائر بينما نحن قد عطلنا الأصل في الإسلام: أن ننتصر للحق ونوقف المذبحة وننقذ إخوتنا الفلسطينيين الذين بحّت أصواتهم وهم يستغيثون بنا ولا مغيث.. والمخجل حقًّا أن المظاهرات تحتشد في جميع أنحاء العالم احتجاجًا على المجزرة بل إن دولة أوروبية بعيدة مثل بلجيكا قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بينما اكتفت مصر، أكبر دولة عربية، بقرار ضعيف وغامض ينص على مجرد قطع الاتصالات مع إسرائيل إلا إذا كانت دبلوماسية (ما معنى هذا الكلام؟!).. المخجل أن مواطنًا يابانيًا، ليس مسلمًا أو عربيًا، قد أحرق نفسه احتجاجًا على ذبح الفلسطينيين بينما يكتفي المسئولون المصريون بكلمات الشجب والتنديد مع وعود بإرسال أدوية وقطن وشاش ومراهم وكأن مصر، بكل تاريخها ووزنها، قد تحولت في النهاية إلى جمعية خيرية تنحصر مهمتها في محاولة إسعاف المصابين (إذا سمحت إسرائيل بذلك).. إلى متى هذا الهوان؟!.. إلى متى نتفرج على أهلنا وهم يذبحون فنكتفي بالولولة والاستنجاد بالراعي الأمريكي (المجرم الأصلي في المذبحة) والمجتمع الدولي الذي لا يمكن أن يساعدنا ما دمنا لا نساعد أنفسنا.. يقولون إن طرد السفير الإسرائيلي من مصر قد يؤدي إلى الحرب ونقول لهم: إن اتفاقية كامب ديفيد المشئومة التي وقعّناها (أو وقّعتموها عنا) ليس معناها أن نتحول إلى شعب من النعاج بلا رأي ولا نخوة ولا كرامة.. إن طرد سفير السفاحين لن يؤدي

(*) العربي ٤/ ٢٠٠٣.

إلى الحرب ولو هاجمت إسرائيل مصر ردًا على طرد السفير فمعنى ذلك ببساطة أنها قد بيتت النية على ضربنا وأنها سوف تضربنا في كل الأحوال إن لم يكن اليوم فغدا.. يقولون إن مصر ضعيفة ولا تقدر على مقاومة إسرائيل التي تساندها أمريكا ونقول لو أنكم تؤمنون بالله حقًّا فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، ولنتعلم من حزب الله الذي استطاع ببضعة آلاف مقاتل أن يهزم إسرائيل ويجبرها على الانسحاب.. يقولون إن الحرب خراب ودمار وإن الشعب المصري قد تحمل الكثير من أجل فلسطين ولم يعد يحتمل المزيد.. ونقول لهم إذا كان الأمر كذلك فلماذا يتظاهر ملايين المصريين من أجل فلسطين ويتعرضون للضرب والقنابل ويلقون بأجسادهم أمام المصفحات؟!.. ألا تعتبر كل هذه المظاهرات دليلًا على رغبة المصريين العارمة في التضامن مع فلسطين مهما كان الثمن؟!.. ولماذا لا يُجري المسئولون استفتاء حقيقيًّا (بدون تزوير) لنعرف رأي المصريين الحقيقي في طرد السفير الإسرائيلي وقطع العلاقات مع الصهاينة؟!.. إننا نحتاج إلى قرار يعيد إلينا كرامتنا وشرفنا وهذا القرار في يد شخص واحد هو الرئيس مبارك.. وقد كتب محللون عرب وأجانب يؤكدون أن الرئيس مبارك لن يتخذ موقفًا متشددًا مع إسرائيل مهما تزايد عدوانها.. ونحن نسأل الرئيس مبارك: ما قيمة أن نأكل ونشرب وننام وقد فقدنا كرامتنا واحترامنا لأنفسنا؟!.. ألم يعد واضحا أن إسرائيل عصابة من القتلة لا يحترمون معاهداتهم أبدًا فلماذا سيحترمون كامب ديفيد ومن أدرانا أنهم لن يهاجموا مصر بعد أن يفرغوا من فلسطين؟!.. سيادة الرئيس هل رأيت جثث الشهداء المدنيين الفلسطينيين التي مزقتها الصواريخ الإسرائيلية؟!.. هل تابعت على شاشة التليفزيون أجساد الأطفال الرضع المثقوبة بالرصاص الإسرائيلي؟!.. هل رأيت قواتهم وهي تجهز على الجرحى وتقتل الأبرياء أمام أسرهم وتجبر النساء الفلسطينيات على التجرد من ثيابهن والوقوف عاريات تمامًا أمام الجنود الإسرائيليين؟!

هل رأيت الرجل الفلسطيني الذي يحتضن جثث أبنائه وقد منعه الإسرائيليون من دفنهم بعد أن قتلوهم أمامه؟!

سيادة الرئييس.. هل ترى هذه المجازر كما نراها وتشعر بالغضب الذي نشعر به؟!.. إذا كنت ترى ما نراه وتحس بما نحسه فلماذا لا تتخذ الموقف الذي نتمناه؟!

الشعب المصري كله ينتظر الإجابة.

غضب الكبار(*)

بدأ الأمر بحادثة عادية جدا: رجل مسالم كان يمشي في الطريق فانقض عليه كلب شرس وعقره فأصابه إصابة بالغة واجتمع المارة حول الرجل المصاب الذي بدأ ينزف بغزارة بينما وقف الكلب الجاني على مقربة منهم وقد أبرز أنيابه متحفزا، وهنا جاء شرطي عجوز يستطلع الأمر فهاله ما حدث وأخذ يصيح في الناس طالبا منهم أن يخبروه باسم صاحب هذا الكلب الشرس حتى يقبض عليه فورا وارتبك الناس لأنهم لا يعرفون فأصر الشرطي وهددهم بأنه ـ إن لم يدلوه على صاحب الكلب ـ سوف يقبض عليهم جميعًا، لأن جريمة الكلب البشعة لا يمكن أن تمر بدون عقاب صاحبه.. وهنا تسلل صبي صغير وسط الزحام واقترب من الشرطي الغاضب وهمس في أذنه بأن صاحب هذا الكلب هو سيادة المستشار محافظ المنطقة.. وفي الحال، ظهر الارتباك والفزع على وجه الشرطي واستدار نحو الرجل المصاب الغارق في دمه وقال بحدة:

«اسمع يا هذا..لا يمكن لكلب مهذب وأصيل ووديع مثل هذا الكلب أن يعقرك هكذا بلا سبب.. الواضح أنك قمت باستفزاز هذا الكلب وأنه تحملك مرة بعد مرة حتى أفلتت أعصاب المسكين رغما عنه واضطر إلى أن يعضك نتيجة لسوء أدبك..». ثم قبض الشرطي على الرجل بتهمة استفزاز كلب سيادة المستشار.

هذه الحكاية وردت في قصة جميلة للأديب الروسي العظيم أنطون تشيكوف الذي أراد أن يصور لنا كيف يستبد بنا الخوف من غضب الكبار أحيانا فيجعلنا نتصرف بلا منطق ولا توازن ولا كرامة.. والحق أن تصرف الشرطي المذعور في قصة تشيكوف

(*) العربي ٧/ ٣/ ٢٠٠٤.

يذكرني هذه الأيام بموقف الحكام العرب أمام أمريكا، فالأنظمة العربية (الملكية قبل أن يفوت الأوان) والثورية جميعًا قد اغتصبت السلطة في بلادها وحافظت عليها عن طريق التزوير والقمع والاعتقالات، ولا يوجد نظام عربي واحد وصل إلى الحكم بطريق ديمقراطي ولا يوجد بلد عربي واحد تخلو السجون فيه من عشرات الألوف من المعتقلين السياسيين، وقد بحت أصوات المثقفين العرب مطالبين بالديمقراطية وحقوق الإنسان، لكن الأنظمة المستبدة ظلت تصم آذانها عن هذه المطالب الإنسانية بل وكثيرا ما تسخر منها حتى أصدرت الولايات المتحدة أخيرا ما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير التي تطالب فيه الحكام العرب بتطبيق الديمقراطية.

وهنا يجب أن نؤكد أن الولايات المتحدة آخر من يحق له الحديث عن الديمقراطية لأن سجلاتها في هذا المجال سوداء حالكة، فالإدارات الأمريكية منذ الأربعينيات قامت دائمًا بمساندة أكثر الأنظمة إجراما واستبدادا في العالم الثالث وذلك من أجل المحافظة على مصالحها الاستعمارية وبالمقابل قامت أمريكا بالإطاحة بأنظمة ديمقراطية منتخبة لأنها تهدد مصالحها (كما حدث على سبيل المثال مع حكومة سلفادور الليندي في شيلي)..لكن ما حدث أن أمريكا طالبت الحكام العرب بالديمقراطية وانضمت إليها في ذلك دول الاتحاد الأوروبي فارتعدت فرائص الحكام العرب فزعا مثل الشرطي الجبان في قصة تشيكوف وتسابقوا جميعًا في إقناع الإدارة الأمريكية بأنهم لا يعشقون شيئًا في الدنيا مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، وهم في ذلك لا يلاحظون التناقض المخجل الذي يقعون فيه فعندما يتحدث حاكم عربي، لم ينتخبه أحد، عن احترامه للديمقراطية وحقوق الإنسان بينما السجون في بلاده مكتظة بعشرات الألوف من المعتقلين، يفقد هذا الحاكم احترامه في نظر الغرب والشرق على السواء..

لكن فزع حكامنا من الغضب الأمريكي قد أعماهم عما سواه.. وقد تميز النظام المصري عن بقية الأنظمة العربية بقدرته الفائقة على إطلاق الأكاذيب ولذلك فقد طاف كبار المسئولين المصريين بالعواصم العربية من أجل إخراج نوع من الأكاذيب الحكومية العربية الجماعية تستهدف إقناع السيد الأمريكي بأنهم جميعًا ديمقراطيون.. وهذه الأكاذيب تتلخص فيما يلي:

أولًا: «يؤكد المسئولون في مصر أنهم، ومنذ فترة طويلة، قد بدءوا خطة طموحة للإصلاح

السياسي لكنهم يفضلون تطبيقها خطوة خطوة وليس عن طريق طفرة مفاجئة قد تؤدي إلى زعزعة الاستقرار..» وبصفتي مواطنا مصريا أتساءل أين هذا الإصلاح الديمقراطي؟! لقد تولى الرئيس مبارك السلطة منذ ٢٣ عاما وتعهد في البداية بأن يكتفي بفترتين من الحكم لكنه استمر لفترتين إضافيتين وهو في الغالب سوف يستمر لفترة خامسة.. وهو طوال فترة حكمه لم يخض انتخابات حقيقية واحدة فأين هي الديمقراطية..؟.. بلادنا يحكمها قانون الطوارئ على مدى ربع قرن وعشرات الألوف من المعتقلين السياسيين يقضون أعواما طويلة في السجون بدون محاكمة.. فأين الإصلاح...؟ وماذا عن تزوير الانتخابات ومنع تكوين الأحزاب وإغلاق الصحف التي لا تعجب الحكومة وإهدار أحكام القضاء؟! أين الإصلاح المزعوم؟!.. إذا كانوا يقصدون مجلس حقوق الإنسان فقد صرح المسئول عنه منذ اللحظة الأولى بأنه مجلس بلا سلطات.. أما إلغاء محاكم أمن الدولة والأشغال الشاقة فكلها شكليات في وجود قانون الطوارئ.. ولعل إلغاء عقوبة الحبس في جرائم النشر هو القرار الديمقراطي الوحيد الذي اتخذه الرئيس مبارك.. فهل ننتظر عشرين عاما أخرى من أجل الخطوة الديمقراطية القادمة..؟ ثم ما حكاية الطفرة هذه؟ هل يعتبر منع التعذيب والاعتقال أو تنظيم انتخابات نظيفة من قبيل الطفرة..؟!

ثانيًا: «يؤكد المسئولون المصريون أن الديمقراطية لا يمكن استيرادها من الخارج، وأن لكل مجتمع خصوصيته التي تفرض الطريقة التي يحكم بها وهم يشككون في قدرة المصريين على استيعاب الديمقراطية كما تطبق في الغرب ويتحدثون عن تفشي الأمية واستعمال سلاح المال الذي يجعل من تطبيق الديمقراطية في مصر أمرا بالغ الصعوبة».... وهذه مغالطة فاحشة لأن الديمقراطية ليست بدعة ولا تقليعة نستوردها من الغرب أو نرفضها، لكنها نظام سياسي متوازن توصلت إليه الإنسانية بعد أن مرت بمراحل كثيرة ومعقدة من التطور وبالتالي فإن فكرة الديمقراطية لا تنتمي إلى الغرب وإنما إلى التراث الإنساني بمعناه الشامل كما أنه لا توجد ديمقراطية غربية أو شرقية وإنما توجد ديمقراطية واحدة إما أن نأخذ بها فنكفل الحريات وتداول السلطة واحترام كرامة الإنسان وإما أن نتركها فنقع في الاستبداد بكل ما يستدعيه من فساد وقمع ونهب وإجرام.. ثم ما حكاية الخصوصية التي يزعمون أنها تمنعنا من الديمقراطية؟!.. إذا كان المقصود ثقافتنا الإسلامية.. فإن الإسلام دين العدل والحرية والمساواة وكلها مبادئ ديمقراطية..أم إن الإسلام في رأيهم يشجع على التعذيب والاعتقال وانتهاك الأعراض

والفساد والاستبداد..؟! أما الذين يقولون إن الأمية والعصبية واستعمال المال.. عوامل تعرقل الديمقراطية في مصر، فهم ينسون أو يتناسون أن التجربة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢) بالرغم من سلبياتها، قد حققت إنجازات مضيئة.. في تلك الفترة كان معدل الأمية أكبر منه الآن كما كانت العصبية العائلية أشد منها اليوم، وقد دأب كبار الإقطاعيين على استعمال سلاح المال من أجل شراء الأصوات لصالح حزب الأحرار الدستوريين الذي ينتمي إليه معظمهم، وبالرغم من كل ذلك فإن أية انتخابات تمت بنزاهة خلال تلك الفترة كانت تؤدي حتما إلى اكتساح حزب الوفد وفوزه بالأغلبية مما يؤكد أن الرأي العام في مصر كان واعيا لاختياره الصحيح، وكثيرا ما كان حزب الوفد يرشح أعضاءه بعيدًا عن معاقلهم الانتخابية بل وكثيرا ما كان يرشح المسلمين في دوائر الأقباط والعكس، وكانوا دائمًا يكتسحون الانتخابات لأن ثقة المصريين في الوفد كانت تتغلب على أي اعتبار آخر.. وهذا التاريخ المشرف يؤكد مدى ما يتميز به المصريون من وعي سياسي حقيقي إذا ما أعطيت لهم الفرصة.

ثالثا: «يؤكد حكامنا أن قضية فلسطين هي السبب الرئيسي وراء تأخر الديمقراطية.. وهم يشترطون التوصل إلى حل نهائي للقضية الفلسطينية قبل تطبيق الديمقراطية في مصر..».. وهذه حجة بليدة وكلام فارغ حقا.. فما علاقة قضية فلسطين باستبداد الحكم في مصر؟!.. قد يكون لهذا الكلام أي معنى إذا كنا في حالة حرب لكننا منذ ربع قرن وضعنا سلاحنا ووقعنا معاهدة كامب ديفيد.. وقيل للمصريين وقتها إن الصلح مع إسرائيل والتغاضي عن واجبنا القومي سوف يؤدي حتما إلى الديمقراطية والرخاء.. وبعد ربع قرن ازداد الحكم استبدادا وازداد المصريون فقرا.. تنازلنا في كامب ديفيد عن كرامتنا مقابل لقمة العيش ففقدنا كرامتنا ولقمة العيش معا..إن قضية فلسطين لا تصلح ذريعة لتأجيل الديمقراطية.. بل إن هزائمنا المتوالية أمام إسرائيل نجمت كلها عن قرارات خاطئة صدرت عن أنظمة لا مجال فيها للرأي الآخر.

وبعد.. فإن كل محاولات حكامنا للتنصل من الديمقراطية أو تأجيلها لن تجدي لأن الديمقراطية حق طبيعي للناس سوف ينتزعونه مهما طال حرمانهم منه.. الديمقراطية هي الحل ولا حل سواها وإذا كان لدى هؤلاء الحكام بقية من حكمة فإن عليهم أن يبدءوا التحول الديمقراطي الآن.

كلمات للتأمل:

* «أزمة الاقتصاد المصري في تصاعد مستمر.. في شهر واحد في مدينة ٦ أكتوبر وحدها، تم إغلاق ١٥٠ مصنعا وتشريد أكثر من ٤٠ ألف عامل مع أسرهم..وهذه الظاهرة تتكرر في كل مكان..»

جريدة ميدل إيست تايمز

* «المطلوب من الدولة أكثر من ١٤٠ مليار جنيه في حين أن مجمل مواردنا لا يتجاوز ١١٦ مليار جنيه.. وبالتالي أصبحنا غير قادرين على الوفاء بالتزاماتنا..»

الرئيس حسني مبارك

* «.. اطمئنوا جميعًا.. الفائض في دخل الدولة هذا العام مليار و٩٠٠ مليون دولار.. وكمان.. نجحت مصر في تحقيق معدل نمو اقتصادي أعلى من المتوسط في العالم كله.. الحمد لله..»

عاطف عبيد

* «السيد هانز ميريكي رئيس شركة آي بي إم العالمية، أشاد بالجهود التي تبذلها السيدة سوزان مبارك قرينة الرئيس للنهوض بالمرأة المصرية وتطوير الخدمات المقدمة لها..»

جريدة الجمهورية

* «تعليق النساء من الأرجل والأيدي والضرب المبرح والصعق بالكهرباء في أعضائهن الحساسة وهتك أعراضهن وتلفيق قضايا دعارة لهن.. كل هذه ممارسات عادية تتعرض لها المرأة المصرية بانتظام بواسطة رجال الشرطة.. وقد رصدت جمعيات حقوق الإنسان ٥٠ حالة تعذيب تعرضت لها النساء في ثلاثة أقسام شرطة فقط هي: حلوان والوايلي والشرابية..»

جريدة الأهالي

* «رئيس جمهورية إيطاليا السيد تشامبي، يرى في الرئيس مبارك: القائد، الحكيم، صاحب الرؤية الثاقبة، صاحب الصوت المؤثر، الصديق الذي يمكن الاعتماد عليه في الشدائد.. وفي غير الشدائد أيضا..»

سمير رجب

المحاولة القادمة للدجاجة(*)

ذهب رجل في زيارة لمزرعة دواجن يملكها صديق له فوجد أمامه منظرا بشعا: عشرات الدجاجات محبوسة في أقفاص ضيقة للغاية وقد تم تسليط كشافات من الأضواء المبهرة على عيونها، ولما استفسر الزائر أجابه صاحب المزرعة بأن هذه الطريقة المثلى لمضاعفة بيض الدجاج.. أن تحبسه وتمنعه من النوم تماما ولا يهم بعد ذلك أن يصاب الدجاج بالجنون أو يموت لأنه يكون قد أنتج المطلوب منه من البيض. وأحس الزائر بشفقة بالغة على هذه الدجاجات المعذبة المصلوبة وتملكته رغبة في أن يفعل شيئًا ولو رمزيا من أجلها فانتهز فرصة انشغال صاحب المزرعة بعيدًا عنه ومد يده وفتح باب أقرب الأقفاص إليه ثم ابتعد بسرعة مفسحا للدجاجة حتى تهرب.. لكن الدجاجة اقتربت ببطء من الباب المفتوح ومدت رأسها وتطلعت بحذر إلى الخارج ثم استدارت وعادت إلى داخل القفص..

هذه القصة البديعة قرأتها من سنوات للأديب الكبير محمد المخزنجي. وقد جعلتني، شأن الأدب الجيد دائمًا، أفكر وأتساءل: لماذا لم تهرب الدجاجة وقد تأكد لها أن القفص مفتوح؟!.. هناك احتمالان: إما أن الدجاجة لا تعرف معني الحرية أساسا.. أو أن الدجاجة من طول عهدها بالسجن تعودت عليه وأصبحت تخاف الحرية.. على أنني مع الوقت فكرت في تفسير ثالث إذ إن التخلص من السجن الطويل لا يمكن أن يأتي مرة واحدة، ولو أن القصة طالت قليلًا لرأينا الدجاجة وهي تعود إلى الباب المفتوح مرة بعد مرة حتى تستجمع شجاعتها في النهاية وتنطلق إلى الحرية. أتذكر قصة محمد المخزنجي دائمًا وأنا

(*) العربي ٨/ ٢/ ٢٠٠٤.

أتأمل أحوال المصريين، فالحالة المصرية لم تعد تحتمل: الغلاء والفقر والبطالة، والفساد والاستبداد والقمع، حكومات فاسدة وفاشلة جثمت على أنفاسنا ما يقرب من ربع قرن حتى أوصلتنا إلى الحضيض في كل المجالات بدءا من الاقتصاد والزراعة والصناعة وحتى الرياضة والبحث العلمي، فشلوا في كل شيء وأفقرونا ونهبوا ثروات مصر وأضاعوا كرامتنا وما زالوا يحدثوننا عن إنجازاتهم، هذا الواقع المؤلم يطحن المصريين كل يوم لكنهم بالرغم من ذلك لا يثورون، ترى الناس في مصر يتابعون مباريات الكرة ومسلسلات التليفزيون ويجلسون إلى المقاهي كأن شيئًا لا يعنيهم أو كأن كل هذا البلاء يقع على شعب آخر سواهم.. كثيرا ما تساءلت: لماذا لا يثور المصريون؟ هل فقدوا إحساسهم بالعدل والحرية..؟! هل قتل الاستبداد الطويل في الإنسان المصري روح الثورة..؟ لم أعرف إجابة هذه الأسئلة إلا يوم ٢٠ مارس الماضي.. فمنذ اللحظات الأولى للعدوان الأمريكي على العراق، خرج ملايين المصريين في محافظات مصر يتظاهرون ضد العدوان، ونزلت إلى ميدان التحرير فوجدت مشهدا لن أنساه: عشرات الألوف من المصريين يهتفون ضد النظام ورجال الحكم ويحملون لافتات يطالبون فيها بالعدل والحرية، كان العدوان على العراق مجرد شرارة أشعلت غضب المصريين الكامن على سياسات حكامهم، كان المتظاهرون من كل الأعمار والطبقات: محجبات وسافرات، صحفيين وأدباء ومهنيين وطلبة جامعة وثانوي، إسلاميين ويساريين ومواطنين عاديين.. وقد أُصيب النظام ذلك اليوم بفزع بالغ جعله يتعامل مع المتظاهرين بوحشية شديدة.. وبالرغم من ذلك استمرت المظاهرات بشكل أعنف في اليوم التالي..وهنا استخدمت قوات الأمن المصرية وسائل تخجل منها أعتى جيوش الاحتلال، فتم الاعتقال العشوائي لألوف المصريين وتم إطلاق الأعيرة المطاطية على المتظاهرين وتم انتهاك حرمة عشرات النساء وتجريدهن من ملابسهن أمام الناس وضربهن وسحلهن على الأرض.. وبفضل هذا الإجرام تمكنت السلطات من إخماد المظاهرات.. وأدركت يومئذ بوضوح أن الشوق إلى العدل ما زال يملأ قلوب المصريين وأن الهدوء البادي عليهم لا يعكس تبلدا وإنما هو مجرد قشرة ظاهرية تخفي تحتها غليانا حقيقيا قد ينفجر في أية لحظة. والسؤال لماذا لم يؤدِ هذا الاحتجاج الشعبي العارم في مارس الماضي إلى تحقيق مطالب الناس..؟! والإجابة لأننا تركنا المتظاهرين يواجهون وحدهم قمع السلطة ولم يقف معهم أحد.... وفي أي بلد في العالم يتظاهر الناس محتجين على سياسات الحكم فإذا تم اعتقالهم تكونت فورا لجان من المثقفين للدفاع عن حقوقهم والتفاوض باسمهم مع

الحكومة.. إلا في مصر في السنوات الأخيرة.. صار الناس يتظاهرون ويُضربون ويُعتقلون والمثقفون صامتون لا ينطقون بكلمة.. ولو أن مظاهرات مارس الماضي تبنتها الأحزاب المصرية حتى النهاية واعتصم رؤساء الأحزاب دفاعا عن الناس لتغيرت أشياء كثيرة في مصر.. لكنهم لا يفعلون.

منذ أيام قليلة التقى الرئيس مبارك بمن أسمتهم صحف الحكومة «صفوة المفكرين» في مصر.. وتحدثوا مع الرئيس طويلا في أمور الشرق والغرب ولم يتكلم واحد منهم عن الواقع المؤلم الذي يعاني منه ملايين المصريين.. كاتب واحد شجاع هو الدكتور محمد السيد سعيد قام وطلب من الرئيس مبارك الموافقة على تعديل الدستور حتى يختار المصريون رئيسهم القادم من بين أكثر من مرشح، ورفض الرئيس ذلك المبدأ قائلا إن هناك مخاطر تمنع ذلك..!! ولم يجرؤ واحد من «صفوة المفكرين» على أن يسأل الرئيس مبارك ما هذه المخاطر التي تمنع الناس من حقها الطبيعي في اختيار من يحكمها؟ وكيف تعجز أجهزة الأمن المصرية الجبارة عن توفير جو آمن لانتخابات الرئاسة..؟! وهل يعقل أن يرشح الرئيس مبارك شخصا لخلافته فيفرضه على الشعب المصري..؟..ألا يتناقض هذا مع ما أكده الرئيس نفسه أكثر من مرة عن إيمانه بأن الشعب يجب أن يختار رئيسه بكل حرية..؟.. أسئلة منطقية وحقيقية لم يجرؤ واحد من «صفوة المفكرين» على طرحها على الرئيس مبارك خوفا طبعا من إغضابه ويبدو أن غضب الرئيس عند بعضهم أهم وأخطر من مستقبل بلادهم..

وبعد هذا اللقاء المحزن اجتمعت مجموعة أخرى من «صفوة المفكرين» بوزير الثقافة فاروق حسني في معرض الكتاب وقام الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي وتكلم عن ضرورة الإصلاح السياسي وهنا، انتاب فاروق حسني غضب بالغ وقال إن الإصلاح السياسي في مصر يحتاج إلى ربع قرن على الأقل ويجب أن يبدأ أولًا في المدرسة الابتدائية ثم تساءل الوزير ساخرا: مش نعرف الأول من سينتخب قبل أن نعطي له حق الانتخاب؟.. وهذا الكلام غريب جدا.. فالإصلاح السياسي لا يحتاج إلى ربع قرن ولا يبدأ أبدا في المدارس الابتدائية بل يحتاج ببساطة إلى تطبيق خطوات الديمقراطية المعروفة وأولها انتخابات نظيفة غير مزورة إذا حدثت فسوف تطيح فورا بالسيد فاروق حسني ومن معه من الوزراء المفروضين علينا.. والمحزن أيضا لهجة التعالي التي تحدث بها فاروق حسني عن شعب عظيم يفترض أنه يمثله، والواضح أن الوزير ربما لكثرة مشاغله لم يقرأ تاريخ مصر

جيدا ولو أنه قرأه لعرف أن الشعب المصري قد مارس الديمقراطية الحقيقية على أرفع مستوى منذ أكثر من مائة عام حتى ابتلاه الله أخيرا بحكومات الحزب الوطني التي أتت بفاروق حسني وزيرا للثقافة.. وأنا أنصح الوزير هنا بأن يقرأ ولو ملخصا صغيرا لكتاب طارق البشري عن الحياة السياسية في مصر ليدرك حجم الخطأ الذي وقع فيه، أما أكثر ما يحزن في هذه المسخرة فهو أن «صفوة المفكرين» الجالسين أمام الوزير لم يفتح واحد منهم فمه ليدافع عن الشعب المصري ضد سخرية الوزير، وهؤلاء الصامتون ليسوا مواطنين عاديين بل هم مثقفون كبار وبينهم من كان حتى وقت قريب من أبرز المؤرخين للحركة الوطنية في مصر، لكن حرصهم على إرضاء الوزير فاق حبهم للحق.. إن تقاعس المثقفين المصريين عن أداء واجبهم الوطني نحو الأمة ظاهرة مؤسفة بقدر ما هي حقيقية.. على أن الشعب المصري لن ينتظر إلى الأبد هؤلاء الذين يسكتون من أجل مصالحهم الصغيرة.. إن المصريين على عكس ما يبدو عليهم أحيانا، يفهمون تماما ما يحدث في بلادهم، وهم سينتفضون قريبا لرفع الظلم عنهم، ولا يمكن أن تنتزع حقوق ملايين الناس ويلقى بهم في براثن الفقر والبؤس والبطالة.. ثم لا يثورون دفاعا عن حياتهم ومستقبل أولادهم..إن التغيير قادم لا محالة، إن لم يكن برضا الحكام فسوف يتم رغما عنهم.. فشلت محاولة واحدة للدجاجة لكنها، في محاولة قادمة وشيكة، حتما ستنتزع حريتها.

كلمات للتأمل:

* «مصر أكبر دولة ديمقراطية في المنطقة..»

الرئيس حسني مبارك

* «مجلس الشعب المصري لديه صلاحيات أكبر من الكونجرس الأمريكي.. ومهما تكن أحكام المحكمة الدستورية العليا فسوف يظل مجلسنا شرعيا ودستوريا في جميع الظروف والأحوال»

فتحي سرور

* «ليس مقبولا أبدا أن يرتفع سعر قرص الطعمية إلى ستين قرشا.. لا سيما إذا أخذنا في الاعتبار بأن أي أسرة متواضعة تحتاج في غذائها بجانب الطعمية.. إلى بعض الجبنة..»

سمير رجب

* «عندما تسلم الرئيس مبارك الحكم عام ١٩٨١ أكد أنه سيحكم لفترتين فقط وفي العام القادم ٢٠٠٥ سيكون قد أتم فترته الرابعة في الرئاسة وقد تم ذلك عن طريق استفتاءات يحصل فيها عادة على نسبة تتراوح بين ٩٦٪ و٩٨٪..»

جريدة سويس ريفيو السويسرية

* «سيادة الرئيس مبارك.. كان قرارك دائمًا تجسيدا للإصرار على تحقيق حياة آمنة وكريمة لكل مواطن..»

حبيب العادلي

* «ضابط المباحث في قسم باب شرق في الإسكندرية اختطف فتاة عمرها ١٥ عاما وخلع ملابسها وحبسها عارية مع المحتجزين ثم حمل ملابسها الداخلية إلى أسرتها وقال لهم: إذا لم تعترفوا كما أريد فسوف أجعل المحتجزين يغتصبون ابنتكم ثم ألفق لها قضية دعارة..»

جريدة الأهالي

أصحاب الفخامة.. هنا خط النهاية!(*)

منذ أن أعلن العقيد «معمر القذافي» توبته ودخوله في طاعة أمريكا وقام بتسليمها أسراره العسكرية كلها، لا ينقطع الدبلوماسيون الغربيون عن زيارة ليبيا.. وقد نقلت الصحافة الأمريكية في الشهر الماضي حوارا مدهشا قام به عضو في الكونجرس يدعى السناتور جوزيف بايدن كان في زيارة إلى ليبيا فإذا به، فجأة، يسأل القذافي أمام الصحفيين:

سيادة العقيد.. هل تعتقد أن ليبيا بلد ديمقراطي..؟

وأجاب القذافي بثقة: طبعا.. ألا تعلم أن ليبيا جماهيرية شعبية ديمقراطية..؟! نعم ولكن إذا كانت ليبيا ديمقراطية فعلا.. فهل يستطيع المواطنون الليبيون أن يعزلوك وينتخبوا رئيسا بدلا منك إذا أرادوا ذلك..؟!

لا.. أنا أتمتع بحق خاص في رئاسة هذا البلد لأنني قمت بالثورة الليبية.

لكن جورج واشنطن قام بالثورة الأمريكية لكنه مع ذلك لم يحكم أمريكا أكثر من ثماني سنوات.. وأنت تحكم بلادك منذ ٣٥ عاما.

وهنا لاذ القذافي بالصمت وأراد المستر بايدن أن يكون لطيفا فقال: سيادة العقيد..أنا كمواطن غربي أحسدك على الاطمئنان الذي تتمتع به هنا.. فأنت لا تحمل همًّا لإعادة انتخابك وليس هناك أي احتمال لأن تفقد عملك كما يحدث عندنا في الغرب.

وقد تذكرت هذا الحوار وأنا أشاهد ما حدث في قمة تونس، العراق تم تدميره

(*) العربي ٤/ ٤/ ٢٠٠٤.

واحتلاله والقواعد الأمريكية في معظم البلاد العربية، والفلسطينيون يُذبحون كل يوم، وقد تم اغتيال الشيخ المقعد المجاهد أحمد ياسين بعد ما أدى صلاة الفجر، وعشرات الملايين من العرب يعانون من البطالة والفقر والقمع، ويحين وقت مؤتمر القمة فيتلكأ الحكام العرب ويتقاعسون تفاديا لمطالب الإصلاح التي قد تهدد عروشهم أو خوفا من غضب أمريكا إذا أعلنوا دعمهم (حتى بالكلام) للمقاومة في العراق وفلسطين.. وبعد الثرثرة والأخذ والرد والتردد والتنطع.. نصل إلى مشهد عبثي فإذا بالرئيس التونسي يفاجئ الجميع ويصدر أمرا بفض السامر وطرد المعازيم من وزراء الخارجية العرب، ويطلب هؤلاء إيضاحات فلا يهتم بهم أحد ويحاولون مقابلة الرئيس زين العابدين فيرفض مجرد رؤيتهم..إنها حقا مهزلة أو مأساة، كانت سببا في إشعال الغضب العربي فانفجرت المظاهرات في معظم العواصم العربية وصب المتظاهرون غضبهم على الحكام واتهموهم بالتخاذل والفشل.. كل هذا الغضب صادق ومشروع لكن علينا أن نسأل: لماذا انحدر حكامنا إلى هذا الدرك الأسفل؟! هل يرجع ذلك إلى طباعهم الشخصية..؟! هل لو جاء بدلا منهم مثلا حكام آخرون يتميزون بالقوة والشجاعة لتغيرت سياساتهم؟!.. قد يعتقد البعض أن المشكلة في شخصيات بعض الحكام.. وهذا تصور ساذج وخاطئ، فالمشكلة ليست في أشخاص الحكام وإنما في الطريقة التي يتولون بها السلطة وهنا نستعيد ما قاله القذافي للسناتور الأمريكي لأنه يعكس تفكير حكام العرب جميعًا.. المسألة ببساطة أن الحاكم في بلادنا يعتبر السلطة حقا مطلقا له، سواء آلت إليه بالوراثة أو اغتصبها عن طريق انقلاب عسكري، وهو لا يفهم أن يتنازل عن أية مساحة من السلطة لأي شخص آخر، وهو لا يتورع عن ارتكاب مذابح يروح ضحيتها عشرات الألوف من مواطنيه من أجل الاحتفاظ بعرشه (كان اللواء زكي بدر وزير الداخلية الأسبق يعلن أنه على أتم استعداد لأن يقتل مليون مصري من الجماعات الإسلامية حتى يستتب النظام !..)، الحاكم الذي يغتصب السلطة لن يشغله إلا الاحتفاظ بها مهما كانت مزاياه الشخصية وهو على استعداد لأن يرتمي في أحضان إسرائيل وأن يتحول إلى تابع صغير للدول الكبرى من أجل أن يبقى.. في كل بلادنا العربية لا يوجد حاكم عربي واحد منتخب.. وفي ضوء هذه الحقيقة ربما نفهم ظواهر كثيرة: لماذا تفشل مؤتمرات القمة العربية دائمًا حيث لا يهتم الحاكم بواجبه نحو الأمة لكنه يكرس كل مجهوده من أجل إرضاء أمريكا والتآمر مع

أية جهة للحفاظ على السلطة، ولماذا تنجح دائمًا مؤتمرات وزراء الداخلية العرب حيث يتبادل المجتمعون خبراتهم في فنون التعذيب والتنكيل بالمعارضين، ومن هنا نفهم أيضا كيف تنفق الحكومة، في بلد فقير ومدين مثل مصر، مبلغ ٤ مليارات جنيه سنويا على الأمن المركزي من أجل استعماله في القمع الوحشي لكل من تسول له نفسه الاعتراض على الحاكم..

إن التخلف المحزن الذي هبط بمنزلة العرب إلى مؤخرة الأمم، يعود بلا شك إلى تآمر الدول الكبرى ومحاربتها لمحاولات النهضة العربية، ويعود أيضا إلى العدوان الصهيوني على مدى نصف قرن، لكنه قبل هذا وذاك يعود إلى الاستبداد، السبب الأصيل في كل ما نعانيه من تخلف وهزائم ومهانة، أن الاستبداد لا يعني فقط الانفراد بالحكم لكنه يعني نظاما سياسيا فاشلا وظالما يستدعي معه بالضرورة مجموعة مصائب: القمع وإهدار آدمية المواطن والفساد وانعدام الشفافية وتكوين الثروات على حساب الشعب الفقير وزوال الفرق بين ميزانية الدولة وأموال الحكام، الاستبداد يدفع الحاكم إلى اتخاذ قرارات خاطئة يدفع ثمنها ملايين الناس بغير أن يجرؤ أحد على مراجعته، هل كان بمقدور أنور السادات أن يوقع اتفاقية كامب ديفيد إذا كانت مصر تنعم بالديمقراطية؟.. وهل كان برلمان عراقي حقيقي ومنتخب سوف يوافق صدام حسين على غزو الكويت..؟! الاستبداد يؤدي بالوطن حتما إلى الكوارث ويدفع بالمواطنين إلى الجبن والسلبية وضعف الانتماء ويعتمد الرشوة والنفاق والانتهازية كوسائل مؤكدة للوصول إلى المناصب وبالمقابل يتم حرمان البلاد من الكفاءات الحقيقية وأصحاب الشخصيات المحترمة لأنهم غير متعاونين مع النظام..حكامنا جميعًا على شاكلة واحدة لأنهم مغتصبون للسلطة وهم يسعون جاهدين إلى استرضاء الولايات المتحدة لتسمح لهم بالاحتفاظ بعروشهم وتوريثها للأنجال إن أمكن.. إلا أن الأحداث الملتهبة المتوالية في العالم العربي قد أفسدت مخططاتهم.. وهم مرتبكون ومرتعدون ولا يعرفون حقا كيف يتصرفون..إذا أعلنوا دعمهم للمقاومة أغضبوا أمريكا وإذا استجابوا إلى مطالب الإصلاح قد تضيع مقاليد الحكم من أيديهم كما أن الحضيض الذي أوصلوا شعوبهم إليه لم يعد يسمح بالمزيد من القمع، وقد دلّت مهزلة تونس الأخيرة على أن هذه الأنظمة قد فقدت صلاحيتها.. فلا يجب أن ننتظر منهم إصلاحا لأن فاقد الشيء لا يعطيه.. والحكام الذين يحميهم الأمن المركزي ومباحث أمن الدولة لن يصدقهم أحد إذا تحدثوا عن حقوق

الإنسان.. والذين فتحوا أرضهم وسماءهم للقوات الأمريكية حتى تضرب العراق والذين يرحبون باستقبال الصهاينة القتلة في بيوتهم..هؤلاء لن يصدقهم أحد إذا تحدثوا عن الحقوق العربية..يا أصحاب الفخامة.. هنا نهاية الخط.. لقد بدأ العد التنازلي، غدا أو بعد عام أو حتى بضعة أعوام سوف تنقلبون عن عروشكم وعندئذ سوف يتنفس الناس هواء نظيفا ويبدءون حياة كريمة في ظل ديمقراطية حقيقية.

* * *

في حديث أدلى به الرئيس حسني مبارك إلى جريدة لوفيجارو الفرنسية سأله المحرر:

سيادتك توجد في السلطة منذ ٢٣ عاما..وسوف تنتهي رئاستك عام ٢٠٠٦.. فهل تنوي سيادتك ترشيح نفسك لفترة أخرى..؟

وقد أجاب الرئيس مبارك قائلا:

«ما زال هناك عامان ولا يمكن التنبؤ بالمستقبل، والرئاسة ليست أمرا سهلا خصوصا في بلد مثل مصر وفي المرة الأخيرة تم فرض الترشيح عليَّ والعالم كله يعلم ذلك».

والحق أنني قرأت كلام الرئيس مبارك أكثر من مرة لكنني لم أفهمه، ووجدتني أتساءل لماذا تكون الرئاسة في مصر أصعب منها في دول الغرب؟ مع أن الرئيس هناك يخوض انتخابات عنيفة ضد أكثر من مرشح وهو يحكم مدة أو مدتين ثم يترك الفرصة لغيره كما يخضع إلى محاسبة دقيقة ومرهقة من برلمان منتخب بجد.. وكل هذا لا يحدث في مصر..؟!.. ثم هل يعني كلام الرئيس أنه لم يقرر بعد إذا كان سيرشح نفسه لفترة رئاسية جديدة..؟.. وإذا كان سيادته سيرشح نفسه فكيف يتفق ذلك مع حديثه عن الديمقراطية والإصلاح السياسي، ألا يقتضي هذا الإصلاح على الأقل أن يكتفي الرئيس مبارك بالفترة التي حكم فيها البلاد ويتنحى عن منصبه ليترك المصريين يختارون رئيسا لهم بين أكثر من مرشح، لقد اندهشت من تأكيد الرئيس أن الرئاسة قد فُرضت عليه وأن العالم يعرف ذلك، ولم أفهم فعلا من الذي فرض هذه الرئاسة..؟.. إذا كان المقصود بذلك المظاهرة المعتادة من أعضاء مجلسي الشعب والشوري بقيادة الدكتور مصطفى كمال حلمي، الذين يذهبون إلى الرئيس كلما رشح نفسه لفترة جديدة ومعهم وثيقة مبايعة يقولون إنهم كتبوها

بدمائهم.. فهل يعتبر الرئيس مبارك مبايعات الدم هذه شيئًا حقيقيا وصادقا فعلا..؟!.. أتمنى أن يراجع الرئيس مبارك نفسه ويتخذ قرارا كريما بالاكتفاء بالسنوات التي قضاها في السلطة وأن يمنح المصريين فرصة يستحقونها من أجل أن يبدءوا عهدا من الديمقراطية الحقيقية.. ولسوف يكون هذا جميلا لن تنساه مصر لسيادته أبدا.

كلمات للتأمل:

* «بالنسبة للمبلغ أنا ممكن أستلمه يورو ودولارات وريالات..بالنسبة لليورو والدولارات ما فيش مشكلة.. أما الريالات فأنا محتاجها فعلا.. لأني بإذن الله ناوي أحج السنة الجاية..»..

أحمد عبد الفتاح
مستشار وزير الزراعة وهو يطلب رشوة مليون جنيه..

* «من المعروف أن البرسيم ضروري للإنسان والحيوان..»

يوسف والي

* «ركعت على الأرض وقعدت أبوس جزمة الضابط وليد الشبراوي في قسم المرج.. عشان يبطل تعذيب في ابني لكنه ضربني بحذائه وشدني من الطرحة وسحلني على الأرض.. ومسك ابنتي عزيزة من صدرها وسحلها في الشارع معايا..»

المواطنة فاطمة أحمد بكر

* «ضباط المباحث في قسم الرمل قاموا بتعذيب المواطن محمد إبراهيم السيد وظلوا يصعقونه بالكهرباء وخلعوا ثياب خطيبته وخالته وزوجة أخيه وهددوه بهتك عرضهن أمام عينيه، مما اضطره في النهاية إلى الاعتراف بأنه قتل جدته مع أنه هو الذي أبلغهم بموتها.. ولم تمض أيام حتى تم القبض على القاتل الحقيقي واسمه محمد فتحي..»

جريدة الأهالي

* «إن ديمقراطية مصر تنفرد بها في هذه المنطقة من العالم.. والفضل طبعا يرجع إلى توجيهات الرئيس مبارك..»

صفوت الشريف

من ينتخب الرئيس القادم؟!(*)

(١)

حدثت هذه الواقعة من أسابيع..

ذهبت إلى مدينة نصر لقضاء مصلحة خاصة.. كان الطريق خاليًا ولم يكن المشوار عادة يستغرق ساعة لكنني في طريق العودة فوجئت بأن الطريق قد أغلق تمامًا.. آلاف السيارات احتشدت فوق الكباري وفي الشوارع.. ومرت ربع ساعة على هذه الحال فتصورت أن حادثًا عارضًا قد أوقف المرور لكنني علمت من المواطنين المحبوسين في سياراتهم أن السيد رئيس الجمهورية ذهب ليشترك في مناسبة ما وأنه من أجل تأمين موكب سيادته يتم إغلاق جميع الشوارع التي يمر بها وهكذا يتم احتجاز آلاف المصريين في الشارع حتى تتأكد أجهزة الأمن من أن الرئيس قد عاد إلى مقره بسلامة الله.. وقد ظللت محبوسًا علىِ الكوبري أكثر من ساعة وفجأة انفتح باب السيارة المجاورة لي نزل منها رجل مسن وقال بصوت عال موجهًا حديثًا إلينا:

«يا جماعة أنا متأسف أنا عندي السكر ولا أقدر أن أحبس البول».

مشى الرجل ببطء حتى وقف وراء سيارته ثم فك أزرار بنطلونه وبدأ يتبول أمامنا وعلى وجهه علامات الألم والحرج.

مثل هذه المواقف الغريبة المؤلمة يعرفها المصريون جيدًا وقد قرأت أن سيدة من الإسكندرية حامل في شهورها الأخيرة قد فاجأها نزيف حاد وهي معتقلة في سيارتها (بسبب

(*) العربي ٢٠٠٣.

موكب رئاسي) فلم تجد من يسعفها حتى تم إجهاضها وكادت تفقد حياتها.. والمدهش أن أحدًا لم يفكر في مطالبة المسئولين بأن تكون تحركات السيد الرئيس باستعمال طائرات الرئاسة بدلًا من هذه المواكب التي تؤدي إلى إغلاق الشوارع بالساعات.. على أن هذا السلوك من أجهزة الأمن يعكس بوضوح طبيعة النظام السياسي في بلادنا.. فالدولة في مصر تقوم على شخص الرئيس وأجهزتها جميعًا مسّخرة لحمايته وخدمته.. ومن أجل تأمين موكب سيادته لا يجد المسئولون حرجًا ولا غضاضة في حبس عشرات الألوف من المصريين وتعطيلهم على مدى ساعات.. فهؤلاء في نظرهم ليسوا مواطنين بل رعايا لا بأس من احتجازهم في الشوارع بل وضربهم واعتقالهم إن لزم الأمر، وحتى لو كان بينهم مرضى أو مسنون أو سيدات حوامل.. ما أهمية ذلك؟ المهم أن يذهب السيد الرئيس إلى المناسبة التي يحضرها ويعود في أمان الله.. هذه النظرة الاستعلائية إلى المواطنين لا توجد في البلاد الديمقراطية حيث يتم تداول السلطة عن طريق انتخابات حرة يتقدم فيها لمنصب الرئاسة أكثر من مرشح يختاره الناخبون.. هناك لا يمكن أن تقمع الحكومة المواطنين لأن لهم كرامة وقيمة ولأنهم يستطيعون أن يسقطوا الرئيس كما أنجحوه عن طريق صناديق الاقتراع.. أما في بلادنا المنكوبة بالديكتاتورية فإن الرئيس لا يمكن تنحيته عن منصبه أبدًا وهو يعتمد في بقائه ليس على أصوات الناخبين وإنما على أجهزة أمن كثيرة وجبارة لا تعرف الرحمة إذا تعلق الأمر بحماية السلطة.

(٢)

الدكتورة ميرفت التلاوي سيدة مصرية نابهة تولت بفضل كفاءتها أعلى المناصب في الدولة حتى صارت سفيرة مصر في اليابان ثم اختارها الدكتور كمال الجنزوري وزيرة للشئون الاجتماعية في حكومته وظلت في الوزارة حتى أقيل الجنزوري فأقيلت معه.. وكعادتنا في مصر لم يعرف أحد حتى الآن أسباب إقالة حكومة الجنزوري (ولا أية حكومة أخرى).. هذا الأسبوع فقط قصت ميرفت التلاوي ما حدث في الوزارة على الأستاذ حمدي رزق في مجلة المصور.. قالت إن صلاحياتها كوزيرة كانت قليلة جدًا وأنها لم تكن تملك تنفيذ أية مشروعات في نطاق وزارتها بل كان عليها دائمًا أن تنتظر تعليمات رئيس الوزراء (الذي ينتظر بدوره تعليمات رئيس الجمهورية).. وهي قد تقدمت بمشروع لتطبيق الرعاية الاجتماعية على ربع مليون مواطن فقير في مصر

فرفضه الدكتور الجنزوري وعندما حاولت أن تدافع عن حق هؤلاء الفقراء في إعانة مالية.. قال لها الجنزوري ليحسم الأمر: «ليس لدينا فقراء في مصر».. بل إن رئيس الوزراء قد أعطاها تعليمات باستثمار ٩٠٠ مليون جنيه من أموال التأمينات في البورصة ولم تكن تملك إلا تنفيذ التعليمات.. أما كيف يتم تنسيق العمل بين وزراء مصر فالسيدة ميرفت تقول بالحرف: في مصر.. لا يوجد تطبيق حقيقي للعمل الجماعي، وأي توضيح أو إضافة يعتبرها (الوزراء) الآخرون نقدًا أو تعديلًا، وليس هناك تكامل أو إطار عام نتبعه (كوزراء).. وبعض الوزراء أخذوا كثيرًا من اختصاصات وزارة الشئون الاجتماعية مما أدى إلى الازدواجية في العمل.

حكاية التلاوي مع الجنزوري مثل حكايات كثيرة مشابهة تفسر لنا أسباب الفشل الذريع للحكومات المصرية المتعاقبة في تحقيق أي إنجاز يذكر.. والحق أن ميرفت التلاوي وكمال الجنزوري وكثيرون غيرهم من الوزراء عرفوا بكفاءتهم قبل توليهم الوزارة وكثير منهم حصلوا على مناصب رفيعة في المؤسسات الدولية لكنهم بمجرد دخولهم إلى الوزارة يتعثرون ويفشلون.. والسبب في ذلك ليس تقصيرًا منهم بقدر ما هو نتيجة للنظام السياسي القائم في مصر.

فالرئيس مبارك يختار وزراءه بناء على تقارير سرية وهو يقيلهم في أية لحظة بغير أن يعلن السبب. وهذه السلطة المطلقة تحيل الوزراء إلى مجموعة من الموظفين الذين ينتظرون تعليمات الرئيس لتنفيذها وهم بطبيعة الحال يتخوفون من اقتراح أي فكرة جديدة لأنها مهما تكن عظيمة في رأيهم ربما تغضب الرئيس أو يجدها سخيفة فيلومهم وقد يعزلهم.. وزراؤنا للأسف، كثيرًا ما يشبهون تلاميذ صغار يقفون في وجل أمام حضرة الناظر.. فالنظام يبدأ وينتهي عند الرئيس ولا سلطة لأحد سواه.. وبالتالي فإن رأي المصريين في أداء أي وزير لا يهمه كثيرًا ما دام حائزًا على رضا الرئيس.. والعكس صحيح.. فكثير من الوزراء ظلوا في مواقعهم طويلًا برغم سخط الرأي العام عليهم.. ووزراء آخرون أحبهم الناس واحترموهم فتمت إقالتهم فجأة بدون سبب.. لهذه الأسباب تتدهور الأحوال دائمًا في ظل أنظمة الحكم الاستبدادية.. أما في ظل الديمقراطية فإن صلاحيات الوزير تكون كبيرة لأنه يتولى منصبه بعد أن يفوز بثقة المواطنين في انتخابات محترمة، وبالتالي فإن ما يشغل الوزير الديمقراطي صورته أمام الناخبين وليس أمام رئيسه، وهو يسعى دائمًا إلى إقناع الرأي العام بكفاءته وإذا حدث

ما يعترض عليه فإنه يسارع بتقديم استقالته وهو يعلم أن مستقبله السياسي لن يضيع لأنه يستطيع في أول انتخابات قادمة أن يستعيد منصبه أو حتى يتولى رئاسة الوزراء، ما دام يتمتع بثقة الناخبين.. مشكلة مصر، إذن، ليست في قلة الكفاءات بل في طبيعة النظام السياسي الذي يجرد هذه الكفاءات من قدراتها في ظل الاستبداد.

(٣)

عندما أعلن أنور السادات عن قيام حزب مصر برئاسته شخصيًا تحول الحزب في أيام قلائل إلى حزب الأغلبية.. هكذا بلا مقدمات وبعد أعوام قليلة أعلن السادات فجأة أنه سيترك رئاسة حزب مصر إلى الحزب الوطني فإذا بأعضاء حزب مصر جميعًا يهرعون إلى الحزب الوطني وراء الرئيس.. وتحول حزب مصر بين ليلة وضحاها من حزب الأغلبية إلى حزب صغير مجموع أعضائه أقل من عشرة أشخاص.. وهذه الواقعة تدلنا على نوع الأعضاء في الحزب الوطني.. فمعظمهم التحق بعضويته ليس لمبادئه وإنما لأنه حزب الحكومة الذي تفتح عضويته الطريق واسعًا للترقي إلى أعلى المناصب وتكوين الثروات بأية طريقة.. والغريب أن معظم قيادات الحزب الوطني حاليًا كانوا من أنصار الاشتراكية أيام كان العهد اشتراكيًا فلما تحولت الدولة إلى الخصخصة والعولمة تخصخصوا وتعولموا وألفوا الكتب في أهمية الاقتصاد الحر.. كل هذا يعرفه المصريون تمامًا ومن هنا لا يأخذون ما يحدث في الحزب الوطني على محمل الجد.. بل إن اجتماعات الحزب الوطني واحتفالاته يعتبرها الناس نوعًا من الكوميديا المسلية حيث يتنافس المتنافسون في إلقاء الخطب العصماء في مديح السيد الرئيس والإشادة بإنجازاته العظيمة.. ولازلنا نذكر كيف أعلن الحزب الوطني عن مسيرة المليون التي سوف تعقد في إستاد القاهرة لمعارضة حرب العراق.. وكيف تم اقتياد عشرات الألوف من موظفي الدولة قهرًا وشحنهم في أتوبيسات الحكومة بعد تحفيظهم الشعارات المطلوبة.. ثم ظهر السيد صفوت الشريف في التليفزيون وأخذ يشير إلى صفوف الموظفين المغلوبين على أمرهم ويصيح بصوت عال:

«يا رجال الأمن.. افتحوا الأبواب يا رجال الأمن.. ها هي آلاف مؤلفة من كوادر الحزب الوطني.. كوادر آمنة ومؤمنة!!».

هذه المناظر كان المصريون يتابعونها مثل جلسات مجلس الشعب بمزيج من السخرية والمرارة.. إلا أن الكوميديا في شهر سبتمبر الماضي تحولت إلى دراما عندما انعقد ما سمي بالمؤتمر العام للحزب الوطني واتخذ قرارًا، بالإجماع طبعًا، لتصعيد السيد جمال مبارك ليكون رئيسًا للجنة السياسات مما يعني عمليًا تحكمه في عمل رئيس الحكومة والوزراء وفي الشهر القادم سوف يعقد من جديد المؤتمر العام للحزب الوطني وثمة إشارات واضحة على أن النية متجهة إلى المزيد من التصعيد لجمال مبارك في طريقه المرسوم لتولي السلطة في مصر.. وأعضاء الحزب طبعًا جاهزون كعادتهم للموافقة بالإجماع.. وهنا فعلًا يجب أن نتوقف.. فلا يمكن أن يحدد مستقبل بلادنا مجموعة من الطبالين والزمارين في الحزب الوطني.. مستقبل مصر يجب أن يحدده المصريون جميعًا.. ومصر أعلم وأعز علينا من أن يتم توريثها وكأنا ضيعة أو عقار.. في مصر ملايين الوطنيين الشرفاء الذين يعرفون أن اختيار رئيس الدولة حق أصيل وطبيعي للمواطنين في الدنيا كلها.. وإذا كان المصريون قد حرموا من هذا الحق لفترة فلا يعني هذا حرمانهم منه إلى الأبد.. إن استفتاءات الـ٩٩٪ وزفة المبايعات في الحزب الوطني قد مضى عهدها وصارت من النوادر التي تستعملها الصحافة الغربية للسخرية من تخلف الحكام العرب.. أتمنى حقًّا أن يجتمع كل المثقفين والوطنيين المصريين على كلمة واحدة عادلة يطلبونها من الرئيس مبارك.. أن يمارس المصريون حقهم الطبيعي في اختيار رئيس الدولة بحرية ضمن أكثر من مرشح للرئاسة.. وأن يتم تعديل الدستور لينص على هذا الحق.. هذه الخطوة الأولى في نهضة مصر وإلا فلن نشهد إلا المزيد من الانحدار والتدهور في كل المجالات.

كلمات للتأمل:

* «الرئيس مبارك.. في الحقيقة.. يقود ملحمة تنموية هائلة على أرض مصر»

كمال الشاذلي

* «الرئيس مبارك.. أعطاه الله العمر والعافية.. له ولدان علاء وجمال.. ولم نعرف عنهما شيئًا يقترب من الخطأ البشري»

مفيد فوزي

* «بزياراته المتكررة إلى أمريكا.. وبتقديمه لنفسه باعتباره صديقا لأمريكا يمكن الاعتماد عليه.. يحاول جمال مبارك أن يحصل على الدعم الأمريكي لتوليه الرئاسة في مصر»

مجلة أوكنوس السياسية الأمريكية

* «أولًا تعديل الدستور لأي سبب مرفوض تماما.. وثانيًا تداول السلطة ليست مهمة الحكومة.. لكنها وظيفة الشعب»

صفوت الشريف

وثيقة.. مبايعة بالدم!(*)

عندما تولى الرئيس حسني مبارك حكم مصر عام ١٩٨١.. أعلن بوضوح أنه لن يستمر في السلطة لأكثر من مدتين رئاسيتين مهما كانت الظروف وذلك حتى يعطي الفرصة ـ كما قال ـ لوجوه وعقول جديدة لحكم البلاد.. وقد تفاءل المصريون خيرًا آنذاك بهذا الإعلان من الرئيس واعتبره البعض بداية حقيقية لتداول السلطة وتطبيق الديمقراطية في مصر وكتب البعض في الصحف مؤكدين أنه لم يعد مقبولًا في عالمنا الحديث أن ينفرد حاكم واحد ـ مهما كانت قدراته ـ بحكم بلاده إلى الأبد.. وعندما انتهت الفترة الرئاسية الثانية للرئيس مبارك أعلن عزمه على الوفاء بوعده واعتزال الحكم لكن الأمور تطورت فجأة بطريقة مختلفة، فقد اجتمع كبار المسئولين في الحزب الوطني وأعضاء من مجلسي الشعب والشورى بقيادة الدكتور مصطفى كمال حلمي وذهبوا إلى منزل الرئيس مبارك وناشدوه الاستمرار في الحكم وهتفوا بحياته أمام عدسات التليفزيون ولم يلبث الدكتور مصطفى كمال حلمي أن تقدم ناحية الرئيس مبارك وقال وهو يعطيه ورقة كبيرة:

ـ تفضل يا فندم.

ـ إيه دي يا دكتور مصطفى؟!.. هكذا سأل الرئيس مبارك وهو يقلب الورقة بين أصابعه.. فأجاب الدكتور بحماس:

ـ دي وثيقة مبايعة يافندم.. كتبناها لسيادتك بالدم.
ـ بالدم..؟! هكذا سأله الرئيس مندهشًا.

(*) العربي ١٥/ ٥/ ٢٠٠٣.

فأجاب الدكتور مصطفى وهو يبتسم في إعزاز:
ـ نعم يا فندم.. بالدم سيادتك.

وكان من حظي في ذلك اليوم أن أشاهد هذا المنظر على شاشة التليفزيون ومعي صديقة ألمانية كنت أترجم لها ما يحدث ويقال، والألمان كما هو معروف يأخذون كل شيء بجدية تامة ولذلك ما إن سمعت السيدة الألمانية أن وثيقة المبايعة مكتوبة بالدم.. حتى هبت واقفة من مقعدها وقد بدا عليها الانزعاج الشديد وأخذت تمطرني بالأسئلة: ألا تعتقد أن الكتابة بالدم مسألة وحشية؟!.. هل هي عادة مصرية قديمة أن تجرحوا أنفسكم من أجل رؤسائكم؟ وهل لهذا التقليد علاقة بجرح المسلمين الشيعة لأنفسهم في ذكرى كربلاء؟!.. وهؤلاء الذين يجرحون أنفسهم ليكتبوا بدمائهم ألا يخشون من العدوى التي قد تنتقل إليهم من دم ملوث أثناء كتابة المبايعة؟! وحاولت إفهام صديقتي الألمانية أن المبايعة بالدم تعتبر في بلادنا نوعًا من المجاز، وأنني أشك في أن أحدًا من الموقعين عليها يجرح نفسه فعلًا وأنهم ربما يكتبونها بدم يحضرونه جاهزًا من بنك الدم أو يذبحون حيوانًا صغيرًا (أرنب أو دجاجة) ويأخذون دمه أو ربما حتى يكتبونها بالحبر الأحمر العادي الذي يشبه الدم.. وأكدت لها أن مبايعات الدم تمامًا مثل الهتاف المشهور: «بالروح بالدم نفديك يا فلان».. تعكس بلاغة شعرية بأكثر من أن تعكس استعدادًا حقيقيًّا للتضحية.. وبرغم طرافة الحوار مع السيدة الألمانية إلا أنني شعرت بالحزن لأنها قالت ما يفيد بأننا لا زلنا في مصر متخلفين ما دمنا نستعمل طريقة المبايعة بدلًا من الانتخابات المفتوحة الحرة على مقعد الرئيس كما يحدث في الغرب.. وكانت هذه المبايعة بالدم آخر العهد بالحديث عن مدة محددة لمنصب رئيس الجمهورية فقد استمر الرئيس مبارك ـ أطال الله عمره ـ بعد ذلك في فترة رئاسية ثالثة ثم فترة رابعة تنتهي في العام بعد القادم.. تذكرت هذه الحكاية وأنا أطالع تصريحات جمال مبارك التي أدلى بها في الجامعة الأمريكية.. فقد دافع عن استمرار قانون الطوارئ ورفض بشدة تعديل الدستور بحيث يسمح بالتنافس الحر على منصب رئيس الجمهورية، وعندما سُئل إن كان ينوي ترشيح نفسه للرئاسة؟.. قال إنه شخصيًا لا ينوي ترشيح نفسه للرئاسة لكنه لا يستطيع أن يمنع الآخرين من ترشيحه.. وهذه التصريحات تؤكد عزم جمال مبارك على خلافة والده في الرئاسة.. أولًا لأنه لا يعقل أن يرشحه الآخرون للرئاسة إلا إذا كان يرغب في ذلك.. وثانيًا لأن ترك الباب مواربًا بهذه الطريقة يشكل بالونة اختبار

للرأي العام كما أنه يفتح الطريق أمام المنافقين في الحزب الوطني (وما أكثرهم) لكي يأخذوا المبادرة ويعلنوا ترشيح جمال مبارك للرئاسة وربما يقدمون له وثيقة أخرى للمبايعة بالدم.. وبالطبع فإن مجلس الشعب بتشكيله الحالي الذي يفتقر إلى الشرعية سيكون مكانًا مناسبًا للحصول على أغلبية أصوات تضع الأخ جمال على رأس البلاد.. أضف إلى ذلك ظهوره الإعلامي المتزايد بحيث لا تخلو صحيفة قومية يوميًا من صوره وتصريحاته، كما أن لجنة السياسات التي تم استحداثها من أجله تجعله عمليًا متحكمًا في أعمال الوزراء بل وفي رئيس الوزراء نفسه.. وهكذا يبدو الأمر وكأن جمال مبارك يقضي فترة تدريب على منصب رئيس الجمهورية قبل أن يشغله رسميًا.. وهنا.. مع كامل احترامي لشخص الرئيس مبارك وابنه الأستاذ جمال فأنا أرفض تمامًا أن يورث منصب رئيس الجمهورية في بلادي.. وهذا الرفض يشاركني فيه جميع من أعرفهم من الكتاب والمثقفين بل والمصريين العاديين.. والحق أن محاولة تمرير جمال مبارك إلى رئاسة الجمهورية هي أخطر ما يواجه المصريين هذه الأيام..

وهناك عدة حقائق يجب ألا ننساها:

- من حق جمال مبارك كأي مواطن مصري أن يمارس حقوقه السياسية بشرط أن تكون هذه الحقوق متوفرة للمصريين جميعًا وليس له وحده.. فإذا أراد أن يترشح للرئاسة لا بد أن يتم ذلك بعد إلغاء قانون الطوارئ وعمل انتخابات نظيفة تأتي ببرلمان منتخب فعلًا من الشعب وقبل ذلك يجب تعديل الدستور بحيث يسمح بالتنافس الحر المتكافئ على منصب الرئيس.. وعندئذ يرشح السيد جمال مبارك نفسه إذا شاء وإن كنت أشك كثيرًا في فوزه بالمنصب.

- مصر بلد عريق وكبير ولقد ناضل الشعب المصري على مدى قرن كامل من الزمان وقدم آلاف الشهداء ثمنًا لاستقلال مصر وتمتع أبنائها بحكم بلادهم فلا يمكن أن ينتهي كل هذا النضال العظيم بأن تتحول مصر إلى جمهورية وراثية.. وبالطبع يستطيع جمال مبارك غدًا، إذا أراد، أن يحتل منصب رئيس الجمهورية، فالواضح أن أجهزة الدولة جميعها مسخرة لخدمته فأعضاء مجلس الشعب الذين جاءوا إلى مقاعدهم بالتزوير سيختارونه نفاقًا له وضمانًا لاستمرار منافعهم، والوزراء سوف يحشدون الموظفين التابعين لهم ليصوتوا لصالحه، ومقاتلوا الأمن المركزي ومباحث أمن الدولة سوف

يتكفلون بقمع وتعذيب كل من يقول لا للرئيس الجديد، وأجهزة الإعلام سوف تغرق المواطنين بالأكاذيب كعادتها، كل ذلك ممكن وسهل.. لكن جمال مبارك لو تولى الرئاسة بهذه الطريقة سيكون فاقدًا للشرعية سواء على المستوى الخارجي أو الداخلي.. فلم يعد الاستبداد والقمع والفساد في مصر خافيًا على الدوائر الغربية والتقارير تنهمر كل يوم من منظمات حقوق الإنسان في شتى أنحاء العالم لتصف المجازر التي ترتكب في مصر على أيدي الشرطة وتدين اعتقال عشرات المئات من المعارضين السياسيين وتعذيبهم.. بل إن منظمة العفو الدولية قد خاطبت الرئيس مبارك رسميًا اعتراضًا على مد العمل بقانون الطوارئ لأكثر من عشرين عامًا، وهناك مقالات في الصحف الغربية تدعو إلى إرسال مراقبين دوليين لمراقبة الانتخابات في مصر حتى لا تزور الحكومة نتائجها كالعادة، إن وضع جمال مبارك كرئيس للجمهورية لن يقنع أحدًا ولن تفيد كثيرًا محاولات تقديمه بشكل برّاق للمصريين.. فلماذا يجدي توظيف بضع عشرات من الشباب عن طريق جمعية المستقبل وسياسة الحكومة الرسمية هي المسئولة عن بطالة الملايين وفقرهم ويأسهم؟!.. وكيف يرأس جمال مبارك مجلسًا لحقوق الإنسان وهو يتمسك بقانون الطوارئ ويرفض الانتخابات الحرة؟!.. ولعلنا نتساءل إذا تولى جمال مبارك الرئاسة عمن سيشغلها من بعده؟!.. هل تذهب إلى أخيه الأكبر الأستاذ علاء أم سوف يحكمنا من بعده أكبر أولاده الذكور؟!

ـ الوضع في مصر متدهور في كل المجالات وقد فشلت الحكومات المصرية المتعاقبة في تأمين أبسط حقوق المواطن المصري في العمل والسكن والعلاج والحياة الكريمة المحترمة، ملايين المصريين يعانون من الفقر والبطالة والقمع والفساد وهذا الفشل الكبير لا يرجع إلى تقصير المسئولين المصريين بقدر ما يعود أساسًا إلى الطريقة التي تحكم بها مصر.. فالطريقة التي يحصل بها أي مسئول على منصبه تحدد تصرفاته في هذا المنصب، الوزير المنتخب يحرص على إرضاء الناخبين الذين جاءوا به إلى السلطة أما الوزراء المعينون فليسوا في الواقع سوى مجرد موظفين عند رئيس الدولة وهم يحرصون على إرضائه شخصيًا لأنه الوحيد الذي يستطيع إقالتهم، والوزير في مصر لا يهمه رأي الناس فيه لأن الأهم رضا الرئيس ولذلك يتم الكشف عن تجاوزات خطيرة لكثير من الوزراء ومع ذلك يظلون قابعين في مناصبهم ما داموا متمتعين برضا الرئيس، والحق أنه لا فرق يذكر بين الوزارات المصرية المتعاقبة فعاطف عبيد مثل عاطف صدقي مثل الجنزوري،

كلهم موظفون خاضعون لتعليمات السيد الرئيس، إن الطريقة التي تحكم بها مصر تستبعد الكفاءات الحقيقية والموهوبين وأصحاب الرأي المستقل وتقدم المناصب إلى الطبالين والزمارين والمنافقين.. وهذه الظاهرة المحزنة تحدث بانتظام في كل مؤسسات الدولة.. بدءًا من الصحافة القومية حتى الجامعات والوزارات.. فأمام كل مسئول مرضي عنه وفاشل في عمله أو فاسد سوف تجد عشرات الشرفاء الأكفاء المحرومين من أي منصب وهؤلاء لا يكون أمامهم إلا الانزواء في الظل أو الهجرة إلى الخارج.. إن النظام السياسي في أي بلد يكون بمثابة الجهاز العصبي الذي يسيطر على كل خلايات الجسم وعندما يكون النظام استبداديًّا لا يمكن أن تنجح محاولات الإصلاح الجزئية فالديمقراطية شرط أساسي للإصلاح والتدهور الكامل في ظل الاستبداد ظاهرة طبيعية ومحتومة.. إن تطبيق الديمقراطية يجب أن يكون هدفنا الأول الذي نسعى إليه وأتمنى أن يقوم المثقفون المصريون بواجبهم وأن تتحد كلمتهم ويُسمِعوا صوتهم عاليًا للرئيس مبارك حتى يدرك أننا فعلًا نستحق أن نحكم أنفسنا باحترام ونزاهة وأن مصر العظيمة تستحق نظامًا ديمقراطيًّا يرفعها إلى المكانة التي تليق بها.

كلمات للتأمل:

* «عدد المعتقلين السياسيين أثناء حكم الرئيس مبارك بلغ ١٧٠ ألف معتقل..»

حسين عبد الرازق

* «الضرب وتكسير العظام والتعليق من الأقدام والصعق بالكهرباء.. من الممارسات المعتادة للشرطة في مصر..»

منظمات حقوق الإنسان

* «يقول الرئيس مبارك إن مصر لديها أشكال كثيرة من الديمقراطية.. وأنا أقول أشكال كثيرة فعلا.. ما عدا الديمقراطية الحقيقية..»

توماس فريدمان

* «بكل الحب والإخلاص.. أطالب الرئيس مبارك بإطلاق حق تكوين الأحزاب وإصدار الصحف.. من أجل مصلحته.. ومصلحة مصر..»

محمود السعدني

وقائع حوار طويل بين عبد الناصر ومبارك(*)

هل يعلن الكاتب كل ما يعرفه على الرأي العام؟ أم إن هناك حدودًا لا ينبغي تجاوزها بأية حال؟ ألح عليَّ هذا السؤال طوال الأسبوع الماضي لأنني عرفت بطريق الصدفة حادثة مدهشة وقعت في استراحة الرئيس حسني مبارك في مدينة شرم الشيخ.. وقد أصابتني حيرة حقيقية ولم أعرف أن كان يجوز لي كتابتها أم أحتفظ بها لنفسي.. وكالعادة ذهبت بحكايتي إلى بعض أصدقائي فاستمعوا إليَّ باهتمام ثم كان ردهم واحدًا.. «انشرها فورًا..» وها أنذا أعمل بالنصيحة.. وأتمنى أن يتقبل المسئولون في مصر هذه الحكاية بصدر رحب.

أن تكون رئيسًا للجمهورية في بلد مثل مصر يعني ببساطة أنك تملك كل شيء وأنك ـ وحدك ـ تحدد كل ما يحدث حولك فإذا اتجهت شرقًا اتجه وراءك الجميع وإذا تغير تفكيرك واتجهت غربًا غربوا وراءك بنفس الحماس، ومن هناك فإن مواعيد عمل رئيس الجمهورية في مصر هو وحده الذي يحددها.. إذا أراد أن يعمل في المساء جاء إليه الناس في المساء وإذا أراد أن يبكر بكروا جميعًا من الفجر وهم في كل الأحوال سوف يشكرونه على اختياره العظيم لمواعيد العمل (وعلى أي شيء آخر).. ولأن الرئيس مبارك رجل عسكري منضبط فقد تعود على الاستيقاظ مبكرًا وهو يبدأ عمله منذ السابعة صباحًا وحتى الرابعة بعد الظهر.. وهو يقضي يومه في اجتماعات وإصدار التوجيهات ومتابعة المشاكل فإذا جاءت الساعة الرابعة أغلق الرئيس الملفات جميعًا وغادر مكتبه ليتناول طعام الغداء ويستريح.. وقد أحب الرئيس مبارك مدينة شرم

(*) العربي ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٣.

الشيخ وصار يقضي فيها وقتًا طويلًا حتى اشتهرت المدينة في العالم كله وعقدت فيها مؤتمرات دولية كثيرة وقد أدى ذلك بالطبع إلى إنشاء المزيد من استراحات الرئيس في شرم الشيخ ليستقبل فيها رؤساء الدول الذين يزورونه.. ومعرفتنا بهذه التفاصيل ضرورية لكي نفهم الواقعة العجيبة التي أرويها.. تمام الرابعة مساء الاثنين الماضي كان الرئيس مبارك يتأهب لمغادرة مكتبه عندما دخل عليه السكرتير محمد كامل، وهو رجل مسن عمل مع الرئيس منذ اليوم الأول لتوليه الرئاسة لمدة ٢٢ عامًا متصلة.. (أي أنه التحق بالعمل وهو رجل ناضج في الأربعينيات وهو الآن شيخ كبير يرجو من الله حسن الختام).. وهذه العشرة الطويلة جعلت له مكانة خاصة عند الرئيس مبارك.. دخل السكرتير كامل وحيا الرئيس ثم قال بأدبه المعتاد:

ـ يا فندم الصور جاهزة.. أتمنى أن يتسع وقت سيادتك لمشاهدتها الآن..

ـ صور إيه..؟!

هكذا سأل الرئيس مبارك وقد بدا على وجهه تعب اليوم فقال السكرتير محمد كامل مبتسمًا:

ـ يا فندم.. صور رؤساء مصر السابقين التي سوف نعلقها في قاعة اجتماعات القصر الجديد.. سيادتك أعطيتني تعليمات بأن تراها قبل تعليقها.

ـ سأراها في وقت آخر..

هكذا قال الرئيس مبارك وهو ينهض من مكتبه لكن محمد كامل اقترب منه وقال بصوت هادئ:

ـ يا فندم أخشى ألا يتسع وقت سيادتك لرؤيتها بعد ذلك.. يجب أن أنتهي من إعداد القاعة غدًا.. لأننا ـ كما تعلم سيادتك ـ نتوقع وفدًا أمريكيًا على مستوى رفيع.. ربما يضم الوزير كولن باول أو الوزيرة كونداليزا رايس.. ولا أحب أن يأتي إلى القصر الجديد ضيوف بهذه الأهمية فيجدوا الصور ناقصة على الحائط أو تكون الصور معيوبة لا سمح الله..

وهنا بدا التردد على وجه الرئيس فأضاف كامل قائلًا باستعطاف:

ـ يا فندم.. مراجعة الصور لن تأخذ وقتًا.. دقيقة واحدة..

وهنا عاد الرئيس مبارك إلى الجلوس وقال:

ـ هاتهم يا كامل.. بس بسرعة وهرع كامل إلى الخارج ثم عاد ومعه ثلاثة عمال يحملون ثلاث صور بالحجم الطبيعي تمثل اللواء محمد نجيب والرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أنور السادات.. وصاح العمال بالتحية للرئيس: السلام عليكم يا فندم سيادتك.. فابتسم لهم قائلًا: وعليكم السلام.. ازيكم.. كويسين..

طلب منهم كامل أن يسندوا الصور الثلاث بعناية إلى الحائط ثم صرفهم وأخرج ورقة وقلمًا وقال للرئيس: لو لسيادتك ملاحظات أنا أسجلها وأبعثها للرسام حتى يصلحها بسرعة.. قام الرئيس مبارك من مكانه واقترب من الجدار ووقف يتأمل الصور الثلاث.. كان الرسام بارعًا فاقتنص لحظة معبرة لكل من الرؤساء الثلاثة.. رسم اللواء نجيب وهو يرتدي البدلة العسكرية ويلوح بيده اليمنى بينما أمسك بيسراه غليونه الشهير، والرئيس السادات رسمه وهو يرتدي بدلة سوداء أنيقة ورابطة عنق مزركشة وعلامة السجود الشهيرة تزين جبهته.. أما الزعيم عبد الناصر فقد صوره أثناء خطاب له والجماهير محتشدة حوله وهو يخطب ويلوح بيده.. أخذ الرئيس مبارك يتأمل الصور وظل صامتًا لفترة ففهم كامل أن الصور لم تعجبه فبادره قائلًا:

ـ يا فندم.. ممكن الرسام يعيد الصور بطريقة تعجب سيادتك.

ـ آه..

هكذا تمتم الرئيس وعيناه مازالتا عالقتين بالصور.. مرت لحظة وفجأة استدار الرئيس ناحية كامل قائلًا:

ـ اسمع يا كامل.. تفضل أنت.

بدا على كامل أنه لم يفهم فقال الرئيس مبارك:

ـ أنا محتاج أقعد وحدي.. سوف أترك لك ملاحظاتي على الصور في ورقة على مكتبي.. وهم كامل بالكلام لكن الرئيس قال بلهجة حاسمة هذه المرة:

ـ مع السلامة يا كامل..

انصرف السكرتير وأغلق الباب وعاد الرئيس إلى جوار مكتبه ثم حمل بنفسه مقعدًا وضعه أمام الصور وجلس يتأملها بإمعان..

* * *

ما الذي جعل الرئيس مبارك يغير من رأيه بعد أن كان متعجلًا للانصراف؟! ما الذي جذبه في الصور حتى يقضي كل هذا الوقت في التمعن فيها؟! إن ما شعر به الرئيس وهو يتأمل الصور يشبه ما نشعر به جميعًا عندما نتفقد ألبومًا قديمًا لصورنا العائلية أو عندما نزور ونحن كبار المدرسة الابتدائية التي تعلمنا فيها ونحن أطفال.. هذا المزيج من الشجن والحنين للماضي (النوستالجيا بلغة الأدب) هو ما سيطر على الرئيس في تلك اللحظات.. نهر طويل من الذكريات تدفق أمام عينيه.. فقد عرف الرئيس مبارك اللواء نجيب وهو ضابط صغير ثم تولى المسئولية في عهد الزعيم عبد الناصر ووصل إلى أعلى المناصب أيام السادات.. نائبًا للرئيس ثم رئيسًا للجمهورية (منذ ١٩٨١ وحتى يومنا هذا).. أخذ الرئيس مبارك يسترجع ذكرياته ومرت فترة من الوقت لم يحس بها وأخيرًا قام إلى مكتبه وكتب في ورقة صغيرة:

«كامل. الصور رائعة.. تعلق فورًا ويمنح الرسام الأجر الذي يطلبه..»

ترك الرئيس الورقة على مكتبه واتجه إلى باب الخروج وعندما أصبح أمام الباب مباشرة حدث أمر غريب جدًّا.. حدث أمر لو أن أقرب الناس إلى الرئيس مبارك حكاه له لما صدقه أبدًا.. إذ إنه في اللحظة التي وضع فيها يده على مقبض الباب وشرع يديره ببطء.. في نفس اللحظة انطلق وراءه صوت غريب، صوت أشبه بصفير حاد وطويل.. التفت الرئيس بسرعة فرأى مشهدًا عجيبًا، كانت الحجرة المتسعة قد امتلأت بدخان كثيف لا يعرف أحد من أين جاء، دخان أبيض متصاعد ظل يملأ هواء الحجرة حتى صار الرئيس يرى أمامه بصعوبة.. وأدرك الرئيس فورًا بخبرته أنه يتعرض لعملية إرهابية تستهدف حياته فقفز بخطوة واسعة ناحية المكتب ومد يده بأقصى سرعة ليضغط على الزر الأحمر الذي يطلق صافرة الإنذار، وكانت هذه الضغطة كفيلة بأن يتدفق إلى المكتب في أقل من لحظة عشرات الرجال المسلحين المدربين على أعلى مستوى لحماية الرئيس.. ظل الدخان يزداد كثافة وفي اللحظة التي حرك الرئيس إصبعه ليضغط على الزر سمع صوتًا خلفه يصيح:

- يا أخ حسني.. لحظة واحدة.. من فضلك..

توقف الرئيس مبارك.. أولًا لأنه انزعج من فكرة أن يرفع أي شخص الكلفة مع رئيس الدولة بهذه السهولة وثانيًا لأنه خيل إليه أنه يعرف هذا الصوت الرخيم الواثق

من نفسه.. يهيأ إليه أنه سمعه كثيرًا قبل ذلك.. من زمان.. بل وخيل للرئيس مبارك أنه يعرف صاحب الصوت ووجد نفسه يستدير للخلف ليجد أمامه أغرب منظر رآه في حياته.. في وسط الدخان المتصاعد وجد الرئيس مبارك جمال عبد الناصر.. نعم.. جمال عبد الناصر بشحمه ولحمه.. كان يرتدي بدلة فاتحة وقميصًا أبيض ورابطة عنق زرقاء.. وبدا مبتسمًا وراح يهز رأسه وكأنه يشجع الرئيس مبارك الذي أخذته لحظات من الدهشة البالغة انصرف بعدها إلى التمتمة بآيات الذكر الحكيم وقد وقف في مكانه لا تصدر عنه حركة واحدة.. تقدم عبد الناصر من مبارك ومد يده يصافحه قائلًا:

ـ أهلًا وسهلًا..

ـ سيادتك..

هكذا قال الرئيس مبارك ولم يكمل الجملة لأن عبد الناصر قاطعه ضاحكًا ثم قال بلهجة ودية..

ـ طبعًا أنت لا تصدق أنني واقف أمامك بعد أن مت منذ أكثر من ثلاثين عامًا.. أنا خرجت من الصورة (وأشار إلى الصورة التي صارت الآن فارغة في مكان جسم عبد الناصر).. الحقيقة أن عالم ما بعد الموت مليء بالأسرار وقد قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾.. صدق الله العظيم.. في الموت أسرار كثيرة لا أستطيع أن أحكيها لك.. لكن الموتى يشعرون ويرون ويسمعون كل ما يجري في الدنيا.

ـ سبحان الله..

هكذا صاح الرئيس مبارك وعلامات الدهشة البالغة ما زالت على وجهه واستمر ناصر قائلًا:

ـ طبعًا قدرة ربنا سبحانه وتعالى لا نهائية وهو على كل شيء قدير.. تعرف أنا من ساعة وفاتي وأنا أتابع كل ما يحدث في مصر والعالم يومًا بيوم.. اسمع.. يضايقك لو قلت لك يا أخ حسني بدلًا من صاحب الفخامة السيد الرئيس؟!

ـ أبدًا.. أنا عمري ما أهتم بالألقاب.. بالإضافة إلى أن سيادتك كنت قائدي ورئيسي الأعلى سنوات طويلة.

هكذا قال الرئيس مبارك وقد بدأ لأول مرة يستوعب ما يحدث.

ـ أشكرك.. ممكن نقعد..

ـ طبعًا تفضل يا فندم.

هكذا قال الرئيس مبارك وهو يشير إلى عبد الناصر ناحية الأريكة الوثيرة المواجهة للنافذة الكبيرة.. جلس عبد الناصر:

ـ اسمع يا أخ مبارك.. الحقيقة أنا لازم أختصر كلامي لأن الوقت ضيق.. أنا ومجموعة من زعماء مصر من العالم الآخر نتابع بقلق ما يحدث في مصر.. والحقيقة أن الأمور وصلت إلى أسوأ ما يمكن ومستحيل أن نسكت على هذا الوضع.. ومن هنا اجتمعنا كلنا: أنا وسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد عرابي ومحمد نجيب.. وقد قرروا إرسالي لأتحدث معك..

وهنا قاطعه الرئيس مبارك مبتسمًا:

ـ وطبعًا المرحوم الرئيس أنور السادات معكم..

فرد عبد الناصر باقتضاب

ـ لا.. أنور السادات في مكان آخر.

ـ غريبة.. أليس موجودًا في الآخرة معكم؟

ـ هو في الآخرة ولكن في ناحية بعيدة عنا.. اسمع.. هذا الموضوع من الأسرار التي لا أستطيع أن أشرحها.

ساد الصمت من جديد واستأنف عبد الناصر الحديث بعد أن نظر إلى ساعته بقلق:

ـ جئت إليك في موضوع محدد.. الحالة في مصر سيئة جدًّا ولا يمكن السكوت عليها.. هل تعرف يا أخ حسني أن ٣١ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر.. يعني نصف المصريين يعيشون معدمين.. هل يمكن أن تكون هذه حالة مصر العظيمة بعد نصف قرن على قيام الثورة.. كيف ترى هذا وأنت رئيس الدولة؟

ـ يا فندم.. يعلم الله أننا لم نقصر.. لقد بذلنا كل ما في وسعنا وقمنا بمجهود خرافي

من أجل القضاء على البطالة وزيادة التنمية لكن مشكلتنا الحقيقية في الزيادة السكانية.. المصريون يتوالدون بسرعة مذهلة وهذه الزيادة تلتهم كل زيادة في الدخل وقد حاولت على مدى أعوام توعية الناس من أجل تنظيم الأسرة لكن الجهل والتخلف كان أقوى من مجهودنا.

ـ المسألة ليست جهلًا ولا تخلفًا.. الفقراء ينجبون أولادًا كثيرين حتى يعتمدوا عليهم في الكبر.. التقصير من الدولة أساسًا لأنها لو ضمنت لكل مواطن حقه في التعليم والعمل والسكن والتأمين لما فكر في كثرة الإنجاب.. ثم إن زيادة السكان ليست شرًا مطلقًا.. وتستطيع الدولة بالتخطيط السليم أن تجعل من الزيادة السكانية ثروة بشرية مهمة كما حدث في الصين.

صمت الرئيس مبارك وقد بدا على وجهه أنه غير مقتنع وساد الصمت بينهما.. كان الدخان قد انقشع تمامًا فبدت حجرة مكتب الرئيس الفسيحة الفخمة وتطلع عبد الناصر حوله وقال:

ـ حجرة مكتبك رائعة وذوقها عظيم.

ـ أشكرك.

ـ طقم الصالون مستورد؟

هكذا سأل جمال وهو يتحسس الأريكة الذي يجلس عليها.. فرد الرئيس مبارك باقتضاب:

ـ نعم مستورد من إيطاليا.

ـ كنت أتمنى أن تكون حجرة مكتبك صناعة مصرية.

ـ أولًا مكتب رئيس الجمهورية لا بد أن يكون لائقًا بمكانة مصر الرفيعة بين الدول.. ثانيًا: إذا كنت تتكلم عن الصناعة المصرية فمع احترامي لسيادتك.. أنا أكثر رئيس في تاريخ مصر بذل كل ما في وسعه لتشجيع الصناعة المصرية.

ـ الحقيقة أنك شجعت رجال الأعمال ولم تشجع الصناعة المصرية.

ـ عندما أقدم تسهيلات لرجال الأعمال ألا أشجع بذلك الصناعة في بلدي؟

هكذا تساءل الرئيس مبارك بصوت مرتفع قليلًا فأجاب عبد الناصر بهدوء.

ـ الفرق كبير يا أخ حسني.. التخطيط للصناعة في بلد كبير مثل مصر يقتضي رؤية إستراتيجية شاملة.. أما الاكتفاء بتشجيع الأفراد فلا يمكن أن يؤثر إلا بطريقة محدودة جدًّا على التنمية.. وكما تعرف فإن كثيرين من رجال الأعمال الذين شجعتهم الدولة على حساب الفقراء لم يكن يهمهم إلا الثراء السريع بأي ثمن.. وكثيرون منهم نهبوا مليارات من البنوك وهربوا مما أدى إلى انهيار الاقتصاد.

وهنا وقف الرئيس مبارك وقد بدا عليه الغضب وصاح:

ـ يا فندم الفساد موجود في كل دول العالم حتى في أمريكا وأوروبا فلماذا تريد أن يكون بلدنا استثناء؟! ونحن نحاكم الفاسدين ونعاقبهم بشدة.. ثم إنني.. اسمع يا فندم.. إذا كنت جئت من آخر الدنيا لكي تحدثني بهذه الطريقة.. فأنا مع احترامي لسيادتك أرفض هذا الحديث.. نهض الرئيس مبارك من مكانه وأدار ظهره لعبد الناصر ووقف يحدث بغضب من النافذة.. لكن جمال ابتسم واقترب منه ووضع يده على كتفه وقال بودٍ:

ـ أرجوك يا أخ حسني لا تأخذ كلامي بحساسية.. أنت تعرف ثقتي فيك وفي قدراتك.. تذكر أنني أول من أمر بترقيتك عندما رأيتك في قاعدة بلبيس الجوية.. ليس عندي أدنى شك في إخلاصك يا أخ حسني.. لكن مصر تعاني من أزمة شديدة بل مأساة حقيقية.. مصر تستحق أفضل من هذا بكثير.

واكتسى وجه جمال بحزن وقال:

ـ مصر ممكن جدًّا تبقى دولة عظمى.. لو خططت أي حكومة بطريقة صحيحة لمدة ١٠ أو ٢٠ سنة.. عندما قمنا بالثورة كنا نحلم بمستقبل عظيم لمصر وللأمة العربية كلها.. ولا يمكن أتصور بعد نصف قرن أن نرجع من جديد إلى نقطة البداية.. لقد عاد الاستعمار إلى احتلالنا من جديد ومعنى ذلك أننا فشلنا في حكم أنفسنا.

ـ العيب في العرب أنفسهم. في جهلهم وتخلفهم.

ـ ولماذا لا تقول إن العيب في الحكام العرب.. الذين يريدون أن يحتفظوا بالسلطة مهما كانت التنازلات التي يقدمونها للاستعمار.

ـ يا فندم الدنيا تغيرت.. أيامك غير أيامنا.. ألفاظ مثل الاستعمار والاستقلال

والإمبريالية لم تعد تستعمل.. العالم أصبح قرية صغيرة.. انتهى عصر الزعامات والشعارات.. الاتحاد السوفييتي انهار يا فندم وأصبحت أمريكا تحكم العالم وحدها.. يا فندم الشعوب العربية زهقت من الشعارات والبطولات.. الناس جميعًا لا يريدون اليوم إلا أكل العيش وتربية أولادهم بسلام.

ـ مهما تغيرت الدنيا سوف تظل قيم إنسانية ثابتة مثل الحرية والكرامة والعدل.. لا يمكن أن يتحول الوطن إلى مشروع تجاري يستهدف الربح.. هناك حاجات أهم للإنسان من الأكل والشرب.. أن يحس بأنه بني آدم له قيمة وإرادة وكرامة.. وإلا فلماذا يا أخ حسني يفجر الشبان الفلسطينيون أنفسهم في قوات الاحتلال الإسرائيلي؟

ـ كل هذه العمليات سببها البطالة والإحباط.. كما أنها في النهاية تضر بعملية السلام.

ـ الذين يستشهدون كل يوم في العراق وفلسطين يقدمون حياتهم من أجل المعنى.. والكرامة بالنسبة لهم أهم من الحياة نفسها.. ثم أين أكل العيش الذي تتحدث عنه؟ عندما وقّع السادات اتفاقية الصلح مع إسرائيل قال للشعب المصري كفاية شعارات حتى نأكل عيش وبعد ربع قرن من اتفاقية كامب ديفيد ازداد المصريون فقرًا.. تقدر تفسر يا أخ حسني كيف ولماذا كان الاقتصاد المصري أيام الحرب أقوى منه أيام السلام؟

ـ هذا موضوع اقتصادي وسوف أعطيك دراسات متخصصة تشرحه.

ـ المسألة ليست دراسات.. الدراسات الاقتصادية تستطيع دائمًا أن تحملها بما تشاء من نتائج.. لكن التاريخ يعلمنا أن من يفقد كرامته يفقد كل شيء، كل هذه شعارات وعنتريات.. الأهم من ذلك أكل العيش.

ـ إذا كان منطقك صحيحًا فلماذا ناضل المصريون ضد الإنجليز ٨٠ عامًا وقدموا آلاف الشهداء من أجل استقلال مصر؟.. ألم يكن الأجدر بهم أن يوافقوا على احتلال بلادهم مقابل أكل العيش؟.. بل ولماذا اشتركت أنت نفسك في الحرب ضد إسرائيل؟

ـ حاربنا إسرائيل بالشعارات والأغاني وانهزمنا.

ـ قصدك نكسة ٦٧.. لم نهزم بسبب الشعارات وإنما بسبب عدم كفاءة القيادة.. بسبب عدم قدرة النظام على تجديد نفسه.. يعني انعدام الديمقراطية.

ـ هل تقول هذا الكلام الآن..؟

ـ بل كان هذا رأيي بعد الهزيمة مباشرة وأرجو أن تراجع مناقشات بيان ٣٠ مارس ولو كان العمر امتد بي كنت سأسعى إلى تطبيق الديمقراطية الحقيقية في مصر.. اسمع يا أخ حسني الوقت يمر بسرعة ويجب أن أعود من حيث جئت.. كلمة واحدة أقولها لك: إن خروج مصر من محنتها لن يتم إلا بإقامة نظام ديمقراطي.

ـ مصر بلد ديمقراطي يا فندم: الانتخابات تتم تحت إشراف القضاء وكل شيء يجري في ظل سيادة القانون.. نحن دولة مؤسسات، حتى قانون الطوارئ لا يطبق إلا في أضيق الحدود وعلى المجرمين فقط.

ابتسم عبد الناصر ووجه للرئيس مبارك نظرة ذات مغزى وقال:

.. قلت لك إنني أعرف كل ما يحدث في مصر على حقيقته.. لن تخرج البلد من محنتها بدون ديمقراطية..

ـ يا فندم الديمقراطية موضوع نسبي.. هل تريدنا أن نطبق الديمقراطية البريطانية على بلد مثل مصر نصف سكانه أمّيون.

ـ ولماذا لم يتم القضاء على الأمية إلى الآن؟ هل لديك إجابة يا سيادة الرئيس؟!.. ثم إن الأمية ليست عائقًا للتطبيق الديمقراطي.. مصر أقدم بلد ديمقراطي في الشرق.. والمواطن المصري البسيط يعرف ويفهم جيدًا كل ما يحدث حوله.. يا أخ حسني يجب أن تبدأ بتطبيق الديمقراطية قبل فوات الأوان.

ـ ما قصدك من فوات الأوان؟

ـ أظنك تفهمني.. مصر مقبلة على أزمة لا يعلم مداها إلا الله.. أريدك أن تكون أول حاكم مصري يطبق ديمقراطية حقيقية.. أصدر قرارات بإلغاء قانون الطوارئ وإطلاق الحريات.. ولا بد من تعديل الدستور بطريقة تضمن تداول السلطة.. موضوع الاستفتاء على رئيس الجمهورية لا بد أن..

ـ أظن موضوع الاستفتاء بالذات سيادتك أول من عملته.

ـ عملته وكان خطأ ولا توجد ثورة بلا أخطاء وعندما أتأمل تجربتي الآن اكتشف

أننا لم نكن نحتاج إلى هذه الاستفتاءات.. ولو أنني في اليوم الأخير قبل موتي كنت أطلقت حق تكوين الأحزاب وعملت انتخابات محترمة كان الشعب المصري كله سيشرفني باختياره.. أنا واثق من هذه الحقيقة.. يا أخ حسني الوقت أزف ولا بد أن أغادر.. تحب أزورك في المستقبل.

ـ طبعًا.. طبعًا.

ـ على فكرة نسيت أسألك عن أسرتك الكريمة؟

ـ الحمد لله.. ابني علاء رجل أعمال وابني جمال خبير اقتصادي.

ـ الأخ جمال قفز اسمه إلى الحياة السياسية في السنوات الأخيرة وهناك كلام كثير عن توليه الحكم من بعدك..

ـ يا فندم شائعات مغرضة.. أنا نفيت الموضوع أكثر من مرة.

ـ أنت تنفي لكنه هو لا ينفي.

ـ هذا الكلام يردده مغرضون.

ـ لا أعتقد أن من يعارضون توريث الحكم مغرضون بل هم وطنيون يحبون بلدهم ولا يريدون لها أن تنتكس للوراء لتصبح بالوراثة مثل جمهوريات الموز.

ـ يا فندم أنا أسألك.. أليس جمال مبارك مواطنًا مصريًا من حقه أن يمارس العمل الوطني ويعمل بالسياسة؟!

ـ من حقه طبعًا لكن بشرط أن يكون مواطنًا عاديًا يتنافس مع المواطنين.. أما في ظل قانون الطوارئ واحتكار الحزب الوطني للحكم الذي سيحدث أن الدولة كلها ستكون مسخّرة لخدمة ابن رئيس الدولة.

مد عبد الناصر يده وصافح الرئيس مبارك بقوة وقال: تذكر أنك وعدتني بتطبيق الديمقراطية.

ـ نعم..

ـ وأنا أعرف أنك لا تخلف وعدك أبدًا.. السلام عليكم.

هذه المرة عندما دوت الصفارة الحادة الطويلة انطلق الدخان ليملأ الحجرة من جديد لم يندهش الرئيس مبارك لكنه ظل يرقب بابتسامة مودعة الزعيم جمال عبد الناصر وهو يختفي شيئًا فشيئًا عائدًا إلى العالم الآخر.. وبعد دقائق عندما عادت الحجرة إلى طبيعتها الأولى ورجعت صورة عبد الناصر كما كانت دخل محمد كامل السكرتير فوجد الرئيس مبارك جالسًا إلى مكتبه وقد وضع رأسه بين راحتيه.. وعلى وجهه أمارات التفكير العميق.

وعكة الرئيس ومذبحة الزمالك(*)

بعد أن اجتاز الرئيس مبارك الأزمة الصحية الأخيرة وتعافى منها والحمد لله، أعتقد أن من حق المصريين أن يناقشوا مستقبل بلادهم.. والواقع أن وعكة الرئيس يوم ١٩ نوفمبر وردود الأفعال عليها كشفت لنا حقائق عديدة:

١ ـ رأينا ذلك اليوم كيف أن النظام السياسي في مصر يعتمد على شخص الرئيس مبارك فهو وحده صاحب القرار والسلطة وكل الأجهزة مهمتها تنفيذ تعليماته وحمايته، بل إن كبار المسئولين بالرغم من مناصبهم العليا والخطيرة ليسوا في الواقع إلا مجموعة من الموظفين هدفهم في النهاية تنفيذ تعليمات الرئيس والاحتفاظ برضاه فإذا غاب الرئيس فجأة كما حدث فإن الهلع يسيطر عليهم ويتخبطون ويفقدون القدرة على التصرف.. كما أثبت لنا ما حدث أن قيمة المواطن المصري زهيدة أو أنه بلا قيمة إطلاقًا في نظر السلطات عندما يتعلق الأمر برئيس الجمهورية.. فما إن أصيب الرئيس بالوعكة حتى صدرت الأوامر بإغلاق شوارع القاهرة كلها وتم حبس آلاف المواطنين البؤساء وهم صائمون في سياراتهم لساعات طويلة حتى اضطر أكثرهم إلى الإفطار في الشارع.. ولا نعرف حتى الآن من الذي أصدر الأوامر بإغلاق الشوارع ولماذا؟.... وما العلاقة بين وعكة الرئيس ومنع الناس من العودة إلى منازلهم..؟!

٢ ـ دلت حادثة مرض الرئيس على مدى انتشار النفاق السياسي في بلادنا، فمنذ اللحظات الأولى سارعت وسائل الإعلام إلى استعمال تعبير «الأزمة الصحية البسيطة» للتعبير عن مرض الرئيس وبعد قليل ظهر تعبير جديد وجدوه أكثر ملاءمة وهو «الوعكة الخفيفة للسيد الرئيس» ولو أن المسئولين وجدوا في اللغة العربية كلمة أخف من وعكة لسارعوا

(*) العربي ١٤/ ١٢/ ٢٠٠٣.

إلى استعمالها، كما شن بعض كتبة الحكومة حملة شرسة على قناة الجزيرة الفضائية واتهموها بالخيانة العظمى والعمالة لأجهزة مخابرات غربية وشرقية، كل ذلك لأن قناة الجزيرة أذاعت أن الرئيس مبارك تعرض لأزمة صحية وأنه لا يوجد من يخلفه في منصبه.. (أليست هذه الحقيقة..؟!) والحق أن منطق هؤلاء المنافقين يفترض أن الرئيس فوق مستوى البشر وبالتالي فإن الحديث عن مرضه لا يتفق ومكانته الرفيعة، وهذه فكرة مدهشة حقا لأن الناس جميعًا يمرضون ولا يقلل المرض من احترامنا لهم بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم «وهو أشرف الخلق أجمعين» كان كثيرا ما يمرض وقد عاش المصطفى ومات كما سوف يموت الرئيس مبارك وسوف نموت جميعًا إذا جاء أجلنا.. وقد سارع المنافقون إلى جمع التعليقات الكاذبة من المواطنين للتدليل على خوفهم العظيم على صحة الرئيس، من المفهوم طبعا أن يشعر المصريون بقلق على الرئيس وعلى مستقبل بلادهم، أما أن تنشر الصحف أن المواطنين أغمي عليهم من القلق وأن آلاف المصريين احتشدوا في الطرقات ورفضوا الرجوع إلى بيوتهم قبل الاطمئنان على الرئيس. بل إن مجلة أسبوعية نشرت لمواطن قوله إنه لما علم بوعكة الرئيس أحس وكأن الماء المغلي وقع على وجهه ولما اطمأن على صحته أحس وكأن الماء البارد يغطي وجهه... كل هذا النفاق الرخيص للأسف لا يمكن أن تجده في العالم كله إلا في مصر والبلاد العربية. وقد اكتملت مظاهر النفاق بالعشرات من إعلانات التهاني في الجرائد التي نشرتها مؤسسات الحكومة بمئات الألوف من الجنيهات من أموال شعب فقير بائس أحوج إلى كل جنيه من أمواله.. كما نشرت الجرائد صفحات إعلانية كاملة لرجال أعمال يهنئون الرئيس بسلامته الغالية.. وكثير من هؤلاء المهنئين الكبار مدينون بملايين الجنيهات للبنوك المصرية وكان الأولى بهم إرجاع أموال المودعين التي نهبوها بدلا من تبديدها في النفاق.

٣ـ أثارت أزمة الرئيس الصحية قضية الشفافية في مصر وحق المصريين في أن يعرفوا، فنحن في الواقع لا نعلم شيئًا عن الرئيس مبارك، سواء عن حالته الصحية أو عن أي شيء آخر، وفي البلاد الديمقراطية تتاح المعلومات كلها للمواطنين فإذا أردت ـ هناك ـ أن تعرف بالضبط كم يكسب رئيس الجمهورية بل وما حجم أرصدته في البنوك وتفاصيل أملاكه العقارية، هو وأفراد أسرته، فإن القانون يعطيك هذا الحق حتى تطمئن إلى أن الرئيس الذي انتخبته لا يسيء استغلال منصبه.. أما الحالة الصحية لرئيس الجمهورية

فليست سرا حربيا كما هو الحال في بلادنا بل يتم الكشف عنها بأمانة ووضوح للرأي العام، وأذكر أثناء دراستي في الولايات المتحدة أن الرئيس الأمريكي ـ آنذاك ـ رونالد ريجان اكتشف إصابته بالسرطان مما استدعى إجراء عملية جراحية لاستئصال جزء من أمعائه. وأصدر البيت الأبيض من فوره بيانا مفصلا بحالة الرئيس الصحية، بل واستضافت شبكات التليفزيون العديد من أساتذة الطب ليشرحوا للمواطنين إذا كانت هذه العملية الجراحية ستؤثر على حياة الرئيس ريجان والأهم من ذلك إذا كانت ستؤثر في المستقبل على اتزان تفكيره وسلامة القرارات التي يتخذها والتي تتعلق بها حياة ملايين الناس.

٤ ـ تزامنت وعكة الرئيس مبارك مع عدة حوادث لها دلالة شغلت الرأي العام فمن خلال مذبحة الزمالك الشهيرة رأى المصريون كيف يعيش بعض من يسمون برجال الأعمال، فالسيد أيمن السويدي، فيما يبدو، لم يكن هناك ما يشغله في الدنيا أكثر من مطاردة الراقصات وقضاء لذته معهن مقابل ملايين، ولو كانت الثروة التي بددها السويدي على أجساد الغانيات من أموال أبيه لكان هذا شأنه وحده، ولكن تبين أنه يشتري اللذة بأموال الشعب المصري لأنه مدين للبنوك بمبلغ ١٥٠ مليون جنيه وتبين أن لديه في منزله ترسانة من الأسلحة النارية تكفي لمجموعة من الضباط المقاتلين وكلها مرخصة من وزارة الداخلية (التي منعت ترخيص الأسلحة إلا للضرورة القصوى..) بل إنه بالرغم من إفلاسه التام وصدور قرار بمنعه من السفر قام ـ قبل وفاته بأيام ـ بتوقيع عقد توريد بمبلغ ٣٠ مليون جنيه مع وزارة الكهرباء.. فإذا سألت كيف تتعامل معه الحكومة بعد أن نهب كل هذه الملايين..؟ فإن الإجابة المعتادة: إنهم يريدون إعطاءه فرصة أخرى حتى يقيلوه من عثرته، وبعد مجرزة السويدي بأيام انتحر شاب اسمه أحمد محمود صديق يأسا من حياته، وكان قد حصل على بكالوريوس العلوم من جامعة المنيا بامتياز مع مرتبة الشرف لكنه فشل في الحصول على وظيفة معيد لعدم وجود واسطة ثم تم تعيينه مدرسا في محافظة شمال سيناء بمرتب زهيد كان يرسله بالكامل إلى أهله الفقراء للإنفاق على إخوته وقد حاول أحمد صديق على مدى عامين أن يحصل على قرار بنقله من سيناء إلى المنيا ليعيش مع أسرته لكنه فشل أيضا لعدم وجود واسطة ولما وجد نفسه عاجزا من شدة الفقر عن أن يتزوج أو يستقل بمسكن أو حتى ينفق على أسرته بشكل كريم.. قرر أن يتخلص من حياته وانضم بذلك إلى

المنتحرين من شهداء النظام مثل إبراهيم دسوقي عبدالدايم وعبدالحميد شتا وغيرهما.. ولم تمض أيام حتى قبضت مباحث الزقازيق على المهندس محمد بهاء الدين وتهمته ليست القتل ولا السرقة ولا نهب المال وإنما جريمته أنه أعلن عن رأيه السياسي فكتب على الحائط شعار «لا لتوريث الحكم».. فتم اعتقاله ووجهت إليه تهمة ازدراء نظام الحكم وإثارة البلبلة إلى آخر هذه التهم الوهمية المطاطة التي يلفقها النظام في مصر لكل من يريد التخلص منه... والمتأمل في هذه الحوادث يجدها مع وعكة الرئيس ترسم مربع الظلم الذي نحياه.. فالذين نهبوا أموال المصريين ليهربوا بها أو ينفقوها على ملذاتهم تحميهم الحكومة وتلتمس لهم الأعذار وتمنحهم دائمًا فرصة جديدة للنهب، وملايين المصريين يعانون من الفقر والبطالة حتى يدفعهم اليأس إلى الانتحار فلا يعبأ بهم أحد.. أما من يتجرأ على معارضة النظام فإن السلخانات البشرية المقامة في مباحث أمن الدولة تنتظره حيث يتم تعذيبه بأبشع الوسائل ويصل الأمر إلى إحضار زوجته وأمه وابنته ليهتك الجنود عرضهن أمامه.. فساد ونهب من ناحية وفقر وبطالة وإحباط من ناحية أخرى وعصا القمع الرهيبة مشرعة لتهوي على رأس من يعترض.. ووسط هذا الواقع المظلم تأتي أزمة الرئيس مبارك الصحية الأخيرة لتطرح سؤالا جادا: وماذا بعد؟.. من ناحية أخلاقية وإنسانية نحن نتمنى للرئيس مبارك وللناس جميعًا الصحة والسعادة والعمر المديد.. لكن ما حدث يذكرنا بكل وضوح بأن قوانين الطبيعة لا يمكن تجاهلها إلى الأبد، فالرئيس مبارك (أمد الله في عمره) قد بلغ اليوم الخامسة والسبعين من العمر ولا يوجد نظام حقيقي أو طريقة محترمة لانتخاب رئيس آخر إذا غاب عن الحكم، والذين يطالبون الرئيس بتعيين نائب له يفوتهم بحسن النية أنهم بذلك يكرسون لاستمرار الديكتاتورية فأي نائب للرئيس يتم تعيينه سوف يكون بلا جدال الرئيس القادم لأن الدستور الحالي يجعل من تولية الرئاسة أمرا حتميا، فالانتخابات المزورة تأتي بأغلبية مجلس الشعب من الحزب الوطني وهذه الأغلبية المزيفة تختار الرئيس ثم تجري له استفتاء مزورا أيضا يجعل منه رئيسا بنسبة ٩٩٪ كما حدث خلال العقود الماضية.. إن مصر الآن فعلا تقف في مفترق الطرق.. وواجب كل من يحب هذا البلد أن يطالب بتعديل الدستور ليسمح للمصريين بانتخاب رئيس الجمهورية القادم من بين أكثر من مرشح، من حق المصريين أن يختاروا بحرية من يحكمهم.. أن يشعروا بأنهم مواطنون محترمون في بلادهم.. عندئذ فقط يبدأ مستقبل مصر.

كلمات للتأمل:

* «لحظة شعور الرئيس مبارك بالألم أدت بي إلى إحساس لا أستطيع وصفه لأنه.. أبعد من أي شيء في الوجود..»

فاروق حسني وزير الثقافة

* «إذا أردنا الصدق والإنصاف فإن حجم إنجازات حسني مبارك تبلغ أضعاف أضعاف إنجازات محمد علي باشا بل وحكام مصر جميعًا في تاريخها..»

محمد عبدالمنعم

رئيس تحرير روز اليوسف

* «مصر أقل نموا وأكثر فقرا من معظم دول الشرق الأوسط وقد غرقت مصر تماما في مستنقع الديون فكل إيرادات الدولة لا تزيد على ١٢٠ مليار جنيه سنويا بينما تبلغ ديون الحكومة الداخلية والخارجية ٤٥٦ مليار جنيه..»

أساتذة الاقتصاد لجريدة الوفد

* «جردوني من ثيابي تماما وأنا سيدة أقترب من الستين عاما وعلقوني عارية من شعري في السقف مع استمرار صعقي بالكهرباء في الثديين والأماكن الحساسة في جسمي ثم هجم عليَّ المخبرون من الأمام والخلف محاولين اغتصابي..»

المواطنة فاطمة عبدالجواد

وتم تعذيبها في قسم شرطة كفر الزيات

* «ضربوني بعصا غليظة حتى نزفت بشدة وتورمت قدماي ثم خلعوا ملابسي تماما وأخذ الضابط يطفئ السجائر في صدري وأخذ المخبرون يعتصرون ثديي لدرجة انسياب لبن الرضاعة منه»

المواطنة سمية أحمد

وتم تعذيبها في قسم شرطة الباجور

* «من أهم ما يتعلمه ضابط الشرطة في مصر.. احترام حقوق الإنسان..»

اللواء حبيب العادلي وزير الداخلية

عن المطلوب بعد نفي التوريث(*)

الحديث الذي أدلي به الرئيس حسني مبارك إلى الأستاذ عمر بطيشة رئيس الإذاعة المصرية في أول العام الجديد، يستحق المناقشة لأكثر من سبب:

أولًا: أكد الرئيس مبارك أنه يرفض مبدأ توريث الحكم في مصر ووصف الشائعات التي رشحت جمال مبارك لخلافته بأنها كلام فارغ لأن مصر نظامها جمهوري، وأضاف الرئيس ساخرا: «يبدو أن بعض الناس قاموا بتأليف مسألة توريث الحكم ثم صدّقوها». ونحن نتفق مع الرئيس مبارك في أن توريث الحكم كلام فارغ لأن مصر ليست عزبة ولا محلا تجاريا فيسجلها الأب في تركته ليرثها الابن من بعده..لكننا نختلف مع الرئيس في أن بعض الناس قد اخترعوا مسألة التوريث.. لأن ما حدث أننا فوجئنا منذ عامين بالسيد جمال مبارك (الذي لم نعرف عنه أية خبرة سياسية) وقد تحول فجأة إلى ركن ثابت في الصفحات الأولى للجرائد ووسائل الإعلام جميعًا ثم لم يلبث، بين ليلة وضحاها، أن صار من قيادات الحزب الحاكم واصطنعت من أجله لجنة السياسات التي تحاسب الحكومة ذاتها وهكذا صار رئيس الوزراء والوزراء جميعًا مسئولين أمام جمال مبارك وقد صاحب هذه التغيرات السريعة شعارات رنانة عن الفكر الجديد وضرورة التغيير مما دفع المصريين إلى الاعتقاد بأن خطة توريث الحكم موضوعة ومتفق عليها وقد بدأ تنفيذها خطوة خطوة.. حتى جاء حديث الرئيس مبارك لينفي لأول مرة بطريقة قاطعة موضوع التوريث.. على أننا نؤكد هنا أن التوريث ليس قاصرا على جمال مبارك وإنما يمتد ليشمل أي رئيس قادم يتولى الحكم بغير أن يختاره الناس في انتخابات حرة بين

(*) العربي ١١/ ١/ ٢٠٠٤.

أكثر من مرشح للرئاسة، وإذا وافق الرئيس على أي اسم آخر لخلافته في الرئاسة فإنه في هذه الحالة يعمل على توريث الحكم لأن الاسم الذي سوف يطرحه سيجد الطريق ممهدا أمامه للرئاسة بغير إرادة الناس أو حتى رغما عنهم.. فالإجراءات المعمول بها حاليا تكرس لتوريث السلطة: الانتخابات المزورة تأتي بأغلبية برلمانية زائفة وهذه بالطبع ستوافق على اسم الرئيس الجديد ثم تعد له وزارة الداخلية استفتاء يحصل فيه كالعادة على ٩٩٪ من أصوات الناخبين.. والحق أن هذه الطريقة الرخيصة المؤسفة لم تعد تناسب بلدا عريقا وعظيما في حجم مصر، بلادنا ليست أقل من الهند ولا جورجيا ولا أظن مصريا واحدا يقبل أن يفرض عليه رئيس جمهورية لا يعرف عنه شيئًا ولم يشارك في اختياره، إن الشعب المصري الذي يضم ملايين الجامعيين والمتعلمين لا بد أن يمارس حقوقه الطبيعية في اختيار الرئيس الذي سوف يحكمه.. وإذا كان الرئيس مبارك يعتقد كما قال أن توريث الحكم كلام فارغ فنحن نتوقع أن يسمح للمصريين باختيار رئيسهم القادم بحرية.

ثانيًا: أشاد الرئيس مبارك بالإنجازات الضخمة التي تمت في عهده وأكد أنه لولا الحروب التي خاضتها مصر وكلفتها ١٠٠ مليار جنيه لكانت مصر الآن من الدول المتقدمة. ومع اعترافنا بأهمية مشروعات البنية التحتية والتليفونات ومترو الأنفاق، فهي تشكل الحد الأدنى الذي يمكن تحقيقه بواسطة نظام سياسي استمر في السلطة لمدة ٢٢ عاما متصلة.. بل إن الحكومات المصرية خلال هذه الفترة الطويلة قد فشلت تماما في تحقيق الحد الأدنى من الحياة الكريمة للمواطنين بدليل سقوط ملايين المصريين في براثن الفقر والبطالة وذلك التدهور المحزن في التعليم والصحة والزراعة وغيرها من المجالات التي يرسم فيها الأداء خطًا بيانيًا مستمرا في الهبوط السريع نحو القاع.. ولا أفهم علاقة الفشل الحكومي الذريع بالحروب التي خاضتها مصر، وهذا الكلام ربما يكون منطقيا بعد عام أو بضعة أعوام من الحرب أما أن يقال بعد مرور ثلاثين عاما على آخر حرب خضناها فلا يمكن أن يقنع أحدا.. إن دولا أخرى مثل ألمانيا واليابان قد خاضت حروبا عالمية وحاقت بها هزيمة نكراء واستسلمت تماما ولكنها بعد أقل من عقدين من الزمان نهضت وصارت دولا قوية متقدمة، والمفارقة هنا ـ كما تؤكد الأرقام ـ أن الاقتصاد في مصر المقاتلة كان أفضل بكثير منه في مصر «المنفتحة» على أمريكا المتخاذلة عن أداء واجبها القومي.. وهذا دليل قاطع على أن محنة مصر سببها

سوء الإدارة وليس الإنفاق على حرب انتهت منذ ثلاثين عاما.. ولو صلحت الإدارة المصرية لتحسنت أحوال بلادنا في أعوام قليلة لكن الإدارة لا يمكن أن تنصلح في ظل نظام سياسي غير ديمقراطي يستبعد المخلصين والأكفاء ويمنح المناصب للمنافقين والمتمتعين بالرضا السامي، والمدهش أن كثيرين من الوزراء الحاليين قد عملوا في كل العهود، فهم اشتراكيون إذا كان العهد اشتراكيا فإذا انقلب النظام رأسماليا صاروا من أشد أنصار الخصخصة وحرية السوق.. فأي خير نرجوه من هؤلاء..؟! وبعضهم ظلوا خالدين في مناصبهم لمدة ربع قرن.. فماذا بقي لديهم ليمنحوه لنا..؟! اللهم إلا الإشادة بتعليمات الرئيس والتغني بحكمته وزعامته. وإلى متى يستمر هذا الهزل وبلادنا غارقة في محنتها؟!

ثالثا: أكد الرئيس مبارك أن مصر أكبر دولة ديمقراطية في المنطقة وأن فيها حرية غير مسبوقة.. وهنا نختلف مع الرئيس لأن الديمقراطية ليست وصفا بلاغيا لكنها نظام سياسي لا يتحقق إلا بشروط محددة أولها تداول السلطة عن طريق انتخابات نزيهة وهذا ما لا يحدث في مصر.. ثم كيف تكون مصر بلدا ديمقراطيا وهي محكومة بقانون الطوارئ منذ ٢٢ عاما..؟! وماذا نقول في عشرات الألوف من المعتقلين لأعوام طويلة بدون محاكمة، هل هذه علامة ديمقراطية؟ وماذا نقول عن تزوير الانتخابات وعدم تنفيذ أحكام القضاء وآخرها مهزلة الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب؟! ماذا نقول عن لجنة الأحزاب التي ترفض تشكيل أي حزب جديد إذا لم ترضَ عنه الحكومة؟ أما حرية الصحافة فكيف تتفق مع إغلاق الصحف التي لا تعجب الحكومة مثل صحيفة «الدستور» وصحيفة «الشعب» التي حصلت على أكثر من عشرة أحكام قضائية نهائية بعودتها لكن الحكومة لم ولن تنفذ أحكام القضاء؟.. إن الشفافية من أهم شروط الديمقراطية فماذا نعرف نحن عن أهل الحكم؟ ومن أين يأتون بالثروات الطائلة التي تتبدى في قصورهم ومنتجعاتهم الفاخرة وسياراتهم الحديثة وحفلات زفاف أبنائهم الأسطورية؟!.. هل يدخرون كل هذا المال من مرتباتهم في الوزارة..؟ ولماذا ينجح أولاد الوزراء دائمًا في مجال البيزنس ويلعبون بالملايين بينما يعجز المواطنون البسطاء عن تدبير احتياجاتهم حتى يقدم بعضهم على الانتحار من فرط القهر..؟ إن الحرية الوحيدة المسموح بها في مصر حرية الكلام.. أن يكتب كل واحد منا ما يشاء وبالمقابل تفعل الحكومة بنا ما تشاء.. أما حرية الصحافة في البلاد الديمقراطية فهي

حلقة متصلة من الرقابة الشعبية الحقيقية تبدأ الصحافة أولى خطواتها ثم يكملها بعد ذلك مجلس شعب منتخب بجد وسلطة تنفيذية مهمتها حماية حقوق المواطنين وليس تعذيبهم واعتقالهم.

رابعا: قال الرئيس مبارك إن أكثر ما يعنيه هموم المواطن البسيط وإنه يشعر بألم كبير عندما يجد طفلا مريضا يتألم ولا يستطيع أبوه أن يوفر له العلاج.. وهذا بلا شك شعور رقيق ونبيل من رئيس دولة مسئول أمام الله والقانون عن حقوق المصريين وكرامتهم لكنني مندهش لأن سيادة الرئيس لم تصله وقائع التعذيب البشع الذي يمارس يوميا في مباحث أمن الدولة وفي أقسام الشرطة ضد مواطنين أبرياء بغرض إجبارهم على الاعتراف بجرائم غالبا لم يرتكبوها.. إن تعذيب المواطنين عن طريق جلدهم ونفخهم وتعليقهم كالذبائح وصعقهم بالكهرباء بواسطة الشرطة، كل هذا تنشره الصحف أسبوعيا وتصدر به تقارير موثقة من هيئات مصرية ودولية ولعل جدول الرئيس مبارك المزدحم بالعمل قد شغله، حتى الآن، عن الاطلاع على هذه الفظائع.. ويكفي أن يعلم سيادته أنه قد بات من المألوف إحضار زوجة المعتقل أو ابنته أو أمه ونزع ملابسها تماما وإيقافها عارية تماما أمام الجنود الذين يبدءون في هتك عرضها بأيديهم أمام زوجها أو ابنها.. والذي يفعل هذا ليس جندي احتلال حتى نبلغ ضده محكمة جرائم الحرب لكنه ضابط مصري يتبع وزير الداخلية الذي قام بتعيينه الرئيس مبارك نفسه.. الطفل الذي يتألم من المرض بلا شك يثير العطف لكن الرجل الذي يُنتهك عِرض زوجته وأمه أمام عينيه، يستحق أيضا عطف الرئيس مبارك واهتمامه.

وأخيرا: قال الرئيس مبارك إنه لا يريد شيئًا من الدنيا إلا أن يعمل صالحا لوطنه حتى يتذكره الناس بعد ذلك بالخير.. وهذه أمنية جميلة ومحترمة ولا أظنها تتحقق إلا إذا استغل الرئيس مبارك نهاية فترة رئاسته الرابعة في العام المقبل ليمنح المصريين حقهم الطبيعي في اختيار رئيسهم بين أكثر من مرشح، عندئذ يبدأ المستقبل في مصر ويشعر المصريون بأنهم مواطنون يشاركون في حكم بلادهم وليسوا مجرد رعايا للسلطان.. وعندئذ سوف يتذكر الناس الرئيس مبارك بكل خير كما يحب.

المماطلة في الإصلاح السياسى(*)

لماذا اعتذر الرئيس حسني مبارك عن عدم حضور مؤتمر الدول الصناعية الكبرى؟! وزير الخارجية أحمد ماهر قال إن الرئيس لديه ارتباطات أخرى.. وهذا كلام غير مقنع لأن موعد هذا المؤتمر معروف منذ فترة طويلة، كما أن الرئيس مبارك منذ توليه للسلطة (من ٢٣ عاما) يعتمد دائمًا في سياسته على الزيارات الدولية بل لعله من أكثر الرؤساء في العالم سفرا إلى الخارج، وأذكر أن الكاتب الراحل الكبير محمد حلمي مراد انتقد في مقالاته رحلات الرئيس الكثيرة فكان الرد عليه عندئذ أن الرئيس إنما يرهق نفسه بالسفر المتكرر من أجل مصلحة مصر، وأذكر أيضا أن الرئيس مبارك تلقى مرة دعوة رسمية لزيارة بريطانيا في يوم ٢٣ يوليو وكتب يومئذ المفكر الراحل عادل حسين يطلب من الرئيس تأجيل الزيارة إلى يوم آخر لأنه كما قال لا يجوز أبدا أن يترك رئيس الجمهورية بلاده في عيدها القومي مهما كانت الأسباب، لكن الرئيس مبارك لم يأخذ بهذا النقد وذهب إلى بريطانيا في اليوم المحدد.

والسؤال: إذا كان الرئيس مبارك يحرص إلى هذا الحد على الوجود في المحافل الدولية فكيف يرفض الذهاب إلى مؤتمر يجمع الدول الصناعية الكبرى في العالم؟! الإجابة عرفناها من الصحف الأجنبية فقد تبين أن هذا المؤتمر سيخصص جزءا من وقته لمناقشة الإصلاح السياسي في الدول العربية، وسوف يطالب المؤتمر الحكام العرب بجدول زمني محدد لتداول السلطة وعقد انتخابات نظيفة في بلادهم.. وهكذا يتضح أن الرئيس مبارك رفض أن يناقش مع الدول الصناعية تطبيق الديمقراطية في مصر.. ولدينا هنا ما نقوله:

(*) العربي ٣٠/ ٥/ ٢٠٠٤.

أولًا: لا يمكن أن يقبل أي مواطن مصري أن تتدخل الدول الغربية في شئون بلاده، كما أن الولايات المتحدة التي تطالبنا الآن بتطبيق الديمقراطية كانت من أكبر أسباب انتشار الديكتاتورية في العالم العربي حيث دأبت الإدارات الأمريكية المتعاقبة على تدعيم أسوأ الأنظمة العربية وأكثرها قمعا واستبدادا من أجل ضمان مصالحها الاستعمارية.. ولكن على الجانب الآخر، فمن بين المطالبين بالديمقراطية دول أخرى غير أمريكا، مثل اليابان ودول الاتحاد الأوروبي، وهذه الدول تطالب بالديمقراطية في العالم العربي لأسباب أخلاقية وعملية، فلم يعد مقبولا في العالم المتحضر أن يستولي شخص ما، بالقمع والتزوير، على السلطة في بلد ما فيحكمها إلى الأبد ثم يورثها من بعده لأبنائه وأتباعه.. ومن ناحية أخرى، تعتقد الدول الغربية، أن الاستبداد في العالم العربي يؤدي إلى الظلم مما يدفع الشباب إلى اعتناق أفكار متطرفة تؤدي بهم في النهاية إلى ارتكاب عمليات إرهابية تقتل الغربيين الأبرياء كما حدث في إسبانيا، وبالتالي فإن هذه الدول تطالب بالديمقراطية في بلادنا من أجل حماية بلادها.. وفي النهاية فإن المجتمع الدولي لا يحترم إلا الحكومات المنتخبة ولا يمكن أن نقنع العالم بأننا ديمقراطيون عن طريق التصريحات الوردية والأغاني ومقالات النفاق.. ولكن علينا أن نبدأ فعلا في التحول الديمقراطي حتى نكسب احترام العالم ونقطع أية ذريعة للتدخل الأجنبي في شئوننا.

ثانيًا: يقول الرئيس مبارك إن الإصلاح يجب أن ينبع من الداخل ولا يفرض من الخارج.. ونحن نوافقه في الرأي لكننا للأسف لا نرى أي إصلاح في الداخل أو في الخارج، وكل ما فعلته الحكومة المصرية أنها اصطنعت أشكالا جديدة من الديكور الديمقراطي.. فقررت إلغاء عقوبة الأشغال الشاقة بينما تركت المحاكم العسكرية والاستثنائية التي تمكنها من إعدام معارضيها السياسيين ثم قامت بإنشاء مجلس صوري لحقوق الإنسان، بدأ أعماله بالموافقة على مد قانون الطوارئ ثم أعلن أن مشروعه القادم سيخصصه لحماية الشغالات في المنازل.. إننا نسأل الرئيس مبارك أين الإصلاح؟! تزوير الانتخابات قائم وقانون الطوارئ قائم والحزب الوطني يحتكر السلطة من ربع قرن، والمعتقلات مزدحمة بعشرات الألوف من الأبرياء، والتعذيب سياسة معتادة في مقار أمن الدولة وأقسام الشرطة.. لقد أدان الرئيس جرائم التعذيب البشعة التي ارتكبها الأمريكان ضد العراقيين في سجن أبو غريب.. ونحن نقول للرئيس

إن ما حدث في أبو غريب يحدث مثله في معتقلات النظام المصري من سنوات طويلة فهل يعرف الرئيس مبارك ذلك..؟ وهل يوافق على امتهان كرامة المصريين وهتك أعراضهم بواسطة جلادين يعد هو المسئول الأول عن تعيينهم..؟.. إن الرئيس مبارك يطالب الإدارة الأمريكية بتسليم السلطة للعراقيين في أقرب فرصة.. نحن نؤيده في ذلك لكننا نسأل سيادته: ومتى يتم تسليم السلطة للمصريين..؟! متى يشترك المصريون في حكم بلادهم؟!.

ثالثا: يقول الرئيس مبارك «إن الأجندة الغربية للإصلاح لا تنفع معنا لأن مجتمعنا له خصوصية معينة..».. ونحن لا نفهم ما المقصود بهذه الخصوصية؟..هل يقصد الرئيس أن الشعب المصري لا تنفع معه الديمقراطية.. إن سيادته بالتأكيد يعرف أن مصر أول دولة في الشرق كان لديها برلمان وانتخابات.. إذا كان الرئيس يقصد أن انتشار الأمية والفقر في مصر يمنع تطبيق الديمقراطية فإن بلدا مثل الهند يعاني من هذه المشكلات أضعاف ما نعاني وبالرغم من ذلك فقد استطاعت الهند أن تصنع أكبر ديمقراطية في العالم.. وقد صنعت الديمقراطية نهضة الهند حتى صارت قوة كبيرة يحسب حسابها بينما تخلفنا نحن في مصر في كل المجالات بسبب الحكم الفردي.. بقي معنى واحد للخصوصية وهو أن المصريين لا ينفع معهم إلا الشدة ولا يمكن حكمهم إلا بواسطة المعتقلات والتعذيب وقانون الطوارئ.. ومستحيل أن يكون هذا رأي الرئيس في مصر والمصريين.. لأنه كما نعرف يحب بلاده ويحترم شعبه.

رابعا: صرح الرئيس مبارك للصحافة العالمية بأن تطبيق الديمقراطية سوف يأتي بالمتطرفين إلى حكم مصر؟ ونحن نقول إن الديمقراطية ليست معضلة ولا عملية معقدة بل هي خطوات معروفة تبدأ بأن ينتخب المصريون بدون تزوير لجنة تأسيسية لعمل دستور جديد ديمقراطي.. وأن تنتخب هذه اللجنة حكومة مؤقتة لمدة عامين يتم خلالها إطلاق الحريات العامة وإلغاء الطوارئ والسماح بتكوين أحزاب سياسية، وأن تتنافس هذه الأحزاب في انتخابات عامة ويتولى الحزب الفائز السلطة كما يحدث في العالم كله.. وهنا نتساءل ماذا لو فاز التيار الإسلامي في الانتخابات؟ ألا يكون هذا اختيار الشعب المصري وعلينا أن نحترمه؟ ألا يكون من حق الإسلاميين عندئذ أن يحكموا لفترة محددة ثم يخوضوا انتخابات جديدة ليجدد الناس الثقة فيهم أو يحجبوها عنهم؟ يقول البعض إن الإسلاميين إذا وصلوا إلى الحكم لن يتركوه أبدا.. وأنا أتساءل

هل تعجز الدولة المصرية بكل قوتها وسلطاتها عن صيانة الديمقراطية والدستور؟.. إن التحول الديمقراطي ممكن جدا إذا توفرت النية لتطبيقه..

خامسا: أعلن الرئيس مبارك أن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق في مصر إلا بعد التوصل إلى حل نهائي للقضية الفلسطينية.. ونحن لا نفهم ما العلاقة بين تحرير فلسطين وتطبيق الديمقراطية في مصر.. إن ما يحدث في فلسطين والعراق، على أهميته لنا في مصر، لا يجب أن يستعمل كسبب لتأجيل الديمقراطية.. ثم إن القضية الفلسطينية قد لا تحل اليوم أو غدا، فهل ننتظر خمسين عاما أخرى من أجل أن نختار من يحكمنا وننعم بسيادة القانون في بلادنا..؟ إن دور مصر الإقليمي والدولي سيكون مؤثرا بحق إذا جاءت الديمقراطية بحكومات تمثل الشعب وتطالب بحقوقه.. بدلا من حكومات الحزب الوطني التي لا يشغلها إلا البقاء في السلطة مهما كانت التنازلات التي تقدمها.

سادسا: يؤكد الرئيس مبارك أن الإصلاح الاقتصادي يجب أن يسبق الإصلاح السياسي.. وهنا أيضا نختلف مع سيادته لأننا إذا أردنا أن نجري عملية جراحية فأهم شيء أن نجد الطبيب الماهر القادر على إجرائها.. وإذا أردنا أن ننفذ خطة للإصلاح الاقتصادي لا بد أن نعهد بها إلى مسئولين يتمتعون بالإخلاص والكفاءة وهؤلاء لا ينتجهم إلا نظام ديمقراطي يسمح للناس باختيار من يمثلهم.. أما في النظام غير الديمقراطي فيتم اختيار المسئولين بناء على ولائهم للنظام وليس كفاءتهم وبالتالي فإنهم يفشلون في إنجاز أي شيء ما عدا المديح المتصل في الرئيس والإشادة بمنجزاته وحكمته.. وهذا بكل أسف ما يحدث في مصر.. بلدنا غني بالمواهب الأصيلة والكفاءات النادرة.. لكن الأكفاء يتم استبعادهم وتهميشهم بانتظام بينما يستأثر الطبالون والزمارون من أعضاء الحزب الوطني بالمناصب المؤثرة في الدولة وقد فشلوا في كل شيء حتى أوصلونا إلى الحضيض في كل المجالات.

إن الأحوال في مصر لم تعد تحتمل ويستحيل أن تستمر بهذه الطريقة.. ملايين المصريين يعانون من الفقر والبطالة والظلم والقمع وقد يئسوا من المستقبل إلى درجة الانتحار أو الفرار من بلادهم بأي طريقة.. وفي وسط هذا البؤس الشامل تنعم قلة محظوظة بالسلطة الدائمة والثروات الطائلة التي لا يعرف أحد مصدرها.. الوضع في مصر مرشح للانفجار في أية لحظة.. انفجار مروع لا يعرف أحد مداه ولا عواقبه.. ولأننا واثقون أن الرئيس مبارك يحب بلادنا كما نحبها، فنحن نتمنى أن يقتنع سيادته بأن الديمقراطية، الآن، هي الحل وهي البداية الوحيدة الصحيحة للمستقبل.

كلمات للتأمل:

* «أنا عن نفسي قلت لكل أعضاء اللجنة.. يا جماعة.. يا اخوانا..اللي عنده عمه أو خاله أو واحد قريبه أو حتى أي واحد معرفته في بلاد بره.. لازم يكلمه يمكن بالصدفة يطلع يعرف حد في الفيفا.. يقوم يعطي صوته لمصر..»

الكابتن محمد السياجي

* «سيارات الوزراء في مصر كلها ماركة شيروكي ومرسيدس وتستهلك وقودا في العام الواحد بمبلغ مليار جنيه..»

جريدة الأهالي

* «وزارة الداخلية تنفق على الأمن المركزي والمعتقلات كل عام مبلغ ٤ مليارات جنيه»

جريدة العربي

* «في مصر على الأقل ٦ ملايين عاطل وأكثر من نصف المصريين يعيشون تحت خط الفقر..»

تقرير البنك الدولي

* «قلعوني هدومي كلها ما عدا الكلوت.. جه عسكري اسمه حسن وقاللي إنه حيعتدي عليا ويخليني حامل.. والكلام ده قدام الضباط أشرف كسبة وعمرو الشلقاني اللي استلموني من اليمين والشمال ضرب في وشي زي الكورة لحد ما طرشت دم»

من شهادة المواطنة عائشة عن تعذيبها في قسم المنتزه بالإسكندرية

* «قلعوني هدومي أمام المخبرين وكهربوني في أماكن حساسة وعروا ابنتي تماما وبعدين جابوا لنا أخويا وجوزي عشان يشوفونا واحنا عريانين.. دلوقت مش قادرة أطلع من البيت.. حاسة إن كل الناس شايفاني وأنا عريانة.. جوزي جاله شلل.. ياريتني كنت مت قبل ما يحصل لي كده..»

من شهادة المواطنة زينات عن تعذيبها في قسم البساتين

* «نحن في مصر.. قمنا بترسيخ الديمقراطية منذ حوالي عشرين عاما..»

الرئيس حسني مبارك

وقائع ما جرى في استراحة برج العرب(*)

هل من حق المصريين أن يطلعوا على الأسرار الشخصية لرئيس الجمهورية..؟!

هناك رأيان: الرأي الأول يعتبر الحياة الخاصة للرئيس مبارك ملكا له فقط.. والرأي الثاني، ونحن معه، يعتبر أنه لا يوجد ما يسمى بالحياة الخاصة لرئيس الجمهورية، لأن كل ما يقدم عليه من تصرفات يؤثر في مصير ملايين المحكومين، وفي مصر على الأخص حيث يتركز النظام السياسي كله في شخص الرئيس مبارك يصبح من الضروري أن يطلع الرأي العام على كل شيء.. ومن هنا كان حرصنا على أن ننقل إليكم الوقائع الغريبة التي حدثت للرئيس مبارك منذ أيام.. ونرجو من سيادته أن يتقبل أمانتنا بصدر رحب. كان الجّراح الألماني مايكل ماير الذي أجرى العملية للرئيس مبارك، قد اشترط عليه أن يخلد إلى الراحة لمدة شهر كامل حتى يعطي الجرح فرصة للالتئام، لكن الرئيس، على العكس، بمجرد عودته إلى مصر استغرق في العمل: انشغل بتشكيل الوزارة الجديدة على مدى أيام ثم قام بتعيين المحافظين الجدد.. وهنا اتصل به البروفيسور ماير من ميونيخ وحذره بحسم من المضاعفات التي سوف تصيبه إذا لم يبدأ الإجازة فورا.. وقد وعده الرئيس بذلك وانتظر حتى فرغ المحافظون من أداء اليمين واجتمع بهم ليعطيهم توجيهاته وعندما وقف ليصافحهم مودعا كان التعب قد أخذ منه كل مأخذ وشعر بآلام مبرحة في ظهره بالرغم من المسكنات التي يتناولها.. كل ذلك جعل الرئيس مبارك ينفذ وعده للدكتور ماير.. وبعد أقل من ساعة كان يستقل طائرة الرئاسة إلى استراحة برج العرب وبجواره الدكتور زكريا عزمي رئيس الديوان الجمهوري.. قال الرئيس مبارك بصوت خافت وكأنه يكلم نفسه:

(*) العربي ٢٥/ ٧/ ٢٠٠٤.

ـ لم أشعر في حياتي بأنني بحاجة إلى الراحة كما أشعر اليوم.

ـ أمر طبيعي يا فندم.. العملية كانت دقيقة والحمد لله على سلامتك. هكذا قال عزمي مبتسما.

ـ شوف يا زكريا.. أنا ناوي أقضي في برج العرب أسبوعين أو ثلاثة بناء على أمر الطبيب. لا أريد للصحافة أن تنشر ذلك حتى لا يقلق المواطنون على صحتي.. وطبعا سأواصل العمل من الاستراحة وأنت ستبقى معي ولو حدث ما يستلزم وجودي في القاهرة سأذهب وأعود في نفس اليوم.

ـ إن شاء الله يا فندم.

هكذا ردد زكريا الذي كان يعرف من طول عشرته للرئيس متى وكيف يتكلم معه.. ما إن هبط الرئيس من الطائرة حتى اندفع لمصافحته العاملون في استراحة برج العرب ليهنئوه على سلامته، كان يعرفهم واحدا واحدا بالاسم وقد احتضنوه وقبّلوه واندفع بعضهم إلى تقبيل يده لكنه جذبها بحسم كعادته في مثل هذه المواقف.. وقد بدأ الرئيس إجازته بأن أخذ حماما ساخنا وارتدى ثيابا رياضية مريحة وجلس في الشرفة الكبيرة على المقعد الطويل «الشيزلونج» الذي يجعله في مواجهة البحر مباشرة.. وشيئًا فشيئًا بدأ الرئيس يشعر بالراحة والانتعاش وقد أرسل إليه مطبخ الاستراحة دورقا كبيرا من عصير الكوكتيل الطازج المصنوع من مجموعة فواكه بطريقة معينة يحبها سيادته.. لكنه وقبل أن ينتهي من شرب كوب العصير سمع أزيز طائرة مروحية تهبط بجوار الاستراحة ونظر إلى الدكتور زكريا الذي نهض مسرعا لاستطلاع الأمر.. وبعد دقائق عاد زكريا وفتح الباب وأطل برأسه وقال ضاحكا:

.. هناك زوار مُصرّون على مقابلة سيادتك.

ـ زوار..؟!

هكذا تساءل الرئيس مندهشا ولم يلبث أن ضحك في سعادة عندما لمح أفراد أسرته، جاءوا جميعًا: السيدة سوزان مبارك وجمال مبارك وعلاء مبارك ومعه ابنه الصغير شريف الذي ما إن رأى جده حتى اندفع إليه واحتضنه وتعلق برقبته.. وسأل الرئيس السيدة حرمه:

لقد رأيتك في الصباح ولم تخبريني بأنكم ستحضرون..؟

أجابت السيدة سوزان بمرح:

ـ مفاجأة حلوة..؟

ـ طبعا..

.. تركهم الدكتور زكريا وجلسوا جميعًا في الشرفة ودار حديث عائلي تطرق إلى موضوعات متنوعة ثم تناولوا طعام الغداء الذي اجتهد الطباخون ليكون شهيا وكان للرئيس طعام صحي مسلوق أخذ يأكله على مهل.. وبعد تناول طبق الحلو جاء وقت الشاي وقالت السيدة الأولى بابتسامتها الهادئة الشهيرة وهي ترشف من فنجانها:

ـ ياريس لقد قررنا أنا وعلاء وجمال.. أن نبقى معك هنا في برج العرب.

نظر إليها الرئيس وكأنه فوجئ ثم قال:

ـ أهلا وسهلا بكم طبعا.. لكنني لا أرى ما يدعو إلى ذلك.. الحمد لله أنا بخير وقد جئت هنا لتنفيذ تعليمات الطبيب لا أكثر.. تفضلوا أنتم ولا داعي لتعطيل أنفسكم.

وبان على وجه السيدة الأولى ما يشبه الغضب وقالت:

ـ نعطل أنفسنا..؟! ليس عندنا في الدنيا أهم من صحتك..

ـ صحتي والحمد لله بخير.. سأتابع عملي من هنا كالمعتاد وقد جاء معي زكريا وغدا يلحق بي أفراد مكتبي.. وتستطيعون أن تطمئنوا عليَّ في أي وقت.. أنا أقدّر تماما مشاغل كل واحد فيكم.

وأجال الرئيس نظره في وجوههم وأبعد يد حفيده برفق عن وجهه وقال للسيدة الأولى:

ـ أنت يا هانم مشاغلك في مجال الطفولة والأمومة لا تترك لك دقيقة. وعلاء.. لديه أعماله الخاصة الكثيرة التي تحتاج إلى المتابعة ساعة بساعة.. أما جمال فلديه هذه الأيام شغل كثير: لجنة السياسات ومؤتمر الحزب الوطني في سبتمبر.. كما أن الوزراء الجدد ينتظرون رأيه في موضوعات كثيرة.

ساد الصمت فترة لم يقطعه خلالها إلا هواء البحر الذي يهب فيحرك أوراق الأشجار المحيطة بالشرفة وبعض الصليل الناعم الذي تصدره فناجين الشاى المذهبة ماركة ليموج الفرنسية وهي ترتطم بالأطباق ولم تلبث السيدة سوزان أن قالت في محاولة أخيرة:

ـ ياريس.. نحن جميعًا مشغولون كما قلت لكن ما المانع في أن نقيم معك ونذهب كل يوم إلى القاهرة ونعود بالطائرة.

وهنا أشاح الرئيس بيده وقال بنبرة نهائية يعرفها جيدا كل من عمل معه:

ـ لأ..هذا كلام غير عملي.. أنا بخير وأنتم مكانكم هناك في القاهرة.. وعندما يسمح وقتكم تعالوا زوروني..

.. احترمت الأسرة رغبة الرئيس وبعد قليل نهضوا لينصرفوا وصافحوه وقبّلوه جميعًا وتشبث الطفل شريف برقبة جده وبذلت جدته مجهودا مضنيا حتى أقنعته بالانصراف معها..

وقد صحبهم زكريا عزمى وما إن جلسوا في الطائرة وخلال الدقائق التي سبقت الإقلاع.. فتح علاء مبارك جهاز حاسبه الشخصى «اللاب توب».. وأخذ يطالع بيانات معينة ويجري عمليات حسابية بأرقام كبيرة وقد بان عليه التفكير العميق.. أما السيدة الأولى فقد دخلت في حوار هامس طويل مع جمال الجالس بجانبها والذي لم يلبث أن أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وقلما ذهبيا وأخذ يدوّن بعض الملاحظات من حديثه مع والدته..

أقلعت الطائرة بهم وبدت وكأنها تتجه إلى قرص الشمس الذي ينزل شيئًا فشيئًا في البحر.. اقتربت ساعة الغروب والرئيس مبارك جالس وحده في الشرفة وهواء البحر يداعب وجهه.. وقد لمح من بعيد ملاعب الإسكواش الملحقة بالاستراحة وتذكر بداية توليه الحكم، منذ أكثر من عشرين عاما، عندما أمر بتجديد هذه الملاعب وتوسيعها واستيراد أحدث لوازمها من الخارج على نفقته الخاصة طبعا وفكر أنه قضى في هذه الملاعب بعضا من أجمل أوقات حياته.. واستعاد شعوره الممتع بالإثارة عندما يركز ذهنه في كرة الإسكواش وهي ترتطم بالحائط وتغير اتجاهها بسرعة خارقة فيجري ويتخذ الوضع المناسب ليضربها بقوة.. الإحساس الرائع بالحيوية والنشاط الذي كان ينتابه بعد أن يفرغ من الإسكواش ويغطس في مياه حمام السباحة الباردة.. ظلت

الإسكواش رياضته المفضلة حتى امتنع عنها من سنوات استجابة لتعليمات الأطباء.. أحس الرئيس بشيء من الحزن لكنه قال لنفسه:

ـ هكذا حال الدنيا.. لا شيء يدوم على حاله..

وفجأة انتابته رغبة ملحة في النوم عزاها إلى تأثير نسيم البحر أو مفعول المسكنات التي أصبح يتناولها يوميا منذ إجراء العملية.. فنهض ببطء ودخل إلى حجرة النوم ورفع سماعة التليفون وقال بصوت هادئ:

ـ زكريا.. سأنام قليلًا أرجو أن توقظني بعد ساعتين لأن لدي أشياء مهمة.

وجاءه صوت الدكتور زكريا الأجش من خلال السماعة:

ـ حاضر يا فندم..

.. دخل الرئيس إلى فراشه وحرك جسده ببطء وعناية حتى لا يؤلمه مكان العملية وتعمد أن ينام على جانبه كما أوصاه الطبيب وأغمض عينيه وشيئًا فشيئًا.. بدأ ينساب بنعومة إلى عالم النعاس المريح ولكنه في تلك اللحظة الغامضة التي تفصل بين اليقظة والنوم.. انتبه فجأة على صوت فرقعة شديدة وفتح عينيه فوجد الحجرة ممتلئة بدخان كثيف متصاعد.. وأدرك فورا أنه يتعرض إلى عمل إرهابي وفهم بخبرته كعسكري أن المهاجمين قد ألقوا بقنبلة دخان لتغطية الهجوم.. هب الرئيس من رقدته مرة واحدة مما سبب له ألما حادا في ظهره لكنه تماسك ومد إصبعه بأقصى سرعة ليضغط على زر الطوارئ الذي يطلق صفارة الإنذار ويستدعي الحرس في ثوان معدودة.. لكنه بمجرد أن لمس الزر وقبل أن يضغط عليه سمع صوتا يصيح:

ـ لحظة واحدة يا أخ حسني..

حدق الرئيس مبارك بقوة فوجد الدخان يتبدد شيئًا فشيئًا ورأى جمال عبد الناصر ماثلا أمامه، كان يبدو شابا وكأنه في أول الثورة وقد ارتدى البذلة العسكرية التي ألقى بها خطاب الأزهر الشهير عام ١٩٥٦.. ضحك ناصر وقال بصوت ودي:

ـ حاجة غريبة يا أخ حسني.. لماذا تعتبر زيارتي لك دائمًا عملا إرهابيا..؟

ـ العفو يا فندم.. سيادتك شرفتني بزيارة واحدة يوم ٢٣ يوليو الماضي.. وقد مضى

عام كامل وبالتالي فأنا لم أتوقع الآن أن... ثم انفرجت أسارير الرئيس مبارك وقال بترحيب صادق:

ـ يا أهلا وسهلا.. شرفت يا فندم.

ـ من فضلك خاطبني باسمي المجرد.

مستحيل يا فندم.. أنا رجل عسكرى أحترم الأقدمية.. سيادتك كنت القائد الأعلى للقوات المسلحة وأنا ضابط صغير..

حاول الرئيس مبارك النهوض لكن عبد الناصر أوقفه بإشارة من يده وقال وهو يجلس بجواره على السرير:

ـ أرجوك.. خليك مستريح..

وسادت لحظة صمت ثم نظر الرئيس مبارك إلى عبد الناصر وقال بود:

ـ الحقيقة زيارة سيادتك غريبة جدا لدرجة ساعات أفكر إنها حلم.

الموت يحمل أسرارا لا أستطيع أن أفشيها.. لكنني أؤكد لك أن الموت ليس نهاية لكنه بداية.. انتقال إلى عالم الحقيقة.. هناك.. سوف تكتشف يا أخ حسني بعد عمر طويل أن كل معارفنا في الدنيا زائفة وزائلة.. سوف تتوصل إلى الحقيقة الصافية التي لا يمكن للإنسان أن يراها في الدنيا لأن نظره يكون محجوبا بشهواته وأطماعه.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى عندما قال تعالى في سورة ق: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.. صدق الله العظيم.. هكذا تمتم الرئيس مبارك وأخذ ينظر إلى عبد الناصر ولاحظ لأول مرة أن وجهه يتسم بنضارة مدهشة حتى إنه لا توجد في رأسه شعرة بيضاء واحدة فقال:

ـ على فكرة سيادتك تبدو شابا جدا.. ما شاء الله.

وابتسم ناصر وقال:

ـ الحمد لله أنا وجميع زعماء مصر في العالم الآخر قد عدنا بفضل من الله إلى شبابنا.. حتى إن أكبرنا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين.. حتى سعد زغلول الذي عرفه المصريون شيخا كبيرا قد عاد هناك إلى صباه.

ـ أستطيع أن أتخيل سعادة الرئيس السادات بعودته إلى الشباب.

وهنا قال عبد الناصر باقتضاب:

ـ قلت لك من قبل إن أنور السادات ليس معنا.

ـ حاجة غريبة.. أليست الآخرة كلها منطقة واحدة..؟

ـ لا طبعا.. الآخرة مناطق كثيرة.. والمنطقة التي تضم السادات لا يعود فيها الناس إلى شبابهم بل يتقدمون في السن.. أرجوك يا أخ حسني.. لا تسلني عن الأسرار.

ثم اقترب من الرئيس مبارك المستلقي على الفراش ووضع يده على كتفه وقال:

ـ سوف أدخل في الموضوع مباشرة لأن الوقت ضيق.. نحمد الله على سلامتك يا أخ حسني.. لقد استجاب الله لدعائنا.

ـ كتر خيركم.

هكذا رد مبارك وهو مشغول بمراقبة ما يفعله عبد الناصر الذي أخرج من جيبه ورقة صغيرة مكتوبا عليها بخط أحمر دقيق ونظر فيها ثم قام من مكانه ومشى ببطء حتى صار في وسط الحجرة وقال:

ـ بعد الاطمئنان عليك.. نتمنى أن نطمئن على مصر.

ـ مصر بخير والحمد لله.

ـ لا يا أخ حسني.. مصر ليست بخير.

ـ من قال لك هذا الكلام.. لا سمح الله.

وابتسم ناصر بما يشبه الحزن وقال بهدوء:

ـ أنا لا أحتاج لمن يقول لي عن مصر.. اسمع يا أخ مبارك.. لقد زرتك في العام الماضي وحاولت أن يكون كلامنا وديا.. أما هذه المرة فقد حضرت لكي أختلف معك وأرجو ألا تغضب مني لأن كل ما سأقوله في صالح بلادنا.

ـ أنا يا فندم لا أغضب منك أبدا.

ـ مصر تمر الآن بأسوأ فترة في تاريخها.. لقد تدهورنا في كل المجالات حتى وصلنا إلى الحضيض.

ـ هذا كلام غير صحيح وظالم يا فندم.. لقد تمت في عهدي إنجازات ضخمة وغير مسبوقة.. تم تجديد البنية الأساسية من تليفون وكهرباء وصرف صحي وشبكات الطرق وتم تشييد مشروع مترو الأنفاق ومشروع توشكى.. كل ذلك يشهد به المصريون جميعًا.

ـ هناك بلا شك إنجازات مهمة لكنني أسألك يا أخ حسني بعد أن تتولى السلطة في مصر لمدة ربع قرن.. هل تعتبره إنجازا استثنائيا أن تصلح التليفونات وتنشئ المترو؟!.. إن معي أرقاما ترسم صورة بشعة لحياة المصريين هل تحب أن تسمعها..؟!

ـ تفضل يا فندم.

.. بدأ عبد الناصر يقرأ من الورقة: ٤٨ مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر.. ١٢ مليون مصري يعيشون في المقابر والمناطق العشوائية.. ٦ ملايين مصري عاطل في سن العمل.

.. و مقابل هذا الفقر الساحق لملايين المصريين فإن حكومتكم تنفق وكأننا في بلد غني.. هناك ٥ مليار جنيه رصدها الجهاز المركزي للمحاسبات لا نعرف أين أنفقتها الوزارات.. مخصصات السيارات الحكومية وحدها وصلت إلى ٧ مليار جنيه.. بالإضافة إلى الصفقات المشبوهة لبيع القطاع العام وعشرات المليارات من أموال البنوك التي هربت بها عصابات اللصوص الذين تسمونهم رجال أعمال..

توقف عبد الناصر عن القراءة وبدا الغضب في وجهه ثم علا صوته:

ـ المصريون يسحقهم الفقر والمرض والبطالة واليأس من المستقبل.. هل سمعت عن ظاهرة انتحار الفقراء لأنهم لا يجدون ما ينفقونه على أولادهم.. كيف تسمح بهذه المآسي في بلد أنت مسئول عنه يا أخ حسني..؟

ـ من فضلك.. هذا الكلام ظالم.. يشهد الله أنني قد فعلت ما بوسعي من أجل مصر.. تعبت وسهرت ووصلت الليل بالنهار وسافرت إلى كل مكان في الأرض حتى أحقق الرخاء.. لكن المصريين يا فندم يتزايدون بطريقة رهيبة.. الزيادة السكانية تلتهم كل ما نفعله من أجل البلد.

ـ هذا كلام غير منطقي.. الفقراء يلجئون إلى كثرة الإنجاب من أجل تأمين مستقبلهم، لأنهم عندما ينجبون عدة أولاد يضمنون الستر في شيخوختهم ولو نجحت الدولة في تأمين مستقبل الفقراء لكانوا قد أقلعوا عن كثرة الإنجاب من تلقاء أنفسهم.. ثم إنني أسألك.. هل كانت الزيادة السكانية مفاجأة لكم؟!.. ولماذا لم تعملوا حسابها؟!.. هناك دول مثل الصين والهند استطاعت أن تحيل المشكلة السكانية إلى ثروة بشرية.. لماذا لم تفعلوا مثلهم وأنتم في السلطة لمدة ربع قرن يا أخ حسني..؟!

وهنا بان الغضب في وجه الرئيس مبارك وصاح:

ـ يا فندم.. مع احترامي الكامل لسيادتك أنا أرفض أن تكلمني بهذه الطريقة..

وكان صوت الرئيس مبارك عاليا فلم يلبث الباب أن انفتح وظهر زكريا عزمي الذي هرع نحو مبارك وسأله بقلق:

ـ سيادة الرئيس.. ماذا يحدث؟ وقف زكريا بجوار عبد الناصر تماما وبدا أنه لا يراه وابتسم ناصر وقال وهو يشير بيده لمبارك:

زكريا عزمي لن يستطيع رؤيتي.. أرجو أن تصرفه حتى نتكلم فالوقت ضيق.

وسكت مبارك فقال عزمي:

ـ يا فندم أنا سمعت سيادتك تتكلم.

ـ يتهيأ لك يا زكريا.. أنا كنت نائم آسف يا فندم لإزعاجك.

وخرج زكريا وما زال الشك على وجهه وتبادل الرجلان نظرة طويلة وقال عبد الناصر وهو يبتسم:

ـ أنا آسف يا أخ حسني إذا كنت أغضبتك.. انفعلت عليك لأني غاضب مثل المصريين جميعًا..لكني أرجو أن تثق باحترامي ومحبتي لك.. بدليل أنني أجيء من العالم الآخر خصيصا حتى أراك..

فعل اعتذار عبد الناصر مفعوله فبدأ الرئيس مبارك يهدأ قليلًا وقال بنبرة صادقة:

ـ يا فندم ما يحدث في مصر يؤلمني كما يؤلم كل مصري.. لكن الوضع صعب ومعقد.. إذا كانت لديك يا فندم أفكار فأنا مستعد لسماعها.

ـ يجب أن تبدأ بالإصلاح السياسي..؟

ـ لقد بدأت فعلا.. شكلنا وزارة جديدة من الشباب وأنشأنا مجلسا لحقوق الإنسان وألغينا الأشغال الشاقة.

وهنا قاطعه عبد الناصر بحدة: هذا الكلام يصلح للتصريحات الصحفية أما أنا فلا يقنعني: التغيير الوزاري لم يأت بجديد لقد استبدلت موظفين بموظفين أصغر سنا.. ثم.. كيف يكون رئيس وزراء مصر حاملا للجنسية الكندية..؟!

ـ هذا لا يتعارض مع الدستور..

ـ لكنه يتعارض مع المنطق.. ماذا سيفعل رئيس وزرائك المزدوج إذا حدثت مشكلة بين مصر وكندا؟! هل تتصور أن يكون توني بلير حاملا للجنسية الفرنسية مثلا..؟! ثم كيف توافق على تعيين وزير للسياحة يملك مشروعات سياحية.. معنى ذلك أن يكون الخصم والحكم في نفس الوقت.. بقرار واحد يتخذه هذا الوزير يستطيع أن يدر على شركاته ملايين الجنيهات.

كان الرئيس مبارك أثناء النقاش قد نهض من الفراش وصار يقف وجها لوجه أمام عبد الناصر ورفع يده ليتكلم.. لكن فجأة انطلقت صفارة حادة في الحجرة وصاح الرئيس مبارك: ما هذا..؟ فأجاب عبد الناصر بقلق:

هذه صفارة الرحيل.. يجب أن أصعد خلال دقائق.. أرجوك اسمح لي.. سوف ألخص حل أزمة مصر في كلمة واحدة.

ـ تفضل.

ـ الحل في تداول السلطة.. أن تتخلى عن فكرة توريث ابنك جمال للحكم.

ـ لقد أعلنت أكثر من مرة أنني ضد التوريث.

ـ لكن ما يحدث يناقض ما أعلنته.. ومعظم الوزراء الجدد تابعون لجمال مبارك وسلطته تزداد يوما بعد يوم.. هذا كلام مرفوض.. يجب أن ينتخب المصريون رئيس الجمهورية بين أكثر من مرشح..

..ابتسم الرئيس مبارك وقال ساخرا:

ـ ولماذا لم تسمح أنت بتداول السلطة عندما حكمت مصر..؟

ـ كنت أقود ثورة.. وكانت مثل أية ثورة لها إنجازات وأخطاء، ولقد اعترفنا بأخطائنا بأنفسنا ويعلم الله أنني لو امتد بي العمر لكنت أجريت إصلاحا ديمقراطيا حقيقيا.. ولا يمكن أن تأتي أنت بعد خمسين عاما لتكرر نفس الأخطاء.. يا أخ مبارك.. إذا أردت أن يذكرك التاريخ بالخير.. فابدأ فورا في التحول الديمقراطي.: هذه أكبر خدمة تسديها لبلادك وشعبك.

ـ ربنا يسهل.. هكذا تمتم الرئيس مبارك وقد بدا غير مقتنع بالكلام.

وهنا تقدم ناحيته عبد الناصر وعانقه بحرارة وقال له:

ـ عندما أزورك في العام القادم أتمنى أن تكون قد أتحت للمصريين فرصة انتخاب رئيسهم الجديد بين أكثر من مرشح.

ونظر إليه الرئيس مبارك مليا وقال:

ـ من اليوم إلى العام القادم من يعرف ماذا يحدث.. ربما أذهب معك هناك وأستريح من وجع القلب.

أطلق عبد الناصر ضحكة عالية وقال:

ـ لا أبدا.. ربنا يعطيك الصحة وطول العمر ولكن أرجو أن تقتنع أنه بدون ديمقراطية لن ينصلح حال البلد.. السلام عليكم..

تراجع عبد الناصر خطوات حتى صار في منتصف الحجرة ثم انطلق دخان كثيف احتواه وأخفاه عن نظر الرئيس مبارك الذي ظل جالسا وحده يفكر فيما حدث.. وفجأة انفتح الباب وظهر الدكتور زكريا وقد بدا في وجهه ما يشبه الفزع وصاح بصوت متهدج بالانفعال:

يا فندم.. حصلت حاجة غريبة جدا.. من ساعة وأنا أسمع أصوات وصفارات تأتى من حجرة سيادتك.

وتأمله الرئيس مبارك قليلًا وابتسم..ثم استغرق في الضحك..

عبدالناصر يطالب مبارك بالاستقالة من أجل مصر(*)

(١)

منذ أيام، لاحظ المحيطون بالرئيس حسني مبارك أنه أصبح ضيق الصدر عصبي المزاج، وفكروا في السبب: هل هي المعارضة المتزايدة لنظام حكمه؟.. أم هي الضغوط الغربية عليه من أجل تطبيق الديمقراطية؟! أم إن الأدوية التي تناولها بعد الجراحة الأخيرة أثرت على أعصابه..؟.. لم تكن هذه الأسباب، على أهميتها، وراء عصبية الرئيس لكن السبب الحقيقي: أنه خلال العامين الماضيين، تعرض في ليلة ٢٣ يوليو، إلى تجربة روحية غريبة تكاد لا تصدق، إذ كان الزعيم جمال عبد الناصر يتمثل أمامه فيراه رأي العين ويتحدث معه.. وكانت لقاءات مبارك بعبد الناصر مرهقة، لأنهما يشتبكان دائمًا في النقاش عن مصر حتى حدثت في العام الماضي مشادة عنيفة بينهما كادت تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه لولا أن قدم مبارك اعتذارا تقبله عبد الناصر بمحبة لكنه طلب منه خطوات محددة لإصلاح الوضع في مصر وأمهله لتنفيذها عاما كاملا ينتهي في يوليو الحالي.. من هنا، كلما اقترب ٢٣ يوليو ازداد قلق مبارك.. فماذا عساه أن يقول لعبد الناصر وهو لم ينفذ بندا واحدا من الاتفاق بينهما..؟.. عزم الرئيس مبارك على تجنب لقاء عبد الناصر بأية طريقة فقرر أن يقضي الليلة مع أسرته في إحدى استراحاته الخاصة غير المعروفة، قصر فخم في الإسماعيلية تحيطه حدائق شاسعة كان الرئيس مبارك قد أمر ببنائه من أعوام ثم انشغل عنه فلم يقم فيه إلا فترات قليلة متفرقة، وقد أمر الرئيس الخدم بأن يتلوا القرآن طوال الليل بصوت خافت من ميكروفونات تم تثبيتها

(*) العربي ٢٤/ ٨/ ٢٠٠٤.

في حديقة القصر لأنه يعرف من نشأته الريفية أن تلاوة القرآن تمنع ظهور الأرواح.. كما قرر الرئيس مبارك ألا يبيت وحده تلك الليلة، ولم يحب أن يشغل زوجته السيدة سوزان بهذا الموضوع فتركها تنام في جناحها الخاص كعادتها، وطلب إلى ابنه جمال أن يبيت في السرير المجاور له، وحكى له الموضوع بصراحة.. فاندهش جمال وقال:

ـ حاجة غريبة..هل يظهر لك شبح يزعم أنه عبد الناصر..؟

هز الرئيس مبارك رأسه وقال بابتسامة متوترة:

ـ بل هو عبد الناصر نفسه.. لقد عملت معه وأعرفه جيدا.. إنه يظهر دائمًا في منتصف ليلة ٢٣ يوليو.

ـ لماذا لم تقل لي من قبل..؟

ـ لم أحب أن أزعجك..

.. تطلع إليه جمال بحنان وربت على يده قائلا:

ـ لا تقلق.. سأنام بجوارك ولن يجرؤ شبح واحد على الاقتراب منك..

ـ أخشى أن أعطلك عن أعمالك.

ـ أنا أحمل عملي معي دائمًا..

وكأنما اطمئن الرئيس مبارك لوجود ابنه فدخل إلى الفراش وسرعان ما غط في نوم عميق كان يحتاجه، أما جمال مبارك فقد فتح اللاب توب أمامه وبجواره تليفونه المحمول وبدأ في الاتصال بشركاته الموجودة في الولايات المتحدة، كان فرق التوقيت بين القاهرة ونيويورك يجعل الوقت مناسبا للاتصال بالموظفين أثناء العمل.. الحق أنه لم يصدق حكاية شبح عبد الناصر واعتبرها مبالغة من أبيه وقد نسي الأمر برمته وانهمك في مخاطبة المسئولين عن شركاته، وعندما أخبروه بأنهم عقدوا صفقة جديدة تبلغ أرباحها المتوقعة عشرات الملايين من الدولارات.. أطلق جمال مبارك صيحة فرح وهتف بالإنجليزية:

يا إلهى.. «هذا أفضل من أن يكون حقيقيا» (My God.. it is too good to be true) ثم بعث برسائل تهنئة للمسئولين عن الصفقة وأغلق اللاب توب والتليفون وتطلّع حوله

وهو لازال غارقا في السعادة، كانت القاعة تسبح في إضاءة خافتة تنبعث من مصابيح جانبية وقد استغرق الرئيس مبارك في النوم. قال جمال لنفسه ساخرا: ها هو الليل ينقضي ولم يظهر الشبح.. يبدو أن الأشباح تخاف مني، ، وأحس بحاجته إلى حمام دافئ.. كان يتذكر تفاصيل القصر من المرات القليلة التي جاء فيها ولم يشأ أن يوقظ الخدم فتسلل خارجا بحذر وعندما عاد بعد قليل كان يرتدي روبا أبيض من الحرير الطبيعي من صنع مصمم الأزياء الشهير فرساتشي وأحس بعضلات جسده وقد استرخت تماما من أثر الماء الساخن، مد يده وفتح باب الحجرة وفي نيته أن يدخل إلى الفراش مباشرة.. وفي الضوء الخافت رأى أباه النائم واللاب توب على المائدة والتليفون المحمول، كان كل شيء كما تركه فخطا خطوتين إلى داخل الحجرة لكنه لما استدار ليغلق الباب التفت بنظره إلى اليسار فوجد مفاجأة مذهلة...

(٢)

كان جمال عبد الناصر جالسا، في المقعد القريب من النافذة، يرتدى بدلة صيفية بيضاء أنيقة ورابطة عنق حمراء داكنة لها عقدة صغيرة على طراز الخمسينيات، وبدا شعره أسود فاحما وقد أشرق وجهه بصفاء غريب ونظرة متألقة أخّاذة. ظل جمال مبارك ينظر إليه وقد عقدت الدهشة لسانه.. فبادره عبد الناصر قائلا:

ـ زيارة غير مرغوب فيها

ـ أبدا.. أهلا وسهلا..

لم يكن والدك يرغب في رؤيتي.. وقد أمر بتلاوة القرآن ليمنعني لكن القرآن يمنع الأرواح الشريرة وأنا والحمد لله روح طيبة.

هكذا قال عبد الناصر ثم وضع يده في جيبه وسأل:

ـ هل أستطيع أن أدخن..؟

ـ الدخان يضايق أبي لكنني سأعالج الأمر.

أغلق جمال التكييف بالريموت كونترول ثم تقدم نحو النافذة وفتحها بينما أشعل عبد الناصر سيجارة وجذب نفسا عميقا وسأله جمال:

ـ هل تدخنون في الآخرة..؟

نعم والحمد لله.. ربنا سبحانه وتعالى يكافئنا بأن نفعل كل ما أحببناه في الدنيا ولكن بلا إثم ولا ضرر..

كيف ذلك..؟

ـ سأحكي لك فيما بعد.. اسمع يا جمال.. لقد جئت لرؤية والدك في أمر مهم لا يقبل التأجيل.. أرجو أن توقظه بسرعة لأن الوقت ضيق.

وقف جمال مترددا ينتقل بنظره بين عبد الناصر وأبيه النائم ثم قال:

ـ ألا يمكن أن تترك له رسالة بدلا من إيقاظه في هذه الساعة؟

ـ لا بد أن أتحدث معه شخصيا.. بدا عبد الناصر مصمما فتقدم جمال مبارك ببطء من أبيه النائم ومد يده وهزه برفق، فتح الرئيس مبارك عينيه ووجد عبد الناصر جالسا أمامه، واستغرق لحظة حتى تغلب على المفاجأة ثم قال مرحبا:

ـ أهلا وسهلا.. شرفت يا فندم.

ـ آسف لإزعاجك..أهنئك أولًا على هذا القصر الفخم.. هل هو تابع لرئاسة الجمهورية..؟

ـ بل هو بيت خاص بي.

ـ ما شاء الله.. ربنا يزيدك.. اسمع يا أخ حسني.. لن أزعجك مثلما فعلت في زياراتي السابقة.. جئت لأقول لك كلمة واحدة...أنا وأنت عسكريان تعلمنا في الجيش أن الخط المستقيم أقصر الطرق.

ـ تمام يا فندم.

ـ أنا عاتب عليك بشدة لأنك أضعت على مصر فرصة تطبيق الديمقراطية.

ـ بالعكس.. لقد سمحت للمصريين بانتخاب رئيسهم بين أكثر من مرشح.

ـ تذكر أنك تكلم جمال عبد الناصر.. لقد صممت القانون يا أخ حسني بحيث تحتكر الرئاسة أنت ومن تريد من بعدك..

.. تدّخل جمال مبارك في الحديث قائلا:

ـ هذا غير صحيح

حدجه عبد الناصر بنظرة متفحصة ثم تجاهله وعاد يقول للرئيس مبارك:

ـ يا أخ حسني.. لقد حكمت بما فيه الكفاية.. لماذا لا تفكر في التقاعد؟! لو أحلت نفسك إلى المعاش الآن ستتمتع بمباهج الحياة كما أنك ستدخل التاريخ لأنك منحت مصر ديمقراطية حقيقية.

ـ ولماذا لم تدخل أنت التاريخ وتترك السلطة؟

هكذا صاح جمال مبارك فقال عبد الناصر وقد بدا الغضب على وجهه لأول مرة:

ـ يا أخ حسني.. يبدو أنك انشغلت بعملك لدرجة أنك نسيت أن تعلم أولادك أنه يجب عليهم أن يسكتوا في حضرة الكبار.

ـ أرجو أن تعذر جمال يا فندم.. إنه متحمس لأنه يحب مصر.

ـ من يحب مصر يضع مصلحتها قبل مصلحته الشخصية. عموما لست هنا من أجله ولكن من أجلك. لن أنصرف الليلة قبل أن أحصل منك على تعهد، بشرفك العسكري، أنك سوف تتنازل عن السلطة.

(٢)

أطرق الرئيس مبارك مفكرا.. وهبَّ جمال مبارك واقفا واقترب من عبد الناصر وقال:

ـ مع احترامي لحضرتك.. رأيك خطأ وخطر.. لو تنازلنا الآن عن السلطة سوف يثب المتطرفون على الحكم.

ـ هذا الكلام تضحكون به على الأمريكان حتى لا يطالبوكم بالديمقراطية.. ثم.. أنتم تتقاربون كل يوم مع إسرائيل حتى أصبح أعز أصدقائكم من الصهاينة.. هل تعتبرون الإسلاميين أسوأ من الإسرائيليين..؟

ـ لا يمكن تطبيق الديمقراطية الآن لأن المصريين لم ينضجوا سياسيا بعد.

ـ كلامك هذا يا جمال.. يدل على أنك لم تقرأ تاريخ مصر.. يبدو أنك مهتم بإدارة شركاتك أكثر من أي شيء آخر.. الشعب المصري يتمتع بوعي سياسي عال.. ربما أكثر منك.

التفت عبد الناصر من جديد إلى الرئيس مبارك وقال بودٍ:

ـ لا أفهم يا أخ حسنى.. ما الذي يدفعك إلى التمسك بالسلطة..؟

ـ ربنا يعلم أنني لست متمسكا بها.

ـ إذن.. هات يدك نقرأ الفاتحة على أن تترك منصبك وتسمح بانتخاب جمعية تأسيسية تضع دستورا جديدا.

ـ أنا..

هكذا تمتم الرئيس مبارك وقد بدت علامات الحيرة على وجهه لكن عبد الناصر استطرد بصوت رخيم مؤثر:

ـ سوف تموت يا أخ حسني مثل الناس جميعًا، يوما ما، وستكتشف عندئذ أن الحياة الدنيا مجرد بهرجة فارغة وأن أعمالك الصالحة فقط تضمن لك الحياة الكريمة في الآخرة.. لو تنازلت الآن عن منصبك ومنحت المصريين الحق في اختيار حكامهم.. سيكون هذا أفضل ما فعلته في حياتك.

ـ هل تضمن لي المغفرة يا فندم..؟

هكذا سأل مبارك فقال عبد الناصر:

ـ لا يغفر للإنسان إلا الخالق سبحانه وتعالى.. لا أعتقد أن ذنوبك الشخصية كبيرة.. لكن النظام في الآخرة يقضي بأن يحاسب الحاكم على كل ما حدث للمواطنين في بلده.

ـ هذا نظام غريب..!

ـ لكنه معمول به من زمان.. أنت مثلا يا أخ حسني سوف يتم حسابك عن كل الذين

اعتقلوا وعذبوا في عهدك سواء في أمن الدولة أو أقسام الشرطة.. حتى العاطلين عن العمل والذين يموتون من الفقر والإهمال.. ستحاسب عنهم

ـ كلهم..؟!

ـ كلهم يا أخ حسني.. اسمع. الفرصة أمامك فلا تضعها. ستجني خيرا كثيرا لو تركت السلطة.. هات يدك نقرأ الفاتحة.

(٤)

كانت يد عبد الناصر مبسوطة وبدا على الرئيس مبارك أنه متردد حتى إنه حرك يده اليمنى فعلا تحت الغطاء.. لكن جمال مبارك، صاح بصوت عال هذه المرة:

ـ من قال لك إن الرئيس يحرص على السلطة؟!.. الشعب المصري هو الذي يتمسك بمبارك.

ـ غير صحيح.. إن المنافقين من الحزب الوطني ينظمون مسيرات المبايعة لأنهم يحرصون على استمرار الحكم من أجل مصالحهم.. أما بقية المصريين.. القضاة والصحفيون والمحامون والعلميون وأساتذة الجامعة.. كل طوائف الشعب تطلب الديمقراطية.

ـ كل هذه حركات محدودة مغرضة يحركها حاقدون من أجل إثارة البلبلة.

ضحك عبد الناصر وقال:

ـ كأنك تقرأ بيانا من الداخلية.. يا جمال يا بني الوضع في مصر لا يحتمل المكابرة... ألم تسمع عن حركة كفاية..؟

ـ هؤلاء..لا يتعدون ٥٠ شخصا.

ـ بل هم آلاف من المثقفين الوطنيين والشعب المصري كله يؤيدهم.. خذ اقرأ.

ناوله عبد الناصر ورقة مطوية، بسطها جمال مبارك واقترب من المصباح ليقرأها.. لكنه ما إن لمح الكلمات الأولى حتى أبعدها قائلا باستخفاف:

ـ بيان آخر من حركة كفاية؟.. لن أقرا هذه السخافات.

ـ اقرأ جيدا.. هذا البيان ليس من حركة كفاية التي تعرفها.. إنها حركة كفاية الآخرة.

ـ الآخرة..؟

ـ نعم لقد اجتمع المصريون في الآخرة وأسسوا حركة كفاية تضم الملايين.

ـ ملايين..؟

ـ طبعا.... ملايين المصريين ماتوا منذ عهد الفراعنة.. كلهم موجودون الآن في الآخرة ويطالبون والدك بترك السلطة.. يكفي أن تعلم أن كل الذين حكموا مصر في تاريخها قد وقعوا على بيان كفاية الآخرة.. ما عدا خمسة حكام فقط.. منهم أنور السادات..

ـ طبعا..الرئيس السادات لا يمكن أن يوقع بيانا ضدنا.

ـ ليس هذا السبب.. هؤلاء الحكام الخمسة يعيشون في منطقة نائية في الآخرة بعيدًا عنا.

ـ لماذا..؟

ـ هذه أسرار لست في حل من الحديث عنها.

هكذا تمتم عبد الناصر باقتضاب ثم عاد يخاطب مبارك:

ـ يا أخ حسني.. أراك متعبا.. أعطني تعهدك حتى أتركك تنام بهدوء.

ـ أحتاج إلى التفكير في الأمر.

هكذا قال مبارك وهو يبتسم لكن جمال صاح متحديا.

ـ هذا الأمر مرفوض بدون تفكير..

وهنا صاح عبد الناصر بصوت كالرعد:

ـ اسمع يا جمال.. إياك أن تتجاوز. أنا أتحدث مع الرئيس وليس معك.

ـ وأنا أرفض ما تطلبه من الرئيس.

ـ ومن تكون أنت حتى تقبل أو ترفض..؟

ـ أنا رئيس لجنة السياسات ومرشح لرئاسة الحزب الوطني.

ـ كل هذه مناصب فارغة بلا قيمة الغرض منها أن ترث الحكم لكن ذلك لن يحدث.. لقد جئت اليوم لكي أقنع الرئيس مبارك بأن يضع نهاية لحكمه بطريقة هادئة ومحترمة.

ـ لن ينتهي حكم مبارك أبدا.

هكذا صاح جمال مبارك وبدا في تلك اللحظة وقد فقد السيطرة على أعصابه حتى إنه أخذ يتمتم بألفاظ إنجليزية لم يسمعها سواه. واحتقن وجه عبد الناصر بالغضب وهب واقفا وتوجه إلى حيث يقف جمال مبارك واقترب منه وهو يحدقه بنظرة متوعدة.. وصار الموقف ينذر بشر مستطير.. لكن باب الحجرة انفتح بقوة فجأة وظهرت السيدة سوزان مبارك، كانت قد استيقظت أثناء الليل لشأن ما، وسمعت الصياح من الخارج فهرعت إلى حجرة الرئيس وفي ذهنها أن مشادة قد نشبت بين الرئيس وابنه جمال. لكنها ما إن رأت عبد الناصر حتى هتفت:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.. سلام قولا من رب رحيم.

ابتسم لها عبد الناصر وقال بهدوء:

ـ اطمئني ياهانم.. أنا جمال عبد الناصر.. آسف لإزعاجك لكني جئت في مهمة وطنية.

وهنا قال جمال مبارك محاولا أن يستقطب والدته إلى صفه:

ـ الرئيس عبد الناصر جاء لكي يقنع والدي بترك الحكم.

كانت السيدة سوزان لا زالت تحدق في عبد الناصر باندهاش.. وسرعان ما تساءلت باستنكار:

ـ لماذا تريدنا أن نترك الحكم؟..

ـ المصلحة الوطنية تقتضي ذلك.

ـ بالعكس.. مصر تحتاج اليوم إلى مبارك أكثر من أي وقت مضى.

وقال جمال مبارك ساخرا:

ـ الذين ماتوا عملوا حركة كفاية في الآخرة.

سكت عبد الناصر لحظة ثم قال:

ـ مع احترامي الكامل.. لقد أتيت هنا للحديث مع الرئيس مبارك؟؟ يا أخ حسني.. أمامي ثلاث دقائق على موعد الصعود.. أرجوك عاهدني على ترك الحكم.

ـ لست مقتنعا بأن أترك السلطة.

هكذا قال مبارك ببطء.. وتنهد عبد الناصر.

ـ أعطني فرصة لكي أحدثك منفردا وسوف أقنعك.

ـ عفوا..سيادة الرئيس متعب ويتناول أدوية كثيرة.. من فضلك.. اتركه لينام.

هكذا قالت السيدة سوزان بحزم ثم توجهت إلى فراش مبارك وأحكمت الغطاء على جسده وكأنما تحث عبد الناصر على الانصراف.. فتوجه غاضبا نحو الباب وفتحه لكنه التفت إليهم فجأة وقال:

ـ يجب أن تفهموا أن الوضع في مصر على شفا الانفجار.

ـ نشكرك على رسالتك.. سنفكر فيها.

هكذا قال جمال مبارك أما السيدة سوزان فقالت بصوت هادئ:

ـ الرئيس مبارك، وحده، يتخذ دائمًا القرار الصحيح في الوقت الصحيح.

وهنا.. صاح عبد الناصر:

ـ يبدو أنني أخطأت بالنزول الليلة.. أنتم بكل أسف لا يهمكم إلا البقاء في السلطة بأي طريقة.

وارتفعت أصوات الاحتجاج عالية من جمال مبارك ووالدته بينما ظل الرئيس مبارك صامتا يرمق عبد الناصر بنظرة محايدة هادئة كأنه لا يراه.. أو كأنه لا يريده أن يرحل.. أغلق عبد الناصر الباب خلفه بعنف.. وقال جمال مبارك:

ـ لماذا لا يوفر عبد الناصر نصائحه لنفسه..؟

ـ عيب يا جمال.. لا تتحدث بهذه الطريقة عن عبد الناصر.

هكذا قال الرئيس مبارك لابنه، وبينما استأنفت السيدة سوزان الحديث مع ابنها، أغمض الرئيس مبارك عينيه لينام من جديد وظلت الكلمات تدوي في ذهنه:

ستموت يوما ما وسيحاسبك الله على كل الذين اعتُقلوا وعُذبوا في عهدك.. يجب أن تترك السلطة وتعيد للمصريين حقهم في اختيار من يحكمهم.. إنها فرصتك الأخيرة يا أخ حسني.. فلا تضعها..

ضيعنا الوقت في مناقشات عقيمة.. من فضلك.

انفجروا.. أو.. موتوا(*)

تولى الملك فاروق حكم مصر وهو في الخامسة عشرة من عمره بعد وفاة والده، فلم يكمل تعليمه ونشأ مدللا بين الخدم والشماشرجية فكبر وهو قليل الحرص على كرامة الآخرين.. واشتهرت عنه أفعال صبيانية غريبة: فكان يتلذذ مثلا بمد قدمه حتى يتعثر فيها أحد أصدقائه فيقع على وجهه، أو يضع وردة صناعية في عروة سترته متصلة بخيط يجعلها ترش الماء فجأة، في وجه من يحدثه، أو يمسك بالسيجار ويداعب جليسه في قفاه أو في صدرها إذا كانت امرأة.. والمدهش أن من يتعرضون لهذه السخافات كانوا يتقبلونها بكل سرور.. مما دفعني للتفكير: إن جلساء الملك فاروق كانوا وزراء وأمراء وأصحاب علم وثروة، فما الذي جعلهم يسكتون على إهانات الملك..؟! الإجابة: حرصهم على إرضائه وخوفهم من غضبه.. هذا التنازل عن الحق والكرامة مقابل المصلحة والأمان.. ظل دوما، للأسف، حاضرا عبر التاريخ المصري.. في عام ١٧٩٨ جاء نابليون بونابرت بحملة عسكرية احتلت مصر فماذا فعل كبار مشايخ الأزهر آنذاك..؟ اجتمعوا وأصدروا بيانا يحضون فيه المصريين على الاستسلام للفرنسيين بدعوى أن هذا ملك الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وأكدوا أن الفتنة أسوأ عند الله من الإذعان للاحتلال.. وفي أيامنا هذه نرى مثقفين بارزين كانوا حتى الأمس القريب يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية فلما اشتراهم النظام بالمناصب والمزايا تحولوا إلى الدفاع عن الباطل.. كثيرا ما جلست إلى شخصيات مصرية معروفة وسمعت منهم نقدا مريرا لنظام الحكم ثم رأيتهم بعد ذلك في التليفزيون يكيلون المديح للرئيس مبارك وولده... الأمثلة كثيرة وكلها تؤكد، بصراحة، أن هناك في الشخصية

(*) العربي ٩/ ٢٠٠٤.

المصرية ما يمكن تسميته بمركب الإذعان، ذلك الميل المتوارث للسكوت عن الحق إيثارا للسلامة والتعايش مع الظلم وممالأة السلطة، ربما يكون السبب أن المصريين فلاحون تعودوا أن يتمسكوا بالأرض مهما يكن الثمن أو مهما يكن السبب تواكلهم الناتج عن فهم خاطئ للإسلام، أو ربما طول عهدهم بالاستبداد.. لكن مركب الإذعان هذا كامن فينا جميعًا وليس من المفيد، في رأيي، إنكاره.. ليس معنى هذا بالطبع أن تاريخ مصر كله ذل ومهانة، فهناك لحظات مضيئة ثار فيها الشعب المصري وناضل بشجاعة وقدم الشهداء من أجل حريته واستقلال بلاده.. لكننا المصريين في كل لحظة فارقة في تاريخنا، تتنازعنا دائمًا قوتان متساويتان: حب الحق من جانب ومركب الإذعان من الجانب الآخر.. فإذا انتصر حب الحق ثار المصريون وانتزعوا حقوقهم كما حدث في كل الثورات المصرية، أما إذا تملكهم مركب الإذعان فإنهم يلوذون بالصمت ويتركون الطغاة يعيثون فيهم فسادا. إن إذعان المصريين السبب الأصيل في تخلفهم..فمصر تمتلك إمكانات هائلة يمكن أن تضعها في مقدمة الأمم لكن صبرنا الذي لا ينتهي على الاستبداد، هو الذي أوصلنا إلى الحضيض.

راودتني هذه الأفكار وأنا أتابع انتخابات الرئاسة التي سيفوز بها الرئيس مبارك بالطبع ليس بفضل شعبيته ولا إنجازاته، فقد ضاعت شعبيته من سنوات كما أن التدهور المحزن في أحوال مصر لا يترك فرصة للحديث عن أي إنجاز.. لكنه سيفوز في الانتخابات لأنها ستكون مزورة، تماما كما تم تزوير الاستفتاء على المادة ٧٦ وكل استفتاء قبله، بل إن مبارك قد حكم ربع قرن بغير استفتاء واحد صحيح أو انتخابات واحدة لمجلسي الشعب والشورى غير مزورة، من شهور أعلن مبارك فجأة عن تعديل الدستور فتفاءل بعض المصريين ثم سرعان ما اتضحت الحقيقة: تبين أن التعديل جاء استجابة لضغط أمريكي بالأساس ولم يلبث أن وجد النظام طريقته لإرضاء الأمريكيين حتى يغمضوا أعينهم عن ظلمه وفساده، كما فعلوا دائمًا، وكانت الطريقة هذه المرة تقديم تنازلات لإسرائيل لم تكن تحلم بها مما دفع شارون للتوسط بنفسه لدى الإدارة الأمريكية لتخفيف الضغط على مبارك حتى يتمكن من التعاون مع إسرائيل، من هنا نفهم اتفاقيات الكويز والغاز وتسليم الجاسوس عزام وعودة السفير المصري وزيارة مبارك المرتقبة لإسرائيل، ونفهم أيضا المديح الغريب المريب الذي يكيله الرئيس مبارك لشارون ونتنياهو، وبدلا من أن يكون تعديل المادة ٧٦ بداية الديمقراطية، تحول على أيدى أساتذة قانون فقدوا ضميرهم

الوطني والمهني، إلى طريقة جديدة لتكريس الحكم في يد مبارك وابنه من بعده: وضعت شروط تعجيزية تمنع الترشيح الجاد، وتم التجاهل التام لكل الضمانات التي طالب بها القضاة لمنع التزوير، وظلت الكشوف الانتخابية حافلة بأسماء الموتى الذين تعودوا أن يصوتوا من قبورهم للحزب الوطني، وعين الرئيس مبارك بنفسه اللجنة المشرفة على الانتخابات ليضمن ولاءها الكامل ثم منحها سلطات مطلقة، وهكذا أصبح الخصم والحكم في اللعبة الجديدة، وبدأت اللجنة الموقرة أعمالها بحجز رمز الهلال الانتخابي خصيصا من أجل مبارك لأنه يفضله عن أي رمز آخر، وأخذ رئيس اللجنة المعروف بتأييده المطلق للنظام يعلن أن كل شيء تمام وأنه يرفض أية رقابة على الانتخابات، ثم اتخذ قرارا باستبعاد القضاة الذين سبق لهم الاعتراض على التزوير، وتم حرمان ٤ ملايين مصري في المهجر من حقهم في التصويت (لأنه يصعب تزوير الانتخابات هناك) وأخذ منافقو الحزب الوطني مع زبانية أمن الدولة، يطوفون بكل مكان في مصر فيجبرون القادرين على مبايعة مبارك أما الفقراء فيحشدونهم كالأغنام لتأييد مبارك مقابل مكافأة هزيلة تمنع عنهم غائلة الجوع لأيام قليلة، ويا لها من مفارقة أن يحشد النظام ضحاياه من العاطلين والبؤساء ليهتفوا باسمه،.. ومن أجل إضفاء الحبكة على التمثيلية، تم إخراج الأحزاب المجمدة من الثلاجة فظهر على المسرح، فجأة، أشخاص لم يسمع بهم أحد، كانوا قد حصلوا على تراخيص بأحزاب وهمية من الحكومة حتى تستعملهم عند الحاجة، ورضي هؤلاء أن يلعبوا دور الكومبارس الناطق مقابل نصف مليون جنيه رشوة باسم الدعاية الانتخابية، بل أعلن بعضهم بلا خجل تأييده المطلق لمبارك الذي يفترض أنه ترشح ضده، أما المرشحان الوحيدان الحقيقيان، أيمن نور ونعمان جمعة، فلا يعرف أحد لماذا قبلا أصلا الاشتراك في هذه المهزلة وهما يعلمان مثلنا جميعًا نهايتها المحتومة؟!.. ألم يكن من الأجدر بهما وهما الوطنيان المدافعان عن الحرية أن يقاطعا الانتخابات حتى يظهر النظام على حقيقته أمام المصريين والعالم أجمع..؟!

إن ما يحدث في مصر نوع من الكوميديا السوداء.. التي تُضحكك أحداثها ثم تصيبك بعد ذلك بالحزن.. المصريون يضحكون عندما يشاهدون مبارك، ذا السبعة والسبعين عاما بعد أن ظل في منصبه ربع قرن، يتحدث عن خططه الطموحة للمستقبل.. والمصريون يضحكون عندما يطالعون في الجرائد الحكومية صورة مبارك بجوار العجرودي والأقصري والصباحي قارئ الكف.. وكأنهم مرشحون حقيقيون في انتخابات جادة، ويضحكون عندما يقرءون

أن ميزانية الحزب الوطني منفصلة عن الدولة وأن مبارك رفض أن يأخذ ميزانية الدعاية المخصصة له، وكأننا نعرف أصلا حجم ثروة الرئيس وأولاده ومصادرها، لكن المصريين يحزنهم بلا شك أن يظل هذا النظام الفاسد الظالم جاثما على أنفاسهم إلى الأبد. إن ما يحدث الآن ليس تحولا ديمقراطيا كما يردد كتبة النظام المنافقون لكنها حالة من الخداع الجماعي ينتزع فيها من المصريين، إلى الأبد، حقهم في اختيار حكامهم مع إقناعهم في نفس الوقت بأن الاستبداد منتهى الديمقراطية.. تمثيلية سخيفة تدل على مدى احتقار الحاكم للمصريين: فهو يراهم أقل من أن يحكموا أنفسهم، ويراهم أجبن من أن يعترضوا مهما أفقرهم وأذلهم.. ويراهم أيضا أغبى من أن يكتشفوا أنه يخدعهم..

إنها من جديد لحظة فارقة، يقف فيها المصريون أمام مصيرهم.. إما إن يتغلب عليهم مركب الإذعان فيطأطئوا رءوسهم ليمتطيهم النظام إلى الأبد ويورثهم لأولاده.. وإما أن يتغلب حبهم للحرية فيثورون لإنهاء كل هذا القمع والبؤس، ملايين الفقراء والعاطلين والعوانس وسكان العشوائيات والمقابر وضحايا التعذيب وأهالي المعتقلين لسنوات طويلة بدون محاكمة،.. كل الذين يحبون مصر ويثقون في قدراتها ويحلمون بمستقبل أفضل، مدعوون اليوم إلى الثورة لإحقاق الحق... فإذا أذعنوا، لا يحق لهم بعد ذلك أن يشكوا من البؤس الذي أصابهم نتيجة لجبنهم وتخاذلهم..

... انفجروا.. أو موتوا.

كلمات للتأمل:

* «اقترب مني رئيس اللجنة وهمس: تمام يا فندم.. أنا قفلت الصندوق وناقص على تشميعه سيادتك..»

العميد متقاعد محمود قطرى في شهادته عن التزوير

* «عليَّ الطلاق من بيتي.. مبارك اليومين دول أهم عندي من أمي وأبويا..»

محمد عبد الحليم رئيس نقابة العمال الزراعيين

* «هل من حق مرشح الرئاسة ممدوح قناوي.. أن يبدأ حملته الانتخابية بالرقص بالعصا..؟.. سؤال نطرحه على الرأي العام..»

جريدة الأهرام

* «أعلن الصباحي استعداده التام لخوض انتخابات الرئاسة عام ٢٠١١ بينما فضل شلتوت أن يعتكف في زاوية بالمهندسين أما العجرودي فقد ذهب ليلتقي بالمصطافين في الإسكندرية..»

مجلة المصور

* «أي ناخب يرفض أن يضع إصبعه في الحبر الفوسفوري سيتم إلغاء صوته فورا..»

جريدة الأخبار

* «إما أن ننتزع الحرية.. أو نظل، إلى الأبد، عبيدا تحت حكم عبيد..»

عبد الحليم قنديل في كتابه ضد الرئيس

واجبنا أن نقول.. كفى(*)

عندما جاء الرئيس حسني مبارك إلى الحكم تعهد أمام المصريين بأن يكتفي بفترتين رئاسيتين ويترك بعد ذلك منصبه مهما كانت الظروف.. وقد بدا كلام الرئيس مبارك وقتئذ منطقيا لسببين: **أولًا**: لأنه لا يمكن لأي شخص مهما تكن كفاءته أن يستمر عطاؤه بنفس القوة في أي منصب أكثر من ١٢ عاما.. **وثانيًا**: لأنه بعد مقتل الرئيس أنور السادات على يد معارضيه، فكر الكثيرون أنه قد آن الأوان لمصر لكي تلحق بركب الأمم المتحضرة فيستطيع المواطنون فيها تغيير رئيس الجمهورية بطريقة سلمية بدلا من الاغتيالات والانقلابات..

لكن الرئيس مبارك بعد أن انتهت فترة رئاسته الثانية للأسف فعل عكس ما تعهد به واستمر في الحكم لفترة ثالثة ثم فترة رابعة وفي العام القادم يكون قد أمضى في الحكم ٢٤ عاما وهذه فترة طويلة جدا..وقد ارتفعت أصوات كثيرة تطالب الرئيس مبارك بعدم ترشيح نفسه لفترة خامسة وأن يسمح بتعديل الدستور حتى ينتخب المصريون رئيسهم الجديد بين أكثر من مرشح بدلا من استفتاءات الرئاسة ذات ٩٩٪ التي صارت نكتة يسخر منها الجميع في الشرق والغرب.. وساعد على تجاوب الناس مع هذه المطالب الأزمة الصحية التي تعرض لها الرئيس مبارك البالغ من العمر ٧٦ عاما أمد الله في عمره كما أن الأحوال في مصر قد تدهورت حتى وصلت إلى الحضيض في كل المجالات.. وفي ظل الفساد والفقر والقمع تم حرمان ملايين المصريين من حقهم الطبيعي في حياة كريمة وعمل وسكن ورعاية صحية.. وقد بلغ اليأس بكثير من الشباب إلى حد الانتحار أو محاولة الهروب من مصر بأي طريقة وأي ثمن.وقد بدا بوضوح أن النظام في مصر

(*) العربي ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٤.

قد وصل إلى طريق مسدود وأنه لا بد من تغيير جوهري في طريقة الحكم.. في ظل هذه المأساة كنا نتوقع أن يدرك الرئيس مبارك خطورة الموقف وينهي سنوات حكمه بإصلاح ديمقراطي حقيقي.. لكن للأسف فإن الرئيس قد أعلن عن عزمه للترشح لفترة رئاسية خامسة.. وفي مؤتمر الحزب الوطني الأخير وقف جمال مبارك ليعلن بوضوح أنه لا تفكير في تعديل الدستور من أجل انتخاب الرئيس بين أكثر من مرشح ولا تفكير أيضا في إلغاء قانون الطوارئ.. وهكذا تلاشى آخر بصيص من الأمل في أن يسمح النظام في مصر بأي قدر من تداول السلطة.. والأدهى من ذلك أنه في نفس المؤتمر قد تم التمكين لجمال مبارك لكي يخلف أباه في الرئاسة.. ولا يمكن للمصريين أن يصدقوا ما يقال لهم عن منع التوريث وهم يرون جمال مبارك يتصرف وكأنه الحاكم الفعلي لمصر... وقد صرح جمال مبارك بمنتهى الوضوح أن لديه قائمة من السياسات سوف يقوم بتنفيذها في مصر حتى وإن لم تصادف قبولا من الناس، وأكد سيادته بأنه لا يخضع فيما يفعله لرغبات الرأي العام وإنما للمصلحة العامة، ومعنى هذا الكلام ببساطة أن جمال مبارك يعتقد أنه يفهم مصلحة المصريين ويعرف ما ينفعهم وما يضرهم أكثر منهم أنفسهم، وفي مصر ٧٠ مليون مواطن بينهم ملايين المتعلمين ومئات الألوف من المؤهلين المتخصصين الذين قد يفوقون جمال مبارك نفسه في الخبرة والكفاءة، لكن الأخ جمال يعتقد أن كل هؤلاء لا يعرفون مصلحتهم كما يعرفها هو.. ويحق لنا هنا، مع احترامنا، أن نسأل جمال مبارك: من أنت يا سيد جمال حتى تفرض وصايتك على ملايين المصريين؟ وما هي مؤهلاتك حتى تقول ذلك؟ إن مؤهلات جمال مبارك الوحيدة أنه ابن رئيس الجمهورية، وفيما عدا ذلك فهو لم يخض أي انتخابات في حياته وهو يفتقر إلى أي تاريخ سياسي أو أي خبرة حقيقية في القيادة أو التعامل مع الناس كما أنه في رأيي لا يحظى بالحضور الذي يجب أن يتوفر فيمن يعمل بالسياسة والعمل العام.

على أن المسألة الآن اتضحت تماما: فالرئيس مبارك مُصرٌّ على إتمام ثلاثين عاما في الحكم وهو ينوي أن يخلفه في منصبه ابنه.. والحق أن هذا وضع شاذ ومهين لمصر والمصريين جميعًا.

فمصر ليست عزبة أو مزرعة حيوانات حتى يورثها الأب لابنه.. والمصريون الذين ناضلوا طويلا وقدموا الشهداء من أجل طرد المستعمرين وتحقيق الاستقلال، لا يمكن أن يقبلوا أن يتحولوا إلى تركة يورثها الأب لأولاده.. وقد يسأل البعض:

ألا يمكن أن يؤدي التغيير الوزاري الأخير إلى تحسن الأوضاع؟.. المشكلة ليست في أشخاص الوزراء وإنما في طريقة اختيارهم.. النظام في مصر يتلخص في شخص رئيس الجمهورية الذي يتمتع بسلطات مطلقة وفي يده تتركز الخيوط جميعًا وهو ينفرد بتعيين كل الوزراء وكبار المسئولين.. وهو الوحيد الذي يستطيع إقالتهم أو محاسبتهم إذا انحرفوا أو التغاضي عن ذلك إذا أراد.. من هنا يكون الوزراء في مصر أقرب إلى أفراد السكرتارية منهم إلى السياسيين، فهم حريصون على إرضاء الرئيس بكل طريقة وهم يفخرون بأنهم ينفذون تعليماته ويسبحون دائمًا بحمده وحكمته وإنجازاته العظيمة حتى يحتفظوا بمناصبهم.. هذه الطبيعة الانفرادية في الحكم هي السبب الأصلي في المأساة التي نعيشها. ففي ظل هذا النظام لا يستطيع وزير واحد أن يراجع الرئيس في رغبة أو رأي أو حتى في معلومة يقولها حتى ولو كانت خاطئة.. وفي ظل هذا النظام لا يهتم أي مسئول بتحسين أدائه وإرضاء الناس بقدر اهتمامه بأن تظل صورته حلوة عند الرئيس وعادة ما تكون الصورة أجمل بكثير من الحقيقة، وفي ظل هذا النظام يسود جو الدسائس والمكائد ويتم استبعاد أصحاب الكفاءة والخبرة وتقتصر معظم المناصب الكبرى على المنافقين والأفاقين فتكون النتيجة تدهور الأداء في كل المجالات.. وفي ظل الانفراد بالسلطة يخشى النظام دائمًا من تدبير المؤامرات للإطاحة به فيمنع قيام أحزاب حقيقية ويطبق قانون الطوارئ الذي يمكنه من اعتقال عشرات الألوف من المعارضين وتعذيبهم بل وقتلهم مباشرة أو إعدامهم عن طريق المحاكم العسكرية حتى يطمئن إلى استقراره في الحكم.. وفي ظل هذا النظام يقدم الحاكم كل ما يمكنه من التنازلات للولايات المتحدة من أجل الاحتفاظ بالسلطة، ويتم إنفاق مليارات الجنيهات التي تنتزع من أقوات المصريين الفقراء لإنشاء جيش الأمن المركزي بغرض حماية الحاكم والتنكيل بمن يفكر في معارضته.... إن مشكلة مصر ليست في مواردها ولا في أهلها وإنما في الطريقة التي تحكم بها.. بلادنا مليئة بالثروات والكفاءات ولو قدر لها أن تحكم بالديمقراطية لتحولت إلى دولة كبرى في سنوات قليلة لكنه الاستبداد والظلم والفساد، كل ذلك يتسبب في إهدار طاقاتنا وتدهور أحوالنا.. ومن هنا فإن التغيير إذا لم يبدأ من قمة النظام ويسمح لنا باختيار من يحكمنا سيكون شكليا وبلا فائدة.. إن واجب الوطنيين جميعًا بغض النظر عن اختلافاتهم السياسية أن يجتمعوا اليوم على مطلب واحد: أن يمتنع الرئيس مبارك عن ترشيح

نفسه من جديد وأن يسمح للناس بممارسة حقهم الطبيعي في اختيار من يحكمهم.. عندئذ فقط.. يبدأ المستقبل في مصر.

كلمات للتأمل:

* «الضابط ياسر صبحي ضربني بالكرباج وبعدين قلعني هدومي ووقفني وسط المخبرين عريانة وقال لهم ناموا معها لحسن جوزها مش عارف ينام معها..»

المواطنة مبروكة إبراهيم مصيلحي ٥٧ عاما.

* «منذ أن توليت الوزارة وأنا حريص على دعم العلاقة بين المواطن والشرطة..»

حبيب العادلي وزير الداخلية

* «ضابط أمن الدولة قال للمخبرين: ادولوا شوية أبو غريب.. قاموا قلعوني هدومي وعلقوني من إيديا على ماسورة وقعدوا يضربوني ويكهربوني لغاية لما تمنيت الموت..»

المواطن محمود زين العابدين

* «يجب على كل مصري أن يقارن كم قفزة محسوبة تحققت لصالح الديمقراطية..»

صفوت الشريف

* «الحمد لله.. ديمقراطيتنا عريقة لكنني أؤكد للجميع أنه إذا أجريت انتخابات الرئاسة بأية طريقة وبأية صيغة.. فإن الرئيس مبارك سوف يفوز في كل الأحوال..»

يوسف والى

* «أكثر من نصف المصريين يعيشون تحت خط الفقر..».

تقرير البنك الدولى

* «هل تعلمون لماذا يلقى محدودو الدخل في مصر كل رعاية واهتمام..؟! السبب بسيط.. لأن الرئيس حسني مبارك يعتبر نفسه واحدا من محدودي الدخل وبالتالي فهو ينحاز لهم بلا حدود...إن قيادة مبارك الحكيمة سوف تظل قدوة، ومثلا، وضياء، وعزة، ومجدا.. إلى يوم الدين..»

سمير رجب

كلمة عن قضاة مصر..(*)

عزيزي القارئ.. تخيل أنك تعمل في وظيفة بمرتب كبير يكفل لك حياة رغدة مع أسرتك.. وفجأة، بدون سبب، اتخذ رئيسك قرارا بفصلك من العمل وتشريدك في الشارع، ماذا ستفعل عندئذ؟ سوف تخوض بالطبع صراعا عنيفا دفاعا عن رزقك.. هذا هو السلوك الشائع بين الناس: أن يقاتل الإنسان دفاعا عن رزقه ومصالحه الشخصية.. أما السلوك النادر فهو أن يقاتل الإنسان دفاعا عن مبدأ يؤمن به.. لأن المبدأ معنى والمعنى لا يتحول أبدا إلى مكاسب وامتيازات بل على العكس، كثيرا ما يؤدي الدفاع عن المبدأ إلى الإضرار بالمصالح الشخصية.. من هنا كان المدافعون عن المبادئ دائمًا في مكانة أنبل وأرفع بكثير من المدافعين عن الرزق.

والحق أن التاريخ الإنساني قد دفع به إلى الأمام دائمًا هذا الطراز النبيل من البشر.. الذين أحبوا الحق وتمسكوا به ودفعوا الثمن باهظا من حريتهم ورزقهم.. بل إن ظهور المدافعين عن الحق في أية أمة غالبا ما يؤذن بتغيير كبير قادم، عندما يمعن الحكم في الفساد والظلم يكون ظهور المدافعين عن الحق علامة على قرب زواله.. فالذين ذهبوا مع سعد زغلول عام ١٩١٩ إلى المعتمد البريطاني ليطالبوه بالجلاء عن مصر، كانوا يدافعون عن الحق لا عن مصالحهم، والضباط الذين ثاروا على النظام الفاسد عام ١٩٥٢ كانوا يدافعون عن الحق لا عن مصالحهم.. وطلاب مصر الذين فجروا الحركة الطلابية العظيمة في السبعينيات كانوا يدافعون عن الحق لا عن مصالحهم.. وقد كان ظهور المدافعين عن الحق، في الأحوال الثلاثة، إيذانا بتغييرات كبرى حدثت في مصر..

(*) العربي ٩/ ٤/ ٢٠٠٦.

راودتني هذه الفكرة وأنا أتابع بإكبار ـ مثل المصريين جميعًا ـ المعركة الضارية التي يخوضها قضاة مصر دفاعا عن مبدأ استقلال القضاء. إن هؤلاء القضاة، بلا مبالغة، من أنبل من عرفت مصر في تاريخها، إنهم يضحون بوقتهم وجهدهم ويغامرون بمستقبلهم المهني ويتنازلون عن مصالحهم الشخصية، كل ذلك من أجل الحق الذي يؤمنون به.. وقد بدأ الأمر عندما أراد النظام أن يستكمل الديكور الديمقراطي فسمح للقضاة بالإشراف على الانتخابات، ولا شك أن النظام عندما اتخذ هذا القرار كان مطمئنا أن بمقدوره استرضاء القضاة بإغداق الامتيازات عليهم حتى يقبلوا أن يغمضوا أعينهم ويتواطئوا في تزوير الانتخابات الفاحش لصالح الحكم.. لكن ما حدث عكس ذلك تماما.. فقد رفض القضاة الشرفاء أن يخونوا الأمانة وأبوا أن يكونوا أداة النظام لتزييف إرادة المصريين.. وعقدت أكثر من جمعية عمومية حضرها آلاف القضاة ليعلنوا أن شرفهم الوطني والمهني غير قابل للتفاوض.

منذ أسابيع سافرت إلى إيطاليا مدعوًّا من دار نشر اسمها فيللترينيللي بمناسبة صدور الترجمة الإيطالية لروايتي عمارة يعقوبيان، وأجريت لقاءات صحفية عديدة، سئلت فيها جميعًا عن معركة استقلال القضاء في مصر.. وحكيت للصحفيين الإيطاليين عن المستشارة نهى الزيني، السيدة التي وقفت وحدها أمام جبروت النظام ورفضت أن تتستر على تزوير الانتخابات لصالح مصطفى الفقي الذي لم يشعر بأدنى خجل من قبول التزوير لصالحه.. حكيت لهم عن ١٥١ قاضيًا وقّعوا بيان تضامن مع نهى الزيني ليفضحوا التزوير أمام الرأي العام، حكيت لهم عن مجلس إدارة نادي القضاة الذي أجرى تحقيقا مستقلا ليكشف للمصريين كيف زيف النظام إرادتهم في الانتخابات، حكيت لهم عن القضاة الشبان الذين رفضوا الاشتراك في التزوير وتشبثوا بصناديق الاقتراع حتى لا يتم تغييرها، وكيف أن كثيرين منهم تعرضوا للإهانة والضرب على أيدي ضباط المباحث لكنهم لم يفرطوا في الأمانة.. وفوجئت بصحفية إيطالية تقول بحماس:

«أنتم المصريين يجب أن تفخروا بهؤلاء القضاة.. إنهم أبطالكم القوميون. هكذا ينظر العالم إلى المعركة التي يخوضها قضاة مصر اليوم، وقد فعل النظام كل ما بوسعه لإغراء القضاة، مكافآت وإعارات وتعيينات كمحافظين ووزراء لكن معظم القضاة ظلوا قابضين على جمر الحق.. عندئذ انقلب النظام عليهم وبدأ في

التنكيل بهم فأحال مجموعة من شيوخ القضاة إلى التحقيق بدعوى التحدث إلى الصحافة مع أنهم كانوا يمارسون صميم عملهم بكشف التزوير في الدوائر التي عهد لهم بالإشراف عليها.. وقد رفض القضاة تهديد الحكومة في جمعيتهم العمومية الأخيرة وأصروا على ملاحقة المزورين والمطالبة بقانون السلطة القضائية.. وقد استعمل النظام كل الوسائل للتشويش على مطالب القضاة النبيلة وإظهارها بأنها مجرد مطالب مهنية ضيقة.. وتبارت الأقلام المنافقة في الانتقاص من نبل مقاصد القضاة بدعوى أن القضاة لا يجوز لهم الاشتغال بالسياسة.. وهذا الكلام المتهافت مردود عليه بأن كشف التزوير ليس عملا سياسيا لكنه من صميم عمل القاضي المشرف على الانتخابات.. والمطالبة باستقلال القضاء واجب مهني قبل أن يكون وطنيا.

ونحن نسأل من يهاجمون القضاة: لو أن القضاة بدلا من مطالبهم الديمقراطية كانوا قد وقّعوا على وثيقة مبايعة بالدم لحسني مبارك.. هل كنتم ستلومونهم عندئذ أم كنتم ستهللون لهم كما تفعلون مع كل من ينافق الرئيس؟.. ونؤكد هنا أن القاضي، في النهاية، مواطن مصري من الطبيعي أن يهتم بما يجري في بلاده مثل أي مواطن.. كما أن النظام المصري قد وقّع على معاهدات دولية تسمح للقضاة بإبداء آرائهم في الشأن العام مثل سائر المصريين ولكن منذ متى يحترم النظام في مصر المعاهدات التي يوقعها؟

منذ أسابيع جاءت إلى مصر لجنة من منظمة هيومان رايتس ووتش.. وهي منظمة دولية كبرى لحقوق الإنسان مستقلة ومحترمة في العالم أجمع، وكانت أول من كشف جرائم إسرائيل وأمريكا ضد العرب في فلسطين والعراق.. وقد طلب أعضاء هذه المنظمة أن يلتقوا بالقضاة للاطلاع على مطالبهم الديمقراطية.. عندئذ أصيب النظام بالهلع وأوعز إلى مخبريه وعملائه في الإعلام الحكومي فشنوا حملة ضارية على هيومان رايتس ووتش باعتبارها منظمة صهيونية ومعادية للعرب والمسلمين مما دفع نادي القضاة إلى الاعتذار عن عدم الالتقاء بوفد المنظمة الدولية.. والغريب أن رئيس الوزراء أحمد نظيف، بعد ذلك بأيام قليلة، قد ألحَّ حتى التقى بأعضاء نفس المنظمة ليلقي عليهم بالطبع مجموعة جديدة من الأكاذيب عن ديمقراطية الرئيس مبارك.. ولم يقل لنا كتبة النظام المنافقون: إذا كانت هيومان رايتس ووتش

منظمة صهيونية ومعادية للعرب والإسلام فلماذا يسعى رئيس الوزراء للقاء أعضائها ويفاخر بالتحدث إليهم والتقاط الصور معهم؟

إن الإعلام الحكومي يسعى بكل قوته حتى يشوه صورة القضاة أمام الرأي العام وعلينا جميعًا أن نعي بوضوح أن القضاة لا يطلبون مصلحة شخصية ولا امتيازا مهنيا لكنهم يناضلون من أجل الحق والعدل، إن استقلال السلطة القضائية ليس أمرا خاصا بالقضاة وإنما بمصر كلها.. معنى استقلال القضاء أن يكون الناس جميعًا متساوين أمام القانون، معناه ألا تحفظ التحقيقات لاعتبارات سياسية، معناه إلغاء قانون الطوارئ والاعتقالات والتعذيب.. معناه أن يستدعي القاضي أية شخصية مهما يكن موقعها في الدولة للتحقيق معها إذا خالفت الدستور والقانون.. معناه ألا تزور الانتخابات بعد ذلك أبدا فيتشكل البرلمان من أعضاء محترمين.. معناه أن يحكم مصر رجال شرفاء أكفاء يختارهم المصريون بإرادتهم الحرة، معناه ألا يستطيع ضابط شرطة أن يهين مواطنا أو يعذبه أو يهتك عرض زوجته أمام عينيه، كما يحدث كل يوم في مصر المبتلاة بحكامها، معنى استقلال القضاء ألا يتمكن شخص مثل ممدوح إسماعيل تسبب في قتل ألف مواطن من الهرب قبل التحقيق معه.. معناه أن نعرف كيف أصبح جمال وعلاء مبارك من أصحاب الملايين وأن نعرف من أين يأتي الرئيس مبارك بالملايين التي تنفقها رئاسة الجمهورية على قصوره وطائراته واستراحاته.

معنى استقلال القضاء، ببساطة، مصر أخرى غير التي نعيش فيها الآن، مصر ديمقراطية محترمة عادلة لا تفرق أبدا بين أبنائها. نشرت الصحف منذ أيام أن الرئيس مبارك سيقيل وزير العدل الحالي ليأتي بدلا منه بممدوح مرعي الذي اشترك في مهزلة الانتخابات الرئاسية لعله يكبح جماح مطالب القضاة المشروعة، إن ما يحدث الآن بين القضاة والنظام ليس إلا معركة بين الحق والباطل، بين العدل والظلم، والنظام مفزوع من منح القضاء استقلاله لأنه يمر بلحظة حرجة للغاية.. الأوضاع في مصر لم تعد تحتمل، ملايين المصريين بلا عمل ولا أمل وحياتهم لا تليق بالآدميين، لم يعد لدى هذا النظام ما يقدمه لنا إلا المزيد من القمع والفساد، وقد كانت فضيحة بيع عمر أفندي مجرد مثال واحد للطريقة التي تنهب بها أموال الشعب المصري لحساب حفنة من السماسرة يتحكمون في مصير البلد.

وفي نفس الوقت فإن الرئيس مبارك يبدو وكأنه انفصل عما يحدث في مصر، فقد اعتذر عن حضور مؤتمر القمة العربية وذهب إلى السلوم ليحظى بمشاهدة كسوف الشمس.. ولعله رئيس الدولة الوحيد في التاريخ الذي ترك ألف مواطن من ضحايا العبارة يصارعون الموت غرقا، وفضل أن يذهب لمتابعة تمرين كرة القدم بقيادة الكابتن حسن شحاته وحضور ميدو وشوبير.. الشائعات تتزايد عن تنحي الرئيس عن الحكم هذا العام، والمنافقون والأفاقون قد بدءوا الطبل والزمر من أجل التوريث.. وهكذا بعد أن نهبوا مصر وأفقروها وقمعوا المصريين وأذلوهم يستعدون الآن لتوريثهم وكأنهم مجموعة من الأغنام.. ووسط هذا الواقع المتردي ظهر القضاة الشرفاء ليدافعوا عن حق المصريين في العدل والحرية.

المعركة الآن بين القضاة والطغاة.. ومصر كلها مع القضاة.

لا تخذلونا.. مصر تنتظر القضاة(*)

كان أبي الراحل عباس الأسواني أديبا ومحاميا معروفا، وكانت لديه مجموعة أصدقاء من الفنانين والكتاب.. أذكر منهم: سيد مكاوي وصلاح جاهين وحسن فؤاد وعبد الرحمن الشرقاوي وزكريا الحجاوي ـ رحمهم الله جميعًا ـ ومحمود السعدني وأحمد طوغان ويوسف الشريف ـ متعهم الله بالصحة والعافية ـ وكان أبي يسمح لي وأنا صبي صغير بالجلوس مع أصدقائه فكنت أحاول بقدر إمكاني أن أفهم النقاش الذي يدور بينهم في الأدب والسياسة وكان لهم صديق اسمه أحمد غنيم، ولاحظت أنهم يعاملونه باحترام بالغ: يقفون لمصافحته ويسكتون إذا تكلم وينصتون باهتمام إلى كل ما يقوله ويخاطبونه بلقب أحمد بك.. وتعجبت آنذاك من هذه المعاملة فسألت أبي ذات مرة: لماذا تحترمون أحمد بك إلى هذه الدرجة..؟

فأجابني ببساطة:

ـ لأنه قاضٍ.

وسألته:

ـ أتخافون منه لأنه يستطيع أن يحبسكم..؟ ضحك أبي عاليا على سذاجتي لكنه لم يلبث أن قال بصوت جاد:

ـ الناس في مصر يخافون من ضابط الشرطة لأنه يستطيع أن يؤذيهم.. لكنهم لا يخافون من القاضي وإنما يحترمونه لأنه يمثل لهم معنى الشرف والنزاهة.... إن الله

(*) العربي ٢٤/ ٤/ ٢٠٠٥.

يأمرنا بالعدل قبل أي شيء آخر.. وتحقيق العدل مهنة القاضي.. القضاء أرفع المهن جميعًا والقاضي العادل أقرب الناس إلى ربنا سبحانه وتعالى.

وقد انطبعت كلمات أبي في نفسي فنشأت وأنا أكنّ احتراما عميقا للقضاة، وتعرضت في حياتي، مثل معظم الناس، إلى مشكلات ونزاعات قانونية، وترددت على أقسام الشرطة وعانيت مثل المصريين جميعًا من غطرسة ووقاحة كثيرين من ضباط الشرطة، لكنني دائمًا ما إن أقف أمام القاضي أو وكيل النيابة حتى تغمرني راحة عميقة وأحس باطمئنان كامل إلى أنني في حضرة الحق والقانون.. وعشت في الغرب فوجدت القاضي هناك يعمل في ظروف ميسرة ومريحة للغاية حتى إن بعض الدول تترك مرتب القاضي مفتوحا يحدده كما يشاء، وليس ذلك من باب التبذير وإنما تقدير لدور القاضي وكرامته وهو الذي يفصل يوميا في نزاعات على ملايين الجنيهات، وقارنت ذلك بالظروف الصعبة التي يعمل فيها قضاتنا الأجلاء فتضاعف اعتزازي بهم.. واكتشفت أن المصريين جميعًا، على اختلاف مستواهم الاجتماعي والثقافي، ينظرون بتبجيل إلى القاضي ويعتبرونه دائمًا منزها عن الغرض والظلم، وهم لا يشككون أبدا في ذمة القضاة حتى ولو حكموا في غير صالحهم..

ومن عاداتنا عندما يقضي القاضي ببراءة المتهم أن يندفع أهله هاتفين بفرح: يحيا العدل.. ولو تأملنا هذا الهتاف لوجدناه ينم عن احترامنا للقضاء.. فأهل المتهم يريدون أن يشكروا القاضي الذي حكم بالبراءة لكنهم يدركون بحسهم الحضاري أنه لايجوز أبدا أن نشكر القاضي على أحكامه لأن من يُشكر اليوم قد يذم غدا ومنصب القاضي أرفع من الذم والشكر.. ويكفي أن نقارن بين ضباط مباحث أمن الدولة الذين يعيشون طوال حياتهم في رعب من انتقام ضحاياهم الذين قاموا بتعذيبهم وإذلالهم، وبين القضاة الذين يمشون بين الناس مطمئنين بدون حراسة لأنهم ببساطة حكموا فعدلوا فأصبحوا آمنين.

هذه المكانة الجليلة للقاضي في بلادنا، تأكدت لي وأنا أتابع وقائع الاجتماع التاريخي الذي عقده قضاة الإسكندرية الأسبوع الماضي وأعلنوا فيه قراراتهم الوطنية الشجاعة.. ولنا هنا ملاحظات:

١ ـ تحولت استفتاءات رئيس الجمهورية في مصر إلى مهزلة حقيقية، أصبح أي

طفل يعرف أن الرئيس مبارك يحصل على ٩٩٪ بينما يقاطع المصريون جميعًا لجان الاستفتاء فلا يدخلها أحد ما عدا الأفاقين والمأجورين من الحزب الوطني.. كما أن التزوير الفاحش الذي تمارسه الحكومة في انتخابات مجلس الشعب لصالح الحزب الوطني أصبح يشكل فضيحة للنظام داخل مصر وخارجها.. من هنا لجأت الدولة إلى الاستعانة بالإشراف القضائي الجزئي كغطاء لعورة التزوير، وقد حدثت وقائع محزنة في الانتخابات الأخيرة، فكان القاضي يجلس داخل اللجنة، بينما يقف خارجها جنود الأمن المركزي وضباط أمن الدولة لمنع أو اعتقال كل من لا يرغبون في دخوله اللجنة ـ من الناخبين أو حتى المرشحين ـ وكان من الطبيعي أن يرفض قضاة مصر ذلك الدور غير الكريم الذي يدفعهم إليه نظام سياسي يستند إلى تزوير إرادة المواطنين وقمعهم.. من هنا عقد أكثر من ألف قاض جمعية عمومية غير عادية في الإسكندرية وأعلنوا، بالإجماع، رفضهم الاشتراك في الانتخابات المقبلة، الرئاسية والبرلمانية، ما لم تتوفر لهم ضمانات كاملة لإشراف قضائي كامل وحقيقي يمنع التزوير.. وهذا الموقف التاريخي العظيم من القضاة يضع النظام في مأزق: فلو أنه نفذ مطالبهم وأجرى انتخابات حرة سوف يخسرها حتما، ولو أنه أجرى انتخابات مزورة بدون إشراف قضائي فإنها تصبح غير دستورية وباطلة.

٢ ـ المفترض أن سلطة القضاء مستقلة تماما عن أية سلطة أخرى في الدولة، لكن ما يحدث أن وزارة العدل تتدخل في شئون القضاء فتمنح وتمنع مما يجرح استقلال القاضي، ولأن وزير العدل خاضع للرئيس مبارك الذي يعينه ويقيله، فإن خضوع القضاة لوزارة العدل يشكل في الواقع خضوعا لرئيس الدولة مما يفسد استقلال القضاء من أساسه.. وقد وصل تدخل الوزارة في شئون القضاء إلى درجة إعطاء التعليمات للقضاة بإطلاع وزير العدل على أية قضية تخص الشخصيات المهمة في المجتمع، قبل الحكم فيها. لماذا يا ترى؟ كما أن الوزارة لديها دفتر شيكات مفتوح تنفق منه على من تحب من القضاة دون أية قواعد ولا رقابة ولا مساءلة ولاحساب كما أكد شيخ القضاة يحيى الرفاعي وقد رفض القضاة الشرفاء هذا الوضع الشاذ وأعدوا مشروعا لقانون استقلال السلطة القضائية منذ أكثر من عشرة أعوام لكن النظام في مصر يماطل في الموافقة عليه لأنه يعلم أن تحقيق الاستقلال الكامل للقضاء يشكل تهديدا خطيرا لكبار الفاسدين الذين يتحكمون في مقدرات مصر.

٣ ـ يردد بعض كبار المسئولين أن مكانة القاضي لا تتفق مع إبدائه للرأي السياسي لأن القاضي يجب أن يظل بعيدًا عن السياسة.. وهذا كلام باطل ومغلوط **أولًا**: لأن مصر موقِّعة رسميا على اتفاقيات تكفل للقضاة حق المشاركة السياسية **وثانيًا**: لأن القاضي قبل كل شيء مواطن مصري من الطبيعي أن يكون له رأي فيما يجري في بلاده ويمس مستقبل أولاده، وتاريخ القضاء المصري حافل بالمواقف الوطنية العظيمة ضد الاحتلال والاستبداد. ونحن نسأل هؤلاء الذين يطلبون من القضاة أن يسكتوا عن حقوق الأمة.. هل كانوا سيطلبون من القضاة السكوت لو أنهم أعلنوا مبايعتهم للرئيس مبارك لفترة سادسة..؟ أم كانوا عندئذ سيباركون الطبل والزمر ويشتركون في مواكب النفاق كعادتهم.

٤ ـ تجَاهَلَتْ صحف الحكومة اجتماع القضاة في الإسكندرية فلم تنشر عنه حرفا واحدا بينما سعت صحف أخرى إلى تصوير حركة القضاة وكأنها تهدف إلى تحسين أحوالهم المعيشية.. وهذا كذب رخيص.. فالقضاة لايتحركون الآن من أجل أرزاقهم وإنما من أجل كرامة المصريين جميعًا.. ولو أنهم فكروا في مصالحهم المادية لكانوا قد قبلوا الاشتراك في تزوير الانتخابات فتنفتح عليهم عندئذ خزائن المال الحرام.. إن هؤلاء القضاة العظام يضربون لنا مثلا أعلى في الشرف والوطنية، إنهم يطلبون العدل والحرية لنا، يطلبون استقلال القضاء وإلغاء الطوارئ وتطبيق ديمقراطية حقيقية وانتخابات حرة يختار المصريون فيها حاكما جديدا، كفئا ومخلصا، حتى ينتشلهم من الحضيض الذي وصلوا إليه في كل المجالات.

لقد انهمرت برقيات التأييد على قضاة الإسكندرية من كل محافظات مصر وسوف تعقد يوم ١٣ مايو القادم جمعية عمومية في القاهرة يحضرها جميع القضاة في مصر ليرفعوا مطالبهم الديمقراطية إلى رئيس الجمهورية.. ذلك اليوم سيكون فاصلا في تاريخ مصر، إن مستقبلنا جميعًا، بدون مبالغة، مرهون بموقف القضاة، فلو أنهم أصرّوا على نضالهم النبيل من أجل الحرية والديمقراطية فلن يستطيع النظام أن يستمر في إذلال المصريين ونهبهم وقمعهم.. إن القضاة اليوم يقودون الأمة ويتحدثون باسم الشعب المصري كله..وواجبنا جميعًا كمصريين أن نقف وراءهم ونؤازرهم بكل قوة.

يا قضاة مصر العظام، مصر تنتظركم، مصر العظيمة المهانة المستباحة التي أذلها

اللصوص ونهبوها وأفقروها، ملايين المصريين الهائمون على وجوههم بلا عمل ولا مأوى ولا مستقبل، سكان المقابر والعشوائيات والعاطلون والجوعى والمنتحرون يأسا وضحايا التعذيب وأسر المعتقلين لسنوات طويلة بدون محاكمة والمرضى الذين يموتون كل يوم لمجرد أنهم فقراء.. كل هؤلاء ينتظرون حكمكم العادل.. مصر كلها تتطلع إليكم. فلا تخذلوها.

كلمات للتأمل:

* «أنا كنت نايم في الحجز وصحيت لقيت شبشبي انسرق، فقمت أسأل عنه، الضابط قال لي انت عامل دوشة ليه؟ المخبرين ضربوني وقلعوني هدومي ونيموني على بطني وأنا عريان خالص وبعدين..»

المواطن خالد عبد الرحيم صديق
الذي هتكوا عرضه في قسم الهرم.. لجريدة العربي.

* «ما يطبقه الرئيس مبارك الآن.. ديمقراطية القرن الواحد والعشرين»

صفوت الشريف لجريدة الجمهورية

* «كل الانتخابات التي جرت في مصر مزورة، ويتم تزويرها بقرار سياسي»

قضاة الإسكندرية لجريدة الدستور

* «صدقوني.. الرئيس مبارك أحرص الحريصين على أن تكون الانتخابات شريفة.. وواقعية»

سمير رجب

* «الآن.. بعد هذا التعديل العظيم من الرئيس مبارك.. تم رفع الحرج عن السيد جمال نجل السيد الرئيس وأصبح بمقدور السيد جمال، لو أراد سيادته، أن يتولى رئاسة الدولة.. بالديمقراطية طبعا»

مصطفى الفقي

تأملات.. في مسألة الكلابشات!!(*)

هذه الواقعة الغريبة حدثت منذ عشرين عاما في باريس:

كنت آنذاك طالبا في الجامعة، وسافرت في العطلة الصيفية إلى فرنسا بغرض السياحة وبعد أيام قليلة نفدت نقودي وحاولت أن أجد عملا في أي مطعم كما يفعل الطلاب عبثا.. وتدهورت بي الحال حتى اضطررت إلى المبيت ليلتين كاملتين على مقعد في مطار «أورلي»، في انتظار طائرة تنقلني إلى القاهرة. وبينما أنا جالس في صالة المطار، في منتهى البؤس والإرهاق، اقترب مني رجل فرنسي أصلع ونحيف في نحو الثلاثين وصافحني مبتسما وقدم نفسه باسم «فرانسوا» ثم سألني عن سبب مبيتي في المطار فأخبرته بحكايتي كلها، وكان لطيفا فأخذ يهون عليَّ ما أنا فيه وشيئًا فشيئا اتصل بيننا حوار شيق وعذب.. تحدثنا في السياسة والأدب ولم يلبث «فرانسوا» أن نهض وقال «اسمع.. أنا سعيد جدا بالتعرف إليك. لماذا لا نذهب إلى الكافتيريا لنتناول مشروبا معا..؟» ولذت بالصمت وتذكر هو أنني مفلس فقال بلطف: «أنا سوف أدعوك».. وفي الكافتيريا استأنفنا الحديث والشراب، وكان «فرانسوا» كريما للغاية وكلما فرغت أكوابنا طلب لنا مشروبات جديدة.

وبعد حوالي ساعتين (تناولنا خلالها طلبات كثيرة) مال «فرانسوا» ناحيتي وقال وهو يبتسم بهدوء «لدي سر صغير.. أنا أيضا مفلس ولا أملك ما أدفع به الحساب..» وشعرت بصدمة ورحت أتصبب عرقا ثم أخذ الغضب العام يتملكني تجاه هذا الرجل الذي ورطني معه في هذا المأزق.. لكن «فرانسوا» (الذي خطر لي في تلك اللحظة أنه شخص غريب الأطوار ومختل على نحو ما) أخذ يهدئ من روعي وقال بنبرة لا مبالية:

(*) الأهالي ٣ / ٢ / ١٩٩٩.

«يا صديقي.. إن المال، في النهاية، أحقر من أن يكون عائقا أمام حوار ذكي وممتع كذلك الذي استمتعنا به...».

لكن صاحب الكافتيريا ربما يكون له رأي آخر هكذا قلت بغيظ أشاح هو بيده بما معناه أن الأمر بسيط ثم نادى الجرسون وقال له: «أنا وصديقي المصري هذا تناولنا بعض المشروبات ولا نملك الآن ثمنها، سوف أحضر غدا وأدفع الحساب إذا أمكن».

ابتسم الجرسون وقال «لحظة واحدة» وانصرف وجلست أنا أضرب أخماسا في أسداس وأتوقع ظهور البوليس بين لحظة وأخرى ثم جاء رجل وقور فهمت أنه مدير المكان وانحنى على «فرانسوا» وراح يحدثه بصوت خافت وتم الاتفاق في النهاية على أن يحتفظ المدير بالبطاقة الشخصية «لفرانسوا» الذي كتب تعهدا بدفع الحساب في اليوم التالي وفي حالة عدم الدفع يقوم المدير بإبلاغ البوليس.. وبعد أن توصلا إلى هذا الاتفاق، تبادلا بعض العبارات الودية ثم انصرف المدير بعد أن تمنى لنا ليلة سعيدة.

* * *

كلما تذكرت هذه الواقعة ألح عليَّ السؤال: لماذا عاملنا مدير الكافتيريا باحترام؟.. لقد كنا، في النهاية، مجرد زبائن مفلسين عاجزين عن الدفاع عن أنفسنا وكان بإمكان المدير أن يلحق بنا ما شاء من الإهانات أو على الأقل أن يفضحنا أمام الموجودين لكنه لم يفعل لأن كل ما كان يهمه هو أن نؤدي ما علينا للمحل فلما أخذ تعهدا بذلك انتهت المشكلة.. والمعنى الجميل الكامن في تصرف المدير أن كرامة الإنسان (أى إنسان) مقدسة ومن غير المقبول أن تهين أحدا لمجرد أننا نملك القدرة على إهانته، كما أن مخالفة القانون لا تجيز لنا إطلاقا أن ننزع عمن يخالف القانون حقه في المعاملة الآدمية الكريمة.. ولقد فكرت في هذه المعاني وأنا أتابع ما يحدث في شوارع القاهرة هذه الأيام. فبعد شهور طويلة من البحث المضني.. توصل الخبراء إلى حل حاسم لمشكلة المرور في مصر وهذا الحل ـ الذي بدأ تطبيقه فعلا ـ هو أن تتم كلبشة أي سيارة يتركها صاحبها في الأماكن الممنوع الانتظار فيها، وقد صرح اللواء عبد العزيز محمد (المسئول الأول عن المرور في مصر) بأن عقاب الكلبشة الفورية هو الحل الأمثل لأنه يحقق السيطرة المرورية بنسبة ١٠٠٪ كما أنه يحقق الردع الفوري لأي مخالف إذ إن الإجراءات السهلة تجعل المواطن يقلل من أهمية المخالفة ويكررها عشرات المرات، وهذا المواطن المستهتر (والكلام لسيادة اللواء) لن يرتدع إلا

عندما يرى سيارته وقد كلبشت أمام عينيه فلا يستطيع أن يحركها من مكانها قيد أنملة ولا يستطيع أيضا ـ مهما أوتي من مهارة ـ أن يفك عنها الكلابش الحديدي المحكم وإذا حدث وتمكن أحد المواطنين من فك الكلابش (وهذا أمر مستبعد) فسوف يتم القبض عليه فورا ويحال إلى النيابة بتهمة إتلاف المال العام، حيث يعتبر الكلابش عهدة حكومية وبالتالي يعاقب بالحبس كل من يفك الكلابش أو يخفيه إلا أن يترك سيارته مكلبشة ويقطع المشوار إلى الإدارة الرئيسية للمرور (في الدراسة) وهناك ينتظر دوره وسط عشرات المواطنين المخالفين من أمثاله حتى يدفع الغرامة المقررة ثم يرجع بعد ذلك إلى سيارته ليكتشف المفاجأة الثانية: فكل كلابش له مفتاح واحد فقط.. يحتفظ به الضابط المختص الذي قام بكلبشة السيارة والذي يملك وحده سلطة فك الكلابش عنها.. وقد أدى تطبيق نظام الكلبشة إلى حدوث مهازل حقيقية: فقد أدت كلبشة السيارات المخالفة إلى حجز سيارات أخرى غير مخالفة كانت تقف وراءها وهكذا اضطر المواطنون غير المخالفين إلى انتظار المواطنين المخالفين حتى ذهب هؤلاء إلى الدراسة ودفعوا الغرامة وعادوا ثم بدأ جميع المواطنين (المخالفين وغير المخالفين) رحلة البحث عن الضابط المختص (الحائز على مفتاح الكلابش) حتى يتمكنوا من التحرك بسياراتهم، ويقال إن مواطنا مخالفا ظل يبحث عن الضابط المختص نهارا كاملا حتى وجده أخيرا وهو يتناول إفطار رمضان في منزل حماته في حلوان، كما أن مواطنا آخر نزل من بيته فوجد سيارته مكلبشة ولم يكن قد سمع بموضوع الكلبشة فاندهش للغاية وظن الأمر دعابة ثقيلة من أحد أصدقائه، وأخذ يحاول حتى نجح في فك الكلابش لكن الضابط المختص، الذي كان يرقبه عن بعد، قام بالقبض عليه وإحالته إلى النيابة المختصة.. هذا التنكيل المستمر بالمواطنين المخالفين هو بالضبط ما يهدف إليه نظام الكلابشات الجديد، ولو كان الهدف حل أزمة المرور حقا لفكر المسئولون في زيادة عدد أماكن الانتظار أو حتى الإقلال من تراخيص السيارات الخاصة التي تصدر يوميا بالعشرات.. لكن الأهم.. تعذيب المخالفين بكل الوسائل المتاحة من أجل تحقيق الردع المروري (سيادتك).. وقد صرح اللواء عبد العزيز محمد لجريدة الأهرام بأنه عاكف حاليا على دراسة اقتراحين جديدين من أجل ردع المخالفين.. وهما أولًا.. وضع مواد كيميائية كاوية فوق الأسفلت في المناطق الممنوع الانتظار فيها وهذه المواد تتفاعل مع كاوتش عجلات السيارات المخالفة فتتلفها تماما في لحظات معدودة.. أما الاقتراح الثاني فهو عبارة عن مجموعة من الخوازيق الميكانيكية المدفونة تحت الأسفلت

والمتصلة بمحرك يتم تشغيله بزر صغير ما إن يضغط عليه الضابط المختص حتى تبرز الخوازيق من الأسفلت فتمزق عجلات السيارة المخالفة شر تمزيق.. وأنا أحيي اللواء عبد العزيز من قلبي على أفكاره الفذة وأقترح عليه بعض الوسائل من عندي: فلماذا لا يتم وضع المواطن المخالف نفسه على الخازوق الميكانيكي لبضع ساعات؟!.. وماذا لو قبضنا على كل من يخالف المرور وشوهنا وجهه بقليل من ماء النار؟ أظنها فكرة مبتكرة واقتصادية لا تكلف خزانة الدولة كثيرا، بل ولماذا ـ يا سيادة اللواء عبد العزيز ـ تتركهم أصلا على قيد الحياة، هؤلاء الذين يخالفون المرور، إن القضاء على مخالفات المرور لن يتحقق إلا بقتل المخالفين جميعًا (سواء رميا بالرصاص أو شنقا) وعندما يعرف المواطن أن وقوف سيارته في الممنوع سوف يكلفه حياته نفسها.. عندئذ يتحقق الردع المروري بأفضل ما يمكن..

* * *

إن الفرق بين ما فعله مدير الكافتيريا الفرنسي مع زبائن مفلسين وما يفعله اللواء عبد العزيز في المواطنين المخالفين هو الفرق بين نظام يحترم آدمية الإنسان حتى ولو كان مجرما ونظام آخر لا يعترف للمواطنين بأية حقوق في مواجهة السلطة.. إنه ببساطة، الفرق بين الديمقراطية وسواها.

أحزان العيش على الهامش(*)

مشهدان يثيران التأمل.

مشهد العمال المصريين المقبوض عليهم في أحداث الكويت الأخيرة وقد أجبرتهم الشرطة الكويتية في الجلوس على الأرض وأيديهم معقودة على رءوسهم ووجهت إليهم فوهات البنادق، وكأنهم أسرى حرب، والمسئول الكويتي جاسم الصقر يشير إليهم في لقاء تليفزيوني قائلا: «هؤلاء جهلة ومجرمون».

والمشهد الثاني (وصفته جريدة الأهالي) عندما ألقى ضابط شرطة كويتي بأحد العمال المصريين على الأرض، وأخذ يدهس رأسه بحذائه أمام زملائه المصريين. والسؤال: هل كانت هذه المعاملة الوحشية للمصريين ضرورية حقا من أجل حفظ الأمن في الكويت؟!! وهل يجرؤ أكبر مسئول في الكويت على أن يخدش شعرة من رأس مواطن أمريكي أو أوروبي (مهما ارتكب من جرائم)؟!! الإجابة معروفة والمؤكد أن المصري مواطن بلا حقوق في أي مكان في العالم، وذلك لأنه فقد حقوقه في مصر أساسا والذي لا يحترم في وطنه لن يحترم خارجه، وهؤلاء العمال المصريون الذين استدانوا وتركوا أسرهم وأطفالهم ليحصلوا على فرصة حياة كريمة في الكويت فإذا بالسلطات الكويتية تنكل بهم وتقمعهم، هؤلاء أنفسهم طالما نكلت بهم السلطات المصرية عندما كانوا في مصر وهم فريسة سهلة ودائمة للقمع والظلم لأنهم فقراء وقليلو الحيلة وفاقدون للقدرة والإرادة اللازمة لانتزاع حقوقهم. هؤلاء وصفهم الدكتور رشدي سعيد في كتابه «الحقيقة والوهم في الواقع المصري» بقوله «الفقراء في مصر يشكلون

(*) الأهالي ١/ ١٢/ ١٩٩٩.

أغلبية السكان وأسميهم كتلة البشر «الغاطسة» وهم نحو خمسين مليونا من المصريين ينتظمون في حوالي ثمانية ونصف مليون أسرة تتراوح دخولهم بين ١٠٠ و٥٠٠ جنيه شهريًا وبذلك فإن هؤلاء الفقراء يشكلون نحو ٨٦٪ من السكان لا يحصلون مع ذلك إلا على ٢٦٪ من الدخل القومي في مصر مقابل كتلة البشر «الطافية» من المصريين متوسطي الحال والأغنياء الذين لا يشكلون إلا ١٤٪ من السكان ويحصلون وحدهم على ٧٤٪ من الدخل القومي..» ويكشف الدكتور سعيد التفاوت الطبقي الفادح في مصر فيكتب: أبناء الكتلة الطافية هم الذين يملكون جميع السيارات الخاصة وجميع أجهزة التليفزيونات في المنازل وهم الذين تظهر أسماؤهم في صفحة الاجتماعيات في الجرائد عندما يتزوج أبناؤهم أو يولد لهم مولود وفي صفحة الوفيات إذا مات أحدهم وهم أيضا الذين يشكلون طبقة المستهلكين التي يسعى إليها المستثمرون الأجانب وهم وحدهم الذين جندت لهم الحكومة المصرية كل أجهزتها من أجل خدمتها أما أبناء الكتلة الغاطسة (وهم غالبية المصريين) فيعيشون في فقر مهين وازدحام هائل، نصفهم في الريف في مساكن بدائية بائسة ونصفهم في المدن في مساكن عشوائية يعيش في الحجرة الواحدة منها ٦ أشخاص في المتوسط ومعظم هذه العشوائيات بلا دورة مياه صحية مستقلة ونصفها بلا مياه شرب نظيفة والملايين من أولاد الفقراء إلى ٦٠٪ يصاب نصفهم بفقر الدم وسوء التغذية.

ويؤكد الدكتور سعيد أن هذه الكتلة الكبيرة من البشر تعاني من الجهل والفقر والمرض ولا تشارك في الحكم ولا يسمح لها بالحديث عن مشاكلها أو تنظيم نفسها من جمعيات أو تكتلات وهي عاجزة تماما عن إيصال صوتها إلى الحكام ومتخذي القرار في مصر.

ولعله من الطريف، والمحزن أيضا، أن نقرأ ما قاله أحمد العماوي وزير القوى العاملة عندما سأله الأستاذ حمدي رزق في مجلة المصور: «لماذا لا يهتم سيادته بالعمال المصريين الفقراء الذين يلقون معاملة غير آدمية في الخليج؟!».. عندئذ أجابه العماوي بعصبية:

«أنا لا أعرف ماذا تقصد بالاهتمام.. أهتم بهم أعمل لهم إيه يعني؟! هل أقوم مقام صاحب العمل في الدول الأخرى؟.. هل أغير قوانين الدول من أجل العامل المصري؟ هل يتعاقدون هم هناك وأتحمل أنا هنا المسئولية؟!».. ثم استطرد العماوي قائلا: مين قال إن المعاملة في الخليج غير آدمية؟!.. إذا كنت أنت رجل ذهبت بدون عقد وبدون

فلوس وساكن مع عشرة في حجرة.. ماذا تتوقع؟! المصري الذي يذهب بهذه الطريقة سوف يعيش على الرصيف طبعا، وبعد ذلك يقول معاملة غير آدمية».

وأحب أن أذكّر الأخ العماوي بأنه وزير القوى العاملة ومعنى ذلك (في الدول الديمقراطية) أنه مسئول بالفعل عن كل المواطنين العاملين في البلاد وخارجها وأن واجبه الأول أن يأخذ لهؤلاء العاملين حقوقهم حتى لو أدى ذلك إلى تغيير القوانين في دول الخليج (وليس هذا مستحيلا كما يظن)!.. وأذكّر السيد العماوي أيضا بأنه لا يوجد إنسان على وجه الأرض يحب أن يعيش على الرصيف أو ينام مع عشرة أفراد في حجرة ضيقة لكن المرء يفعل ذلك مضطرا عندما يكون فقيرا ولا يجد ما يصرفه على عياله ونفسه، إنه الفقر يا سيد عماوي الذي لا تعرفه أنت أو ربما عرفته ونسيته عندما فتح الله عليك بتولي الوزارة.. والحق أن حديث العماوي يعد نموذجا للطريقة التي يتعامل بها النظام مع الفقراء في مصر، فبعد أن فشلت الحكومات المتعاقبة في القضاء على الفقر، بل وتسببت (بفسادها وعجزها الإداري) في زيادة أعداد الفقراء اعتمدت الحكومة معهم سياسة «التجاهل والقمع» فالنظام المصري يتجاهل ملايين الفقراء وكأنهم غير موجودين، بل إن مسئولا كبيرا (جدا) ينتابه الغضب إذا ذكر أحد أمامه «الفقر» و«البطالة» ويسارع سيادته دائمًا إلى التأكيد «أن الفقر مشكلة عالمية تعاني منها الدول جميعًا..»!! وهكذا ينقطع الحديث فلا ينصرف أبدا إلى مسئولية الدولة عن توفير الحياة الكريمة لمواطنيها ولا السياسات الاقتصادية التي تؤدي إلى إفقار ملايين المصريين ولا يمكن لأحد طبعا أن يتكلم عن تداول السلطة الذي يمكن الشعب من اختيار حكام جدد قد ينجحون فيما فشلت فيه حكامنا على مدى عقود.. على أن تجاهل النظام للفقراء لا يعني غفلته عنهم، فهذه الكتلة الهائلة من الفقراء تشكل خطرا داهما على بقاء النظام، إنها أشبه بمارد عملاق نائم لا يعرف أحد متى يستيقظ وقد انتفض المارد عدة مرات مطالبا بحقوقه فاهتز النظام بشدة، حدث ذلك في انتفاضة ١٩٧٧ وأحداث الأمن المركزي وأحداث كفر الدوار وغيرها.. وهنا يستعمل النظام القمع الوحشي للقضاء على التمرد بأي ثمن وهكذا الحال في مصر: أغلبية تم إفقارها وتهميشها وقلة من المنتفعين المحظوظين ونظام يتجاهل حقوق الإنسان بيد ويقمعهم بيده الأخرى. فإلى متى تستمر الحال؟!.. لا أظنها تستمر طويلا.

حكاية نتنياهو:

قال موشي ديان ذات مرة: «ما أرى يوما ما حاكما عربيا سابقا يقف على محطة أوتوبيس عام في بلده.. عندئذ فقط سوف أشعر بقلق على مستقبل إسرائيل». وكلمة ديان بليغة؛ فوجود حاكم سابق يعني التداول السلمي للسلطة وفي عالمنا العربي لا يوجد «حاكم سابق» وإنما لدينا «الحاكم الراحل» لأن حكامنا جميعًا يتمسكون بالسلطة حتى آخر نفس يتردد فيهم وهم يتركون مقاعدهم فقط إذا ماتوا. أو أخذ شخص ما على عاتقه مهمة إنهاء حياتهم، كما أن وقوف حاكم سابق على محطة أوتوبيس يعني أولًا أنه لا يخشى على نفسه من الاغتيال لأنه حكم الناس بعدل وأمانة وثانيًا أنه لم يجمع ثروة مستفيدا من منصبه.. ولقد تذكرت كلمة ديان وأنا أتابع المتاعب التي يعاني منها بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق هذه الأيام.. فللمرة الرابعة على التوالي تستدعي النيابة نتنياهو وزوجته سارة للتحقيق معهما بتهمة الفساد السياسي وإساءة استغلال النفوذ وقد استغرق التحقيق معهما وقتا طويلا وصل مرة إلى ثماني ساعات متصلة كما أمرت النيابة بتفتيش مكتب نتنياهو ومنزله الخاص أكثر من مرة بحثا عن أدلة تدينه.. أما التهمة الخطيرة التي يحاكم بسببها نتنياهو فهي «إنه أثناء توليه السلطة قام بتجديدات في منزله بواسطة مقاول إسرائيلي يدعى أفنير عمادي ولم يدفع رئيس الوزراء ثمن التجديدات التي قد تصل إلى ١٠٠ ألف دولار» ويدافع نتنياهو عن نفسه بقوله إن الرقم مبالغ فيه وإنه كان سيصل إلى تسوية مع المقاول عمادي على أي حال، لكن التهمة جدية وستؤثر على مستقبل نتنياهو السياسي وقد يُلقى به في السجن في حالة إدانته، وما يعتبره النظام الإسرائيلي «تهمة مشينة» لا نعتبره في بلادنا شيئًا مذكورا، ومائة ألف دولار مبلغ تافه يستطيع أي رئيس حي أو محافظ عندنا أن يستولي عليه بتأشيرة واحد كما أننا لا نعرف ولا نجرؤ على السؤال. كم يكسب أي مسئول كبير في مصر؟! ومن أين له كل هذا الثراء؟! وكم زادت ثروته بعد توليه منصبه؟! ولا يجرؤ أحد على مناقشة ظاهرة عمل أولاد كبار المسئولين في الأعمال الحرة وقدرتهم الفائقة على صناعة الملايين في أعوام قليلة وعلاقة ذلك بإساءة استغلال السلطة.. والفرق بين هنا وهناك هو الفرق بين نظام سياسي يكفل الشفافية ومراقبة المسئولين ونظام السلطة ونظام سياسي آخر يعتمد على القمع بقوانين الطوارئ واستفتاءات الـ٩٩٪ والمبايعة بالدم.. إنه الفرق بين الديمقراطية وسواها.

حنانيك.. يا مولانا!..

أصدر فضيلة شيخ الأزهر فتوى جديدة مفادها أن من حق المسلم أن يقترض من البنوك لينشئ مشروعا يعيش من أرباحه، أما أن يلجأ الشخص للحصول على قرض من البنك من أجل شراء سيارة جديدة أو تغيير شقته بأخرى أفضل منها.. فهذا أمر لا يجيزه الشرع ومن يفعل ذلك يكون مستحلا للربا ومرتدا عن دين الإسلام وتطلق منه زوجته ولا يصلى عليه إذا مات ولا يدفن في مقابر المسلمين، وقد ذاعت هذه الفتوى وأحدثت اضطرابا بين الناس.. وليس بمقدوري طبعا أن أناقش الشيخ الأكبر في أحكام الفقه لكنني والحمد لله مسلم أفهم الإسلام على أنه دعوة الحق والعدل فهل من العدل تكفير المسلم وتفريقه عن زوجته لأنه قرر أن يستبدل شقته بشقة أوسع؟! وما العمل إذا كان المسلم فقيرا (مثل ملايين المصريين) وتتكدس أسرته الكبيرة في شقة ضيقة خانقة؟ أولًا يحق لهذا المسلم أن يبحث لأولاده عن شقة مريحة، وهل من العدل أن نكفره عندئذ؟! وهل نكفر أيضا من يبحث لبناته عن سيارة صغيرة ليوصلهن بها بدلا من انتهاكهن في المواصلات العامة؟!!.. كما أن قروض البنوك فوائدها باهظة فلا يلجأ إليها إلا الفقراء المضطرون فهل من الإسلام أن نزيد من معاناة هؤلاء البؤساء بإخراجهم عن الدين لأنهم يريدون لأنفسهم معيشة آدمية لائقة؟!.. وأخيرا أتمنى من فضيلة شيخ الأزهر أن يبين لنا حكم الدين في ثلاث مسائل مهمة حقا:

ـ ما حكم الإسلام في تزوير الانتخابات العامة والوصول الحكم بغير إرادة الناس؟! وما حكم الشرع في قمع المواطنين وضربهم في أقسام الشرطة.

صفقوا الآن.. سكوت.. هنصوّر!(*)

فى الشهر الماضي سافرت إلى فرنسا بدعوة من مجلة «فكر الجنوب» (La pensée de midi) وهي مجلة أدبية تصدر في مدينة مرسيليا، واشتركت في ندوتين عن الأدب المصري ثم تلقيت دعوة للحديث في تليفزيون مرسيليا، وذهبت في الموعد المحدد مع المستشرق الفرنسي ريشار جاكمان، واندهشت لأننى وجدت التليفزيون يشغل مبنى عاديا بسيطا ولم تستغرق إجراءات الأمن ثواني معدودة قام بها ضابط مهذب مبتسم وطوال وجودى في التليفزيون الفرنسي لم أقابل شخصا واحدا لم يبتسم في وجهى ويبادرنى بالتحية، وفي الموعد المحدد بالضبط دخلنا إلى الأستديو، وكانوا يناقشون على الهواء التأمين الصحي المنزلي في مرسيليا، وهو نظام يتمكن فيه المريض من تلقى العلاج في منزله إذا شاء، وقد استضافوا الأطباء المسئولين عن التأمين الصحي ليدافعوا عنه ومعهم معارضون لهذا النظام ليقدموا الأدلة على وجود عيوب في تنفيذه وجرت بين الطرفين مناقشة عنيفة لكنها موضوعية ومهذبة، ثم جاء دورنا في الحديث وقلت لنفسى ماذا يعرف هذا المذيع الفرنسي عن الأدب المصرى؟ وتوقّعت منه أسئلة ساذجة لكنني فوجئت بأنه قد أعد نفسه جيدا فتبين أنه قرأ الترجمة التي قدمتها مجلة فكر الجنوب لنماذج من الأدب المصري بل وقرأ الدراسة التي كتبها ريشار جاكمان عن الواقع الأدبى في مصر.. أي أنه أنفق ساعة أو ساعتين في القراءة الجادة ليعد نفسه لحوار لا يزيد على عشر دقائق، وكانت النتيجة أن الدقائق المعدودة التي ظهرنا فيها كانت كافية لإعطاء المشاهد الفرنسي فكرة مختصرة لكنها دقيقة عن اتجاهات الكتابة المصرية.. ثم عدت إلى مصر وبعد أيام اتصل بي صحفي صديق ليدعونى إلى الحديث

(*) العربي ٢/ ٥/ ٢٠٠٤.

في قناة فضائية مصرية، وقال لي إن الموضوع سيكون ظاهرة إقبال الشباب المذهل على مسابقة «ستار أكاديمي» التي تقدم إليها المتسابقون من كل البلاد العربية وأسفرت آراء ملايين المشاهدين فيها عن فوز الشاب المصري محمد عطية ليصبح، بين يوم وليلة، نجما يتمتع بجماهيرية ساحقة دفعت ما يزيد على ١٥ ألف شاب إلى انتظاره في مطار القاهرة، أعجبتنى فكرة البرنامج وعكفت على قراءة ما كتب عن الموضوع، وذهبت إلى التسجيل في الموعد المحدد، فوجدت معي ضيفين محترمين: رجلا مهذبا للغاية عرفت أنه مسئول جامعى كبير، أما الضيف الثاني، وسوف أرمز إليه بالسيد «واو»، فهو مثقف شهير عرف بآرائه السياسية الموالية للولايات المتحدة وعدائه الشديد للأفكار الناصرية واليسارية بصفة عامة، كنت أعرف السيد «واو» من قبل فجلسنا نتحدث قبل التسجيل وقلت له إن مصر قد وصلت إلى الحضيض في المجالات كافة، ولا بد من الإصلاح فورا لأن الديمقراطية هي الحل الوحيد، ووافقني السيد واو على رأيي بحماس وقال بالحرف: «إن النظام المصري كانت لديه فرصة ذهبية لإصلاح نفسه منذ عشرين عاما أما الآن فأخشى أن تكون الفرصة فاتت لأن الفساد صار أقوى مؤسسة في الدولة كلها..».. ثم جاء من يدعونا إلى التسجيل وما إن دخلت إلى الأستديو حتى بدأت ألاحظ مجموعة من الظواهر الغريبة: فقد تبين أن البرنامج الشهير يستأجر مشاهدين من طلبة الجامعة مقابل ظهورهم في التليفزيون ومكافأة خمسين جنيها لكل طالب، وفوجئت بمساعد المخرج وهو شخص طويل يتكلم بحدة وعدوانية ويبدو معتكر المزاج ومتوترا للغاية (وكأنهم أيقظوه من النوم ليطفئ حريقا) ويزيد من رهبة منظره أن رأسه، كلها تقريبا، مغطاة بأسلاك ملونة متداخلة لا يعلم أحد وظيفتها بالضبط، وقف المساعد الرهيب أمام الطلبة الكومبارس وصاح فيهم: «سمَّعوني تصفيق جامد»..

وصفق الطلبة بقدر استطاعتهم فبدا على المساعد الغضب وأنذر وجهه بسوء العاقبة وأوقفهم بإشارة من يده وصاح فيهم بصوت كالرعد: «لا ياحبيبي انت وهو.. التصفيق ده ما ينفعنيش.. باقول عاوز تصفيق جامد». وكادت دمدمة معترضة تنطلق من أحد الطلبة لكنها تلاشت وأذعن الطلبة جميعًا للأمر وبدءوا فاصلا من التصفيق الهستيرى العنيف وعيونهم معلقة بالمساعد الذي حذرهم من إيقاف التصفيق قبل أن يسمح لهم، ثم أعطى إشارة البدء فنزلت السيدة المذيعة على درجات سلم طويل حلزوني تم تركيبه بحيث تنزل ببطء ودلال أمام الكاميرا وعندما «تفاجأ» بعاصفة التصفيق

المتواصل تنحنى بخجل وتواضع كما يفعل الفنان الكبير أمام جمهوره الحبيب، وظل الطلبة المساكين يقطعون أيديهم من التصفيق نحو ثلاث دقائق كاملة.. حتى أشبعت المذيعة رغبتها في إظهار تأثرها، عندئذ أشار المساعد إلى الطلبة فتوقفوا عن التصفيق وبدأ البرنامج بمقدمة من المذيعة وتعريف بالضيوف (مع تصفيق الطلبة لكل ضيف بالأمر المباشر) وسألتني المذيعة عن رأيي في ظاهرة محمد عطية.. وبدأت أقول رأيي: إن الشاب المصري والعربي محروم من الاختيار أساسا في كل شيء فهو لا ينتخب من يمثله ولا ينتخب من يحكمه وهو فاقد الإحساس بالعدل أو بقدرته على تغيير أي شيء في بلاده وبالتالي فإن هذه المسابقة قد منحته فرصة لأن يشارك في اختيار أي شخص حتى ولو كان مغنيا أو راقصا، بل إن إحساس الشباب بأن الاختيار سيكون عادلا وغير مزور ربما يكون السبب في كل هذا الإقبال على التصويت، ولو تمت الانتخابات في أي بلد عربي بنفس الشفافية التي أجريت بها مسابقة ستار أكاديمي لأقبل ملايين الشباب على الانتخاب بنفس الحماس الذي صوتوا به لمحمد عطية.. كان هذا ملخص رأيي لكنني وقبل أن أنتهى من كلامى فوجئت بالسيد واو يصرخ في وجهي أمام الكاميرا:

«لأ..لأ.. كلامك غلط.. الشباب لا يقبلون على الانتخابات لأنهم سلبيون والعيب منهم.... أنا شخصيا أشارك في الانتخابات في مصر وأثق تماما في نزاهتها».

وفوجئت بهذا التغير المفاجئ في آراء السيد واو ونظرت إليه غير مصدق وحاولت أن أرد لكنه استمر في الصياح بصوت أعلى من السابق وأخذ يلوح بذراعيه أمام الكاميرا: «كلامك مرفوض.. أنا أرفض تحويل كل شيء إلى سياسة.. هذه مسابقة فنية لا دخل لها بالانتخابات.. هو كل واحد عنده مشكلة مع حكومته يقوم يهاجمها بمناسبة وغير مناسبة..» وجاهدت لكي أتحدث لكن السيد واو المدرب فيما يبدو على هذه المواقف أخذ يصيح ويقاطعني ويشوش على كلامي حتى أسكتني تماما.. وعندما توقف البرنامج في فاصل استراحة طلبت من المذيعة بهدوء أن تسمح لي بالتعبير عن رأيي فأجابتني ضاحكة: «رأيك ده ممكن يقفل لنا المحطة».. بل إن المساعد أوعز إلى شاب من الحاضرين فقام ليؤكد أننا نعيش أزهى عصور الديمقراطية والانتخابات تجرى دائمًا بنزاهة والحمد لله.

وهكذا فقدت أية فرصة للتعبير عن رأيي وتحدث السيد واو معظم الوقت وهمه كله أن يدفع عن الحكومة أي اتهام (نفس الحكومة التي صرّح لي قبل التسجيل بأنها مؤسسة فاسدة) أما المسئول الجامعي، المبتسم المهذب، فكان أمره عجبا.. فقد كان رأيه ضد مسابقة ستار أكاديمى بل وضد الفضائيات عموما بسبب مخالفتها لعاداتنا وتقاليدنا كما يعتقد، بل وأكد أن العري والرقص في الفضائيات هما السبب في انتشار الاغتصاب والزواج العرفي، فلما صرح بهذا الرأي قبل التسجيل ووجد أنه لا يصادف هوى في نفس الحاضرين، آثر السلامة ولم يتكلم إطلاقا تقريبا لكنه اكتفى بتوزيع ابتساماته على الموجودين وكلما عرف بأن شخصا يعمل بالصحافة أمسك بيده قائلا: «لماذا لا تزورنا في الكلية لتشاهدوا إنجازاتنا وتكتب عنها.. نحن في انتظارك يا أخي..».

وهكذا انتهى التسجيل فوجدتني مدفوعا إلى المقارنة: عشر دقائق في التليفزيون الفرنسي في منتهى الاحترام والجدية، مقابل ساعة ونصف الساعة من العبث والأكاذيب في الفضائية المصرية، والفرق هنا ليس إعلاميا ولا مهنيا لكنه الفرق بين نظامين، فالنظام هناك ديمقراطي والمذيع يهتم أساسا بإجادة عمله وليس بنفاق الحكومة، والمواطن هناك تربى على الصدق والشجاعة أما في مصر فإن ما حدث أثناء التسجيل يجسد مجموعة الأمراض الاجتماعية التي أصابنا بها الاستبداد: فهؤلاء الطلبة الذين يقبلون إذلال مساعد المخرج لهم مقابل بضعة جنيهات وظهورهم على الشاشة، قد تربوا في مؤسسات تعليمية قمعية وجامعات تحكمها مباحث أمن الدولة وتعمد النظام أن يربيهم بمنأى عن أية مشاركة جادة في قضايا بلادهم وقد تعلموا بكل أسف ألا يعترضوا على شيء خوفا من العواقب، بل إن آلاف الطلبة من زملائهم تجمعهم إدارات الجامعات ليصفقوا ويهتفوا بحياة الرئيس مبارك في المناسبات، وهذا المساعد الذي يستمتع بإذلال الطلبة لا شك قد تلقى نفس المعاملة على أيدي رؤسائه فهو يعيد إنتاج القمع الواقع عليه، وهذه المذيعة التي لا تجد أدنى حرج في الكذب والتمثيل على المشاهدين قد تربت في التليفزيون المصري حيث يتم إطلاق عبارات النفاق بدون توقف عن زعامة الرئيس مبارك التاريخية وإنجازاته العظمى والإجماع الدولي الذي يحظى به، أما المسئول الجامعي فهو موظف معين وليس منتخبا ومن هنا يخاف لو قال رأيا لا يعجب رؤساءه أن يفقد منصبه أو يمنع ذلك حصوله على منصب أعلى، وهو يتودد إلى الصحفيين ليكتبوا عنه من أجل تحسين صورته وضمان ترقيته، أما السيد واو

فهو نموذج لمئات وربما آلاف المثقفين في مصر، الأذكياء الموهوبين الذين يدركون جيدا عمق المأساة التي نحياها لكنهم يسكتون عن الحق ويقولون ما يعجب السلطة من أجل الحصول على الامتيازات وتحقيق حياة مريحة.. إن الأوضاع المتردية التي انحدرنا إليها في مصر سببها الأصيل والوحيد الاستبداد.. والديمقراطية، وحدها، هي القادرة على منح بلادنا المكانة اللائقة والمستقبل الذي تستحقه.

كلمات للتأمل:

* من تصريحات الرئيس حسني مبارك للصحافة العالمية:

«العالم كله، وخصوصا الشرق الأوسط.. أصبح أفضل بدون صدام حسين..»

جريدة الواشنطن تايمز

* «لا أستطيع أن أعيد السفير المصري إلى إسرائيل الآن لأن المتعصبين في مصر سوف يعملون مشاكل ومظاهرات.. أنا أنتظر الوقت المناسب..»

جريدة هيوستن كرونيكل

* «تطبيق الحرية والديمقراطية فورا في مصر سيكون له أثر سيئ. ماذا يحدث لو كسب المتطرفون أغلبية في البرلمان..؟»

جريدة لاريبوبليكا الإيطالية

* «ربما يفكر بعض أعضاء الكونجرس: ماذا تفعل مصر من أجل أمريكا؟ لقد فعلنا الكثير خصوصا في مجال معلومات المخابرات.. نفعل الكثير من أجل أمريكا.. لكن في صمت..»

جريدة نيويورك تايمز

فن تربية الأرانب(*)

قرأت من سنوات كتابا بعنوان «فن تربية الأرانب» كشف لي عن حقائق مدهشة: فقد تبين أن الأرانب أكثر الحيوانات خضوعا واستسلاما لقدرها وظروفها، فالأرنب لا يثور مطلقا مهما تعرض إلى الأذى، وهو يعيش ويموت في أقفاص مغلقة لكنه لا يضيق بالسجن لأنه ببساطة لا يعرف معنى الحرية وبالتالي لا يتوق إليها أبدا، والأرانب تنتقل من يد إلى يد بكل سهولة، فيكفي أن تمسك الأرنب من ظهره حتى ينقاد إليك تماما دون أي اعتراض، إن احتياجات الأرنب في حياته لا تزيد على ثلاثة أشياء: ركن آمن ينام فيه وطعام يشبع جوعه وأنثى يضاجعها.. وحتى هذه الطلبات البسيطة إذا لم تتوفر فإن الأرنب يتألم من الحرمان وقد يمرض ويموت لكنه لا يتمرد على وضعه أبدا.. الإذعان الكامل، إذن، هو القاعدة في سلوك الأرانب لكن بعض الأرانب، أحيانا، تسلك سلوكا مختلفا، ثلاثة أو أربعة أرانب ذكور في كل مائة أرنب تتمرد وتشاكس وتقاتل وقد تهاجم الأقفاص في محاولة للخروج إلى الحرية، هؤلاء المتمردون عددهم قليل لكن خطرهم عظيم على القطيع لأنهم قد يدفعون زملاءهم إلى مشاركتهم في التمرد، ويجب على مربي الأرانب الماهر ـ كما يذكر الكتاب ـ أن يحدد الأرانب المتمردة من البداية ثم يعزلها عن بقية القطيع ويضعها في أقفاص خاصة حيث يسعى المربي إلى إرضائها بتوفير الطعام اللذيذ وتقديم الإناث الجميلات، فإذا فشلت هذه الطريقة واستمرت الأرانب في إثارة الشغب فإن المربي يلجأ حينئذ إلى الحل الأخير وهو الإخصاء، فيتم نزع الخصيتين من كل أرنب مشاغب، عندئذ يتحول الأرنب الثائر إلى حيوان مخصي مستسلم وهادئ تماما وينصرف إلى لذته الوحيدة الباقية: الطعام، حيث يظل الأرنب

(*) العربي ٢٧/ ٦/ ٢٠٠٤.

المخصي يأكل ويأكل بلا توقف حتى يزداد وزنه للغاية وقد يموت أحيانا من التخمة.
تذكرت حياة الأرانب وأنا أشاهد الوقائع الغريبة التي تحدث في مصر هذه الأيام:

١ ـ في البلاد الديمقراطية يعرف المواطنون الحالة الصحية لرؤسائهم بمنتهى الدقة أما في مصر فإن صحة الرئيس مبارك تعتبر من الأسرار الحربية التي لا يجوز الإفصاح عنها أو يتم الكشف عنها بقدر محسوب، فقد قيل من شهور إن الرئيس أصابته أنفلونزا حادة جعلته يفقد توازنه في مجلس الشعب ثم قيل إن قدمه قد التوت وهو يصعد درجات السلم في موسكو ثم أعلن في النهاية أنه مصاب بانزلاق غضروفي ويحتاج إلى جراحة بسيطة ثم قيل إنه يمارس العلاج الطبيعى وأخيرا نشرت الصحف أن سيادته يخضع لعلاج طبي، بغير توضيح نوع هذا العلاج.. طبعا نحن نتمنى للرئيس مبارك الشفاء والصحة وأن يعود إلى مصر سليما معافى لكن من حق المصريين أن يعرفوا بصراحة ووضوح تام الحالة الصحية لرئيس الجمهورية، أولًا لأن المرض ليس عيبا ولا ينقص من هيبة الرئيس، فكلنا نمرض والرسول عليه الصلاة والسلام قد مرض وهو أشرف الخلق، وثانيًا لأن صحة الرئيس لا تهمه وأسرته فقط وإنما تهم ٧٠ مليون مصري تتعلق حياتهم بقرارات يصدرها سيادته وبالتالي فإن صحته تؤثر في حياتهم بشكل مباشر..

٢ ـ تضاربت القرارات في السلطة المصرية حتى صار الناس لا يفهمون ما يحدث.. فقد أعلن الرئيس مبارك فجأة أنه سوف يقيل وزارة عاطف عبيد آخر هذا الشهر وكتبت جرائد الحكومة تفاصيل التغيير المنتظر ثم سافر الرئيس للعلاج في ألمانيا فأذيع عندئذ أنه سيعين من ينوب عنه في الرئاسة ثم تم نفي ذلك بشدة (مع اتهام قناة الجزيرة كالعادة بترويج الأكاذيب) وفجأة فعل الرئيس ما كان قد نفاه من قبل ووقع مرسوما يعهد به إلى عاطف عبيد (الذى أعلن إقالته من أيام) بخلافته في إدارة البلاد حتى يعود إلى ممارسة عمله، وبعد ذلك بأيام اتصل الرئيس مبارك من ألمانيا خصيصا ليطلب من صفوت الشريف أن يترك منصبه كوزير للإعلام ويرأس مجلس الشورى... وهنا يثور السؤال ما سبب هذه العجلة في إقالة صفوت الشريف من منصبه؟! لقد احتل صفوت الشريف وزارة الإعلام لمدة ٢٢ عاما بحّت خلالها أصوات المصريين من أجل التخلص منه..؟! ولم يزد ذلك الرئيس إلا تمسكا به فلماذا الآن ولماذا على وجه السرعة..؟!.. ولماذا لم يتأجل الأمر حتى عودة الرئيس بالسلامة..؟ المحزن حقا أن

تبادل المقاعد وكل هذا الكر والفر يحدث في قمة السلطة المصرية بدون أي اعتبار لرأي المصريين ولا حقهم في معرفة أسباب إقالة أو تعيين من يحكمونهم.

٣ ـ وسط هذه المفاجآت يبرز طبعا اسم جمال مبارك، وقد صرح الرئيس مبارك من شهور بأن ابنه لن يشغل منصبا في الرئاسة، واستراح المصريون لكلام الرئيس لكن وضع الأخ جمال ظل كما هو بلا تغيير: صورته تحتل الصدارة يوميا في كل وسائل الإعلام وهو يرأس لجنة السياسات التي صنعت خصيصا من أجل أن يتمكن سيادته من محاسبة الوزراء وعلى رأسهم رئيس الوزراء نفسه.. وقد صار في حكم المؤكد بعد أن تولى صفوت الشريف مجلس الشورى أنه سوف يترك منصبه كأمين عام الحزب الوطني ليشغله من بعده جمال مبارك.. وهكذا، على العكس من كلام الرئيس مبارك، يواصل جمال مبارك مسيرته إلى أعلى السلطة.. ولا بد هنا أن نؤكد أن هذا الوضع لن يقبله أحد.. لأن مصر ليست عزبة حتى يورثها الأب لولده.. ومن حق جمال مبارك أن يرشح نفسه لأي منصب في الدولة ولكن بعد إجراء إصلاح ديمقراطي حقيقي يجعله على قدم المساواة مع أي مواطن آخر.. وفي هذه الحالة أشك كثيرا في قدرة الأخ جمال على الفوز في انتخابات حقيقية لأن خبراته ومهاراته السياسية لا تؤهله في رأيي لأي منصب في الدولة.

٤ ـ بتأثير الضغط الذي مارسته الدول الغربية من أجل الإصلاح في مصر لجأ النظام إلى عدة مناورات فتم تشكيل مجلس وهمي لحقوق الإنسان وإلغاء الأشغال الشاقة وعقدت عشرات الندوات وقيل كلام كثير عن ضرورة الإصلاح (من الداخل وليس من الخارج).. وفي هذه الأثناء نجحت الحكومة المصرية في عقد صفقة مؤسفة مع الولايات المتحدة تنفذ بمقتضاها رغبات أمريكا وإسرائيل في إرسال خبراء مصريين من أجل تدريب كوادر السلطة الفلسطينية على وسائل قمع المقاومة الفلسطينية، وبالمقابل، قامت أمريكا بتخفيف ضغوطها من أجل الديمقراطية وبدأت صور جمال مبارك تتصدر الصحافة الأمريكية كرئيس مصر القادم.. وفي هذه الأثناء عقدت انتخابات مجلس الشورى فكانت مزورة مثل كافة الانتخابات والاستفتاءات التي أجراها النظام حيث تم التلاعب في النتائج ومنع الناس من دخول اللجان وإنجاح مرشحي الحكومة بالقوة.. وقد دلّت مهزلة الشورى على أن النظام لن يتغير أبدا وأنه لا يرى أية ضرورة للديمقراطية أو العدل أو الحرية.. الحق أن النظام يعامل

المصريين كما يعامل صاحب المزرعة الأرانب التي يملكها، فهو يرى أن حقهم الوحيد ألا يموتوا من الجوع وهو لا يهتم إطلاقا بآرائهم أو إرادتهم ويرى أنهم لا يستحقون الديمقراطية وفي نفس الوقت يتوقع منهم الطاعة المطلقة، والمواطن الذي يتمرد على النظام يتم تطبيق سياسة صاحب الأرانب معه: الإغراء أو الإخصاء، وقيادة الحزب الوطني ولجنة السياسات وصحف الحكومة حافلة بأسماء مثقفين، كانوا في السابق أرانب متمردة فلما تم نقلهم إلى أقفاص جديدة والإغداق عليهم، وقد تخلوا عن تمردهم ودخلوا في طاعة النظام مقابل الامتيازات والحياة السهلة.. أما من يظل على معارضته فلا يكون أمام النظام، تماما مثل صاحب الأرانب، إلا إخصاؤه ويتم ذلك يوميا في المجازر البشرية في مباحث أمن الدولة والمعتقلات.. المتحكمون في هذا البلد يتصرفون في مستقبلنا وكأننا شعب من الأرانب، بلا كرامة ولا رأي ولا حقوق.. على أننا مسئولون لأننا نسمح لهم بذلك.. ولو أن كل المعترضين على الاستبداد والفساد رفعوا أصواتهم عاليا لاضطر النظام إلى احترام آدميتنا.. في مصر ملايين الوطنيين الشرفاء الذين يرفضون أن يتم تسليمهم من يد إلى يد مثل الأرانب، إن اختيارنا لمن يحكموننا حق طبيعي لنا وعلينا أن نضغط على النظام لتحقيقه.. عندئذ سوف يضطر إلى معاملتنا كمواطنين لهم حقوق.. وعندئذ فقط يبدأ المستقبل في مصر.

كلمات للتأمل:

* «تعذيب المواطنين في مصر يجري يوميا بطريقة بشعة في أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة وخلال ٥٠ يوما فقط.. تم قتل ٩ معتقلين من شدة التعذيب»

الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب

* «هدفنا الأول معاملة المتهمين بإنسانية.. تطبيقا لتعليمات الرئيس مبارك»

حبيب العادلى وزير الداخلية

* «مستشفى ميونيخ يشهد منافسة جميلة بين الأطباء وأفراد التمريض (وكلهم ألمان).. من أجل الانضمام إلى الفريق المعالج للرئيس مبارك..»

سمير رجب

* «رؤية الزعيم مبارك الثاقبة.. تتجلى في كل شيء حولنا..»

كمال الشاذلي

* «حسني مبارك يستعمل تهديد التطرف الإسلامي من أجل الإبقاء على شعبه في الأسفل بينما يبقى هو في القمة.. إنه يبلغ من العمر ٧٦ عاما ولو سمحت صحته سوف يبقى في الرئاسة لفترة أخرى»

مجلة نيوزويك الأمريكية

* أشكر الإخوة المواطنين وإن شاء الله نكمل مشوارنا مع بعض..»

الرئيس حسني مبارك

التجربة السويسرية(*)

ماذا يكون شعورك إذا حكمت عليك الظروف أن تكون في مكان منعزل تماما، يبعد عن بلدك بعشرات الألوف من الكيلومترات، وفي ذلك المكان المنعزل يقيم معك شخص يشتمك ويشتم بلدك والشعب الذي تنتمي إليه، وأنت لا تستطيع أن تغادر هذا المكان ولا أن ترد على من يهينك؟.. هذا بالضبط ما حدث لي خلال الأسابيع الماضية.. ونبدأ الحكاية من أولها:

(١)

بعد الحرب العالمية الثانية برز اسم الألماني لودفيج روولت كواحد من أهم الناشرين في أوروبا، ويكفي أن نعلم أنه كان ينشر إنتاج كبار الكتاب العالميين مثل جان بول سارتر وسيمون دو بوفوار وأرنست همنجواي وألبير كامو، وقد أحب السيد لودفيج راقصة فاتنة الجمال اسمها جين وتزوجها واشترى لها قصرا جميلا في بلدة لافيني في الريف السويسري بالقرب من چنيف، يقع القصر على هضبة بارتفاع ٧٠٠ متر فوق مستوى البحر ويشرف على بحيرة چنيف وجبال الألب وقد عاش الزوجان معا في منتهى السعادة حتى توفي روولت في عام ١٩٨٨ أثناء رحلة إلى الهند.. وهنا قررت أرملته جين أن تهب قصرهما في بلدة لافيني ليكون بيتا للكتّاب.

وبيوت الكتّاب نظام معمول به في الغرب منذ فترة طويلة حيث يتم استضافة الكتّاب لمدة معينة مع تقديم الأكل والشرب وتوفير الهدوء اللازم للإبداع، وبيوت الكتّاب نادرا

(*) العربي ٢٩/ ٨/ ٢٠٠٤.

ما تستضيف كتّابا غير غربيين حتى إن بعض البيوت في أسكتلندا وفرنسا تشترط بوضوح أن يكون الكاتب غربيا حتى تتم استضافته، لكن بيت الكتّاب في لافيني سار على طريق مختلف، فمن أجل تحقيق رغبة أرملة الناشر روولت تم تشكيل مجلس من أهم أساتذة الأدب في سويسرا وهنا لم يكن من الممكن تجاهل اسم فوزية أسعد، وهي مصرية عاشت في سويسرا ثلاثين عاما وتعمل أستاذة للأدب الفرنسي وتحظى باحترام السويسريين، وعن طريق فوزية انفتح بيت الكتّاب في لافيني ليستضيف كتابا عربا ومصريين، طبعا فوزية لا تملك إلا صوتا واحدا من ستة أصوات في المجلس لكن بدون وجودها، أشك كثيرا في أنه كان سيتم قبول أي كاتب عربي هناك.. وقد تقدمت بطلب إلى بيت الكتّاب في لافيني للإقامة لمدة ٣ أسابيع وأرفقت الطلب بنبذة عن التاريخ الشخصي والأدبي وبعض الترجمات لأعمالي، وتلقيت ما يفيد أنه تم قبولي للإقامة في بيت لافيني خلال شهر أغسطس، وخلال هذه الفترة ستكون هناك ليلة للقراءة حيث يأتي جمهور الأدب من أنحاء سويسرا ليستمع إلى الكتّاب وهم يقرءون أعمالهم الأدبية.

(٢)

وصلت إلى قصر لافيني يوم ٤ أغسطس وعرفت أن كل حجرة فيه تحمل اسم كاتب شهير وكان نصيبي في حجرة همنجواي مما أسعدني لأنه فعلا من أحب الكتّاب إليَّ، ثم أخذتني مشرفة البيت صوفي وهي سويسرية من أصل روسي حتى أتعرف على زملائي الكتاب في المجموعة: فرأيت لأول مرة الكاتبة النمساوية ليليان فاشينجر، وهي في الخامسة والخمسين وستلعب دورا مهما في الأحداث ثم رأيت الكاتبة الأسكتلندية أليسون فيل، سيدة في السبعين تحمل في حركاتها كل مجد الإمبراطورية البريطانية الغابر ولها هذا البرود الإنجليزي الشهير فهي قد تصمت لمدة ساعة كاملة، ثم تحرك رأسها ببطء لتنظر إلى السماء وتقول من أنفها على طريقة الأرستقراطية الإنجليزية:

«أوه.. ياله من طقس جميل».

وبعد أن تنتهي من هذه الجملة المهمة للغاية، تعيد رأسها إلى مكانها وتصمت ساعة أخرى على الأقل قبل أن تلقي بجملة مماثلة..

الزميلة الثالثة كاتبة في الأربعينيات اسمها أتيمة، وهي هندية هندوسية مقيمة في

لندن، وتنطق الإنجليزية بلكنة أمريكية مبالغ فيها ويبدو واضحا أنها تستمتع بذلك.. بقي الزميل الرابع، وهو كاتب مسرحي فرنسي مرموق اسمه كريستوف بوليه، تعرض مسرحياته في «الكوميدي فرانسيز»، وهو مثقف جدا ومحب للثقافة العربية لأنه نشأ في مرسيليا مع المهاجرين العرب، وهو أيضا حساس ومجامل ويساعد الناس دائمًا.

(٣)

كنت سعيدا بهذه التشكيلة المتنوعة من الكتّاب، وكلهم بالمناسبة أسماء لامعة في بلادهم وكان النظام اليومي في القصر أن ينفرد كل واحد بنفسه ليكتب في هدوء حتى الثانية ظهرا حيث نجتمع لتناول وجبة خفيفة ثم نقضي الوقت معا حتى نتناول العشاء في السابعة.

وقد لاحظت من اليوم الأول أن ليليان النمساوية وأليسون البريطانية تعاملانني ببرود وغلظة، فقلت لنفسي ربما يرجع ذلك إلى أنهما كاتبتان والمبدعون فنانون لهم أحوالهم الغريبة أو ربما لأن الغربيين من أهل الشمال لم يتعودوا على التعبير عن مشاعرهم مثلنا، لكنني لاحظت أن السيدتين تعاملان كريستوف الفرنسي بكثير من الود واللطف على عكس تصرفهما معي.. وسرعان ما بدأ التراشق: فلا يمضي يوم بغير أن تصرح ليليان بملاحظة تسيء إلى العرب والمسلمين، وفي البداية أخذت الأمر بجدية وهدوء وقلت لنفسي: هذه فرصة ذهبية لكي أشرح لهؤلاء الكتاب الغربيين الحقائق عن ثقافتنا العربية الإسلامية.. وقد جاءت ليليان أمام الجميع ونظرت إليَّ وتنهدت وقالت:

ـ لقد بدأت في قراءة الترجمة الإنجليزية لرواية.. «أصداء السيرة الذاتية» لكاتبكم نجيب محفوظ.. وقد أصبت بالإحباط وتوقفت عن القراءة.. لماذا يا ليليان..؟

ـ لأن نجيب محفوظ عربي وهو مثلكم جميعًا يحتقر المرأة وهو لا يرى فيها إلا مخلوقا جميلا يستعمل للمتعة الحسية.. وأنا كامرأة أوروبية لا يمكن أن أحترم هذا المفهوم.. ورددت عليها بهدوء:

ـ ليليان.. نجيب محفوظ كتب خمسين رواية فلا يجوز الحكم عليه من رواية واحدة.. كما أن الاحتفال بجمال المرأة لا يعني بالضرورة النظرة المتخلفة إليها وأستطيع أن أذكر

لك الآن عشرة أعمال أدبية كبرى من الغرب تحتفي بجمال المرأة.. كما أن أصداء السيرة الذاتية تجربة أدبية خاصة حيث كتبها محفوظ متأثرا بالصوفية وقاموس الصوفية خاص جدا ومختلف فالخمر عند الصوفية معناها الوجد في الحب الإلهي والمرأة الجميلة معناها الدنيا..أنصحك أن تقرئي هذا العمل بحرص.

ـ لن أقرأه

هكذا قالت ليليان وهي تشيح بوجهها في قرف..

وفي المساء جلست بجانب أليسون البريطانية فوجدتها تقول لمن يجلس بجوارها بصوت مسموع:

ـ أنا لا أفهم هذه العصابات الإسلامية في العراق.. إنهم يذبحون الغربيين أمام شاشة التليفزيون.. مع أن الإسلام يحرم التليفزيون.

ثم أطلقت ضحكة ساخرة جعلتني أستدير إليها وأقول:

ـ الإسلام لم يحرم التليفزيون وإذا كنت تقصدين ما تقوله حركة طالبان فهذه قراءة متعصبة وخاطئة للإسلام وهناك مثلها في كل الأديان.. لكن الإسلام الحقيقي ليس طالبان.. والذين يذبحون الغربيين يقاومون الاحتلال الأمريكي البريطاني لبلادهم، ورأيي أن هدفهم مشروع لكن طريقتهم خاطئة.. وهم في كل الأحوال لا يمثلون إلا أنفسهم وليس الإسلام وإلا.. فإنني لو طبقت منطقك على المتطرفين من اليمين المسيحي في أوروبا، الذين يقتلون المهاجرين العرب ويحرقون مساكنهم وهم فيها، هل أستطيع أن أقول هذه الجرائم تعبر عن العقيدة المسيحية؟

تكررت المناقشات يوميا بنفس الطريقة، كلام استفزازي عن العرب والمسلمين منهم، ومحاولة هادئة مني لشرح الحقيقة، ولاحظت مندهشا أن ما أقوله لا يصادف رضى لديهم بل إن ليليان، بعد كل مرة أدافع فيها عن العرب تزداد نفورا مني، وهنا أيقنت أنها عنصرية صهيونية متعصبة، وحاولت تفادي المشاكل وقلت لنفسي إنني أمثل مصر في محفل أدبي مهم ومن الخطأ أن أتهور في أفعالي حتى لا يقال إن كاتبا عربيا تصرف بطريقة غير متحضرة.. أما عن موقف بقية الكتاب من الإساءة للعرب فالحق أن كريستوف الفرنسي كان يؤيدني دائمًا في الدفاع عن الثقافة العربية وكان

يبين في وجهه أسى حقيقي كلما سمع من ليليان كلاما عنصريا.. أما «أتيمة» الهندية فكان موقفها متناقضا: فبيني وبينها كانت تهاجم ليليان وأليسون وتتهمهما بالعنصرية وتنصحني ألا أغضب لأنهما مجرد امرأتين متعصبتين، وفي نفس الوقت ما إن تراهما حتى تتودد إليهما بطريقة غير كريمة، وعرفت بعد ذلك أن أتيمة لها مطالب عند الكاتبتين في مجال النشر في ألمانيا وإنجلترا وأنها تجاريهما من أجل مصلحتها.

(٤)

لم يقتصر الكلام الاستفزازي على ليليان وأليسون.. فقد فوجئت بصوفي مديرة المنزل تسألني فجأة أمام الناس:

هل صحيح أن كل البنات في مصر يجرين العملية الجراحية..؟

أية عملية..؟

عملية ترقيع غشاء البكارة.. لقد عرفت أن البنات في مصر يستمتعن بحياة جنسية كاملة ثم قبل الزواج يجرين عملية ترقيع ليخدعن أزواجهن.

ـ هذا غير صحيح إطلاقا.

ـ لكن صديقة مصرية أخبرتني بذلك وأنا أثق فيها.

وقلت وأنا أبذل مجهودا لضبط نفسي:

قد تكون صديقتك المصرية هي التي أجرت عملية ترقيع لغشاء بكارتها وهذه مشكلتها.. لكنني أؤكد لك أن معظم البنات في مصر المسلمات والمسيحيات يمتنعن عن إقامة علاقات جنسية خارج الزواج.

ـ ولكن هذا ظلم واحتقار للمرأة.. كيف تحرمونها من الجنس ما دامت غير متزوجة..؟

قلت بهدوء:

نحن لا نحرم أحدا ولا نرغم النساء على شيء.. إنها ببساطة ثقافتنا التي نعتز بها..

وليس لديك دليل على أن الطريقة الغربية في إباحة الجنس خارج الزواج أفضل من طريقتنا العربية في الحفاظ على كرامة المرأة.

ـ هذه فكرة متخلفة للمرأة.

ـ العلم والعمل والحقوق المتساوية هي معيار تقدم المرأة في رأيي وليست الإباحية الجنسية، وإذا كان الجنس معيار التقدم لديك فما رأيك في جمعيات الجنس الجماعي وتبادل الزوجات المنتشرة في أمريكا..؟.. هل تقبلين الانضمام إليها أنت وزوجك حتى تكوني تقدمية..؟ ولماذا تخلفت بعض القبائل الإفريقية عن الحضارة بينما هم يتمتعون بإباحية جنسية كاملة..؟

وهكذا ظللت أياما أتلقى الضربات والأسئلة المهينة وأحاول بقدر إمكاني أن أرد بموضوعية.. ثم جاءت ليلة القراءة وكنت أحمل بعض القصص من كتابي الأخير «نيران صديقة» في ترجمة إنجليزية متقنة قامت بها الصديقة هالة كمال أستاذ الأدب الإنجليزي في آداب القاهرة، وأغلقت على نفسي وأخذت أمرن نفسي على إلقاء القصة التي اخترتها وعنوانها «مدام زتا منديس.. صورة أخيرة..» وهي تحكي حياة راقصة يونانية عاشت في مصر وتصف حياة العجائز الأوروبيين الذين قضوا حياتهم في مصر ورفضوا أن يهاجروا منها.

وفي الموعد المحدد دخلت إلى القاعة فوجدتها تغص بجمهور كبير من محبي الأدب الذين جاءوا من كل مكان في سويسرا ليستمعوا إلى كتاب العالم وهم يقرءون إنتاجهم.. ووزعت صورا من القصة على الحاضرين حتى يتابعوا القراءة، ودعوت الله في سري ألا يخذلني لأنني الكاتب العربي الوحيد في هذه المجموعة.. وكان ترتيبي الأبجدي يجعلني أول من يقرأ.. وبدأت في الإلقاء بالطريقة التي تمرنت عليها طوال النهار.. وما إن انتهيت من الكلمة الأخيرة في القصة حتى حدثت المفاجأة؛ فقد دوى التصفيق الحماسي في أنحاء القاعة أكثر من دقيقتين مما دفعني بعد أن جلست إلى النهوض من جديد لتحية الجمهور ورأيت وجه فوزية أسعد المصرية المخلصة يضيء بالسعادة وهي ترى أعضاء المجلس يندفعون إلى تهنئتي بل وتحلق حولي جمهور كبير من المهتمين بمصر والأدب المصري ظللت أجيب على أسئلتهم عن بلادي وأنا أحمد الله على هذا النجاح.. ولم أكن أدري ساعتها أن ذلك النجاح سيجر عليَّ متاعب كبيرة.

(٥)

بعد نجاحي في ليلة القراءة، تحولت ليليان إلى العداء الصريح ناحيتي.. وبعد أن انصرف الجمهور وجدتها في وجهي فقلت لها بدافع من الذوق:

لقد أعجبتني قراءتك الليلة يا ليليان فنظرت إلى شزرا وقالت:

في الواقع أنا أعرف أنني قدمت قراءة ممتازة.. وأنا لا أحتاج إلى رأيك.. فاحتفظ به لنفسك..

.. وهكذا تحول الأمر من المناقشات الاستفزازية إلى الإهانات المباشرة.. وفي اليوم التالي أبديت ملاحظة عابرة عن نظام الأوتوبيسات في الريف السويسري فإذا بالسيدة ليليان تقول:

ـ أنت يا مصري لا يعجبك نظام الأوتوبيس في سويسرا؟.. ماذا لديكم أنتم في مصر؟ أنتم عاجزون عن تنظيم أي شيء.. ليس لديكم إلا كلمة «إن شاء الله..».

وفي مناسبة أخرى قالت وهي تنظر إليّ بسخرية:

«سائق التاكسي في سويسرا لا يكون كذابا أو لصا إلا إذا كان تركيا أو إيرانيا.. أو شيئًا من هذا القبيل..».

وتحولت إقامتي إلى جحيم حقيقي.. وحاولت أن أتفادى ليليان لكنها ما إن تراني على مائدة العشاء حتى تعاجلني بكلماتها المهينة.. وحاولت جاهدا أن أبكر موعد العودة إلى القاهرة لكي أنجو من هذا الضغط العصبي لكنني لم أستطع.. وفي لحظة ما، قررت ألا أسكت على الإهانة وأرد لها الصاع صاعين وليكن ما يكون.. وفي نفس الليلة، على مائدة العشاء، قلت رأيا ما فإذا بها تقول لي:

ـ عموما أنا لا أتوقع من عربي أفضل من ذلك..

.. وهنا قمت من مكاني وقلت بصوت عال أمام الجميع:

ـ اسمعي يا ليليان أنت عنصرية كريهة وأنا لن أتحمل إهاناتك أكثر من هذا.. سوف

أكتب تقريرا عن الكلام العنصري الذي ترددينه ضد العرب والمسلمين.. وهو كلام يعاقب عليه القانون كما تعرفين.. ومن الآن فصاعدا إياك أن تكلميني وإلا فسوف أرد عليك بإهانات لن تنسيها أبدا.

سكت الجميع وكأن على رءوسهم الطير ما عدا أليسون البريطانية التي تدخلت لصالح ليليان طبعا فقلت لها بعنف وقد تخلصت من اللياقة تماما:

هذا الموضوع لا يخصك يا أليسون.. اسكتي أفضل.

وفعلا، قدمت شكوى رسمية لمجلس البيت ذكرت فيها نماذج من التصريحات العنصرية التي قالتها ليليان.. وظللت متوتر الأعصاب وأشعر بأسف وحزن على ما يحدث.. حتى إن كاتبة سويسرية تُدعى كارين كانت في زيارة عابرة إلى البيت وتعرفت إليَّ وشكوت لها من كل ذلك الهجوم العنصري الذي أعانيه، فتعاطفت السيدة الرقيقة معي ودعتني إلى بيتها حيث تناولت العشاء مع أطفالها الثلاثة وزوجها مارك الذي يعمل موظفا في الحكومة السويسرية، وكان الزوجان في غاية الرقة معي فقاما بدعوتي إلى حفل موسيقي ثم عادا بي إلى المنزل وعرضا عليَّ أن أبيت معهما وقال لي مارك:

إنني حقا أشعر بالأسف لأن كاتبا مصريا يزور بلادنا ليتعرف على ثقافتنا فيقابل أناسا عنصريين بهذه البشاعة.. أرجو أن تتأكد أن هؤلاء لا يمثلون بلادنا أبدا.

(٦)

في تلك الأثناء كان ثمة أصدقاء كبار يطمئنون عليَّ.. الروائي الكبير بهاء طاهر اتصل بي من جنيف وشجعني على موقفي قائلا: «أنت على حق لا يمكن قبول هذا الكلام عن العرب والمسلمين.. هل تعلم أنك لو قلت ربع هذا الكلام عن اليهود لانقلبت الدنيا عليك؟»..

.. أما الكاتب الكبير جميل عطية إبراهيم فقد اتصل بي من لوزان، وعندما عرف بالأمر قال:

«احترس.. لأن هناك من يغضبه أن يأتي كتّاب مصريون إلى هذا المكان فربما كان الأمر مدبرا فخذ حذرك لئلا يعتدي أحد عليك أو يلفق لك تهمة..».

وقضيت وقتا صعبا جدا فبعد تقديمي للشكوى انقلب معظم الموجودين عليَّ.. ليليان تزمجر بالألمانية كلما رأتني وأليسون تنظر إليَّ من فوق لتحت بعنجهية، أما أتيمة الهندية فقد انقلبت تماما، إرضاء لخاطر السيدتين.. صارت الهندية لا تكلمني أو فجأة تحدثني بطريقة مستفزة كأنما هي تتحرش بي حتى أهينها فينقلب الأمر عليَّ.. وظللت لمدة يومين جالسا وحيدا في غرفتي لا أريد أن أرى أحدا على أن أعجب موقف اتخذته مديرة المنزل صوفي التي حاولت إقناعي بشتي الطرق بأن الموضوع ليس فيه أية عنصرية وإنما مجرد سوء تفاهم بسيط ورفضت طبعا أن أتنازل عن الشكوى وأصررت عليها وجاءتني أليسون وقالت بغطرستها المعتادة:

ـ اسمع.. أنا أنصحك بقوة أن تتنازل عن الشكوى ضد ليليان.

فقلت:

ـ وأنا أنصحك بقوة أن تخرجي من هذا الموضوع وإلا سوف أقدم شكوى ضدك لأنك عنصرية أيضا.

(٧)

من تقاليد المكان أن يسجل كل كاتب في آخر إقامته في لافيني انطباعه عن الرحلة في كتاب الضيوف وتهتم الإدارة كثيرا بما يكتب فيه.. وقد حاولت صوفي مشرفة البيت أن تثنيني عن كتابة ما حدث لكنني تظاهرت بالموافقة وفي الدقائق التي سبقت رحيلي عن البيت سجلت كل ما حدث لي من مضايقات عنصرية في كتاب الضيوف.. وكتبت: إنني أتمنى ألا يتعرض أي كاتب عربي في المستقبل إلى هذه العنصرية التي لم أكن أتوقعها أبدا من كتّاب غربيين معروفين.

منذ أن انتهي هذا الكابوس ورجعت إلى مصر وأنا أفكر في هذا السؤال: لماذا يكرهنا بعض الغربيين إلى هذا الحد..؟

وما زلت لا أجد الإجابة..

حدث في أغسطس ٢٠٠٤

ملكيون أكثر من مبارك(*)

عندما اقترب عام ٢٠٠٥ من نهاياته قررت صحيفة الـ «فاينانشيال تايمز»، وهي واحدة من أعرق الصحف البريطانية ومن أكثرها تأثيرا واحتراما، أن تصدر ملحقا خاصا عن مصر ينشر خلال شهر ديسمبر، واقترح مراسلوها في القاهرة أن يتضمن هذا الملحق نصا جديدا للأديب علاء الأسواني ينتهج أسلوب «الفانتازيا السياسية»، الذي دأب على كتابته في صحيفة «العربي» من وقت إلى آخر، وكان تقدير مراسلي الصحيفة البريطانية أن النص الفانتازي يضفي تنوعا داخل الملحق في زوايا التناول، وأن حضور روح الفن فيه ربما يساعد على اكتشاف مناطق مجهولة في الحياة السياسية المصرية.

و.. هكذا طلبت إدارة التحرير من الأسواني المشاركة بفانتازيا سياسية جديدة عنوانها: مصر بعد ٥٠ سنة. وانتهى الأسواني سريعا من كتابة النص باللغة العربية، وترجمها أحد مراسلى الصحيفة البريطانية إلى اللغة الإنجليزية، وعلى عجل أرسل النص إلى مقر الصحيفة في لندن، وأخذ الذين اطلعوا على النص الأدبى في الثناء عليه، غير أن المسئول عن الملحق أبدى اعتراضا سياسيا مفاده أن نص الأسواني رغم أنه يتحدث عن مصر بعد نصف قرن ينتقد الرئيس مبارك، ويصف حكمه بالديكتاتورية، دون أن تكون رؤية الرئيس المصري معروضة على قراء الصحيفة.

وبدا الاعتراض غريبا، فلا يعقل أن يكون مطلوبا من أديب مصري معارض، تبني رؤى غير التي يراها، وأفكارا غير التي يعتقد فيها، وخيالا غير ما يشعر به، وكان الأولى بالصحيفة العريقة أن تستكتب غيره من أنصار النظام المصري في ذات الملحق، وحول

(*) العربي ٥/ ٣/ ٢٠٠٦.

ذات الموضوع، إذ ما أرادت أن تبدو متوازنة، أو غير متورطة في الصراعات السياسية المصرية.

والمثير للالتفات ـ هنا ـ أن تقاريرها من القاهرة دأبت على نشر انتقادات حادة لنظام الحكم الحالي، شأن تقارير صحف غربية أخرى، وهذا طبيعي ومشروع في تقاليد وأعراف حرية الصحافة، طالما أنها تلتزم بمعلومات مدققة وتستند إلى مصادر موثوقة تتحمل مسئولية ما تقول.

ولا نظن أن إدارة التحرير في صحيفة لها تقاليدها وتدرك أصول مهنتها طلبت ـ أبدا ـ من مراسليها أن يضمنوا كل تقرير انتقادي لنظام مبارك رد النظام عليه، هذه سذاجة مهنية، فالقصص الإخبارية تكتسب أهميتها وصدقيتها من دقة المعلومات الواردة فيها.

وإذا جاز أن نتحدث عن تعدد المصادر واستقصاء وجهات النظر المتعددة في التقارير الصحفية، فهذا مما لايجوز أصلا الحديث فيه عندما نكون أمام نص أدبي.

وقد اتصلت إدارة الصحيفة بالأسواني معتذرة عن عدم نشر الفانتازيا في الملحق، واعدة بنشره على صفحاتها الثقافية، مبررة ذلك بأن طبيعة المادة الأدبية ليست من طبيعة الملحق، رغم أن التكليف صدر بطبيعة الأدوار والمهام عن مسئول الملحق متحمسا لاقتراح من مراسلي الصحيفة بـ«القاهرة».

وبعد أيام أرسلت إدارة الصحيفة شيكا بمكافأة خاصة على عنوان الأسواني في القاهرة، وبدت المكافأة نوعا من الاعتذار، فالنص لم ينشر، والأمر بدا محرجا لأطراف اقترحت ثم رحبت وأخذت تثني على العمل قبل أن تتراجع وتعتذر عن عدم النشر.

ويمكنك ـ الآن ـ أن تقرأ بنفسك النص، وأن تتعرف على الأسباب الحقيقية لمثل هذا التراجع الذي ينتقص من حريات التعبير في جريدة بريطانية عريقة بحجم «الفاينانشيال تايمز».

قد يبدو الاعتذار ـ في قراءة متسرعة ـ انحيازا من الصحيفة البريطانية لحكم الرئيس مبارك، أو بحثا عن توازن سياسي في المعالجات المهنية، وهذا الاستنتاج ـ بالذات ـ مستغرق في الوهم، فليس لدى الصحيفة البريطانية الشهيرة ما تخشاه من نظام الرئيس

مبارك، التي دأبت على انتقاده، ولا يعقل ـ من هذه الزاوية ـ أن تكون ملكية أكثر من مبارك، وربما آخر ما يعنيها أن تمنع نشر انتقاد لحكمه ينشر ـ هنا في مصر ـ أضعافه بصورة صريحة، فالوقائع أبشع من الخيال، والفساد ضرب نظام الحكم في الرأس، واليأس من الإصلاح السياسي والدستوري عند ذروته، والرئيس مبارك نفسه ـ في تصريحاته الأخيرة ـ يتنكر لوعوده الانتخابية بإجراء تعديلات واسعة في الدستور، أخذا في ترديد مصطلحاته القديمة، التي هجرها لنحو عام، التي تحذر من صياغة دستور جديد، وتقرنها بالفوضى، والأغرب أن الرئيس يقول ـ في هذه التصريحات ـ إنه أقنع وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس بأن التغيير في مصر يحتاج إلى جيل كامل، ولا نعتقد أن الصحيفة البريطانية توافق الرئيس مبارك على هذه التصريحات، أو ترى في المستجدات المصرية ما ينبئ عن اتجاه النظام السياسي فيها لتبني أجندة إصلاح سياسي ودستوري صريحة ومقنعة. وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا منعت الصحيفة البريطانية نشر النص الفانتازي؟ الأسواني طرح هذا السؤال على المفكر المعروف الدكتور جلال أمين، وصلاته عميقة وممتدة في الوسط الأكاديمي البريطاني، وكانت إجابته: «النص يضفي على الإسلام والمسلمين جمالا بأكثر مما تطيق نشره صحيفة بريطانية، ولو أنك صورت الإسلام والمسلمين بعد نصف قرن على النحو الذي يصورونه به الآن من تخلف وإرهاب وعداء للمرأة وتناقض مع القيم الديمقراطية، لنشروه فورا».

وهذا رأي لامع يستحق التأمل فيه، فقد تكون المشكلة الحقيقية الآن فيما يسمى بـ«صدام الحضارات»، أن النخبة الغربية تريد أن تفهم الإسلام والمسلمين على صورة نمطية سلبية تنطوي ـ أحيانا ـ على ازدراء وعنصرية، وأنها تطلب من المثقفين العرب أن يتحدثوا بما يريد الغرب أن يسمع، لا يريدون الحقيقة كما هي، وإنما يطلبون الصورة المتخيلة، والتى تبرر ـ في كثير من الأحوال ـ العدوان المفرط على الحقوق العربية.

ربما لا تصدق ـ أو لا تريد أن تصدق ـ بعض الأطراف الغربية النافذة أن مصر تستحق الديمقراطية حقًّا، وأن لها تاريخا وطنيا عريقا يؤهلها لنظام أفضل، الصورة المتخيلة تهيمن على التفكير الغربي، وتهمش فاعلية المحاولات الدءوبة من بعض نخب غربية لفك الالتباسات وشرح حقيقة التفاعلات الجارية في المنطقة العربية، فالعرب ليسوا إرهابيين، والإسلام عقيدة راسخة لا تؤثر فيها رسوم كاريكاتورية هازلة،

ومقاومة الاحتلالات في فلسطين والعراق مشروعة، ولكن الفكرة المسبقة تضرب أية احتمالات أو فرص لحوار صحي بين الثقافات، فلا حوار بين أحرار وعبيد، أو بين أصحاب مشروعات مهيمنة على المنطقة وشعوب مسحوقة في قضاياها القومية وفي حرياتها العامة. وهذا كله لا شأن له بموقف الصحيفة البريطانية من الرئيس مبارك، ولكن منع النشر - في حالة فانتازيا الأسواني - يزكي الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين، وعن العرب وقضاياهم، وربما ترى الصحيفة البريطانية - فيما هو مسكوت عنه - أن نظام مبارك هو التعبير الطبيعي عن شعوب متخلفة تعتقد في دين يرونه إرهابيا أو محرضا على الإرهاب، وأننا لا نستحق الديمقراطية وهنا - بالضبط - تبدو الفاينانشيال تايمز ملكية أكثر من مبارك.

هل المطلوب أن نسجد للرئيس مبارك؟(*)

من سنوات.. كان رئيس الوزراء البريطاني السابق چون ميجور يقوم بجولة انتخابية لإقناع المواطنين باعادة انتخابه، عندما اقتربت منه سيدة عجوز وصاحت في وجهه: يالك من كذاب وأفاق.. تريد أن تعرف رأيي فيك.. خذ.. ثم قذفته ببيضة نيئة في وجهه.. ونقلت الصحف ومحطات التليفزيون العالمية صورة رئيس وزراء إنجلترا ووجهه ملوث بالبيض.. لم يعتقل رجال الأمن السيدة العجوز وإنما اكتفوا بالالتفاف حول رئيس الوزراء لحمايته، وقالوا في تفسير موقفهم إن السيدة العجوز عندما قذفت چون ميجور بالبيضة النيئة كانت تعبر عن رأيها فيه.. وبالتالي فإن تصرفها، برغم خشونته، يقع في نطاق حرية التعبير ما دام لا يهدد حياة رئيس الوزراء.

أما في الولايات المتحدة فقد تعرض الرئيس چورچ بوش أكثر من مرة للشتم على الملأ ولعلنا نذكر كيف صاح المخرج السينمائي مايكل مور في وجهه ألا تخجل من نفسك؟ ومنذ أسابيع صاح به مواطن أمريكي أثناء مؤتمر عام: چورچ بوش.. أنت غبي وأحمق.. ولو كان ميجور وبوش مواطنين عاديين لكان القانون هناك قد عاقب من سبّهما فورا.. لكن انتقاد رئيس الدولة، حتى ولو شابه تجاوز، مسموح به في البلاد الديمقراطية، والغرض من هذا التسامح تحقيق المصلحة العامة... فالذين ينتقدون الرئيس لا يعرفونه وليست لهم معه مصلحة شخصية وإنما هم يعبرون عن رأيهم في سياساته التي تمس حياتهم ومستقبل أولادهم.. فهم هنا يمارسون حقا ديمقراطيا أصيلا ومن ناحية أخرى فإن كل من يتولى منصبا عاما عليه أن يتحمل قسوة النقد

(*) العربي ١٤/ ٥/ ٢٠٠٦.

كجزء من ضريبة منصبه.. وقد شكا أحد الوزراء للرئيس الأمريكي ترومان من شدة هجوم الصحف عليه فرد عليه ضاحكا:

«إذا أردت أن تبقى في المطبخ فعليك تحمل حرارة الفرن..». يريد أن يقول إن تحمل النقد من واجبات المسئول العام.. يحدث هذا في البلاد الديمقراطية أما عندنا في مصر.. فقد قام النظام بالقبض على عشرات الشباب الوطنيين لمجرد أنهم تظاهروا سلميا للتضامن مع القضاة الشرفاء في معركتهم من أجل الديمقراطية، أمر ضباط أمن الدولة جنود الأمن المركزي فضربوا الشباب ببشاعة ووجهوا لهم شتائم مقذعة ثم هتكوا أعراض البنات بأيديهم في عرض الشارع، وبعد ذلك اختطفوهم واعتقلوهم وأمرت نيابة أمن الدولة بحبسهم مددا طويلة ووجهت لهم تهم تكدير الأمن العام وإثارة البلبلة وتعطيل المرور.. وكلها تهم غريبة بلا أصل قانوني ابتدعها قانون الطوارئ لمعاقبة المعارضين للنظام.. فلا يعرف أحد متى يصفو الأمن العام..؟ وماذا يكدره في أن يعبر بعض الشباب عن رأيهم بطريقة سلمية ومتحضرة؟.. ولا نعرف معنى كلمة بلبلة هذه التي تستعملها وزارة الداخلية دائمًا للتنكيل بالأبرياء؟.. أما تعطيل المرور فهي تهمة هزلية حقا.. هل يكون جزاء من يعطل المرور الضرب والسحل وهتك العرض والاعتقال..؟

وإذا كان النظام حريصا إلى هذا الحد على انسياب المرور فلماذا لا يحاكم المسئول عن مواكب الرئيس مبارك التي تتسبب في تعطيل المرور في القاهرة كلها وحبس آلاف المصريين في سياراتهم ساعات طويلة حتى يتمكن الرئيس أو السيدة حرمه أو أحد أبنائه أو حتى أصدقاؤهم وضيوفهم من المرور بسلامة الله..؟.. أما أغرب ما وجهته نيابة أمن الدولة للشباب الوطني فهو تهمة إهانة الرئيس مبارك؟.. ولا أعرف ماذا فعل هؤلاء ليهينوا الرئيس..؟ هل لأنهم طالبوا بإلغاء قانون الطوارئ وإطلاق الحريات العامة..؟ هل لأنهم رفضوا أن يورث المصريون من الأب إلى الابن وكأنهم أغنام أو دواجن..؟ هل لأنهم تضامنوا مع القضاة الشرفاء الذين رفضوا أن يشتركوا في تزوير الانتخابات، هل في كل ذلك ما يهين الرئيس..؟.. هل المطالبة بالحق والعدل إهانة للرئيس مبارك..؟.. ما هو المطلوب منا نحن المصريين..؟.. هل المطلوب أن نسجد للرئيس مبارك من دون الله..؟ هل نتعامل معه باعتباره كائنا مقدسا لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه..؟ هل المطلوب أن نسبح بحمده ونتغنى بعبقريته كما يفعل المنافقون في الصحف الحكومية؟.. أليس من حق المصريين أن ينتقدوا تصرفات الرئيس مبارك وهو المسئول الأول عما يحدث في مصر..؟

يحكم الرئيس مبارك مصر لأكثر من ربع قرن بغير أن يخوض انتخابات واحدة صحيحة أو استفتاء واحدًا غير مزور.. وبالتالي فإن حكمه يفتقر إلى الشرعية لأنه ليس رئيسا منتخبا من المصريين.. وقد أدت سياساته الفاشلة ببلادنا إلى الحضيض في كل المجالات، ملايين المصريين يعيشون تحت خط الفقر في العشوائيات، بطالة وفقر ومرض بلا أي أمل في المستقبل..أليس الرئيس مبارك مسئولا عن كل ذلك..؟ هل إذا تساءلنا عن مصدر الثروة الطائلة التي ينعم بها جمال وعلاء مبارك.. يتهموننا بإهانة الرئيس؟؟ الرئيس مبارك يقترب من سن الثمانين وهو لا يريد أن يترك السلطة بالرغم من أعراض السن المتقدمة التي تظهر عليه بوضوح.. وهو في نفس الوقت لا يريد أن يتيح للمصريين حقهم الطبيعي في انتخاب من يحكمهم بل ويعمل مع نظامه على توريث مصر لابنه جمال العاطل عن أي موهبة أو خبرة سياسية.. هذه هي الحقيقة.. فهل صارت الحقيقة بمثابة إهانة للرئيس مبارك..؟

* * *

سافرت الشهر الماضي إلى نيويورك، مدعوًّا من مهرجان القلم الدولي وهو مؤسسة ثقافية مستقلة، أنشئت بغرض تقديم الأدب العالمي للقارئ الأمريكي.. وقد حضر المؤتمر ١٣٠ كاتبا من ٦٠ دولة مختلفة، معظمهم من الكتّاب المرموقين مثل أمين معلوف اللبناني وأورهان باموق التركي والنيچيري شينوا أشيبي وبعضهم حاصل على جائزة نوبل في الآداب مثل توني موريسون الأمريكية السمراء ونادين جورديمر من جنوب إفريقيا.. وقد شاركت خلال المؤتمر في محاضرتين، واحدة عن الإيمان والمنطق والأخرى عن المدينة والرواية.. واستمتعت برفقة الزملاء الكتّاب وخضت معهم مناقشات مفيدة في موضوعات مختلفة.. ولما كنت الكاتب المصري الوحيد فقد فوجئت بهم ذات صباح يسألونني بانزعاج: ماذا يحدث في مصر؟

كانت صحيفة النيويورك تايمز، أكبر الصحف الأمريكية، قد نشرت على صفحتها الأولى صورة لمجموعة من جنود الأمن المركزي وهم ينهالون ضربا على متظاهر مصري، كانت الصورة مؤثرة جدا، فالجنود المحصنون بالدروع الحديدية يرفعون أيديهم بالهراوات ليضربوا بكل قوتهم الشاب المسكين الذي يبدو أنه حاول أن يهرب من مصيره فلم يفلح فسقط على الأرض وحاول أن يحمي رأسه بيديه وقد بان على وجهه فزع بالغ.. ومع الصورة نشرت الصحيفة موضوعا كبيرا عن معركة

الديمقراطية المحتدمة في مصر.. حكت فيه عن موقف القضاء العظيم في الدفاع عن استقلال القضاء ونزاهة الانتخابات والحريات العامة.. وقد أثار ما نشرته الصحيفة ضمائر الكتّاب الحاضرين فأعلنوا جميعًا تضامنهم مع القضاة المصريين.. على أن كاتبة صديقة أمسكت بالصورة وقالت بتأثر:

«إن ضرب إنسان أعزل بهذه الوحشية لا يمكن أن تقدم عليه إلا سلطة احتلال..»

فكرت في الكلمة وتساءلت: لو أن مصر محتلة من جيش أجنبي هل كان سيفعل بالمصريين أسوأ مما يفعله بهم النظام الحاكم في مصر..؟ كم كان عدد المعتقلين تحت الاحتلال البريطاني وكم عددهم تحت حكم مبارك..؟ هل كان الجنود البريطانيون يهتكون عرض المصريات عندما يتظاهرن ضد الاحتلال..؟ كم معتقلا تم تعذيبه على أيدي الإنجليز وكم واحدا يتم تعذيبه كل يوم على أيدي ضباط أمن الدولة المصريين..؟.. إن ما يفعله النظام المصري بمواطنيه، بكل أسف، أسوأ بكثير مما فعله الاحتلال البريطاني... إن ما يحدث الآن في مصر مواجهة سافرة بين الباطل والحق.. نظام فاسد مستبد، أسوأ من الاحتلال، لم يعد لديه ما يقدمه إلا المزيد من الظلم والقمع.. ووطنيون شرفاء، يقودهم قضاة عظام تحولوا فعلا إلى أبطال قوميين سوف تكتب أسماؤهم في سجل الشرف إلى الأبد.. إنها معركة تحرير مصر من الظلم والقمع والفساد.. إن واجبنا الوطني أن نساند القضاة بكل قوتنا ومهما يكن الثمن.. كلنا، الأحزاب والنقابات والمثقفون والمهنيون، على اختلاف الانتماءات والتوجهات.. علينا أن نساند القضاة في المعركة التي يخوضونها ضد الاستبداد.. حتى تتحقق الديمقراطية وتولد مصر جديدة. عادلة وحرة، تحترم آدمية أبنائها وتعيد إليهم حقوقهم المهدرة.

كلمات للتأمل:

* «هناك من يهاجم الرئيس مبارك.. لأنه يحلم بالقبض عليه..»

علي الدين هلال لجريدة روز اليوسف

* «منذ بداية هذا العام.. توفي ١٣ مواطنا من التعذيب في قسم المنتزه فقط، بخلاف من ماتوا في الأقسام الأخرى..»

جريدة الكرامة

* «ما إن دخلت إلى مقر أمن الدولة حتى سمعت الصراخ من حولي، علقني المخبرون من يدي في السقف وأخذوا يضربونني حتى كدت أموت ثم جاءوا بعصا سوداء بها مسمار كهربائي وأدخلوها في مكان حساس في جسدي»

الطفل عبد الرحمن صلاح عبد القوي ١٤ عاما لجريدة صوت الأمة

* «ما إن تدخل إلى مقر أمن الدولة في لاظوغلي حتى تستمع إلى أصوات الصعق بالكهرباء وصرخات مدوية من أناس يتوسلون طلبا للرحمة التي انعدمت ممن يعذبونهم»

من شهادة معتقل سابق لجريدة الإندبندنت البريطانية

* «الرئيس مبارك يجري يوميا أكثر من ٢٠ اتصالا هاتفيا للاطمئنان على الخدمات المقدمة للمواطنين»

جريدة الأهرام

عن الرئيس مبارك وأصدقائه الإسرائيليين..(*)

(١)

كلما زرت فرنسا ألح عليَّ السؤال ذاته.. هذه المرة قضيت فيها عشرة أيام، مدعوا من دار النشر «أكت سود» التي أنشئت من ثلاثين عاما لتقديم الأدب العالمي إلى القارئ الفرنسي، وقد حققت نجاحا كبيرا حتى أصبحت من أهم دور النشر الفرنسية.. كانت الزيارة مفيدة وممتعة: حضرت مهرجانًا أدبيا كبيرا في «سان مالو»، وهي مدينة صغيرة تطل على المحيط لها طابع تاريخي وقد دمرتها القنابل تماما أثناء الحرب العالمية الثانية لكن الحكومة الفرنسية قامت بإعادة بنائها على نفس الطراز العتيق، أجريت لقاءات صحفية وإذاعية وندوات في أربع مدن أخرى هي باريس ومارسيليا وإيكس وأرل، ووجدتني كالعادة أتساءل: لماذا يتميز الفرنسيون بهذا الاهتمام العميق بالثقافة والفن؟.. كيف استطاعت الحكومات الفرنسية على مدى عقود أن تربي الناس على حب الجمال والفن؟.. لماذا لا يوجد في باريس كلها مبنى واحد لونه قبيح أو طرازه متنافر مع الطابع المعماري حوله..؟ لماذا لا يكاد يخلو مكان في فرنسا من لوحة فنية أو إناء زهور يضفي حوله لمسة جمال..؟ ما كل هذا الولع الفرنسي بمعارض الفن التشكيلي والحفلات الموسيقية..؟ هل يمكن أن ترى في مكان آخر مواطنين يشترون تذاكر من أجل حضور ندوات ثقافية أو ينتظرون طويلا في الطابور حتى يحصلوا على توقيع كاتب على كتابه.. مجرد توقيع وإهداء بسيط، قد لا يعني شيئًا عند الكثيرين لكنه عند الفرنسيين قيمة كبيرة، حتى إنك تجد رجلا فرنسيا يقترب من الكاتب ويقول بابتسامة:

(*) العربي ١٨/ ٦/ ٢٠٠٦.

«يا سيدي.. غدا عيد ميلاد ابنتي.. أحب أن أهديها كتابك مع توقيعك.. إذا تفضلت..».

ولا يلبث الرجل أن يتأمل توقيع الكاتب بإعزاز.. هذا الاحترام للثقافة والفن في رأيي علامة مميزة للحضارة عبر التاريخ ولم يكن الفرنسيون ليستطيعوا أن يبلغوا هذا المستوى من الرقي لولا الثورة الفرنسية التي وضعت أسس الديمقراطية منذ أكثر من قرنين من الزمان، إنها الديمقراطية التي جعلت المواطنين جميعًا سواء أمام القانون وعلمت الناس أن الحرية والكرامة من حقوق الإنسان الأساسية وأطلقت كل إمكانات الشعب فبلغ هذه الدرجة من التقدم والإبداع.. كل المثقفين الفرنسيين الذين قابلتهم يتابعون باهتمام معركة الديمقراطية المحتدمة الآن في مصر، كلهم يحترمون نضال القضاة المصريين العظام من أجل الديمقراطية، كلهم يعرفون الجرائم البشعة التي ارتكبها الجلادون في حق الشبان الوطنيين الذين تظاهروا لمساندة القضاة.. كلهم يدركون أن الاعتقالات والتعذيب وهتك الأعراض من الممارسات اليومية في مصر وأن الفساد والفقر نتيجة محتومة للاستبداد.. اللافت للنظر أن الوحيدين الذين دافعوا أمامي عن نظام مبارك كانوا صهاينة، مرة اشتبكت في نقاش مع سيدة فرنسية دافعت عن نظام مبارك بحرارة وتبين أنها صهيونية ونصف عائلتها تعيش في إسرائيل.. ذات صباح كنت أتحدث في إذاعة فرنسا الثقافية، وهي من أكثر الإذاعات المسموعة في فرنسا، ولاحظت بجواري في الأستوديو رجلا ضخما جاوز الستين يطالع أوراقا معه، عرفت بعد ذلك أن اسمه ألكسندر أدلر وهو يهودي فرنسي قضى معظم حياته في الحزب الشيوعي، وقد ظل ستالينيا متطرفا حتى انهار الاتحاد السوفييتي فتحول فجأة إلى معسكر اليمين وسرعان ما أصبح صهيونيا أمريكيا متطرفا أيضا، فهو يدافع عن حق إسرائيل المطلق في كل شيء: الاحتلال والاستيطان وقتل الفلسطينيين ومنعهم من حق العودة، ويدافع عن غزو العراق والعولمة وحق أمريكا في توجيه ضربات وقائية لأي بلد في العالم.. قرأ السيد ألكسندر وأنا جالس بجواره في الإذاعة، تقريرا عن أزمة التجارب النووية في إيران، ولاحظت نبرة العداء التي يتحدث بها حتى إنه استعمل مرتين تعبير الإرهاب الإسلامي. ثم جاء دوري في البرنامج وبدأ المذيع معي حوارا طويلا عن الأدب العربي وما إن تطرقنا إلى الأوضاع السياسية في مصر حتى فوجئت بالسيد ألكسندر يتدخل في الحديث، دون مناسبة قائلا بانفعال:

ـ أعتقد أن نظام مبارك، برغم عيوبه، ضروري للمنطقة من أجل حمايتنا من المتطرفين.

ورددت عليه قائلا:

ـ المصريون يستحقون الديمقراطية بغض النظر عن أي اعتبار آخر.

ـ إذا كان علينا أن نختار بين الديكتاتورية والتطرف الديني.. فلا شك أن الديكتاتورية أرحم بكثير.

ـ لماذا تفاضل بينهما وكأنهما شيئًان منفصلان.. إن التطرف نتيجة مباشرة للديكتاتورية.. والديمقراطية وحدها كفيلة بإنهاء التطرف..

ـ إذا وصل الإخوان المسلمون إلى الحكم.. هل سيسمحون لك بتأليف الروايات..؟

هكذا سأل متهكما فقلت له:

ـ إن ما تقوله يحمل تبسيطا مخلا بالواقع المصري.

احتدم بيننا الحوار على الهواء، ووفقني الله فأفحمت السيد ألكسندر وفضحت تعصبه المقيت بل وأظهرت جهله بمعلومات أساسية عن مصر بينما هو يدعي أنه خبير إستراتيجي كبير لا يبارى.. وتلقيت بعد البرنامج تحيات عديدة من أصدقاء ومستمعين عرب وفرنسيين لا أعرفهم، واكتشفت أنهم يعتبرون هذا الشخص متغطرسا وعنصريا وجاهلا لكنه مفروض على الإعلام الفرنسي بواسطة اليمين المتطرف، وما إن عدت إلى مصر حتى فوجئت بأن إسرائيل قد قتلت جنديين مصريين.. على أن مقتلهما فيما يبدو لم يقلق الرئيس مبارك كثيرا فلم يلبث أن استقبل بمنتهى الحفاوة، رئيس الوزراء الصهيوني إيهود أولمرت وتبادل الاثنان كلمات المحبة الدافئة وتعانقا في الصور كصديقين عزيزين وعندما سئل مبارك عن موضوع الشهيدين قال ببساطة إن أولمرت قد اعتذر لمقتلهما.. والإنسان يعتذر عادة إذا ذهب متأخرا عن الموعد أو نسي القلم الذي يكتب به أو حتى دهس دون قصد قدم جاره في الأوتوبيس.. أما عندما يتعلق الأمر بقتل شابين مصريين بريئين.. فإن كلمة الاعتذار تعتبر نفسها اعتداء جديدا على كرامة المصريين.. لكن ذلك لا يمكن طبعا أن يدفع الرئيس مبارك للغضب من أصدقائه الإسرائيليين فالعلاقة

الوطيدة بين مبارك وإسرائيل الآن أقوى وأوضح من أي وقت مضى.. نظام مبارك يرضي إسرائيل بكل طريقة حتى تتوسط لتخفيف الضغط الأمريكي عليه من أجل الإصلاح الديمقراطي. والصهاينة يدافعون عن مبارك لأنه حقق لإسرائيل أكثر مما حلمت به.. الإفراج عن الجاسوس عزام واتفاقيات الغاز والبترول وعودة السفير المصري إلى تل أبيب فضلا عن تدخل النظام المصري لصالح إسرائيل كلما طلب إليه ذلك، وحتى قبل أن يطلب إليه.. إسرائيل تعلم جيدا أن أية حكومة منتخبة تمثل إرادة المصريين ستكون معادية لسياساتها.. إن المصلحة الصهيونية تقتضي إبقاء مصر والدول العربية تحت حكم أنظمة فاسدة ومستبدة.. لأن انتصار الديمقراطية في العالم العربي سيكون بداية النهضة وفي نفس الوقت بداية النهاية لإسرائيل.

(٢)

أتمنى أن يقرأ سيادة المستشار أحمد هريدي رئيس محكمة جنح بورسعيد هذا المقال حتى أعبر له بالنيابة عن ملايين المصريين عن امتناني وعظيم احترامي.. المستشار هريدي أصدر حكما بتأييد الحبس سنة على ضابط شرطة قام بتعذيب مواطن بطريقة بشعة لمجرد أنه مشى في مظاهرة ضد حسني مبارك.. حكم شامخ عظيم.. أعرف أنه لا يجوز التعليق على حكم قضائي سلبا أو إيجابا.. لكن بعض الأحكام القضائية تسجل في التاريخ بحروف من ذهب.. معنى الحكم الذي أصدره المستشار أحمد هريدي أن الضباط المجرمين الذين يعذبون الأبرياء ويهتكون أعراضهم لن يتمكنوا بعد اليوم من الفرار من العقاب.. معنى ذلك أن مئات الألوف من ضحايا التعذيب على مدى ثلاثين عاما من حكم مبارك سيصبح من حقهم أن يلاحقوا الجلادين، مطمئنين إلى القضاء المصري العظيم.. لقد انضم أحمد هريدي بهذا الحكم إلى كوكبة المدافعين النبلاء عن الشعب المصري.. نهى الزيني وهشام البسطويسي ومحمود مكي وزكريا عبد العزيز والمئات غيرهم من قادة معركة الديمقراطية.. أتمنى أن تتواصل الملاحقة القضائية أمام القضاء المصري والدولي أيضا لكل من اعتدى على كرامة الإنسان المصري.. وأولهم حبيب العادلي نفسه المسئول الأول، بموافقة رئيس الدولة، عن هذه الجرائم البشعة.

(٣)

اليوم الأحد الموافق ١٨ يونيو.. يمثل الكاتب الصحفي الأستاذ وائل الإبراشي أمام محكمة الجنايات.. ليس لأنه ارتكب جريمة أو خالف القانون، ولكن عقابا له على وطنيته وشجاعته ونضاله من أجل الديمقراطية.. لا توجد قضية أصلا، فالأستاذ وائل لم يخترع شيئًا من عنده.. المصريون جميعًا يعلمون أن الانتخابات قد تم تزويرها لصالح الحكومة، وأن الناخبين تعرضوا للضرب والاعتقال والقتل أحيانا لمنعهم من الإدلاء بأصواتهم بل إن القضاة الذين أصروا على منع التزوير قد تم طردهم والاعتداء عليهم بواسطة أفراد الأمن.. ليس في هذا جديد وقد وثّقته عشرات التقارير من القضاة أنفسهم ومنظمات حقوق الإنسان.. لم يرتكب وائل الإبراشي إذن شيئًا يستوجب المحاكمة، لكن النظام الفاسد الذي يحمي كبار اللصوص ويترك ممدوح إسماعيل يهرب بعد أن قتل ألف شخص غرقا في البحر، لا يخجل في نفس الوقت من محاكمة صحفي شجاع قال الحقيقة.. النظام بعدما أخذ الإذن من البيت الأبيض، بشفاعة إسرائيلية، ارتكب أبشع الجرائم ضد مواطنيه في الشارع، وينقلب الآن للتنكيل بالكتاب الوطنيين.. تحية إكبار لصديقي وائل الإبراشي الذي أعرف مدى صلابته في الأوقات الصعبة.. إن المصريين الذين طالما دافعت عن حقهم في العدل والحرية والكرامة، يقفون اليوم كلهم معك.. وليس يوم محاكمتك إلا معركة أخرى بين الظلم والحق.

سوف تنتصر مصر فيها لتبدأ عصرا جديدا يليق بها.

حكاية الباشا والمتشرد العجوز(*)

هذه الواقعة شهدتها بنفسي في الإسكندرية: خرجت أتنزه ليلا على الكورنيش فوجدت رجلا جالسا على الرصيف، عجوزا لا يقل عمره عن ستين عاما، جسده ضئيل وثيابه رثة للغاية، كانت نظراته شاردة، وراح يتمتم بكلمات ما، ويهز رأسه.. فقلت لنفسي: ربما يكون مجنونا كأولئك المجانين الذين تعج بهم شوارع القاهرة، أو ربما هو فقير اضطربت أحواله على كبر فتشرد، وهام على وجهه.

فجأة توقفت سيارة شرطة من نوع «الدورية الراكبة» ونزل منها ضابط برتبة ملازم أول وأمين شرطة.

تقدم الضابط نحو المتشرد العجوز ودار بينهما حديث قصير، جملة واحدة أو جملتان ثم ارتفعت كف الضابط وهوت على وجه العجوز بصفعة قوية مصحوبة بشتائم بذيئة جدا.. أخذ الضابط يصفع العجوز على وجهه وقفاه ثم أمسك به من ياقة قميصه المهترئ ثم راح يركله بكل قوة في ساقيه وظهره حتى انحنى العجوز وتقلص وجهه من الألم وأجهش البكاء.. وأمر الضابط أمين الشرطة ففتح الشنطة الخلفية للسيارة وبدأ الضابط يدفع الرجل العجوز لينام داخل الشنطة، ولما أبدى العجوز بعض المقاومة عاجله الضابط بوابل من اللكمات على رأسه وهو يصيح: «نام بأقولك نام». وأذعن العجوز في النهاية وكور جسده الضئيل داخل الشنطة وتمكن الضابط من إغلاقها عليه.

كان بعض المارة قد تجمعوا بجواري فأخذ الضابط ينظر إلينا مزهوا ويبدو أنه لمح في

(*) الشعب ٤/ ١٠/ ١٩٩٦.

عيوننا بادرة اعتراض فترك السيارة واقترب حتى وقف في مواجهتنا تماما وبدأ يتفحصنا بطريقة تنذر بالمشاكل وفجأة صاح رجل بجواري: «الله ينور عليك يا باشا.. الناس دي حلال فيها ضرب النار!!» وأصدر الباقون أصواتا تنم عن الموافقة والتشجيع.

نظرت إليهم كانوا من البسطاء لا يزيدون كثيرا على المتشرد العجوز، القابع الآن في الشنطة، وكأنما اكتفى «الباشا» بهذا التأييد فابتعد وهو يقول بصوت رصين: «السلام عليكم».. فصاح الوقوف جميعًا بأعلى صوت ممكن «وعليكم السلام يا باشا ورحمة الله وبركاته.. ألف سلامة يا باشا».

انطلقت سيارة الدورية وما إن ابتعدت حتى سرت همهمة بين الواقفين ولم يلبث أحدهم أن صاح: «الضابط ده مفتري.. حرام عليه» وجاوبه الآخرون: «الرجل العجوز حيفطس في الشنطة».. «ده لو كلب ما يتعملش فيه كده».

واشتركوا جميعًا في لعن الشرطة والحكومة.

حدثت هذه الواقعة يوم ٢٠/ ٩ أمام شاطئ كامب شيزار بالإسكندرية وهدفي من كتابتها ليس مجرد التحقيق مع الضابط وعقابه فالموضوع في رأيي أكبر من تجاوز ضابط الشرطة.. هذه الحادثة تعكس أزمة حقيقية في مجتمعنا.. ما الذي يجعل ضابطا شابا يتصرف بهذه الوحشية؟! السبب هو مفهوم هذا الضابط للسلطة. إن السلطة في نظره تساوي القوة ولا بد لمن يتولى السلطة أن يمارسها بقمع الآخرين.

هذا المفهوم المنحرف للسلطة لا يخص الضابط وحده ولا حتى جهاز الشرطة كله.. إنه مفهومنا جميعًا للسلطة. إن شعبنا للأسف قد عانى طوال تاريخه من الاستبداد الذي ينتقل كالمرض الخبيث من السلطة التي تقمع إلى الشعب المقموع وبالتالي ينزع الإنسان المقموع إلى إعادة إنتاج القهر على من هو أضعف منه.

إن غياب الديمقراطية يصيب الشعوب بمجموعة كاملة من الأمراض النفسية والاجتماعية.. فعندما يستبد بنا طاغية لا بد أن نبحث بدورنا عمن هو أضعف منا لنمارس عليه الاستبداد.

إن الشعوب المحكومة بالطغيان يتوق كل واحد فيها لأن يكون طاغية صغيرا في بيته أو عمله أو حتى في الشارع.

هذه هي الصورة القاتمة أما الصورة المضيئة فتجدها في البلاد الديمقراطية لأن

الناس هناك يختارون بأنفسهم من يتولى السلطة فتكون السلطة عندئذ مرادفة للمسئولية والعدل وليس القمع، لا أحد هناك يخاف «الباشا» لأن العلاقة بين الناس و«الباشا» محكومة بقوانين صارمة لو خالفها الباشا فسوف يعاقب فورا وبشدة، الفرق بيننا وبينهم شاسع والإصلاح الديمقراطي هو البداية الوحيدة الصحيحة.

مركز مبارك للكوارث الطبيعية:

عندما ضرب الزلزال مصر عام ١٩٩٢، سارعت الحكومة بتشكيل لجنة عليا للتنبؤ بالزلازل قبل وقوعها ولم تلبث هذه اللجنة العليا أن تحولت إلى مركز كبير متخصص، وأراد الوزير المسئول أن ينافق الرئيس مبارك فقرر إطلاق اسم مبارك على المركز.. وفعلا قرأت ذات صباح في جريدة «الأهرام» إنه «تقرر إنشاء مركز مبارك للكوارث والزلازل» وضحكت حتى استلقيت على «قفاي» كما تقول العرب، لأن اقتران اسم الرئيس مبارك بالكوارث مسألة لا تليق بالمرة. بالإضافة إلى أنها تدعو إلى التشاؤم، ويبدو أن الرئيس قرأ الخبر وانزعج - وله الحق - من هذه التسمية العجيبة فنشرت «الأهرام» في اليوم التالي أن مركز الكوارث والزلازل لن يكون اسمه مركز مبارك. وأضافت الجريدة أن رئاسة الجمهورية أعطت تعليمات مشددة بعدم إطلاق اسم مبارك إلا بعد استشارة الرئاسة.

* * *

حرب أكتوبر تتحول كل عام من مناسبة وطنية عظيمة إلى مباراة في الطبل والزمر والنفاق، ملايين الجنيهات تهدر من أموال الشعب وخزينة الدولة المديونة من أجل إقامة مهرجانات سخيفة يتنافس فيها المغنون والراقصون لتقديم فروض النفاق لرئيس الدولة.

ناهيك عن مقالات كتبة الحكومة الذين يخلعون على الرئيس صفات لو صحت كلها لكان نبيا مرسلا والعياذ بالله، فالرئيس مبارك فيما يقولون: بطل الحرب وبطل السلام، وهو زعيم العرب وزعيم إفريقيا والعالم الثالث أيضا، ولولا الملامة لقالوا إن الرئيس زعيم العالم كله أو إنه أبو البشرية جمعاء!!

والمحزن حقا أن الجهد الذي بذله عشرات الآلاف من جنود مصر في حرب أكتوبر

يختزله المنافقون في دور الرئيس مبارك فحسب.. فتقرأ عن «عظمة» الضربة الجوية و«عبقرية» التوقيت الإستراتيجي الذي اختاره مبارك... إلخ. صحيح أن القوات الجوية بقيادة مبارك كان لها دور أساسي في النصر ولكن ماذا عن الأسلحة الأخرى؟! ماذا عن سلاح المهندسين الذي دمر خط بارليف؟!

ماذا عن الدفاع الجوي والمدفعية وبقية أسلحة الجيش؟!

لا أحد يتكلم عن هؤلاء لأن الرئيس مبارك ـ ببساطة ـ لم يكن فيهم. أتمنى أن يكون احتفالنا بنصر أكتوبر على مستوى هذه المناسبة الوطنية العظيمة.. بدلا من هذا النفاق الرخيص.

فضيحة الحباك.. مسرحية مملة!

كان عبد الوهاب الحباك مسئولا عن بعض شركات «قطاع عام» وجمع ثروة من المال الحرام عن طريق العمولات والسمسرة وبعد عشرين عاما كشفته الأجهزة الرقابية فأمرت بالتحقيق.

والذي يتابع الضجة المثارة حول الحباك يتصور أنه الموظف الوحيد المنحرف في مصر، وأن كل من عداه من المسئولين في منتهى النزاهة.. والواقع أن الحباك هذا تلميذ صغير في مدرسة الفساد أما أساتذة الفساد الكبار فكلنا نعرفهم ولا يجرؤ أحد على ذكرهم بكلمة، والسبب في ذلك أن كشف الفساد يحتاج إلى ديمقراطية حقيقية. وأدوات الديمقراطية هي: انتخابات نزيهة تؤدي إلى تداول السلطة ومجلس شعب منتخب فعلا وليس مفروضا بالتزوير والبلطجة، كما تقضي الديمقراطية بأن يعرف الشعب كل شيء عن المسئولين. في الولايات المتحدة قانون اسمه «حرية المعلومات» (Freedom Of Formation A C T) بموجب هذا القانون يستطيع أي مواطن أمريكي أن يحصل على أية معلومات حكومية بالبريد. فلو أردت أن تعرف مثلا كم يكسب بيل كلينتون كل عام، ما عليك إلا أن ترسل طلبا إلى الحكومة فيصلك رد رسمي مفصل عن ثروة رئيس الجمهورية قبل توليه السلطة وأثناءها.

أين نحن من هذا؟! والحال في مصر كما نعرف وملايين الفقراء يشاهدون «الكبار» يلعبون بالأموال وينعمون بالثروات الطائلة ولا يجرؤ أحد على الكلام.. وإلى أن تطبق

الديمقراطية في مصر تظل فضيحة الحباك وأمثاله مجرد مسرحيات مملة تخفي وراءها الفاسدين الكبار.

نتنياهو.. تاجر البندقية!

لم يفهم أحد نفسية اليهود كما فهمها وليم شكسبير سيد المسرح الإنجليزي، ففي مسرحية «تاجر البندقية» يرسم لنا شكسبير شخصية «شيلوك» المرابي اليهودي ليشرح من خلالها كيف يتعامل اليهود مع غيرهم بحقد وتعصب، إن شيلوك يقرض أنطونيو - بطل المسرحية - مبلغا من المال ويشترط في حالة عجزه عن السداد أن يقتطع رطلا من لحم أنطونيو الحي!! وهذا الشرط الشاذ يكشف مدى الحقد الذي يكنه اليهود لبقية الناس؛ إذ ماذا يفيد شيلوك أن يقطع من لحم أنطونيو؟! لا شيء إلا الرغبة في التشفي والاستمتاع المريض بألم الآخرين.

وفي مقطع عظيم من المسرحية يقول شيلوك لأنطونيو عندما يطلب منه قرضا: «عجبا يا سيد أنطونيو! ألا تذكر كم مرة سخرت مني أمام الناس؟! وكنت تراني صابرا على الدوام، لأن الصبر هو شعار ملتنا. إنك - يا أنطونيو - تدعوني كافرا وأحيانا تصفني بالكلب القذر وتبصق على ثيابي اليهودية، وسبق أن ركلتني بقدمك أمام عتبة بيتك كأنني كلب حقير. واليوم جئت إليَّ لأقرضك مالا.. أليس من الأفضل أن أرد عليك قائلا: وهل بوسع الكلب الحقير أن يقرض الآخرين مالا؟!».

هذا الشعور الدفين بالاضطهاد الذي يولد الحقد الأسود هو الدافع الحقيقي لجرائم إسرائيل في حق العرب والمسلمين، واليوم يذكرني بنيامين نتنياهو بـ«شيلوك» تاجر البندقية بكل حقده وشذوذه ورغبته في الانتقام.. والسيد نتنياهو لا يمثل نفسه فحسب، وإنما يعبر عن الشعب الصهيوني الذي جاء به إلى الحكم، إن الصهاينة يعتبرون القمع اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب وهم يهدفون إلى احتلال الأرض العربية كلها من النيل إلى الفرات، وهدم المسجد الأقصى، ويعملون في نفس الوقت لتحقيق السيادة الاقتصادية الإسرائيلية على كل العرب. هذه هي أهداف الصهيونية الحقيقية فهل ينتبه العرب وينفضوا عنهم أوهام السلام الزائف ليخوضوا معركتهم المصيرية؟!

أخلاق مندوبي المبيعات(*)

«لا يوجد في الدنيا أريح من كلمة حاضر» كان هذا شعار زميلي الدكتور مسعد، كنا نعمل معا كأطباء مقيمين في كلية طب الأسنان ولم يكن مسعد يعتبر نفسة طبيبا في الكلية أو الجامعة وإنما كان يتصرف باعتباره موظفا خاصا عند رئيس القسم.. كانت علاقته برئيسه غريبة حقا: فهو ينتظر مجيئة في الصباح ويحمل عنه أوراقه وحقيبته ويهرع أمامه إلى مكتبه. حيث ينفرد به وينقل إليه كل ما حدث في القسم أثناء غيابه وهو لا يتوقف لحظة عن مدح كل ما يفعله الرئيس أو يقوله أو حتى يفكر فيه. كان مسعد، ببساطة، مستعدا لتلبية كل ما يطلبه منه رئيسه بدءا من حجز تذاكر السفر وتوصيله واستقباله في المطار وحتى اصطحاب أولاد الرئيس من المدرسة والعجيب أن رئيس القسم كان يقابل إذعان مسعد بإساءة معاملته وإهانته وكان مسعد يلقى الإهانة بسكوته وابتسامة ذليلة. وقد حدث مرة أن أسرف رئيس القسم في إهانة مسعد أمامنا حتى إنه قال له «يا حمار» وانسحب مسعد وجلس وحيدا حزينا وذهبت إليه قائلا: كيف تسمح لأي شخص حتى ولو كان رئيسك في العمل بإهانتك على هذا النحو أنت طبيب ولست خادما عنده؟! ونظر مسعد إليَّ مليا قال: «أيهما أفضل؟!.. أن يشتمني رئيس القسم ويساعدني في الحصول على الماجستير أم يعاملني بكل احترام ويسقطني في الامتحان..؟!» ورفضت هذا المنطق الانتهازي وأكدت له أن كرامة الإنسان أهم من أية مكاسب يحصل عليها واتهمني مسعد بالرومانسية والمراهقة. ثم مرت الأيام وتركت العمل في القسم وسافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونسيت مسعد تماما حتى لقيته بالصدفة الأسبوع الماضي، كان يقود سيارة فارهة من أحدث طراز وقد بان عليه أثر الغنى والراحة وتعانقنا أنا وزميلي القديم وعلمت منه؟ أنه سبق جميع زملاءه في الحصول على

(*) الأهالي ٦/ ١٠/ ١٩٩٩.

الماجستير والدكتوراه بفضل رضا رئيس القسم الذي من فرط حبه لمسعد توسط له ليعمل في مستشفى استشاري بمرتب كبير. وأخبرني مسعد بزهو أنه سوف يفتح قريبا عيادة فخمة في المهندسين ولم يفته أن يذكرني بحوارنا القديم حول تمسك المرء بكرامته وسألني ساخرا: لو أنني استمعت إلى رأيك وتمسكت بكرامتي كطبيب وأغضبت رئيس القسم.. هل كنت أستطيع حينئذ أن أصل إلى ما وصلت إليه؟!

معايير مختلفة:

هذه الواقعة جعلتني أفكر أن النجاح في مجتمعنا لم يعد مرتبطا بإتقان المرء لعمله فقد نجح مسعد ليس لأنه نابغة ولكن لأنه عرف كيف ينافق رئيسه ويكسب رضاءه وأمام نموذج مسعد هناك عشرات الأطباء المتفوقين الجادين الذين يستحقون النجاح لكنهم فشلوا لأنهم تمسكوا بكرامتهم وأنا أعرف أطباء كثيرين بارعين حقا تقدمت بهم السن وما زالوا يكدحون طوال النهار في المستوصفات مقابل مبالغ زهيدة يسدون بها احتياجات أسرهم بالكاد والمؤكد أن التغير الاجتماعي الذي شهدته مصر تغيرت معه مفاهيم كثيرة.. فقد نشأت الحاجة إلى مهارات اجتماعية خاصة ينبغي توافرها في الإنسان الناجح وهذه المهارات أهم بكثير من إتقان العمل نفسه: إذا أردت النجاح في مصر الآن يجب أن تكون مرنا وعمليا وأن تسقط من ذهنك أي اعتبار معنوي أو أخلاقي قد يعطل صعودك، أن تعرف كيف تُرضي الرجل الكبير الذي يرأسك؟ أن تسمعه دائمًا بالضبط ما يريد أن يسمعه، أن تدهس بلا رحمة أو تردد كل من ينافسك أو يشكل خطرا عليك، أن تسعى دائمًا إلى صداقة الواصلين المهمين الذين سيفيدونك بدلا من تضييع الوقت في صداقات مع الصغار لا تحقق أية مصلحة.. هذا النموذج الفهلوي المنافق ابتكرت له اللغة الشعبية كلمة «حبوب» فالرجل الحبوب الذي ينجح ويتقدم الآن، أما أصحاب المبادئ الحريصون على شرف المهنة والكرامة فهؤلاء يتقهقرون إلى آخر الصفوف مهما اجتهدوا.

علاقات عامة:

المطلوب الآن أخلاق مندوبي المبيعات الذي يجد من واجبه أن يتحمل إهانات الزبون وأن ينافقه ويطاوعه في كل ما يقوله ما دام الزبون، في النهاية، سيشتري البضاعة بالثمن

المطلوب.. ولقد أدت هذه الأخلاق الجديدة إلى خلل مهني جسيم فأشهر المهنيين الآن في مصر ليسوا أمهرهم ولا أنبغهم وإنما أكثرهم نجاحا في العلاقات العامة وأقدرهم (أحيانا كثيرة) على النصب والابتزاز، وأشهر الصحفيين ليسوا أكثرهم موهبة وإنما أكثرهم دفاعا عن النظام ونفاقا لرئيس الدولة، بل أشهر الكتاب والشعراء أكثرهم ارتباطا بمؤسسة الثقافة الرسمية (بغض النظر عن قيمة إنتاجهم الأدبي) والمحزن أنه أمام كل شخص حبوب وناجح عشرات الألوف من شباب المهنيين الذين يعملون بإخلاص وجدية بغير تحسن ملموس في أحوالهم، وهم لا يفهمون بالضبط أين يكمن الخطأ؟ هذا الخلل الاجتماعي لا يرجع فقط إلى سياسة الانفتاح؛ فالرأسمالية الحقيقية برغم عيوبها تجعل تقدم أي مواطن رهينا بقدرته على العمل أما في مصر فقد تدهورت حالتنا لأسباب مختلفة أولها سيطرة العقلية العسكرية على مؤسسات الدولة بكل ما تحمله من تقاليد تصلح للجيش وليس للمجتمع المدني، فالاحترام المقدس للأقدمية وتنفيذ الأوامر مهما كانت بغير اعتراض أو مناقشة، كل هذا يصلح لميدان القتال وليس لإدارة مؤسسات مدنية وقد أدت «عسكرة» الدولة منذ قيام الثورة إلى استبعاد أصحاب المواهب والقدرات من المناصب المؤثرة التي يستأثر بها عادة الإمّعات والانتهازيون الذين يتقنون إرضاء الرؤساء كما أدى الاستبداد السياسي إلى خلق نمط «الطاغية الصغير» الذي يخضع تماما لرؤسائه ثم يعيد إنتاج القهر الواقع عليه وذلك بالتحكم المطلق في مرءوسيه وإذلالهم ومن ناحية أخرى فإن يأس الناس في مصر من الحصول على حقوقهم بطريقة عادلة وإحساسهم المؤلم بأن المنافسة الاجتماعية لم تعد نزيهة ولا متكافئة.. هذا الإحباط يدفعهم دفعا إلى الانتهازية والنفاق، وفي ظل هذه الأوضاع لا يمكن أن تحدث النهضة مهما حسنت نوايا الحاكم.. لقد أدى بنا الاستبداد إلى كوارث حقيقية وكل من يدرس وقائع هزيمة ١٩٦٧ أو طريقة اتخاذ القرار المصري في كامب ديفيد أو موقف مصر في حرب الخليج أو حتى طريقة خصخصة القطاع العام يتأكد له بشكل قاطع أن مصر لا يمكن أن تنهض بغير نظام ديمقراطي حقيقي يكفل تداول السلطة وإطلاق الحريات العامة وإنهاء حالة الطوارئ عندئذ تنطلق طاقات المصريين ومواهبهم ويشتركون في بناء بلاد عادلة وقوية. وهذه البداية الوحيدة الصحيحة للمستقبل.

في أوائل الثمانينيات، عندما رشح رونالد ريجان نفسه لفترة رئاسية ثانية (وأخيرة!) اعترضت بعض الصحف الأمريكية على إعادة ترشيحه وكتبت تصفه بأنه «عجوز مخرف ومصاب بفقدان الذاكرة!!»، «أما الرئيس جيمي كارتر فقد وصفته بعض الصحف بأنه «غبي لدرجة أنه لا يستطيع أن يمضغ لبانة ويحتفظ في الوقت نفسه بتوازنه أثناء المشي!» وكان بيل كلينتون من أكثر الرؤساء تعرضا لهجوم الصحف التي وصفته بأنه «مجرد دمية تحركها زوجته هيلاري» ثم أطلقت عليه بعد فضائحه الجنسية لقب «الرئيس ذو السوستة» (إشارة إلى أنه كان يفتح سوستة بنطلونه كلما اختلى بمونيكا).. هذا النقد اللاذع يوجه إلى رؤساء الدول الديمقراطية يوميا فلا يثير غضب أحد ولا يحبس أحد بسببه، وفي نفس الوقت، فإن أقل إهانة توجهها إلى كناس في الشارع هناك توقعك فورا تحت طائلة القانون.. وهذه التفرقة الدقيقة بين حقوق المواطن العادي وواجبات المسئول العام قد صارت راسخة في الغرب.. فواجب المسئول هناك أن يحتمل نقد الصحافة مهما كان قاسيا وأن يسعى للدفاع عن نفسه أمام الرأي العام وهو يعتبر الهجوم عليه واختراق حياته الخاصة نوعا من ضريبة العمل العام التي ينبغي أن يتحملها ولقد شكا أحد الوزراء الأمريكيين من هجوم الصحافة عليه إلى الرئيس هاري ترومان فأجابه ضاحكا «إما أن تتحمل حرارة الفرن أو تخرج من المطبخ..!» وفي فرنسا يرى فقهاء القانون أنه لا يوجد ما يسمى بقدسية الحياة الخاصة لكل من يتولى مسئولية في الدولة لأن من يتقدم للعمل العام لا بد أن يتحمل النقد مهما يكن قاسيًا. هذه هي الديمقراطية.

كلام عن رأس السمكة..(*)

هذه الواقعة حدثت في الإسكندرية في الصيف الماضي..

كنت جالسا أمام أحد فنادق القوات المسلحة على الكورنيش ورأيت سيارة تركها صاحبها في عرض الشارع بشكل يعوق المرور، وبعد قليل ظهر ونش المرور نزل منه ضابط شاب توقعت أن يسحب السيارة بالونش لكنه اقترب من جنود الحراسة الواقفين أمام الفندق وسألهم عن صاحب السيارة فأجابوه بأنها تابعة «لأحد السادة الضباط» فإذا بضابط المرور يسألهم:

ـ وده يبقى رتبته إيه؟

فأجابوا بأنهم لا يعلمون، وهنا فكّر الضابط قليلًا، ثم طلب منهم أن يبحثوا عن الضابط صاحب السيارة ويحضروه لينقل سيارته، وظل ضابط المرور منتظرا نصف ساعة كاملة حتى عاد إليه الحرس وأخبروه بأنهم لم يجدوا الباشا صاحب السيارة فما كان من الضابط إلا أن ترك سيارة الباشا مكانها وانصرف بهدوء.. وقد رأيت نفس الضابط في نفس الليلة يسحب بالونش سيارة مخالفة أخرى وقد هرع خلفه صاحب السيارة المسكين وأخذ يتوسل إليه حتى يتركها لكنه لم يعبأ به وأكمل سحبها بالونش.

هذه الحادثة الصغيرة التي تتكرر يوميا معناها ببساطة أن القانون في مصر يطبق على الصغار دون الكبار.. والمحزن أن المصريين صاروا يتقبلون الظلم كظاهرة عادية في حياتهم من طول عهدهم به.. فالضابط الذي لم يسحب سيارة الرجل المهم لا يعتبر ذلك إخلالا

(*) العربي ٢٩/ ٤/ ٢٠٠١.

بواجبه بل يرى هذا التمييز في تطبيق القانون من طبيعة الأشياء ومن حسن التدبير أيضا لأنه لو نفذ القانون على أصحاب النفوذ لأصابه أذى محقق أما البسطاء عديمو النفوذ فعليهم وحدهم ينفذ القانون بصرامة.. كتبت الروائية التشيلية إيزابيل الليندي مرة: «القانون في العالم الثالث يضعه الأقوياء ليحكموا به سيطرتهم على الضعفاء» ولا أجد خيرا من هذه العبارة لتصف حالتنا في مصر، وقد روّع الناس أخيرا من حادثة القتل التي وقعت في أركاديا مول.. أولًا: لأن المصريين طيبون يفزعون من القتل والتمثيل بالجثث وثانيًا: لأن القاتل والقتيل من علية القوم ونجوم المجتمع ولم يدر بذهن أحد أن المتعلمين الأغنياء أولاد الناس. يمكنهم أن يحملوا المطاوي والسنج مثل بلطجية الشوارع.. وقد كشف هذا الحادث بوضوح أن الأثرياء في بلادنا لا يخضعون للقانون الذي نعرفه ويطبق علينا.. فكيف يجوب مواطن الشوارع كل ليلة تحوطه عصابة من البلطجية المسلحين فلا يعترضهم شرطي واحد..؟ بل وكيف يدخل هؤلاء بأسلحتهم ليروّعوا الناس ويحطموا المطاعم والمقاهي ثم يعودون بعد ذلك إلى بيوتهم في أمان الله؟.. وقد تبين أن الشاب المتهم بالقتل سبق وأن حطم أماكن عامة عديدة واعتدى على رجل أعمال وزوجته حتى نقلا إلى المستشفى، بل إنه مرة لم يعجبه شكل أحد المواطنين ففقأ له عينه اليمنى «بسيطة»..!!» والمدهش أن حكما نهائيا بالحبس خمسة أعوام قد صدر ضد المحروس لكن أحدا. طبعا لم يجرؤ على تنفيذه لأن الكبير كبير ـ بالمقابل «ابتكر ضابط شاب في القليوبية منذ شهور طريقة جديدة لتنفيذ أحكام بالغرامة ضد الفلاحين فكان سيادته يربطهم بالحبال في سيارة الشرطة ويسحلهم على الأرض».. وعن جريمة أركاديا ذكرت الصحف شيئًا طريفا: فقد حاول حراس المطعم أن يمنعوا البلطجية من الدخول فلما عجزوا هرعوا ليستعينوا بأمين شرطة تصادف وجوده قريبا فلما دخل الأمين إلى المطعم ووجد المكان فخما والناس أكابر والمشاجرة شديدة والمتصارعين يتبادلون الطعنات بالسلاح الأبيض ما كان منه إلا أن فر هاربا بأقصى سرعة.. قد يعتبر البعض هروب الأمين مضحكا أو معيبا لكنني بصراحة أرى فيه منتهى الحكمة، فهذا الأمين رجل بسيط فقير وحياته بلا ثمن تقريبا وسط هؤلاء الكبار ولو أن واحدا من ميلشيات أركاديا المسلحة طعن هذا الأمين فأرداه قتيلا.. من كان سينفعه عندئذ؟ وماذا كان سيحدث بعد مقتله؟ لا شيء سوى أن تشيد الصحف بشجاعته في خبر صغير ثم تمنح وزارة الداخلية أرملته وأولاده مكافأة خمسمائة جنيه «تقتطع منها نسبة ١٥٪ ضرائب» ولو كان الأمين محظوظا «بعد موته»

ربما تستطيع والدته بعد التقدم بطلبات وأخذ موافقات عديدة أن تؤدي الحج على نفقة الحكومة.. وهكذا تضيع حياته عبثا.. كل هذا فهمه الأمين في لمح البصر فأطلق ساقيه للريح و.. يا أيها الأمين الحكيم حمدا لله على سلامتك وسلمت يداك «أو قدماك اللتان عدوت بهما» ولو أنني مكانك لفعلت مثلك.. فهؤلاء الكبار لا يخضعون لنفس القانون الذي يسري علينا نحن المصريين العاديين.. ويبقى سؤال مؤسف: لماذا يستشري الظلم في بلادنا إلى هذا الحد..؟

والإجابة جاءت من ألف عام في حكمة صينية تقول: السمكة تفسد من رأسها.. فمن أجل أن يسري القانون على الجميع لا بد لنا أن نبدأ من فوق.. من الطريقة التي تدار بها أعلى مناصب الدولة.. عندما يكفل القانون للناس حقهم في انتخاب حكامهم سوف يكتسب عندئذ القوة التي تمنع مخالفته.. عندما يكون وزراؤنا منتخبين سيكونون أحرص الناس على اتباع القانون لأنه في النظام الديمقراطي الحقيقي لا حصانة لأحد ويستطيع الناخبون لو أرادوا أن يقيلوا أكبر رأس في البلد عن طريق إسقاطه في الانتخابات.. إن الديمقراطية هي البداية الوحيدة الصحيحة لمستقبل بلادنا.. لن نتقدم أبدا إلا عندما نختار حكامنا بحرية. والغريب أن حكام مصر بعد الثورة جربوا فينا كل أنواع الأنظمة السياسية لكن أحدهم لم يفكر جديا مرة واحدة في منح الناس حريتهم واحترام اختيارهم.. إننا في مصر لا نطلب شيئًا كثيرا بل هو حق طبيعي للبشر.. فنحن نختار طعامنا وملابسنا ودراستنا وزوجاتنا أو أزواجنا.. فلماذا يستكثرون علينا أن نختار من يحكمنا؟ بالديمقراطية وحدها يتحقق العدل في مصر أما في ظل الانتخابات المعدة نتيجتها سلفا.. عندما تحتكر السلطة ثم تورث بدلا من تداولها، عندما يختار الحاكم وزراءه ويقيلهم فلا يعرف أحد لماذا جاءوا أو ذهبوا، عندما يكون نائب الرئيس حتما هو الحاكم المقبل، في ظل برلمان يرأسه فتحي سرور ويتزعم نوابه كمال الشاذلي.

عندئذ لا بد لضابط المرور أن يسأل عن رتبة صاحب السيارة قبل أن يسحبها ولا بد أن تحدث جريمة أركاديا ولا بد لأمين الشرطة أن يهرب ولا بد لي أن أحييه على تصرفه الحكيم.

* * *

كان والدي المرحوم عباس الأسواني أديبًا معروفا ومحاميا ينتمي إلى جيل عظيم من

المحامين المصريين الذين مارسوا المحاماة باعتبارها رسالة حق وليست مشروعا تجاريا، ويضيق المجال عن حالات كثيرة رأيتها بنفسي تولى أبي فيها الدفاع مجانا عن متهمين في قضايا معقدة لأنهم فقراء ومظلومون وحالات أخرى اعتذر فيها عن عدم تولي قضايا كانت ستدر عليه مالا وفيرا لأن ضميره المهني لا يسمح «مثل قضايا المخدرات والدعارة وخلافه» وقد ظل عباس الأسواني حتى اليوم الأخير في حياته القصيرة «٥٤ عاما» يحمل حقيبته وأوراقه كل صباح ويطوف بالمحاكم ليؤدي واجبه مقابل أتعاب تكفي احتياجات أسرته بالكاد، وكان الانفتاح قد بدأ وظهرت طائفة من النصابين والسماسرة الذين يتخذون من المحاماة وسيلة للتربح بأي طريقة وأذكر أن أبي كان يندهش كيف يستطيع محامون حديثو التخرج أن يصنعوا ثروات في أعوام قليلة رغم جهلهم الشنيع بالقانون.. لكن عصر أبي وأمثاله كان قد ولّى ليبدأ عصر آخر بقيم مختلفة وفاسدة.. وقد كتب الأستاذ الكبير يوسف الشريف الأسبوع الماضي في هذا المكان مقالا ممتازا عن أبي الراحل حكى فيه وقائع صحيحة بيّنت إخلاصه وأمانته المهنية كمحام، لكن الأستاذ الشريف أنهى مقاله بسؤال جعله عنوانا للمقال: لماذا تقاعس الأسواني في الدفاع عن السعدني؟!.. والحق أن الأسواني لم يتقاعس أبدا في الدفاع عن محمود السعدني لكنه اعتذر عن عدم الدفاع عنه في قضية مراكز القوى لأسباب وجيهة: كانت الصداقة بين عباس الأسواني ومحمود السعدني وطيدة وقديمة وقد دافع الأسواني عن صديقه السعدني في جميع القضايا، التي تورط فيها «وكانت كثيرة بحكم كتابات السعدني الساخرة وطبيعته الشخصية كفنان» ورفض أبي دائمًا أن يقبض أتعابا من السعدني عما يعتبره واجب الصداقة.. لكن الصديقين رغم تقاربهما الإنساني كانا مختلفين سياسيا: فبينما كان محمود السعدني مواليا للنظام الناصري وعضوا قياديا في التنظيم الطليعي ومن كبار مسئولي الصحافة في ذلك العهد.. كانت لعباس الأسواني تحفظات جوهرية على بعض ممارسات النظام الناصري وظل سلوكه كالعادة موافقا لقناعته، وكان من قلائل الكتاب في ذلك العهد الذين لم يلتحقوا أبدا بالاتحاد الاشتراكي أو التنظيم الطليعي أو أي من تنظيمات الثورة ولم يكتب حرفا واحدا في مديح جمال عبد الناصر ولم يستطع كما فعل كثيرون أن ينافق النظام فيحصل على أكبر المناصب التي كانت تمنح لمن هم أقل منه موهبة ومكانة لكنه لم يفعل أبدا.. لم يكن عباس الأسواني معاديا لثورة يوليو كما ذكر الأستاذ الشريف لأن المناضل الاشتراكي القديم الذي كافح واعتقل أبي من أجل القضية الوطنية والعدل

الاجتماعي لا يمكن أبدا أن يعادي النظام الذي حقق الجلاء والاستقلال وسعى لتطبيق الاشتراكية، لكن الأسواني. كان يعتقد أن احتكار العسكريين للسلطة وتكبيل الحريات وإطلاق المخابرات في الخصوم السياسيين وعجز النظام عن رؤية السلبيات وإصلاحها وتقديم أهل الثقة على أهل الخبرة.. كان يرى في كل ذلك خللا جوهريا في النظام سيؤدي بالوطن إلى كارثة وقد تحقق ذلك بكل أسف في يونيو ١٩٦٧ ولعل ما عابه الأسواني على النظام اعترف به الزعيم عبد الناصر نفسه خلال المناقشات التي سبقت إصدار بيان ٣٠ مارس عام ١٩٦٨.. كانت قضية الأسواني هي الديمقراطية الحقيقية وإطلاق الحريات العامة ومن هنا في مايو ١٩٧١ عندما قام أنور السادات بما أسماه «حركة التصحيح» وأعلن إغلاق المعتقلات وقام بإحراق شرائط التجسس أمام كاميرات التليفزيون، اعتبر عباس الأسواني وكثيرون معه أن عهدا جديدا يبدأ سوف يسترد المصريون خلاله حريتهم المعطلة.. وبالتالي لم يكن ضميره يسمح له بالدفاع عمن يعتبرهم رموز الديكتاتورية والمعتقلات والتعذيب، حتى لو كان أعز أصدقائه بينهم، لأنه كان يرى أن المحامي في القضايا السياسية يجب أن يكون دفاعه متسقا مع موقفه السياسي.. «وقد تذكرت هذا الرأي الصحيح منذ شهور عندما تولى الدكتور نعمان جمعة رئيس حزب الوفد الدفاع عن النظام الحاكم ممثلا في نائب رئيس الوزراء يوسف والي، مما أدى في النهاية إلى حبس مناضل شريف هو الأستاذ مجدي حسين.. وقد استاء الرأي العام في مصر آنذاك من موقف الدكتور جمعة واعتبره سقطة سياسية مؤسفة». من هنا امتنع الأسواني لأول مرة عن الدفاع عن صديقه السعدني، مقدما العنصر العام على الشخصي لكنه مع ذلك رشح للقضية زميلا له وتعهد بمساعدته من الناحية القانونية.. وبعد ذلك بعام واحد عندما اكتشف عباس الأسواني أن ديمقراطية السادات مسرحية مزيفة كان من أوائل الموقعين على بيان المثقفين الشهير المناهض للسادات وقد عوقب على ذلك بالمنع من الكتابة في كل مجالات الإعلام والصحافة.. ولو أن العمر امتد بالأسواني لكان قد عارض بالتأكيد اتفاقات كامب ديفيد ولكان أنور السادات استضافه في سجون سبتمبر ١٩٨١ لكنه في قضية ١٥ مايو تحديدا فعل ما اقتنع بأنه صحيح حتى ولو أغضب ذلك أعز أصدقائه وهكذا عاش عباس الأسواني ومات ولم يخالف ضميره.. رحمه الله بقدر ما أحب وطنه وأخلص لمبادئه.

* * *

عندما أراد معاوية بن أبي سفيان أن يورث ابنه يزيد العرش لم يعلن ذلك أبدا لكنه أخذ يصحبه معه في اجتماعاته بوزراء الدولة ويمنحه الفرصة في الحديث والظهور، وقد فهم الوزراء المنافقون رغبة معاوية في توريث ابنه فأخذوا يشيدون بصفات يزيد الحميدة كأنما يزكّونه للخلافة حتى استتب له الأمر تماما وفي يوم قام أحدهم في مجلس معاوية وأشار إليه قائلا: أمير المؤمنين هذا فإن مات فهذا (يقصد يزيد) ثم أخرج سيفه قائلا: ولمن أبى هذا (يقصد القتل لمن يرفض).. فسكت الجميع خوفا أو طمعا وتغير تاريخ المسلمين منذ تلك اللحظة لتبدأ عهود طويلة من الاستبداد وتوريث الحكم ولو أن الناس رفضوا يومئذ أن يوّرثوا كالأغنام لما جرؤ معاوية أبدا على إعطاء الحكم لابنه..

.. تذكرت هذه الواقعة التاريخية بالأمس أثناء مشاهدتي للتليفزيون.

كم تساوي حياة المصري؟(*)

هذه الواقعة حدثت من سنوات في مدينة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية.

كان الوقت شتاء والجليد يغطي كل شيء وقد تجمد سطح بحيرة ميتشجان الشهيرة وفي عطلة يوم الأحد ذهبت طفلة أمريكية عمرها ٧ سنوات لتلعب ناحية البحيرة فانزلقت قدمها في منطقة كان الثلج فيها ضعيفا وسقطت في مياه البحيرة، وما إن بُلِّغَت الشرطة بالحادث حتى انقلبت شيكاغو كلها رأسا على عقب. حلقت طائرات الهليكوبتر فورا تمسح المنطقة وتم استدعاء خبراء الإنقاذ بأجهزتهم الحديثة وكلابهم المدربة، وظل تليفزيون شيكاغو ينقل محاولات الإنقاذ دقيقة بدقيقة وفي أقل من ساعة تم العثور على الطفلة وانتشالها ووضعت فورا في طائرة إسعاف هليكوبتر مجهزة حملتها في دقائق إلى العناية المركزة في المستشفى حيث كان في انتظارها فريق من الأطباء اجتهدوا في إسعافها عدة ساعات حتى تمكنوا في النهاية من إنقاذ حياتها.

تذكرت هذه الحادثة وأنا أقرأ في الصحف ما حدث للمواطن خالد مرعي في محافظة البحيرة فقد أحست زوجته الحامل بآلام الوضع فاصطحبها إلى المستشفى، حيث وضعت طفلا جميلا لكنه ولد ناقصا فتم إيداعه في حضانة الأطفال في مستشفى إيتاي البارود العام.. إلى هنا والأمر عادي لكن المواطن خالد مرعي ذهب في اليوم التالي لرؤية طفله فأخبرته إدارة المستشفى بأنه قد مات وعندما ذهب الأب الحزين لاستلام الجثة فوجئ بأن وجه الطفل متآكل تماما فرفض استلام الجثة وحرر محضرا بالواقعة أبدى فيه مخاوفه من أن يكون ابنه قد أكلت وجهه الفئران التي ترتع بالعشرات في مستشفى إيتاي البارود، وقد

(*) العربي ١/ ٧/ ٢٠٠١.

نفى المسئولون تماما احتمال أن تكون الفئران قد أكلت وجه الطفل وصرح السيد وكيل وزارة الصحة بأن الفئران لا يمكن إطلاقا أن توجد في ثلاجة المستشفى لأن البرودة تؤذيها (وبما أن الفئران حريصة على صحتها فهي لا تدخل إلى الثلاجة وتكتفي بالتجول في بقية أقسام المستشفى) أما مدير المستشفى فقد شرح في الصحف الأسباب «العلمية» لتآكل وجه الطفل فقال: هذا التآكل ليس بفعل الفئران كما يظن البعض وإنما سببه نوع نادر من البكتريا القارضة التي تنشط وتأكل وجوه الأطفال في ثلاجات المستشفيات.. وأضاف السيد المدير: «لو تأملنا وجه الطفل المأكول سنلاحظ أن التآكل قد تم بطريقة منتظمة نظيفة طبقا لمتوالية هندسية محددة وهذا النسق في التآكل اشتهرت به البكتريا القارضة في أنحاء العالم كله..» طبعا هذا الكلام هراء من الناحية العلمية وقد جاء تقرير الطب الشرعي ليؤكد أن وجه الطفل قد التهمه حيوان قارض يرجّح أن يكون فأرا وهكذا دخلت مستشفى إيتاى البارود تاريخ الطب حيث سجلت في المحافل العلمية سببا جديدا لموت الأطفال المبتسرين تحت أسنان الفئران المتوحشة. هذا الاستهتار بأرواح الناس ليس له مثيل في أي مكان في الدنيا والسؤال لماذا رخصت حياة المصريين إلى هذا الحد..؟! عادة ما تكون الإجابة الإهمال والفساد الإداري وقلة الإمكانات.. والحق أنني لا أجدها أسبابا مقنعة لأننا لا نحتاج إلى إمكانات لكي نمنع الفئران من التهام الأطفال، كل ما نحتاج إليه الشعور بأن هذا الطفل إنسان يحس ويتألم وله أب وأم يحبانه كما نحب أولادنا بالضبط، هذا الشعور الإنساني هو ما صرنا بكل أسف نفتقده في مصر.. كم تساوي حياة المواطن المصري؟! إنها رخيصة للغاية ولا يمر أسبوع بدون وفاة مصريين كان من الممكن إنقاذهم لو كنا فقط أكثر إنسانية وتعاطفا. والسبب في هذه الظاهرة المحزنة أن تقدير المواطن لقيمة الحياة يرتبط بنظام الحكم الذي يعيش في ظله، ففي البلاد الديمقراطية تكتسب حياة الفرد أهمية كبيرة لأن الفرد هناك يصنع المجتمع ويختار الحكومة التي تحرص بدورها على حماية المواطنين وإرضائهم لأنهم ناخبون بإمكانهم أن يحاسبوا الحكومة ويسقطوها إذا قرروا ذلك، أما في البلاد المنكوبة بالدكتاتورية فإن الفرد لا ينظر إليه باعتباره إنسانا لكنه مجرد رقم. مجرد واحد من المحكومين، والحاكم الذي يعتمد في حكمه للناس على قمعهم وتزييف إرادتهم هل يمكن أن يحترمهم بعد ذلك..؟! بل وهل يمكن أن يحترموا هم أنفسهم؟!.. إن المصري الذي يهان كل يوم مئة مرة ويضرب في أقسام البوليس لأهون سبب ويعتقل سنوات ويعذب ببشاعة إذا خالف إرادة الحكومة، والذي تُزوَّر إرادته في

كل انتخابات وتفرض عليه حكومته الفاسدة الفاشلة أن يتحمل الفقر أو يرحل ويغترب عن بلده لكي يعيش، هذا المصري كيف يمكن أن تكون لحياته قيمه كبيرة.. لو أن حادث إيتاي البارود الشنيع حدث في أي بلد آخر لقدم وزير الصحة استقالته فورا، لكن موت المصريين اليومي في المستشفيات العامة بسبب الإهمال لم يقلل أبدا من تأنق وزير الصحة وتألقه ورضاه الكامل عن نفسه، والسبب أن الذي عين الوزير في منصبه هو الرئيس وهو وحده الذي يستطيع أن يقيله، وما دام الرئيس راضيا عن الوزير فلا شيء يقلقه أما ملايين المواطنين الذين يمرضون ويضطرهم الفقر إلى التعامل مع مستشفيات الحكومة فليس لهم إلا ـ ربنا عز وجل.

* * *

في محافظة الشرقية (وأماكن أخرى عديدة في مصر) يختلط ماء الشرب بماء المجاري فينزل الماء من الحنفيات داكن اللون وله رائحة البول، وظاهرة شرب مياه المجاري تنفرد بها بلادنا في العالم كله وعلى مدى عشرة أعوام ضج المواطنون في الشرقية من الشكوى من تلوث الماء وقدموا العرائض إلى جميع المسئولين لكن أحدا لم يتحرك كالعادة حتى أصيب الأسبوع الماضي مئات المواطنين بالتسمم من مياه الشرب وتكدست بهم المستشفيات عندئذ تحركت الأجهزة المعنية ليصل المشهد إلى ذروة العبث فقد صرح المسئولون بأن مياه الشرب في الشرقية سليمة تماما وتخضع يوميا إلى اختبارات علمية في غاية الدقة وأرجع المسئولون السبب في تسمم المواطنين إلى إفراطهم في تناول الحلويات المعروفة باسم «لوليتا».. وقال مسئول كبير بغضب:

ـ مياه الشرب عندنا نظيفة ١٠٠٪ والناس اللي اتسممت كلها أكلت لوليتا.

ولا أعرف السبب في اتهام حلويات لوليتا بالذات (وليس الشمعدان أو سامبا مثلا).. وقد نفى المصابون بالتسمم بشدة أن يكون أحد منهم قد أكل لوليتا. وأكدوا أن كثيرين منهم قد جاوزت أعمارهم الستين عاما مما يجعل رغبتهم في أكل لوليتا مسألة مستبعدة وقال ابن أحد المصابين إن أباه عجوز ومريض لا يبرح فراشه ولم يسمع أساسا بحلوى اللوليتا.. وظل المواطنون يسقطون من التسمم والمسئولون مُصرّون على اتهامهم بأكل اللوليتا ومع تزايد حالات التسمم اضطر محافظ الشرقية في النهاية إلى الاعتراف بتلوث مياه الشرب لكنه اتخذ فورا عدة قرارات غاية في الحكمة والكياسة: فقد أمر سيادته

بتشكيل لجنة عليا من كبار المسئولين في المحافظة لبحث تسمم المواطنين ورفع تقرير مفصل لسيادته كما أصدر المحافظ تعليمات مشددة للمسئولين لإغلاق جميع الطلمبات الحبشية في الشرقية كلها.

قد يسأل البعض ما هي الطلمبات الحبشية وما وظيفتها بالضبط ولماذا هي حبشية بالذات وليست سودانية مثلا وما علاقتها بتسمم الناس وإذا كانت الطلمبات الحبشية مؤذية بهذا الشكل فلماذا تركها المحافظ مفتوحة في الفترة السابقة..؟! كل هذه أسئلة غير مهمة.. المهم أن جميع الطلمبات الحبشية قد أغلقت والحمد لله (وعقبال إغلاقها في بقية المحافظات).. وكل من يجد في طريقه أية طلمبة حبشية نرجوه أن يتأكد من إغلاقها.. أما مئات المواطنين الراقدين بين الموت والحياة في مستشفيات الشرقية فنحن ننصحهم - إذا قدر لهم أن يعيشوا - بأن يحمدوا الله على نجاتهم ويشكروا السيد المحافظ على قراراته الحكيمة.

* * *

عندما حاولت الحكومة المصرية من سنوات تمرير قانون ٩٣ الذي يجيز حبس الصحفيين اعترض المثقفون عليه فقال لهم مسئول كبير: لماذا تخافون؟.. إن هذا القانون نائم ونحن لا نستعمله.. هذه العبارة الغريبة تلخص وضع القانون في مصر.. فالقانون عندنا لا يطبق وإنما يستعمل عند اللزوم، وفي البلاد الديمقراطية تنفذ القوانين على جميع المواطنين بغير تمييز أما في مصر فإن كل شيء يخضع لإرادة سياسية عليا إذا شاءت تحركت اللوائح وإذا لم تشأ تعطل القانون، والضجة المثارة الآن حول الصحافة الصفراء تعطي الانطباع بأن الصحف الصفراء ظهرت من وراء الحكومة، والحق أن الحكومة هي التي سمحت بالصحف الصفراء وأعطتها تراخيص بينما قامت بتعطيل صحف أخرى جادة مثل الدستور والشعب وصوت العرب وعندما وقعت واقعة جريدة النبأ وثار الإخوة الأقباط استشعرت الحكومة الحرج والخطر فأيقظت القانون من نومه.. نفس التناقض حدث مع سعد الدين إبراهيم الذي ظل لسنوات يتلقى الدعم من الخارج ويتصل بالإسرائيليين ويعقد المؤتمرات المشبوهة تحت نظر الحكومة بل إنه كان محلا لتقدير النظام فخصص له برنامجا تليفزيونيا أسبوعيا ليبث فيه آراءه السياسية وقد تعاون معه وزراء سابقون وحاليون، حتى ارتكب سعد الدين إبراهيم خطأه القاتل فدعا إلى تشكيل لجنة لمتابعة نزاهة الانتخابات وتحدث في لقاء صحفي عن توريث الحكم في مصر، عندئذ

استيقظ القانون النائم وقبض على سعد الدين إبراهيم وحوكم وسجن.. نفس المنطق ينطبق على ماهر الجندي ومحي الدين الغريب.. لماذا تأخرت محاكمتهما إلى الآن؟!.. إن تقارير الأجهزة الرقابية التي يحاكمان بموجبها مكتوبة من أعوام فأين كانت ومن عطلها ولماذا؟!.. وهل تخضع محاكمات الوزراء في مصر إلى حسابات وتوازنات؟!.. الواضح أن الفساد في مصر صارت له قواعد معروفة والفاسد الماهر الذي يرضى عنه الكبار لا يناله الأذى أبدا أما الفاسد الذي يعميه الجشع عن اتباع القواعد فإن مصيره الذبح ككبش فداء مثل الحباك والجندي وفودة والغريب وغيرهم.. والنظام يحتاج من حين لآخر إلى تحسين صورته في الخارج والداخل بمثل هذه القضايا المنتقاة والحق أن محاربة الفساد بهذه الطريقة الانتقائية المدبرة تشكل في ذاتها نوعا من الفساد، ففي الأنظمة الديمقراطية تتوفر شروط موضوعية لمحاسبة المسئولين أولها الانتخابات النظيفة وتداول السلطة وحرية تداول المعلومات، فمن حق المواطن هناك أن يعرف كل شيء عن ثروات الوزراء الحاليين وإلى أي حد تضخمت أثناء السلطة ومن أين لهم هذا البذخ الذي نراه؟!.. من أين لهم السيارات الفارهة والضياع والقصور وشاليهات الساحل الشمالي؟!.. كيف استطاعوا أن يدخروا هذه الملايين من مرتباتهم الحكومية؟.. ولماذا يتجه أبناء الوزراء دائمًا إلى الـ«بيزنس» أثناء وجود آبائهم في الحكم؟ ولماذا لا تعلن على الرأي العام التقارير الرقابية التي تكتب؟! كل هذه الأسئلة ستظل بلا إجابة ما دام القانون في مصر يستعمل ولا يطبق.

* * *

«عندما جاء الرئيس مبارك إلى الحكم عام ١٩٨١ تحدث عن فترات رئاسية محدودة من أجل تعميق الديمقراطية وهو الآن يستمر في الحكم للفترة الرئاسية الرابعة على التوالي وكل فترة رئاسية تستغرق ستة أعوام يبدأها الرئيس بطرح اسمه في استفتاء ولا يمكن لأحد غيره أن يرشح نفسه للرئاسة وليس للناخبين إلا أن يجيبوا بنعم أو لا..» وقد حصل الرئيس في جميع الاستفتاءات على نسبة ٩٦٪ في المتوسط.. وفي فترة التسعينيات لعبت المحاكم العسكرية والاستثنائية دورا حاسما في صراع الرئيس مبارك ضد الإسلاميين، فكانوا يقتادون بالآلاف إلى هذه المحاكم ثم إلى السجن (أو الإعدام). وحتى الآن يوجد من ١٠ إلى ١٥ ألف معتقل سياسي في مصر وكثيرون منهم لم يدانوا

ولم يحاكموا من الأساس.. ففي ظل قانون الطوارئ الذي يحكم به الرئيس مبارك لا يجد النظام المصري نفسه مضطرا حتى إلى إعلان أسماء من يعتقلهم هكذا كتبت الصحفية الأمريكية آن ماري ويفر في جريدة النيويورك تايمز الأسبوع الماضي، أما الأستاذ سمير رجب فقد كتب في جريدة الجمهورية مخاطبا الرئيس مبارك بقوله:

«سيادة الرئيس لولاك ما كان لنا عيد. هذه الحرية التي أرسيت صروحها وأقمت قلاعها عن قناعة ورضا وحماس ما بعده حماس.. سيادة الرئيس.. أنت.. أنت.. القائد.. الإنسان.. والزعيم الذي التف حوله الشرق والغرب بافتخار..»

أحسنت يا أستاذ سمير.

فيفي عبده والعمال السبعة!(*)

(١)

حدثت هذه الواقعة في بلد عربي شقيق في مصنع كبير لتصنيع اللحوم معظم عماله مصريون (حيث يفضلهم صاحب المصنع لأنهم مطيعون وقليلو الحيلة ويقبلون بأجور أقل بكثير من الجنسيات الأخرى).. طريقة العمل هناك أن تذبح يوميا عشرات الأغنام والعجول وبعد ذلك يتم التخلص من نفايات الحيوانات المذبوحة بتكديسها في مخزن كبير تحت الأرض حيث يتم شفطها بواسطة شفاط كهربائي.. وقد حدث في الأسبوع الماضي أن تعطل شفاط النفايات لمدة ثلاثة أيام متتالية وبالتالي تكدست كميات من النفايات الحيوانية وتعفنت وملأت المخزن عن آخره وهنا وقع صاحب المصنع في ورطة.. لأنه إذا أوقف العمل حتى يتم إصلاح الشفاط فإن ذلك يعني انقطاع أرباحه لبضعة أيام وهو ما لا يمكن القبول به.. من هنا طرأت له فكرة أخبر بها مدير العمال واسمه الحاج رشيد الذي قام باستدعاء مجموعة من العمال المصريين وقال لهم:

أريدكم أن تنزلوا بأنفسكم إلى مخزن النفايات لتنظفوه بأيديكم..الآن.. وبرغم طاعة المصريين المطلقة للحاج رشيد وتسابقهم لإرضائه إلا أنهم هذه المرة بدا عليهم التردد.. فهم يعلمون بخبرتهم أن النفايات الحيوانية قد تعفنت تماما على مدى أيام وفي هذه الحالة تنبعث منها غازات سامة.. وشعر الحاج رشيد بترددهم فاختار أحدهم وأمره بالنزول فأطاعه ونزل إلى المخزن لكنه بعد دقائق صعد بسرعة وقال متوسلا للحاج رشيد:

(*) العربي ٣١/ ٨/ ٢٠٠٣.

والنبي يا حاج رشيد بلاش الشغلة دي..مافيش هوا تحت خالص.. أنا اتخنقت..

وهنا ثار الحاج رشيد ثورة عارمة وقام بفصل العامل فورا وأخذ العامل المسكين يعتذر ويستعطف الحاج رشيد بل وأعلن استعداده للنزول من جديد لكن الحاج رشيد صمم على طرده ثم نظر إلى بقية المصريين وصاح في غضب:

والله العظيم إذا لم تنزلوا لتنظيف المخزن.. أطردكم كلكم.. والله إنكم مثل عبيد السوء.. تأكلون وتشربون ولا تعملون بأكلكم.

وأمام هذا التهديد الصارم أذعن العمال المصريون ونزل أحدهم لتنظيف المخزن وغاب فترة طويلة فأمر الحاج رشيد عاملا ثانيًا فنزل إلى المخزن وغاب أيضا ثم عاملا ثالثا ورابعا حتى بلغ العدد ٧ عمال مصريين.. ماتوا جميعًا في المخزن مختنقين بالغازات السامة المنبعثة من النفايات الحيوانية المتعفنة.

هكذا مات ٧ مواطنين مصريين تتراوح أعمارهم بين ١٩ و٤٠ عاما جاءوا جميعًا من كفور مصر ونجوعها بعدما انقطعت بهم سبل الحياة في بلدهم، قطعوا مئات الأميال وتحملوا الشدة والهوان والقسوة والغربة من أجل توفير الحياة لأولادهم وأسرهم، كل واحد من هؤلاء يعول أسرة كبيرة ليس لديها عائل سواه.. لم يكن أحدهم يحلم بسيارة فارهة أو قصرا أو ثروة كبيرة.. كانوا يحلمون بمجرد الستر.. قبلوا بالعمل في أحقر الأعمال وأشقها من أجل أن يوفروا جهاز بناتهم ومصاريف أولادهم.. لكنهم ماتوا واختلطت أجسادهم بجثث الحيوانات المتعفنة.. الحقيقة أنهم لم يموتوا لكنهم قتلوا، والذي قتلهم ليس العدو الصهيوني وإنما قتلهم مواطنون عرب مسلمون مثلهم، قتلهم الحاج رشيد الذي لا يرى فيهم إلا عبيدا كسالى كما قال.. وقتلتهم حكومتهم التي جعلت حياتهم في بلدهم مستحيلة بسبب الفساد والاستبداد والنهب المنظم للمال العام.. وقتلتهم حكومتهم مرة أخرى عندما تركتهم يعملون في الغربة بدون أية حقوق..

كنت أتوقع على الأقل أن تطالب حكومة مصر بالتحقيق في هذه المذبحة لكن أحمد العماوي وزير القوى العاملة لم ينطق بكلمة واحدة، ربما تفاديا لوجع الدماغ أو حرصا على حسن العلاقات مع البلد الشقيق.. على أنه ـ والحق يقال ـ برغم تجاهله لهذه المذبحة وضع حلا عظيما لقضية أخرى طالما شغلتنا جميعًا: فقد تصدرت صورة

سيادته صفحات الجرائد وهو يؤكد أنه اتخذ قرارا قاطعا بمنع إعطاء تراخيص الرقص الشرقي للراقصات الأجنبيات مهما تكن الظروف.. وقد اتخذ العماوي قراره بناء على شكاوى عديدة تقدمت بها المواطنات فيفي عبده ولوسي وهندية وغيرهن ضد الراقصات الأجنبيات اللاتي يأتين من بلادهن لينافسنهن في الرقص، بقي أن نعلم أن أجر الراقصة المصرية يتراوح بين ١٠ و٣٠ ألف جنيه في الليلة بينما العامل المصري الذي قتلوه مع الحيوانات المتعفنة لا يزيد أجره على ٥٠٠ جنيه في الشهر كله.. ولو أن واحدا من هؤلاء الشهداء كانت ابنته أو زوجته راقصة أو حتى عمل خادما عند أية راقصة لما فقد حياته وسط جثث الحيوانات ولكان قد نعم بحياة رغدة ولكان الوزير العماوي قد أولاه اهتماما خاصا كالذي يوليه لنجمات الرقص الشرقي.

على أن مأساة العمال السبعة تطرح أسئلة مهمة:.هل يهتم النظام في مصر بحياة المواطنين حقا..؟ الإجابة بالنفي طبعا فالذين ماتوا ظلما في الغربة يموت كثيرون مثلهم داخل مصر من الإهمال في مستشفيات الحكومة ومن الأغذية الفاسدة والماء الملوث.. بل ومات مثلهم قبل ذلك آلاف في قطار الصعيد وفي العبارة سالم ومات مثلهم عشرات الآلاف من الأسرى المصريين برصاص الجيش الإسرائيلي، كل هؤلاء لم يعبأ النظام بموتهم إطلاقا لأن بقاءهم أو فناءهم أمر لا يعنيه والسبب أنه يعتبرهم رعايا لا مواطنين.. المواطنون يختارون من يحكمهم وبالتالي فإن لهم حقوقا مقابل واجباتهم.. أما الرعايا فهم بلا حقوق إلا ما يتفضل به حكامهم عليهم، والمسئولون في مصر يعلمون أن أية انتخابات حقيقية سوف تلقي بهم خارج السلطة وقد تلقي بهم في السجون بعد محاكمتهم على ما اقترفوه في حق المصريين وهو كثير.. النظام الذي يجثم على أنفاسنا بقوة الأمن المركزي وأمن الدولة لا يمكن أن يهتم بحياتنا أو كرامتنا..

ثمة سؤال آخر تطرحه هذه الحكاية المحزنة: لماذا يقبل المصريون كل هذا الذل..؟ هل هو الفقر والحرص على لقمة العيش..؟ هل هو تراث الاستبداد الذي عرفه المصريون على مدى تاريخهم..؟ هل الفلاح المصري بطبيعته أقرب للطاعة والخضوع..؟ كل هذه الأسباب في رأيي لا تبرر أبدا القبول بكل هذه المهانة..؟ ماذا كان سيحدث لهؤلاء العمال لو أنهم رفضوا معاملتهم كالحيوانات وتعريض حياتهم للخطر..؟ لم يكن بمقدور صاحب العمل أن يطردهم جميعًا لأنه يحتاج إليهم وكان بوسعهم لو أنهم ثاروا لكرامتهم أن يفرضوا

حقوقهم العادلة.. وما ينطبق على الشهداء السبعة ينطبق علينا جميعًا.. فالمصريون يعانون من ظلم الحكام وفسادهم لكنهم أبدا لا يثورون عليهم وإذا ثاروا سرعان ما تنطفئ ثورتهم ويعودون إلى إذعانهم الطويل.. سؤال أتمنى أن نفكر فيه جميعًا ربما نجد الإجابة:.. لماذا لا يثور المصريون..؟!

(٢)

في يوم ١٩ مارس الماضي، أثناء اندلاع المظاهرات المناهضة للحرب على العراق كنت جالسا في مقهى الندوة الثقافية بباب اللوق مع مجموعة من الكتّاب والصحفيين وفجأة انقض علينا نحو عشرة بلطجية (من رجال الأمن) يرتدون الملابس المدنية وفي يد كل منهم عصا غليظة أخذ يضرب بها على رءوس الجالسين بمنتهى القسوة.. وفي لحظات انكسر زجاج المقهى وتعالت صيحات الاستغاثة وركضنا فارين جميعًا وتمكن المخبرون من التضييق على شاب لا حول له ولا قوة وأخذوا يضربونه على رأسه حتى سال دمه غزيرا على أرض الشارع وسقط مغشيا عليه بعدما انفتح في وجهه جرح كبير.. هذه الحادثة المروعة التي رأيتها بنفسي تكشف أن النظام في مصر إذا ما استشعر الخطر على وجوده فلا نهاية لما يمكن أن يقدم عليه من جرائم..

والحق أن سجل الحكومة المصرية في انتهاكات حقوق الإنسان من أسوأ السجلات في العالم.. ففي مصر الآن ١٦ ألف معتقل.. وعدد الذين اعتقلوا منذ أن تولى الرئيس مبارك الحكم يزيد على ١٠٠ ألف معتقل.. كثيرون منهم محتجزون بلا محاكمة منذ أكثر من عشرة أعوام.. كما أن تعذيب المتهمين السياسيين والجنائيين في مصر سياسة أمنية منتظمة في جميع أقسام الشرطة ومقار أمن الدولة.. ويكفي أن تبحث على شبكة الإنترنت فتكتب كلمة مصر وكلمة تعذيب حتى تطالعك عشرات السجلات المرعبة لما يحدث للمواطنين العزل على أيدي ضباط الشرطة.. ضرب وجلد وتعليق وهتك عرض وصعق بالكهرباء إلى آخر هذه الجرائم البشعة.. ولذلك فقد سعدت هذا الأسبوع بتأسيس جمعية جديدة اسمها «الجمعية المصرية لمناهضة التعذيب».

مجموعة من المثقفين المصريين الوطنيين قرروا أن يفعلوا شيئًا لمنع تعذيب المواطنين بغض النظر عن الأسباب.. شعور إنساني نبيل وهدف وطني عظيم يجب أن نعمل جميعًا على تحقيقه.. أتمنى أن ينضم إلى هذه الجمعية كل الأدباء والكتّاب والفنانين وأن تساعدها تجمعات المثقفين مثل اتحادات الكتاب والموسيقيين والسينمائيين والنقابات المهنية..لن تكون المهمة سهلة فالحكومة لن تمتنع عن سياسة التعذيب ببساطة وسوف تتمسك بها إلى النهاية لأن التعذيب يساعد النظام على إحكام قبضته على السلطة والتنكيل بمعارضيه، كما أن كثيرا من ضباط المباحث لا يعرفون إلا التعذيب كوسيلة سهلة ومضمونة لانتزاع الاعترافات حتى ولو كانت كاذبة.

إن المثقفين في مصر قد يختلفون في الأفكار والتوجهات لكن قضية مثل منع التعذيب سوف تشكل الحد الأدنى المشترك الذي سوف يعمل الجميع على تحقيقه.. تحية إلى الدكتورة عايدة سيف الدولة ورفاقها في الجمعية.. ونحن معكم حتى يحصل المواطن المصري على حقه في معاملة كريمة وآدمية.

كلمات للتأمل:

* «البلد من فوق لتحت مليانة حرامية.. جايين تمسكوني أنا..؟!»

الدكتور يوسف حويلة
رئيس مجلس إدارة متهم بالرشوة

* «الحزب الوطني الديمقراطي أسرة سياسية واحدة زعيمها وقائدها الرئيس حسني مبارك وهي والحمد لله تضم الأبناء والأحفاد»

صفوت الشريف

* «نائب المأمور في قسم مينا البصل قال لي: اسمع بقه..ولا شكوى للنيابة تفيدك ولا الطب الشرعي يفيدك.. أنصحك تقعد مع الضابط اللي ضربك وتحل الموضوع ودي..»

محروس أحمد محمد
مواطن تعرض للتعذيب أمام زوجته وأولاده

* «ضربوني وضربوا أبويا وكسروا البيت وفي القسم قعدوا يضربوا فيا لغاية لما أغمي عليا وبعدين لما فقت معاون المباحث قال لي خشي اغسلي هدومك من الدم.. وأول ما دخلت الحمام فتحوا عليا وأنا عريانة وهددوني إنهم يغتصبوني»

من شهادة المواطنة نهى سعد أحمد
عن تعذيبها في قسم شرطة بلقاس

* «الرئيس حسني مبارك، ابن المنوفية، هو بطل الحريات والديمقراطية الحقة»

كمال الشاذلي

إبراهيم دسوقي عبد الدايم!!(*)

حدثت هذه الواقعة منذ ١٦٠ عاما..

في عام ١٨٤٣ وقعت في مصر مصيبتان: انتشر الجراد والتهم الزرع مما أدى إلى تدمير معظم المحاصيل الزراعية ثم لم يلبث وباء الطاعون أن استفحل في البلاد فقضى على حياة عشرات الألوف من المصريين.. وعاشت مصر في مجاعة وبؤس ووسط هذه المحنة وصل إلى إقليم المنصورة بعض الأطباء الأجانب بغرض دراسة وباء الطاعون المتفشي بين المصريين، ومن أجل الكشف عن طريقة انتقال جرثومة الطاعون لجأ هؤلاء الأطباء إلى حيلة غير إنسانية أطلقوا عليها تجربة «جلباب الموت»: فقد أخذوا ثياب المتوفين من ضحايا الطاعون وعرضوا على الفلاحين ارتداءها مقابل خمسة قروش في اليوم، وكان هذا مبلغا لا يستهان به بالنسبة لأسرة فقيرة تعيش بنصف قرش في اليوم، كان الأطباء يريدون اكتشاف إذا كان الطاعون تنتقل عدواه بالملامسة.. وبسبب فقر الفلاحين المدقع من ناحية وإغراء خمسة القروش من ناحية أخرى، تدفق عشرات الفلاحين إلى مقر إقامة الأطباء الأجانب وتزاحموا عليهم بل وتوسلوا إليهم لكي يسمحوا لهم بارتداء جلباب الموت.. وكان الأطباء على يقين من أن الفلاحين الجهلاء لا يدركون خطورة ارتداء جلباب الموت.. لكن المفاجأة حدثت عندما نقل المترجمون إلى الأجانب الحقيقة المذهلة: إن هؤلاء الفلاحين الذين يتوسلون من أجل ارتداء الجلابيب الموبوءة يعلمون جيدا أن مصيرهم الموت.. وقد أثار هذا الأمر فضول الأطباء فسألوا أحد الفلاحين لماذا يريد أن يعرض حياته للموت فأجاب: «أنا شيخ

(*) العربي ١٠/ ٢٠٠٣.

مسن وقد شبعت من الدنيا وفي رقبتي أسرة كبيرة أنا عاجز عن إعالتها.. فلو سمحتم لي بارتداء الجلباب وأعطيتموني المكافأة أستطيع أن أضمن الطعام لأسرتي..».

هذه الواقعة المحزنة ذكرتها المستشرقة البريطانية صوفيا لين بول في كتاب أصدرته عن مصر بعنوان «حريم محمد علي باشا» (ترجمة د. عزة كرارة).. ولعل القارئ البريطاني الذي طالع هذه الواقعة انزعج بشدة للمدى المحزن الذي وصل إليه الفقر في مصر خلال القرن التاسع عشر.. فالطبيعي أن يتزاحم الناس ويتدافعوا هربا من الموت أما أن يتوسل البؤساء من أجل إلباسهم جلباب الموت مقابل مبلغ يكفي لإطعام أولادهم الجوعى.. فذلك أقسى ما يمكن أن ينحدر إليه الإنسان في أي زمان ومكان: أن ينهي حياته بيده من أجل إطعام أولاده.. على أنه بعد مرور مائة وستين عاما على حكاية جلباب الموت يبدو أن أحوال الفقراء المصريين لم تتحسن كثيرا ويبدو أن معاناة المصريين تحت حكم الأتراك والمماليك لا تختلف عن معاناتهم تحت الحكم المصري.. والدليل على ذلك ما حدث منذ أسابيع قليلة للمواطن إبراهيم دسوقي عبد الدايم، البالغ من العمر ثلاثين عاما، فقد عاد إبراهيم ذلك المساء إلى بيته في قرية الخرقانية بالقناطر الخيرية.. كان متعبا وصامتا وحزينا لأنه قضى النهار كله وهو يحاول الاقتراض من كل من يعرفهم، طاف ببيوت الأقارب والمعارف وذهب إلى الأصدقاء في المقهى لكنهم جميعًا خذلوه ورفضوا إقراضه، إما لأنهم مثله معدمون أو لأنهم لا يستريحون أصلا لفكرة الإقراض.. لم يكن إبراهيم يطلب الكثير، كان فقط يحتاج إلى مائة جنيه من أجل شراء الزي المدرسي لأولاده.. مجرد ١٠٠ جنيه.. مبلغ تافه جدا لكثير من الناس في مصر.. ورقة واحدة يدفعونها ببساطة كل يوم ثمنا لبضع كؤوس من الويسكي أو وجبة طعام كنتاكي أو مقابل قص شعورهم وصبغها في صالونات الحلاقة الكبيرة.. أو حتى يدفعونها مقابل إيجار ساعة واحدة للدراجات المائية في منتجع مارينا.. لكن إبراهيم بذل جهدا مستميتا ولم يوفق في الحصول على مائة الجنيه وكانت زوجته تنتظره وعندما رأت وجهه الحزين أدركت أنه لم يحضر المبلغ فلاذت بالصمت لئلا تجرح مشاعره.. لعلها حاولت أن تخفف عنه فألمحت بحذر ولباقة إلى أنها ستحاول اقتراض المبلغ من بعض أقاربها.. لعلها تأثرت من حزنه فاحتضنته وقبلته هامسة: «ولا يهمك يا إبراهيم.. الحمد لله على الصحة.. الصحة أهم حاجة..».. لكن محاولات زوجته في التخفيف عنه لم تنجح.. كان إبراهيم يشعر في تلك اللحظة بأنه عاجز، بلا قيمة ولا كرامة.. لقد

أذل نفسه أمام كل من يعرفهم وعاد في النهاية كما بدأ.. بدون نقود.. نظرات الإشفاق والضيق وكلمات الكذب والتهرب التي رآها وسمعها من معارفه ظلت تطارده... ولم يلبث الطفلان أن هرعا إليه.. بنت وولد يشبهانه كثيرا ويحبهما كثيرا، احتضناه وقبلاه وتدافعا وكادا يتشاجران من أجل الجلوس على ساقيه ثم سألاه عن ملابس المدرسة.. ماذا يقول لهما..؟! لا يمكن أن يفهم الأطفال أبدا أن أباهم عاجز عن شراء الملابس.. كل أب في نظر أطفاله قوي قادر، يستطيع دائمًا أن يحقق لهم كل ما يرغبون فيه.. وكان إبراهيم قد تذرع أمام الطفلين أكثر من مرة بحجج مختلفة من أجل تأجيل شراء الملابس فلما أخبرهما هذه المرة أيضا أنه لن يستطيع شراء ملابسهما انفجرا في البكاء وبرغم محاولات الأم لإسكاتهما وإبعادهما إلا أنهما استمرا في بكائهما وذكّرا إبراهيم بأنه في كل مرة يعدهما ولا يفي بوعده، وهنا تقلص وجه إبراهيم وحدق أمامه بنظرة فارغة منطفئة وانتاب ابنته فجأة عطف أمومي غامض فتوقفت عن البكاء وأرجعت رأسها الصغير قليلًا وتطلعت إلى وجهه بحنان بالغ ثم تعلقت برقبته أما الطفل الصغير فقد استمر في البكاء والصياح: «كل الأولاد أهلهم جابولهم الزي المدرسي.. اشمعنا احنا..؟!».. عند هذا الحد لم يستطع إبراهيم دسوقي عبد الدايم أن يتحمل المزيد.. فأنزل الطفلين برفق من على قدميه ونهض إلى المطبخ وتركته زوجته ليخلو إلى نفسه قليلًا لكنها لم تلبث بعد لحظات أن انتبهت على صرخاته، تجرع إبراهيم زجاجة كاملة من سم الفئران حتى يموت.. وظلت أحشاؤه تتمزق من الألم وسط صراخ زوجته وطفليه حتى انتفض جسده مرة أخيرة وسكن إلى الأبد.. وهكذا أنهى إبراهيم دسوقي عبد الدايم بيده حياته القصيرة وغير العادلة ولو أنه كان مواطنا في دولة محترمة لقامت الدنيا واستقالت الحكومة فورا، فأن ينتحر مواطن لعجزه عن توفير ملابس لأولاده معنى ذلك أن الظلم الاجتماعي قد وصل إلى درجة فاحشة حقا.. وفي الدول المحترمة حياة المواطن لها قيمة كبرى أما في مصر فما أرخص حياة الفقراء، ولو أن إبراهيم لم ينتحر لكان قد مات بطرق أخرى عديدة: محترقا في حادث لأحد قطارات الصعيد أو على أيدي طبيب مهمل في مستشفى حكومي أو متأثرا بإصابته بالسرطان من الأغذية الفاسدة.. أو ربما فاضت روحه من شدة التعذيب في مباحث أمن الدولة أو حتى في قسم شرطة أثناء استجوابه في قضية بسيطة.. إبراهيم دسوقي عبد الدايم مثل آلاف الفقراء الذين يموتون في بلادنا كل يوم، يقتلهم الفقر والفساد وإجرام الكبار، يموتون في صمت، في الظل، كأنهم بموتهم يعتذرون عن

خطأ وجودهم، لا يهتم بموتهم أحد كما لم يهتم أحد بحياتهم.. على أن موت إبراهيم بالذات قد حمل مفارقة كبرى.. ففي اللحظة التي شرب فيها السم وصرخ من فرط الألم الذي يكوي أحشاءه، في نفس اللحظة كانت الترتيبات النهائية تتم على قدم وساق من أجل المؤتمر السنوي للحزب الوطني الديمقراطي.. لم يجد إبراهيم ١٠٠ جنيه لكساء أولاده بينما وجد حكام بلادنا ملايين الجنيهات ليبددوها على اجتماعات المبايعة والتأييد وتقارير الإنجازات الوهمية، جاء أباطرة الحزب الوطني وقد ارتدوا ثيابا مستوردة باهظة الثمن ونزلوا من سياراتهم الفارهة الحديثة بتؤدة وقد تراكمت الشحوم على بطونهم من فرط ولعهم بالطعام الجيد، شعورهم مصبوغة بعناية ووجوههم لامعة غليظة مطمئنة لا يقلقها شيء، العمولات يقبضونها بانتظام والودائع في حسابات سرية في الخارج والأنجال يواصلون تكديس الثروات وسلطتهم مطلقة وراسخة تحميها جيوش الأمن المركزي والسفاحون في أمن الدولة، وهم قد جاءوا اليوم ليناقشوا مستقبل البلد الذي تسببوا بفشلهم وفسادهم في إفقار مواطنيه إلى درجة الانتحار.

.. وبعد.. فقد أحببت إبراهيم دسوقي عبد الدايم، لم أره قط لكنني أحس فعلا وكأنه أخي الأصغر أو صديق مقرب إليَّ، أحببت إبراهيم لشرفه وإخلاصه وحبه العميق لأسرته وقتاله الضاري من أجل رزق قليل لا يأتي أبدا وأحببته أيضا من أجل حزنه النبيل وعزة نفسه وإحساسه بالعجز والقهر.. أكتب لأحيي صديقي إبراهيم ولا أعرف إن كان بمقدوره الآن أن يقرأ ما أكتبه.. لكنها بضع كلمات أتمنى أن تصل إليه.. فقد اجتمعت قيادات الحزب الوطني ثلاثة أيام كاملة.. تكلموا كثيرا يا إبراهيم ومدحوا الرئيس مبارك كثيرا ومدحوا أيضا جمال مبارك ابن الرئيس.. وبرغم شعاراتهم البراقة وكلماتهم الكبيرة فقد فهم المصريون أن كل شيء في هذا البلد باق على حاله، الحكومة باقية وقانون الطوارئ باق والفقر باق والفساد باق والظلم باق.. الغريب يا إبراهيم أنهم تحدثوا عن مصر كثيرا لكن أحدا منهم لم يذكرك بكلمة واحدة.. لكننا نحن يا إبراهيم سوف نذكرك كثيرا ونحبك كثيرا.. نحن نفهمك ونعرف أنك لم تنتحر لأنك جبان لكنك قاتلت كالرجال بكل قوتك حتى اللحظة الأخيرة وعندما تأكد لك أن المعركة ظالمة وأن الظلم يتزايد ولم تعد لك طاقة على دفعه.. فضلت أن تنسحب بهدوء وشرف..

..يا إبراهيم يا دسوقي يا عبد الدايم.. سلام الله عليك..

كلمات للتأمل:

* «ماكانش معاه يجيب هدوم المدرسة للعيال.. ماطاقشي.. (بكاء) ربنا يرحمه بقه...»

أرملة الشهيد إبراهيم دسوقي

* «شعارنا هذا العام.. حقوق المواطن أولًا..»

الرئيس حسني مبارك

* «حزب وطني إيه.. دول أكلوا البلد أكل وسابوا لنا الفتافيت..»

مواطنة مصرية لجريدة الأهالي

* «أقول للأستاذ جمال مبارك.. مبروك.. وأقول للسيد صفوت الشريف.. استمر وعناية الله تحرسك.. أما أنت يا كمال يا شاذلي فيكفيك أن تربيت التربية السياسية السليمة..»

سمير رجب

ديمقراطية «أبو طربوش»!(*)

في عام ١٨٢٥ جاء إلى مصر رجل إنجليزي اسمه إدوارد وليم لين، تعلم اللغة العربية حتى أتقنها وارتدى زى أبناء البلد واختلط بهم أعواما عديدة ثم كتب كتابا بعنوان «المصريون المحدثون.. شمائلهم وعاداتهم».. وقد اكتسب الكتاب أهمية كبيرة لأن كاتبه وصف المجتمع المصري في القرن التاسع عشر بطريقة محايدة ودقيقة وأول ما يصدم المرء في الكتاب صور الاستبداد الرهيب الشائعة آنذاك.. فلم يكن ثمة قانون حقيقي يتساوى أمامه المصريون لكن حبسهم وتجريدهم من أموالهم بل وقتلهم كان يحدث طبقا للحظ والصدفة. كانت مراقبة البائعين والتجار موكولة إلى المحتسب التركي الذي كان يعذب الناس ببشاعة لأهون سبب.. فكان البيع بأزيد من التسعيرة مثلا يعاقب عليه بقطع أذن البائع المذنب. وإذا باع الجزار اللحم بأقل من وزنه الحقيقي كان المحتسب يأمر أتباعه فيثقبون أنفه ويعلقون فيها قطعة لحم صغيرة أو يجردونه من ثيابه ويقطعون بسكين كبيرة قطعه عريضة من لحم ظهره أو بطنه.. أما بائع الكنافة الذي يغالي في السعر، ولو قليلًا فكان يجرد من ثيابه ويربط جالسا على صينية مشتعلة حتى يحترق لحمه.. إلى هذا الحد بلغت القسوة بالمحتسب بالإضافة إلى شذوذ أطواره فقد خطر له ذات يوم أن يجعل حصانه يستحم في حمام شعبي فأمر صاحب الحمام بإدخال الحصان وسط الزبائن وغسيل جسده وتنعيم جلده، وثقل على صاحب الحمام هذا الأمر العجيب وخاف من بطش المحتسب فقال له: «يا سيدي إنه شرف كبير لي أن يستحم جوادك الكريم في حمامي المتواضع لكن المشكلة أن أرض الحمام من الرخام وأخشى أن تنزلق حوافر الجواد عليها فيصيبه مكروه ـ لا قدر الله ـ كما أخاف عليه من أن يصيبه برد يؤذي صحته الغالية..» وعرض صاحب

(*) العربي ٢/ ٢٠٠٤.

الحمام أن يذهب بنفسه مع الحصان إلى إسطبل ليعتني به هناك.. وصمت المحتسب قليلًا ثم صاح مستنكرا: «إذن.. أنت لا تريد حصاني في حمامك؟!».. ثم أمر جنوده فطرحوا صاحب الحمام أرضا وأخذوا يضربونه بالشوم على رأسه حتى فاضت روحه إلى بارئها.. وقد يظن البعض أن هذه القسوة الشنيعة قد أدت إلى الانضباط في الأسواق لكن ما حدث عكس ذلك.. فقد كان المحتسب دائمًا فاسد الذمة ومرتشيا حتى إنه كان يجعل مع مساعديه ميزانين: ميزان صحيحا للباعة الذين لا يدفعون الرشوة وميزانا آخر بالزئبق يتحكم فيه لصالح البائعين الذين يرشونه.. ولم يقتصر الطغيان على منصب المحتسب بل تعداه إلى كل صاحب سلطة ويحكي إدوارد لين عن حاكم لإقليم أسوان كان الناس يلقبونه «أبو طربوش» لأنه كان يرتدي طربوشا بلا عمامة وكان مضرب الأمثال في الفساد والقسوة حتى إنه كان يضرب المارة في الشوارع بقضيب حديدي ضخم على رءوسهم مما يؤدي غالبا إلى مصرعهم.. وكان يتفنن في فرض ضرائب ظالمة على الناس حتى اشتد بهم الكرب وقاموا بتأليف أغاني يسخرون فيها منه ويدعون الله أن يقتله بالطاعون.. وانتشرت في ذلك الوقت أغنية حزينة يرددها الناس في كل مكان مطلعها «ياللي عندك لبدة.. بعها وادفع الفردة» والفردة هي الضرائب الطاحنة التي فرضها أبو طربوش على المصريين فأدت بهم إلى بيع كل شيء حتى اللبدة كما تقول الأغنية..!

هذا القمع العنيف المقرون دائمًا بالفساد السياسي يمتد للأسف على مدى التاريخ المصري كله حتى إن المفكر الكبير جمال حمدان كتب مرة.. «إن الاستبداد والعنف من ناحية والخضوع والتسليم من ناحية أخرى هي ملامح من أعمق وأسوأ الحياة المصرية على مر القرون. وعلينا ألا نهرب من هذه الحقيقة أو نخجل منها، بل علينا أن نتناولها بالتحليل العملي والشرح الموضوعي لكي نعرف إلى أي مدى هي ملامح مؤقتة عابرة وإلى أي مدى هي جزء لا يتجزأ من حضارتنا».

السؤال إذن، كيف أثّر الاستبداد في الشخصية المصرية؟.. التأثير لا شك عميق فالمصريون لا يثقون غالبا بحكامهم والسلطة مقترنة في الوجدان المصري بالطغيان والإثراء الحرام فكل من يأتي منها شر مؤكد وقد تعلم المصريون أن يقيموا مجتمعاتهم بعيدًا عن السلطة، يتزوجون ويعملون ويربّون أولادهم فيما بينهم بعيدًا عن الحكومة، والمصري حتى وقتنا الحاضر لا يحب أن يدخل إلى قسم الشرطة إلا مضطرا بل لعل المصريين الجنسية الوحيدة في العالم التي لا يحب أبناؤها التعامل مع سفارات بلدها في الخارج إلا للضرورة القصوى

والحق أن تخوّف المصريين من القسم أو السفارة يكون غالبا في محله، كما أن الخوف من بطش الحاكم أورث المصريين رذيلة النفاق فالمصري ذكي لماح يفهم كل ما يحدث حوله لكنه كثيرا ما يكذب حتى يتفادى المشاكل. والمصريون لهم عادة رأيان: رأي حقيقي يكتمونه ولا يصرحون به.. إلا لخلصائهم.. ورأي آخر مناسب اجتماعيا يعلنونه أمام الرؤساء وأصحاب السلطان.. وفي أيامنا هذه عندما يستضيف التليفزيون مواطنين عاديين تجدهم يبادرون بمدح رئيس الدولة بدون أن يطلب أحد إليهم ذلك، والثمن ببساطة أنهم يحبون أن يظهروا في التليفزيون ليراهم أولادهم ومعارفهم ويدركون أن السبب بعض النفاق فيؤدونه عن طيب خاطر.. وعلينا هنا أن نتريث قبل أن نلوم أنفسنا أو نحتقرها بسبب هذا السلوك.. فالقاعدة أن الطغيان في كل زمان ومكان يضطر الناس إلى النفاق حتى ينالوا حقوقهم أو يدفعوا البطش عن أنفسهم، فيكون النفاق في هذه الحال أقرب إلى الحكمة والدفاع عن النفس منه إلى الرذيلة الأخلاقية، فعندما يواجهك محتسب شاذ ودموي أو ينقض عليك حاكم مجرم مثل أبو طربوش ليضربك بقضيب حديدي على رأسك فليس من الحكمة عندئذ أن تصرح برأيك الحقيقي، وفي عصرنا الحاضر عندما يتعرض آلاف المعتقلين إلى التعذيب البشع في مباحث أمن الدولة لا يمكن بأي حال اعتبارهم مسئولين عما يقولونه أثناء التعذيب.. إن العبقرية المصرية ربما تتلخص في كلمة واحدة: التأقلم.. إن قدرة المصري اللانهائية على التكيف مع أصعب الظروف والاستمرار في الحياة، هذه القدرة صفة حضارية رائعة يتميز بها شعبنا بجدارة.. فربما لا نكون أشجع الشعوب ولا أمهرها لكننا بالتأكيد أساتذة كبار في الدفاع عن الحياة ضد كل ما يهددها، فنحن نعرف تماما كيف ننتزع من الطغاة مساحة ما ولو صغيرة لنعيش ونستمتع ونبدع. وعندما يجلس المصري آخر النهار وسط أولاده فإنه يعرف كيف يسخر من ظالميه ويكون مجرد استمراره في الحياة بمثابة هزيمة للذين قمعوه.. ولم يكن المصري ليستمر عبر آلاف السنين من الظلم لو لم يكن حكيما وصبورا وقد تعلم من تجربته الطويلة كيف يتعايش مع الطغيان بحيث لا يصيبه إلا أقل الضرر، إنه لا يتمرد على الطاغية ولا ينسحق أمامه بل هو يبحث دائمًا عن حل وسط يقيه الشرور ويمكّنه من الاستمرار، إن سياسة الحل الوسط فن مصري عريق ووصفة سحرية استطاع بفضلها آباؤنا وأجدادنا أن يعيشوا وينجزوا في وسط معادٍ وظالم وغير آدمي.. وقد يرى البعض أن المصريين شعب مذعن وخاضع وبالتالي غير ثوري.. ولكن ثورات المصريين على مر العصور تكذب هذا الزعم، فالمصريون يثورون في النهاية

ولكن متى؟!.. عندما تتدهور أحوالهم إلى درجة لا رجاء منها وبعد أن تنفد كل محاولات التأقلم والتعايش مع الظلم والفقر، عندئذ ينتفض المصريون وتكون ثورتهم هنا إلى غضب الحليم الذي قد يتأخر لكنه عندما يندلع يكتسح كل شيء، والمدهش أن كل الثورات المصرية (على الأقل في العصر الحديث) قد اندلعت فجأة بعد فترات من السكون الظاهري التي قد يظن معها أن مقاومة الناس قد ماتت.

أما الحالة الثانية التي يثور فيها المصريون، فتحدث عندما يتأكدون من صدق زعيمهم. عندئذ يندفعون وراءه مهما كان السبب وقد كان التفاف الشعب المصري كله حول سعد زغلول وجمال عبد الناصر أقرب مثال على ذلك: فبمجرد أن يشعر المصريون بصدق الزعيم فإنهم يمنحونه ثقتهم ويساندونه بإخلاص تام، بل إن الوعي السياسي الشعبي يصل عندئذ إلى درجة مذهلة حقا.. فمقاطعة الفلاحين المصريين الأميين للجنة ملنر البريطانية التي جاءت رغما عن إرادة الزعيم سعد زغلول المنفي، وذلك التدفق التلقائي لملايين المصريين في الشوراع بمجرد سماعهم لاستقالة عبد الناصر في ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧.. بل وخروج مصر كلها عن بكرة أبيها لتودع جمال عبد الناصر إلى مثواه الأخير برغم الهزيمة والاحتلال، ولن أنسى نشيد جندي الحراسة الذي ظل واقفا بانضباط عسكري صارم حتى وجد نعش عبد الناصر أمامه فإذا به يلقي بسلاحه ويرتمي على النعش ويقبله باكيا بحرارة وكأنه يبكي أباه.. هذه الومضات التاريخية الحاسمة تؤكد أن وعي المصريين أعمق وأكثر تعقيدا بكثير مما يبدو لأول وهلة.. ولعلنا نحتاج إلى هذا الفهم للطبيعة المصرية لكي لا نقع في خطأ التقليل من رد فعل المصريين على الانتهاكات التي تتوالى عليهم هذه الأيام، المصريون يشعرون بالعجز والإهانة وهم يرون إخوانهم في فلسطين يُقتلون كل يوم وحكامهم لا يفعلون شيئًا إلا التصريحات المهدئة، والمصريون يشعرون بالظلم عندما ترفع الحكومة أسعار كافة السلع فتجعل الحياة مستحيلة عليهم وتطلب من الفقراء أن يدفعوا ثمن فساد الكبار وفشلهم في الحكم، والمصريون يدركون تماما أن مصر بلد غني أفقره السلب والنهب وأن الذين يطلبون منهم شد الأحزمة على البطون قد حققوا ثروات هائلة هم وأولادهم وأعوانهم.. كل ذلك يعتمل في نفس كل مصري لكنه لا يظهر على السطح حتى الآن.. على أن دوام الحال من المحال.

في الدول الديمقراطية يتم انتخاب الحكومة لفترة محددة تتم في نهايتها محاسبتها على إنجازاتها أو أخطائها، وطبقا لأدائها يعاد انتخابها أو يتم إقالتها ويأتي بدلا منها حكومة

جديدة بأفكار جديدة وأداء أفضل أما في بلادنا فإن أهل الحكم يتولون السلطة على طريقة أبو طربوش.. فالاستفتاءات والانتخابات سابقة التجهيز ومجلس الشعب أعضاؤه موافقون بالإجماع والمنافقون مستعدون في أي لحظة لكتابة وثيقة مبايعة بالدم، والإعلام والصحافة القومية مهمتهم الإشادة بالإنجازات الجبارة وإبراز الخطب واللقاءات التاريخية. وهكذا لا يتمكن الشعب أبدا من محاسبة حاكمه.. من عشرين عاما دعا أهل الحكم عندنا إلى مؤتمر اقتصادي موسّع عُقد تحت شعار مصر عام ٢٠٠٠ واشترك في المؤتمر عشرات الاقتصاديين المصريين واتخذوا توصيات قيل إنها سوف تنفذ بحذافيرها بل وأكدت الحكومة وقتها أنها قد وضعت خطة إستراتيجية كبرى للنهوض بالاقتصاد المصري وأن كل شيء محسوب بأرقام دقيقة لا تعرف الخطأ وأكد المسئولون أن مصر سوف تدخل الألفية الجديدة وقد صارت قوى ناهضة مثل النمور الآسيوية وألقيت الخطب الرنانة ودبجت مقالات المديح وأقيمت الاحتفالات فغنى ورقص الراقصون بهذه المناسبة الرائعة.. وها نحن بعد عشرين عاما كاملة نجد حالتنا أسوأ بكثير مما بدأنا فقد تراكمت الديون الخارجية والداخلية وانهارت قيمة الجنيه وبالتالي قلّت قوته الشرائية وارتفعت أسعار السلع الأساسية وتفشت البطالة بمعدل غير مسبوق حتى سقط أكثر من نصف المصريين تحت خط الفقر، أولًا يعتبر كل هذا دليلا قاطعا على فشل الطريقة التي تحكم بها مصر؟!.. أولًا يقتضي العقل والمنطق أن يتنحى الذين أوقعونا في هذه المحنة ويتركوا الفرصة لآخرين لعلهم يصلحون ما أفسدوه؟!.. أولم يجعلهم فشلهم الذريع يفكرون مرة في الاستقالة من مناصبهم؟!.. أتمنى حقا أن ندرك أنه بدون الإصلاح السياسي وتطبيق ديمقراطية حقيقية سوف تظل بلادنا تنحدر من سيئ إلى أسوأ.

كلمات للتأمل:

* «بعد ربع قرن كامل من المساعدات المالية الهائلة لمصر من الولايات المتحدة والدول الغربية.. تبين أن محاولة الحكومة المصرية للاكتفاء الذاتي والمنافسة العالمية قد فشلت تماما»

صحيفة الواشنطن بوست

* «ديون مصر الخارجية في الحدود المسموح بها عالميا..»

الرئيس محمد حسني مبارك

* «الأنظمة الديكتاتورية الفاسدة هي السرطان الذي ينهش في دول الشرق الأوسط ويعطل نهضتها»

الصحفي البريطاني روبرت فيسك

* «لقد دعوت الناخبين الفرنسيين إلى الموافقة على تقليل فترة رئيس الجمهورية إلى ٥ سنوات فقط بدلًا من ٧ سنوات لأن فترة السنوات الخمس تعطي المواطنين فرصة أكثر لاختيار الرئيس بحرية كما أن فترة ٧ سنوات طويلة فعلا بالنسبة لأي دولة».

الرئيس الفرنسي چاك شيراك

* «الاستفتاء على منصب رئيس الجمهورية في مصر لا يجوز أن يخضع للإشراف القضائي»

كمال الشاذلي

مجرد تذكير.. بأن لنا كرامة(*)

أعتذر مقدما لأن السؤال الذي أطرحه غير مهذب..

نفترض، يا عزيزي القارئ، أنك متزوج ولديك أطفال، وأنك فقير وحياتك صعبة جدا لأنك لا تكسب ما يكفى أسرتك.. ثم حدث أنك وزوجتك قد ذهبتما إلى حفلة ما حيث التقيتما برجل مليونير أخذ يطيل النظر إلى زوجتك وإذا به في نهاية الحفلة يعرض عليك الصفقة الآتية: أن ينام مع زوجتك ليلة واحدة فقط.. مقابل مليون جنيه سوف يدفعها لكما مقدما ثم يختفي بعد ذلك من حياتكما إلى الأبد.. لو تعرضت لهذا الموقف فإنك.. إما أن تثور لكرامتك وترفض مجرد التفكير في هذا العرض المهين وإما أن تفكر فيه على النحو التالي: إن رفض العرض يعني ببساطة أن تظل فقيرا طوال عمرك.. ماذا تفيدك شعارات الشرف والكرامة وأنت لا تجد ما تطعم به أولادك؟.. ثم إنها ليلة واحدة فقط تعير زوجتك فيها إلى هذا الثري ولن يعرف أحد بالأمر إطلاقا، بعد ذلك تعود زوجتك إليك سليمة صحيحة الجسد وكأنها لم تمس ومعها مليون جنيه تمنحك مع أسرتك الحياة السعيدة إلى الأبد.. كان هذا موضوعا لفيلم شهير أنتجته هوليود من سنوات بعنوان «عرض غير مهذب».. والفيلم ينبهنا إلى قضية مهمة حقا وهي أننا جميعًا نعيش دائمًا هذا الاختيار الصعب: بين الشرف والمال، بين المبدأ والمصلحة، وهذا الاختيار يكشف عن نوعين من الناس: نوع لا يمكن أن يفرط في كرامته مهما تكن المغريات ونوع آخر، على استعداد دائم للتفاوض، وهو سيتنازل عن كرامته إذا كان المقابل مجزيا، وهذا النوع الأخير يزعم دائمًا أن تفكيره متطور وأنه يتسم بالواقعية والمرونة ويتهم النوع الأول (المتمسك بالمبدأ) بأنه متشدد ومنغلق،

(*) العربي ١٢/ ٢٠٠٤.

يعيش في الأوهام ويرفع شعارات بالية.. والحق أن الاختيار بين الكرامة والمصلحة المادية لا يتعرض له البشر فقط وإنما تجتازه الأمم أيضا.. والتاريخ يعلّمنا أن الأمم كلها قد مرّت بلحظات عصيبة كان عليها أن تختار بين شرفها ومصالحها المادية، وأن الأمم العظيمة انحازت دائمًا إلى الحفاظ على شرفها مهما يكن الثمن.. وقد ألحّت هذه الأفكار على ذهني وأنا أتابع التنازلات المهينة التي قدمتها الحكومة المصرية لصالح إسرائيل خلال الأسابيع الماضية: فقد بدأ الأمر بقتل ثلاثة جنود مصريين عمدا بأيدي الإسرائيليين فماذا فعلت حكومتنا؟ لم تطالب بتعويضات لأسر الشهداء ولم تطالب بمحاكمة دولية للقتلة بل ولم تطلب حتى حضور التحقيق الذي قال الجيش الإسرائيلي إنه سيجريه.. وقد أعلن المسئولون المصريون أنهم قد قبلوا الاعتذار الذي قدمه شارون وتفهموا أسبابه.. والحق أن اعتذار شارون عن قتل أبنائنا يعتبر في حد ذاته إهانة إضافية لكرامتنا جميعًا.. فالإنسان عادة ما يعتذر عن الأخطاء البسيطة كأن يتأخر عن موعد أو ينسى عيد ميلاد صديق، أما القتل العمد للأبرياء فيشكل جريمة لا يعتذر عنها وإنما يحاكم من اقترفها ويعاقَب عليها، لكن المسئولين عنا لا يريدون إغضاب إسرائيل وأمريكا حتى لو كان الثمن دماء المصريين.. وقد فاجئونا بعد ذلك بأيام بقرار الإفراج عن الجاسوس عزام مع أنه اعترف بالتجسس وحوكم وأدين أمام القضاء المصري، وكل الحجج التي تسوقها الحكومة لتبرير الإفراج عن عزام لا تقنع طفلا صغيرا: فإذا كان حكامنا حريصين على مصير الطلاب المحتجزين لدى إسرائيل فقد كان الأحرى بهم أن يهتموا بحقوق الشهداء، ولا يمكن لمن يفرط في حق الشهداء أن يقنعنا بأنه خائف على المعتقلين. لكنه تفريط آخر في كرامتنا الوطنية ولم تمض أيام حتى فاجأنا حكام مصر بتوقيع اتفاقية اقتصادية تربطنا إلى الأبد بإسرائيل التي يبدو أن حكامنا يكافئونها على قتلها لأبنائنا وانتهاكها لسيادتنا.. والمدهش أن حكامنا عندما يدافعون عن الاتفاقية المشينة يتحدثون فقط عن المكاسب المالية التي يزعمون أنها ستجلبها علينا.. وكأن كرامة مصر لا تهمهم إطلاقا بل إنهم يسخرون علنا من الحديث عن هذه الكرامة والمقاومة باعتبارها شعارات بالية ويؤكدون أن العالم قد تغير وأهم شيء الآن أن نبحث عن أكل العيش بغض النظر عن أي اعتبار آخر.. وهنا يجب أن نسجل أن منطق «المنفعة بدلا من الكرامة» قد أثبت فشله نهائيا وكان أنور السادات أول من استعمله عندما وقّع اتفاقية كامب ديفيد وأكد للمصريين أن تخلي مصر عن

واجبها القومى سوف يؤدى بنا إلى الرخاء والسعادة الكاملة، والذين عاصروا تلك الفترة لا شك يذكرون كيف ألح الإعلام الرسمي على أن الصلح مع إسرائيل سوف يجعل المصريين من أغنى شعوب العالم ويمنح كل مصري منزلا وحديقة وسيارة.. وها نحن بعد ربع قرن فماذا حدث؟ ازدادت حياة المصريين بؤسا وتفشت البطالة وسقط أكثر من نصف المصريين تحت خط الفقر.. ولو أننا احتكمنا إلى الأرقام لتأكدت لنا الحقيقة: إن الاقتصاد في مصر المقاتلة كان أفضل منه بكثير في مصر المهادنة التي فرطت في كرامتها وهكذا دفعنا حكامنا إلى التنازل عن كرامتنا من أجل لقمة العيش فكانت النتيجة أن خسرنا الكرامة ولقمة العيش معا.. إن الطريقة التي تحكم بها مصر لا بد أن تؤدي إلى التفريط في كرامتها، فالذين يحكمون المصريين بالقمع والاعتقال والتعذيب لا يتوقع منهم أن يهتموا بثلاثة مصريين قتلتهم إسرائيل بينما عشرات المواطنين يقتلهم النظام نفسه تحت وطأة التعذيب البشع في مراكز أمن الدولة وأقسام الشرطة.. إن الحاكم المنتخب فقط هو من يحترم مواطنيه لأنهم هم الذين اختاروه في موقع السلطة ويستطيعون إقصاءه عنها إذا أرادوا.. أما من يحكم بلاده إلى الأبد عن طريق قانون الطوارئ والأمن المركزى واستفتاءات ٩٩٪ فمن الطبيعى أن يرى فيمن يحكمهم رعايا بلا حقوق إلا ما يتفضل به عليهم.. إن الطريق إلى استرداد كرامتنا يبدأ من الداخل ويوم أن ننتخب بإرادتنا من يحكمنا وننعم بديمقراطية حقيقية تجعلنا مواطنين لا رعايا.. يومئذ سوف يفكر أي جندي إسرائيلى، أكثر من مرة، قبل أن يصوب سلاحه ناحية مصر.



أشعر بالحزن من أجل السيدة وفاء قسطنطين، وبالرغم من تضارب الروايات حولها فإنها جميعًا تزيد من تعاطفي معها: فلو أن السيدة وفاء لم تعد تحب زوجها وتريد الانفصال عنه أو حتى تريد أن تبدأ حياة جديدة مع زوج آخر، فمن حقها ـ وحدها ـ أن تقرر ما تفعله بحياتها الخاصة، ولو أنها اقتنعت بمبادئ الإسلام وتريد أن تتحول إليه فمن أبسط حقوقها أن تعتنق الدين الذي تريده.. والقضية هنا ليست الإسلام أو المسيحية لكنها حق مواطنة مصرية في اختيار حياتها ومعتقداتها، ولو كان الوضع معكوسا وكانت السيدة وفاء مسلمة تريد اعتناق المسيحية وحدث لها ما حدث لما نقص تعاطفي معها ذرة واحدة..

يفترض أننا نعيش في بلد يكفل حرية العقيدة، ومعنى ذلك ببساطة أن يستطيع أي مواطن تغيير عقيدته الدينية بدون ضغط أو إكراه، لكن حرية العقيدة في مصر معطلة مثل بقية الحريات.. وقد تدخلت في حياة وفاء الخاصة كل أنواع السلطة في مصر: بدءا من النائب العام ومباحث أمن الدولة والمباحث العامة وحتى الحزب الوطني والكنيسة نفسها، مع أن وفاء قسطنطين ليست قاتلة أو لصة أو متهمة في الآداب، لكنها إنسانة شريفة وأمينة وشجاعة أرادت أن تنفذ الأفكار التي اقتنعت بها وأن تفعل ما تريده في النور حتى تنعم بالسلام الداخلي الذي تحض عليه الأديان جميعًا.. وقد تم الضغط على وفاء عن طريق رجال الدين وضباط أمن الدولة الذين أحضروا بناتها أمامها ليضغطن عليها حتى انهارت في النهاية ورضخت لما يريدون لها.. وهذا القمع النفسى البشع لا يمكن أن يحدث أبدا في بلد ديمقراطي.. على أن مأساة وفاء قسطنطين تطرح أيضا ما يسمى بالمشكلة القبطية.. والواقع أن التمييز ضد الأقباط حقيقة ليس بوسع الدولة إنكارها. ولكن الحقيقة أيضا أن المصريين جميعًا (مسلمين وأقباطا) يعانون من التمييز والتهميش، وهم جميعًا ضحايا لظلم الدولة.. فالاعتقال والتعذيب والقمع وتزوير الانتخابات تمارسه الدولة بلا تفرقة بين المسلم والقبطي والمناصب التي تحجبها الدولة عن الأقباط تحجبها أيضا عن المسلمين مهما تكن كفاءتهم، وتخص بها الكبار وأولادهم ومحاسيبهم والأفاقين من أعضاء الحزب الوطني الذين يكتبون مبايعات بالدم من أجل الرئيس مبارك.. التمييز ضد الأقباط ليس دينيا وإنما هو تمييز سياسي ضد المصريين جميعًا.. والتناقض الأساسي ليس بين المسلمين والأقباط وإنما بين نظام الحكم والشعب المصري بكل طوائفه ومن هنا فإن المشكلة القبطية لا يمكن أن تحل إلا بحل المشكلة المصرية أولًا.. عندما تتحقق الديمقراطية ويتساوى المواطنون جميعًا أمام القانون عندئذ فقط، سينتهي التمييز ضد الأقباط.. والمسلمين أيضا.

كلمات للتأمل:

* «الضرب بالعصي والكرابيج والكابلات والسلاسل الحديدية، والصعق بالكهرباء والاعتداءات الجنسية.. من الممارسات اليومية المعتادة للشرطة المصرية وقد بلغ عدد الذين ماتوا من التعذيب هذا العام في أقسام القاهرة وحدها ٤٣ قتيلا»

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان

* «اللى شفناه في أمن الدولة أفظع من أبو غريب..أنا شفت بعينى واحد عريان جلده متقطع وغرقان في دمه والأسلاك اللي كهربوه بها انعقدت على رقبته ورجليه والمخبرين مش عارفين يفكوها قاموا سحلوه بالسلك.. اضطريت أجيب منهم بنسة والحمد لله ربنا وفقني وقدرت أفك السلك وبعدين قلت لهم تفضلوا اسحلوه..»

مواطن من العريش لجريدة العربي

* «أول ما دخلت أمن الدولة شميت ريحة جلد بيتحرق ولقيت رجالة عريانين وبزازهم سايحة.. كهربوهم في بزازهم لغاية لما ساحت وغرقت دم»

مواطن من العريش لجريدة الأهالي

* «أؤكد لكم أن الالتزام بحقوق الإنسان.. واحدة من أسمى أولوياتي»

الرئيس مبارك لمجلة دير شبيجل الألمانية.

تمادوا في جرائمكم فقد اقتربت النهاية!(*)

عن حكومة تحتكر الإرهاب: حكر أبو دومة

فى وسط القاهرة، بالقرب من كورنيش النيل، بجوار الفنادق والمبانى الفاخرة التي يسكنها الأغنياء، توجد منطقة عشوائية اسمها.. حكر أبو دومة.. يعيش فيها آلاف المصريين بلا ماء ولاصرف صحي ولا خدمات من أي نوع، وهم جميعًا معدمون، الرجال عاطلون عن العمل والأطفال يتسولون والنساء يعملن خادمات وربما في الدعارة، لم أسمع عن حكر أبو دومة حتى رأيت فيلما تسجيليا عنه للمخرجة الشابة الموهوبة إيناس سيف، التي حملت كاميرتها لتنقل لنا الحياة اليومية لهؤلاء البؤساء، فرأينا كيف يصطف أهل أبو دومة جميعًا كل صباح، نساء ورجالا وأطفالا، في طابور طويل حتى يتمكنوا من مجرد غسل وجوههم في الحنفية الوحيدة البعيدة جدا عن منطقتهم، رأينا كيف يعيش كثير من سكان الحكر مع الحيوانات في مكان واحد، وكيف تنحشر أسر بأكملها في حجرة واحدة، قال أحد سكان الحكر في الفيلم: نحن لسنا أحياء بل ميتون.. كثيرا ما أفكر أن الموت بالنسبة لنا رحمة.. وتساءل بائس آخر: هل هذه بلدنا فعلا أم إن الحكومة لا تعتبرنا مصريين؟ وظهرت في الفيلم سيدة تنام مع زوجها وخمسة أطفال في حجرة واحدة، فشرحت لنا كيف يستلقون آخر الليل بالعرض، البعض على الأرض والبعض على السرير الوحيد، حتى يحشروا أجسادهم المنهكة ويناموا.. ثم صمتت السيدة قليلًا وقالت بحزن: طبعا في ظروفنا دي أولادنا لازم يطلعوا مجرمين.. أمال يعني يطلعوا دكاترة..؟.. ماذا فعلت الدولة لإنقاذ هؤلاء؟.. لاشيء على الإطلاق.. كل ما فعلته الحكومة أنها زرعت غابة من النخيل والشجر

(*) العربي ٣١/ ٧/ ٢٠٠٥.

حول حكر أبودومة حتى تخفيه عن الأنظار وكأنه لا يوجد، وعندما يمر في المنطقة أشخاص مهمون تدفع وزارة الداخلية بعشرات من جنود الأمن المركزى ليحاصروا حكر أبو دومة حتى لا يطل البؤساء برءوسهم على موكب الزائر الكبير فيفسدوا المنظر الجميل المعد لاستقباله.. فكرت وأنا أشاهد الفيلم: ماذا لو تسلل شاب من فقراء أبو دومة.. إلى فندق هيلتون رمسيس المجاور ثم قتل أحد النزلاء واستولى على ماله..؟ ستكون جريمة بشعة، ولكن هل من العدل أن نعتبر هذا الشاب وحده مسئولا عنها..؟ أم إن الدولة التي تسببت في إفقاره وقمعه ويأسه.. تعتبر شريكا في الجريمة..؟ تذكرت حكر أبودومة وأنا أتابع تفجيرات شرم الشيخ.. حزنت، مثل المصريين جميعًا، من أجل الأبرياء الذين أزهقت أرواحهم بلاذنب، لكني تساءلت: ما الذي يدفع شابا في مقتبل العمر، إلى الانتحار بتفجير نفسه وقتل أناس لا يعرفهم بطريقة عشوائية..؟.. هناك في رأيي أكثر من إجابة:

١ ـ عندما تم اغتيال أنور السادات.. كتبت جريدة الجارديان: إنها حقا جريمة فظيعة ولكن، يجب على القارئ الإنجليزي أن يتذكر أن السادات مثل أي حاكم عربي لم يترك لمواطنيه طريقة أخرى لتغييره..» هذه الجملة تفسر لنا لماذا يظهر الإرهاب عادة في البلاد الديكتاتورية..؟ هل سمعنا عن شاب هولندي أو سويدي يفجر نفسه ليغتال رئيس الجمهورية أو أحد الوزراء هناك..؟.. المواطنون في البلاد الديمقراطية لا يحتاجون إلى قتل الحاكم.. لأنهم ببساطة يستطيعون تغييره في أي وقت عن طريق صناديق الاقتراع.. مصر يحكمها نظام لم ينتخبه أحد لكنه جثم على صدور المصريين ربع قرن وهو عازم على البقاء إلى الأبد.. ألا يعد اغتصاب السلطة إرهابا..؟

ألا يعد تزوير إرادة المصريين في الانتخابات إرهابا..؟ والعبث بالدستور من أجل تمكين الرئيس وابنه من حكم مصر كما يريدان.. ألا يعتبر إرهابا..؟.. أليس من الطبيعي أن يُقْدمْ الناس على عمليات إرهابية من أجل تغيير الحكم بالقوة، إذا انعدمت أمامهم فرص التغيير السلمي..؟

٢ ـ يعيش في مصر طبقا للأرقام الحكومية ٣٧ مليون شخص تحت خط الفقر و٧ ملايين عاطل، وفي القاهرة ذات الـ ١٥ مليونا، يعيش واحد من كل ثلاثة مواطنين في مناطق عشوائية، صار ملايين المصريين يائسين تماما من المستقبل: لا عمل ولا مسكن

ولا فرصة في الزواج ولا التعليم ولا حتى العلاج إذا مرضوا.. إفقار الناس وإذلالهم وحرمانهم من حقوقهم البسيطة في الحياة بينما الحكام وأتباعهم ينعمون بثروات أسطورية..ألا يعتبر كل ذلك إرهابا.. من الطبيعي أن يقابله إرهاب مضاد..؟

٣ ـ تستعمل أجهزة الأمن أبشع وسائل القمع في التعامل مع المصريين، هناك على الأقل أربعون ألف معتقل قضوا في الحبس أعواما طويلة بلا تهمة ولا محاكمة.. أبشع أنواع التعذيب تمارس يوميا ضد المشتبه فيهم السياسيين والجنائيين جميعًا، اعتاد ضباط الشرطة التعذيب حتى أصبحوا يمارسونه لأهون سبب، فيكفي أن يتوسط شخص مهم لدى أحد الضباط حتى يقوم بالتنكيل بخصومه بغض النظر عن وجه الحق في النزاع.. كل عام يموت من شدة التعذيب عشرات المصريين في مقار الأمن التي تحولت إلى سلخانات بشرية.. في أعقاب تفجيرات طابا الأخيرة تم القبض على ٤ آلاف مواطن من سيناء.. وقد أجمعت التقارير الصادرة عن منظمات حقوق الإنسان، على أن ضباط أمن الدولة، بالإضافة إلى ضرب المعتقلين وتعليقهم كالذبائح وصعقهم بالكهرباء في أعضائهم التناسلية، كانوا يأمرون بإحضار زوجات المعتقلين وأمهاتهم وأخواتهم ثم يخلعون ثياب الواحدة منهن حتى تتعرى تماما ويأمرون الجنود بالعبث بأيديهم في جسدها أمام زوجها أو ابنها حتى يدفعوه إلى الإدلاء بمعلومات..؟ هل يوجد إرهاب في العالم أبشع من هذا..؟ ماذا يتوقع النظام المصري من رجل رأى الجنود ينتهكون عرض زوجته أمامه..؟ هل سيهدي إليهم الورود..؟.. أم إنه سيفعل أي شيء من أجل الانتقام لشرفه وإنسانيته المهدرة..؟

٤ ـ بقيت الأسباب الدينية للإرهاب.. والحق أن المد الإسلامي في مصر، في جانب منه، ظاهرة اجتماعية تعود إلى تفشي الفقر وازدياد الفوارق الطبقية بشكل فاحش منذ السبعينيات، الفقراء الذين فقدوا الأمل في العدل لم يعد لهم سوى ربنا سبحانه وتعالى لينصفهم في الآخرة بعد ما ظُلِموا في الدنيا.. سبب آخر لهذه الظاهرة: أن ما لايقل عن ربع المصريين قد عملوا في الخليج وعادوا من هناك بمفهوم شكلي مغلق للإسلام يحصر التدين في المظهر والعباءات.. فيكون واجب المسلم أن يصلي ويصوم ويخرج الزكاة ويلتحي ويرتدي جلبابا ويدفع زوجته وبناته إلى التحجب أو التنقب.. بينما يظل قليل الاهتمام بحقوقه السياسية، لأنه طبقا لهذا المفهوم يجب على

المسلمين طاعة الحاكم حتى وإن كان ظالما ما دام ينطق بالشهادتين ويؤدي الصلاة.. وقد تبنى النظام المصري هذا المفهوم الخاطئ للإسلام وروج له سنوات عديدة.. وخلال ثلاثين عاما لم يخل التليفزيون المصري يوما واحدا من مشايخ السلطان الذين يدعون المسلمين إلى التدين الشكلي.. كان الهدف بوضوح إسقاط المصريين في حالة من الغيبوبة تجرهم إلى قضايا ونزاعات فرعية ينشغلون بها عن محاسبة الحكم المستبد.. وقد ظل الإسلام الشكلي يصب في صالح النظام حتى جاءت لحظة انقلب فيها السحر على الساحر وبدأ الوجه التكفيري القبيح لهذا المذهب يهدد النظام بشدة.. وحاول النظام أن يتخلص من الشبح الذي استحضره بيديه ولكن بعد فوات الأوان.. فقد أصبح الفكر التكفيري مرتبطا بظروف موضوعية لا بد من تغييرها حتى يتغير. إن الدعوة إلى تصحيح المفاهيم الإسلامية، قد تكون مشفوعة بالنوايا الطيبة لكنها تظل وحدها غير مجدية، فالفكر الديني لا يمكن مناقشته بعيدًا عن سياقه الاجتماعي.. ولو أخذنا نموذج السكان في حكر أبودومة.. فإن حياتهم البائسة ستدفعهم قطعا إلى تبني أكثر المذاهب الدينية تشددا، لأنها تعبر أكثر من سواها عن شعورهم بالسخط ورغبتهم في الانتقام ممن تسببوا في بؤسهم.. الدعوة إلى الإسلام الصحيح يجب أن يسبقها رفع الظلم وتحقيق العدل الاجتماعي.. عندما تصل المياه العذبة والصرف الصحي ويتم بناء مساكن تليق بالآدميين في حكر أبودمة.. عندئذ فقط سيتخلى الفقراء عن أفكارهم المتطرفة.

إن موجة الإرهاب التي تعصف بمصر الآن، بقدر ما هي مؤسفة، ليست سوى رد فعل طبيعي لإرهاب أشنع بكثير يمارسه النظام المصري ضد مواطنيه منذ عقود.. عندما يحظى المصريون بحياة عادلة كريمة ويختارون من يحكمهم بحرية.. عندما تتحقق الديمقراطية ويتوقف إرهاب الدولة سيتوقف الإرهاب ضدها.

كلمات للتأمل:

* «مصادرنا الرسمية، القوية، تؤكد مقتل السفير إيهاب الشريف في العراق.. بنسبة تتراوح من ٩٤ إلى ٩٦ في المائة..»

أحمد أبو الغيط

جريدة الوفد

* «الإسلام يدعو إخواننا في العراق إلى عدم تدمير أنابيب البترول»

محمد طنطاوى شيخ الأزهر

جريدة المصري اليوم

* «الضابط النقيب كريم راتب ضرب زوجتي وهددها بالاغتصاب أمامي ثم دخل وراءها إلى حجرة النوم وجذبها لينزل بها عارية للشارع فهربت منه وقفزت من النافذة فسقطت جثة هامدة.. صعدت روحها إلى ربنا سبحانه وتعالى تشكو له الظلم..»

المواطن سيد شيخ العرب ـ لجريدة الأهالي

* «طوال حياتي لا أحب الرفاهية.. ولم أكره قدر الذين يمدون أيديهم إلى مال الغير ولن أداري على انحراف حتى ولوكان من أقرب الناس إليّ..»

الرئيس مبارك عام ١٩٨١

جريدة الدستور

* «شركة واحدة يملكها جمال مبارك اسمها ميدانفستمنت.. يبلغ رأسمالها ٧٥٠ مليون جنيه...»

جريدة الدستور

حفلة الانهيار الكبير(*)

لا التعتيم الإعلامي الرسمى ولا بيانات وزارة الداخلية ولا مقالات المنافقين.. لا شيء بإمكانه التقليل من فداحة ما حدث في وسط القاهرة خلال العيد.

فقد تجمع أكثر من ألف شاب بين شارعي عدلي وطلعت حرب وبدءوا في مهاجمة النساء وهتك أعراضهن بدون تمييز على مدى أربع ساعات كاملة.. أي امرأة ساقها حظها العاثر للمرور في المنطقة تلك الساعة، سواء فتاة أو امراة أو سيدة مسنة، سافرة أو محجبة أو منتقبة، سواء تمشي وحدها أو مع صديقاتها أو حتى مع زوجها.. كانت ستلقى نفس المصير.. مئات الشبان المسعورين جنسيا سيهاجمونها، يحاصرونها بأجسادهم تماما، تمتد عشرات الأيدي لتنزع ملابسها حتى تصير عارية، ثم يهتكون عرضها بتحسس جسدها والعبث بعورتها.. وقد تكاتف بعض الأهالي فأنقذوا فتاة أو اثنتين بعد أن تمزقت ملابسهن وسقطن عاريات على الأرض بينما هتك المسعورون أعراض بنات عديدات لا يعرف عددهن، هؤلاء البنات اللاتي هتكت أعراضهن لسن ساقطات ولا منحرفات وإنما هن مواطنات مصريات عاديات، مثل زوجتي وزوجتك وابنتي وابنتك، جريمتهن الوحيدة أنهن صدقن أننا نعيش في بلد محترم فخرجن يتنزهن يوم العيد.. هذه الجريمة البشعة حدثت أمام عشرات الشهود، وسجلها مصورون عديدون وزعوا صورهم على شبكة الإنترنت، ولقد رأيت الصور فأصابني الحزن على بلادي، لن أنسى أبدا الفتاة المحجبة التي ظهرت في الصورة وقد تمزقت ملابسها تماما ونسي المسعورون أن ينزعوا عنها غطاء الرأس، وراحت عشرات الأيدى تعبث

(*) العربي ٥/ ١١/ ٢٠٠٦.

بجسدها العارى، لن أنسى وجهها الحزين المتألم وشرفها ينتهك في الشارع، بعد أن قاومت بقدر استطاعتها هجوم عشرات الأيدي المغتصبة ثم سقطت في النهاية.

إن ما حدث ليس مجرد جريمة وإنما كارثة أخلاقية واجتماعية يجب أن نتوقف عندها لنفهم ماذا يحدث في مصر:

١ ـ هؤلاء الشبان قادمون من مناطق فقيرة وعشوائية، من قاع المجتمع المصري.. وقد تجمعوا أولًا ليحجزوا تذاكر في حفلات السينما ولما اكتشفوا نفاد التذاكر اجتاحهم غضب بالغ فقاموا بتكسير واجهة سينما مترو، عندئذ انتبهوا لأنه لا توجد قوات أمن في المنطقة كلها وأحسوا بأن كثرتهم تمنحهم قوة وتجعلهم بمنأى عن أي عقاب. فأطلقوا العنان لمشاعرهم البدائية التي انحصرت في هتك عرض أي امرأة يجدونها أمامهم. وكانوا بعد أن ينتهوا من الإجهاز على إحدى البنات يصيح أحدهم فيه واحدة تانية فيردد الجمع وراءه واحدة تانية.. واحدة تانية ويندفعون نحو ضحيتهم الجديدة.. هذه الطريقة الهيستيرية في العدوان الجماعي هي مجرد بروفة لفوضى شاملة قد تندلع في أي مكان وأي لحظة، ولقد أكد بعض المواطنين على شبكة الإنترنت أن ما حدث في وسط البلد قد تكرر بنفس الطريقة أثناء العيد في الزقازيق والمنصورة.. إن الذين اندفعوا في عدوان جماعي على الأعراض لإشباع جوعهم الجنسي سيندفعون بلا شك، في أقرب فرصة، إلى السلب والنهب وإحراق الممتلكات.

٢ ـ السعار الجنسي الذي انتاب هؤلاء الشبان لا يعبر فقط عن الكبت الجنسي.. فالإنسان كثيرا ما يدفن داخل رغبته الجنسية إحساسه باليأس والاحباط والظلم والضآلة واللاجدوى.. وكلها مشاعر يعاني منها الفقراء في مصر.. إن هؤلاء المسعورين هم أبناء المعدمين المطحونين الذين يموتون بالفشل الكلوي والتسمم من شرب مياه الصرف الصحي، الذين أصابتهم مبيدات يوسف والي بالسرطان، الذين يحترقون في قطارات الصعيد ويغرقون في عبارات الموت فلا يهتم أحد بموتهم أو حياتهم، إن هؤلاء المسعورين أبناء البطالة والعجز والزحام، يعيشون مكتظين في حجرات ضيقة ومبان عشوائية بلا خدمات ولا مرافق.. إنهم فاقدون لأي أمل في المستقبل، لا عمل ولا زواج ولا حتى هجرة للخارج.. إنهم يعيشون بلا كرامة ويستطيع أي

مخبر أو أمين شرطة أن يعتقلهم ويضربهم ويهتك أعراضهم.. ومما يبعث على التأمل، أن الأسلوب الذي استعمله المسعورون لهتك أعراض ضحاياهم، هو ذاته الذي تستعمله الشرطة المصرية ومباحث أمن الدولة ضد زوجات المعتقلين والمتهمين لانتزاع اعترافاتهم.. إن هذا السلوك العدواني الهستيري، يحمل بلا شك، قدرا كبيرا من الانتقام من واقع قبيح معاد يفتقر إلى أدنى شروط الحياة الإنسانية.. وكأن هؤلاء الشبان باقترافهم لهتك الأعراض الجماعي.. ينتقمون فيمن تسبب في حياتهم البائسة الذليلة.

٣ـ لو أن حفلة جماعية لهتك الأعراض مثل هذه حدثت في الغرب لسارع كثيرون لاتهام المجتمع هناك بالانحلال والتهتك.. أما أن تحدث في مصر فمعنى ذلك أن التدين المنتشر الآن في مجتمعنا يقف عند المظاهر دون المضمون.. لقد كانت لمصر على مدى قرون طريقة في فهم الإسلام، متسامحة ومنفتحة تتسق مع طبيعة المصريين المتحضرة.. واستطاعت مصر دائمًا، بطريقة فذة حقا، أن تحتفظ بإسلامها وانفتاحها على العالم، وكانت المرأة المصرية أول امرأة عربية تتعلم وتعمل وتكتسب احترام المجتمع كإنسان متساوى الحقوق مع الرجل.. حتى كانت نهاية السبعينيات، عندما تعرض المجتمع المصري إلى غزو كاسح من الأفكار الوهابية القادمة من المملكة السعودية.. فمن ناحية استعمل أنور السادات الدين للتغلب على المعارضة اليسارية، واستمر نظام مبارك في دعم الوهابية للاستفادة من الإذعان للحاكم الذي تزرعه في نفوس الناس، ومن ناحية أخرى ارتفعت أسعار البترول عدة أضعاف بعد حرب أكتوبر فاكتسبت السعودية مكانة لم تبلغها من قبل وفرضت طريقتها في فهم الإسلام على مصر والعالم العربي.. ومع ازدياد الفقر الناشئ عن الفساد والاستبداد تدفق ملايين المصريين للعمل في الخليج وعادوا بعد سنوات بالمال والأفكار الوهابية.. واكتسبت قطاعات من المصريين عادات وسلوكيات سعودية لم تعرف أبدا في مصر قبل ذلك.. مثل النقاب واللحى والجلابيب البيضاء وإغلاق المحال للصلاة وخلع الأحذية على أبواب المنازل وغيرها.. والواقع أن الفكر الوهابي لا يرى في المرأة إلا وعاء للجنس وأداة للغواية ووسيلة لإنجاب الأطفال.. أكثر ما يشغل الوهابيين تغطية جسد المرأة وعزلها بقدر الإمكان عن الاختلاط بالمجتمع درءا لشر فتنتها.. هذه النظرة المتدنية للمرأة تنزع عنها الطابع الإنساني وتختصرها في كونها أنثى،

وهي تعتبر أي امرأة فاقدة للإرادة ضعيفة الإحساس بالشرف بحيث يؤدي الاختلاء بها حتما إلى الخطيئة.. المرأة في نظر الوهابيين غير كاملة الأهلية لايجوز لها أن تقود السيارة ولا أن تتجول وحدها بدون رجل يمنع اختطافها أو اغتصابها، وهذه الأفكار برغم أنها تدّعي الحفاظ على الفضيلة إلا أنها في النهاية تؤدي إلى ترسيخ النظرة إلى المرأة باعتبارها غنيمة جنسية، لا يمكن أن ترفض ولا أن تدافع عن نفسها، يجب على الرجل أن يمنعها عن الآخرين أما إذا استطاع أن يحظى بنساء الآخرين ويفلت من العقاب فإنه لن يتردد.. ونذكر هنا أن خطف النساء والأطفال واغتصابهم في السعودية يشكل ظاهرة مخيفة وخطرا حقيقيا يعرفه كل من عاش هناك. وهكذا نكتشف بالمقارنة، أن مصر المنفتحة المعتدلة حتى نهاية السبعينيات، كانت تعبّر عن تدين حقيقي في السلوك والتعامل.. بينما مصر المتجهمة، المتشددة في مظاهر الدين، التي نعيش فيها الآن.. هي بالفعل أبعد ما تكون عن روح الدين، ليس لديها منه إلا قشور انتقلت إليها كالعدوى، من مجتمعات بدوية مغلقة متخلفة ومنافقة.

٤ ـ كشفت هذه المأساة عن أن وزارة الداخلية لم تعد تعتبر تأمين المواطنين من واجباتها.. إن قوات الشرطة التي تقوم بتفتيش المصريين وتعطيلهم بالساعات في الشوارع لمجرد أن أحدا من أفراد أسرة مبارك أو وزراء نظامه قرر المرور بموكبه.. أجهزة الأمن التي قمعت وضربت وسحلت وهتكت أعراض الذين تظاهروا من أجل الديمقراطية ودعم استقلال القضاة.. هذه الأجهزة القمعية الجبارة لم تفكر في أن تبعث بقوات لتأمين وسط البلد في العيد، بل إن بضعة عساكر وضابطا شابا قد ظهروا في صور الحادثة غير عابئين إطلاقا بحفلة هتك الأعراض القائمة على قدم وساق أمامهم.. عسكري واحد ظل يحتفظ بفطرته الأولى.. عسكرى واحد فقط دفعته النخوة، بمبادرة شخصية منه، إلى خلع حزامه ليصد به جحافل المسعورين فلم تجد شجاعته شيئًا مع كثرتهم وإصرارهم على افتراس ضحية جديدة.. والحق أن تعليق وزارة الداخلية على الكارثة، سواء في برنامج العاشرة مساء أو في جرائد الحكومة.. جاء متناقضا ومتخبطا لدرجة كبيرة، فقد أنكروا ما حدث وقالوا إن قسم قصر النيل لم يتلق بلاغا بهتك العرض.. وكأنما ينحصر واجب رجل الشرطة في الجلوس في القسم لينتظر البلاغات. ونحن نسأل السيد حبيب العادلى: هؤلاء المسعورون جنسيا، الذين تركهم ضباطك يهتكون أعراض

المواطنات على مدى أربع ساعات كاملة.. ماذا كان سيحدث لو أنهم رددوا هتافات ضد حسني مبارك..؟! ألم تكن جيوش الأمن المركزي ستندفع فورا لتسحقهم سحقا..؟.. هل حماية الرئيس مبارك من الهتافات المعادية أهم عندكم من حماية أعراض المصريات..؟!

إن ما حدث في وسط البلد، يدل على أن الانهيار الكبير قد بدأ بالفعل.. مصر تنهار بينما الرئيس مبارك الذي حكمها ربع قرن، فهبط بها إلى هذا الحضيض، لا يشغله الآن إلا توريثها إلى ابنه. واجبنا جميعًا أن نتحرك لننقذ بلادنا من مصير أسود بدأ يلوح في الأفق. ولن يكون إنقاذ مصر إلا بديمقراطية حقيقية تعيد إلى المصريين آدميتهم وحقوقهم وكرامتهم.. وسلوكهم المتحضر أيضا.

من يفرح مع جمال مبارك؟(*)

١ ـ المصريون طيبون بطبيعتهم يفرحون لأفراح الآخرين ويحرصون على مجاملتهم لكنهم بالقطع لا يستطيعون أن يشاركوا الرئيس مبارك فرحته بزفاف ابنه جمال. هل نتوقع مثلا من أهالي المعتقلين الذين لم يروا آباءهم وأزواجهم لأعوام طويلة أو من الأبرياء الذين يتعرضون لتعذيب بشع وتهتك أعراضهم كل يوم في مباحث أمن الدولة أن يفرحوا بجمال وعروسه؟ هل نتوقع من أهالي ضحايا العبارة أن يشاركوا في الفرح؟ ملايين المصريين، الشباب الهائمون على وجوههم بلا عمل ولا أمل في المستقبل عندما يشاهدون زفاف جمال مبارك لا بد أن يتساءلوا: كم يبلغ المهر الذي دفعه جمال لعروسه؟كم تبلغ قيمة الشبكة؟ ومن أين اشترى العروسان الأثاث من مصر أم من أوروبا؟ كم تبلغ قيمة القصر الذي بناه إبراهيم سليمان للعروسين؟ هل تقاضى الوزير السابق أتعابه عن بناء هذا القصر أم إنه شيده مجاملة للرئيس مبارك؟ هل لهذه المجاملة من مقابل؟ وكم تبلغ ثروة جمال مبارك؟ ومن أين له الشركات العملاقة التي يمتلكها؟

لماذا يقضي الشباب المصري أجمل سنوات عمره مغتربا يتحمل الإهانات اليومية في دول الخليج لكي يوفر في النهاية ثمن شقة صغيرة ليتزوج فيها بينما يبدو السيد جمال مبارك وكأنه ملك مصر وما عليها؟ كل ذلك يقودنا إلى سؤال آخر: كم يتقاضى السيد رئيس الجمهورية كمرتب عن عمله؟ وكم تنفق رئاسه الجمهورية على الرئيس وأسرته؟ وكم قصرا واستراحة يملكها الرئيس مبارك؟ هل بنى هذه القصور من ماله أم

(*) الكرامة ١٠/ ٤/ ٢٠٠٧.

من مال الدولة؟ كم تبلغ ميزانية رئيس الجمهورية؟ هل تخضع هذه المبالغ لأي نوع من الرقابة؟ بعبارة أوضح أين تقع الحدود بين المال العام والمال الذي ينفق الرئيس مبارك منه على نفسه وقصوره وطائراته وأسرته وأفراح أنجال أنجاله؟ المصريون جميعًا يتساءلون.. وأظنهم يعرفون الإجابة.

٢ ـ صديقي الدكتور حامد عبد الله أستاذ في كلية الطب ومثقف وطني يهتم بشئون بلاده ولذلك فهو يستغل أيه فرصة لمخاطبة الرأي العام حتى يفيد الناس بعلمه. منذ أسابيع حدثت له واقعة غريبة. فقد دعته قناة دبي ليدلي برأيه العلمي في ظاهرة ما يسمى بالحجامة وقد أوحى له معد البرنامج بأنهم عازمون على محاربة هذه الخزعبلات باستطلاع رأي العلم فتحمس الدكتور حامد وذهب إلى البرنامج ليجد المفاجأة الكبرى.. فقد اتخذت المذيعة نشوة الرويني جانب الحجامة ودافعت عنها على طول الخط. بل استضافت رجلا سعوديا زعم أنه حاصل على الدكتوراه في الحجامة من أمريكا !!! وقد اختاروا شابا مسكينا من الجمهور الذي يستأجرونه للتصفيق مقابل حفنة جنيهات ثم خلعوا ملابسه وبدأ الضيف السعودي في ممارسة الحجامة فيه فقطع جلد ظهره نزف دم غزير من الشاب وأخذ يرتعد من الألم والخجل وحاول الدكتور حامد عبد الله أن يعترض على تعذيب الشاب بهذه الطريقة وقال إن الأدوات المستعملة غير معقمة وقد تصيب الشاب بأمراض خطيرة.

وأكد لهم الدكتور حامد وهو مسلم متدين أن الإسلام الحقيقي بعيد عن هذه الخرافات لكن معظم كلام الدكتور حامد تم حذفه في المونتاج لأن الغرض من البرنامج كان الدعوة إلى الحجامة. وقد تقدم الدكتور حامد بشكوى إلى نقيب الأطباء ووزير الصحة اللذين انضما إليه في بلاغ إلى النائب العام يتهم فيه الدجال السعودي بممارسة الطب بغير ترخيص. وقد أثار الكاتب الطبيب خالد منتصر هذه القضية على صفحات صوت الأمة وفي برنامجه الأسبوعي على قناة دريم لكنني أعتقد شخصيا أن هذا الدجال لن يحدث له أي شيء لسبب بسيط؛ أن الإنسان المصري لا قيمة لحياته أو كرامته لدى النظام الحاكم.

٣ ـ هل يستعمل الرئيس مبارك شبكة الإنترنت؟ أنا واثق أنه يستعملها أولًا لأن التعامل مع الإنترنت سهل للغاية ولا يحتاج إلى مهارة خاصة. وثانيًا لأن الرئيس مبارك طيار سابق

وهو بالتأكيد مدرب على استعمال الأجهزة العلمية. سأفترض إذن أن الرئيس يطالع الإنترنت وسأطلب منه أن يدخل على موقع الوعي المصري لصاحبه الصحفي الوطني الشجاع وائل عباس. سوف يرى الرئيس على هذا الموقع أفلاما عديدة تسجل بالصوت والصورة تعذيب مواطنين مصريين على أيدي رجال الشرطة. الأفلام كلها موثقة ووجوه الضباط الجلادين وأصواتهم واضحة والاستدلال عليهم من أسهل ما يمكن.

وباستثناء الضابط إسلام الذي هتك عرض المواطن عماد الكبير. فإن أحدا من هؤلاء الجلادين لم يستدع للتحقيق ولم يقدم للمحاكمة. وهم جميعًا ما زالوا يشغلون وظائفهم ويستمرون في تعذيب المواطنين. سوف يلاحظ الرئيس مبارك أن التعذيب لم يعد يمارس فقط من أجل انتزاع الاعترافات. بل أصبح الضباط يضربون المواطنين ويهينون كرامتهم أحيانا من باب تزجية الوقت والتسلية. بعد أن يشاهد الرئيس مبارك كيف يتم انتهاك آدمية المصريين وأعراضهم وكرامتهم على أيدي الضباط الجلادين لا بد أن نسأله: هل تعتبر نفسك كرئيس مصر مسئولا عن هذه الجرائم؟ وهل تستطيع أن تنام ملء جفونك بينما يتفنن ضباطك في تعذيب الناس؟ ألم تفكر يا سيادة الرئيس في أنك يوما ما ستموت مثل الناس جميعًا.. وسوف يحاسبك الله على أعراض المصريين وكرامتهم التي انتهكت في عهدك؟

٤ ـ انتهت مهزلة العبث بالدستور وانتصرت القوى الوطنية وعجزت الحكومة لأول مرة في تاريخها برغم الإغراء والتهديد عن حشد أي عدد من المواطنين في هذه المسرحية الهزلية. لم يتعد الحضور في الاستفتاء المزوّر نسبة ثلاثة في المائة والوقائع التي تفضح التزوير الفاحش تنشر كل يوم في الصحف. لقد كان هذا الاستفتاء فضيحة كبرى للنظام في الداخل والخارج. والسؤال الآن: ما العمل؟ ماذا يجب علينا أن نفعل حتى نحرر بلدنا من الاستبداد؟ لا أعتقد أن مصر كانت منذ أعوام طويلة مهيأة للعمل الوطني الجماهيري كما هي الآن. إن ملايين المصريين لم يعد بمقدورهم تحمل المزيد من الفقر والقمع والظلم. وهم ينتظرون إشارة البدء ليبدءوا معركة التغيير الحقيقي.

لا بد من مشروع وطني يجتمع حوله الناس ولا بد لهذا المشروع الوطني أن يخرج من هيئة تحظى بالاحترام والمصداقية. ولا أعتقد أن هناك من يصلح لهذه المهمة الوطنية الكبرى أكثر من نادي القضاة. إن الدور العظيم الذي قام به القضاة في حماية الحريات

وفضح التزوير والمطالبة باستقلال القضاء والديمقراطية قد منحهم مكانة عزيزة وغير مسبوقة في قلوب المواطنين. ولا أبالغ إذا قلت إن هشام البسطويسي وزكريا عبد العزيز ومكي والخضيري ونهى الزيني ورفاقهم قد تحولوا في عيون المصريين إلى أبطال قوميين بكل ما للكلمة من معنى، وإذا بدأ هؤلاء القضاة العظام حملة من أجل العدل والديمقراطية فإن أحدا لن يتخلف عنها. أتمنى أن يبدأ القضاة المعركة الحاسمة من أجل التغيير ونحن جميعًا معهم حتى تنال مصر المستقبل الذي تستحقه. ونعيش جميعًا بكرامة كمواطنين أحرار في وطن حر.

كم يساوي الإنسان المصري؟(*)

(١)

أعيش هذه الأيام حكاية عجيبة ومحزنة، يشاركني فيها مئات الألوف وربما ملايين المصريين.

فأنا أسكن مع أسرتي منذ أكثر من أربعين عاما في حي جاردن سيتي. وقد فوجئت مع سكان الشارع، الأسبوع الماضي، بصاحب العمارة المجاورة (رقم ٦أ شارع الديوان).. يشرع في تركيب برج كبير فوق سطح عمارته يحمل محطة لتقوية موجات التليفون المحمول، بعد أن قبض مقابل ذلك مبلغا كبيرا من شركة فودافون.

ومعنى ذلك ببساطة، بالنسبة لسكان الشارع الذين لا تفصلهم عن محطة التقوية إلا بضعة أمتار، تعريضهم مع أطفالهم إلى أخطار الضغط العالي للموجات الكهرومغناطيسية التي تؤدي علميا إلى تغيير طبيعة خلايا المخ مما يؤدي إلى الإصابة بسرطان الدماغ وسرطان الدم.

وقد تصورت بسذاجة في البداية أن المعركة ضد محطة الموت هذه محسومة لصالح المواطنين الأبرياء. فلا يعقل أن يواجهوا خطر الموت والسرطان مع أطفالهم لمجرد أن صاحب العمارة قد قبض الثمن من شركة فودافون.

لكنني مع انخراطي في المعركة العنيفة من أجل منع إقامة محطة الموت فوق رءوسنا. أدركت كم صارت صحة الإنسان المصري وحياته ذاتها بلا قيمة. في البلاد

(*) العربي ١٥/ ٧/ ٢٠٠٧.

الديمقراطية يحظر تماما تركيب محطات الموت هذه وسط الأحياء السكنية. أما في مصر فيستطيع أي صاحب شركة محمول أن يركب محطة الموت فوق رأسك.

لا يوجد إجراء قانوني يمنع إقامة محطات الموت والأمر كله متروك لصراع المال والنفوذ الذي تحظى فيه شركات المحمول طبعا باليد الطولى.

يتردد أن شركات المحمول قد دفعت عند إنشائها عشرات المليارات للحكومة المصرية واشترطت عليها، بالمقابل، أن تسمح لها بإقامة أبراج الموت في المناطق السكنية.

وقد وافقت حكومتنا العظيمة على مبدأ قتل مواطنيها وقبضت الثمن.

بل إن الحكومة المصرية تبعث مع الذين يقيمون محطات الموت بقوة من الشرطة لردع كل من تسول له نفسه من المواطنين الاعتراض على إصابته بالسرطان هو وأطفاله.

أما وزارة البيئة التي تصدّع رءوسنا ليل نهار بالحديث عن حماية البيئة فقد تبين أنها أيضا لا تجرؤ على إغضاب أباطرة شركات المحمول.

هل تعلمون ما الشروط التي تضعها وزارة البيئة من أجل الموافقة على إقامة محطات التقوية في المناطق السكنية..؟

مجرد شرط واحد بسيط: أن تبعد محطة الموت عن أي مدرسة أطفال بمسافة خمسين مترا..!! وهذا شرط غريب ومتناقض.

فهو يعترف ضمنا بأن محطات الموت فيها هلاك الأطفال. لكنه يعتبر أن الأطفال يعيشون فقط في مدارسهم.. فإذا كانت المحطة خطرا على الأطفال في مدارسهم فهي أخطر عليهم في بيوتهم. لأن الأطفال سيقضون في المدرسة عدة ساعات أما بقية اليوم فسوف يقضونه في منازلهم يتلقون على رءوسهم الصغيرة إشعاعات محطات المحمول حتى يصيبهم السرطان. (الذي أصبح معدل الإصابة به في مصر من أعلى المعدلات في العالم).

إنني فقط أتساءل: هل يسمح الدكتور أحمد نظيف أو الدكتور فتحي سرور أو صفوت الشريف أو حتى أحمد عز..؟ هل يسمح هؤلاء بإقامة محطات الموت فوق منازلهم.

بالطبع لا، لأنهم حريصون إلى أقصى حد على صحتهم وسلامة أولادهم وأحفادهم.

أما المواطنون المصريون فيبدو أن المسئولين لا يمانعون في قتلهم ما دام أصحاب محطات الموت قد دفعوا ثمنا مجزيا.

(٢)

في وسط الحرب الضروس التي تشنها الحكومة على الإخوان المسلمين.. فوجئ الرأي العام برئاسة الجمهورية تدعو مجموعة من أقطاب الإخوان المسلمين لحضور مناسبة توقيع قانون جديد للمعلمين.

وقد قبل الإخوان دعوة الرئيس بسرور وحماس، أما المفاجأة الكبرى فكانت تصريحات قادة الإخوان المسلمين بعد الزيارة.

فقد أكدوا جميعًا أن الرئيس مبارك رمز مصر وأنهم يتوقعون الخير كل الخير على يديه.

والغريب أنهم قالوا هذا الكلام بينما المئات من زملائهم المعتقلين يلاقون الأهوال على أيدي ضباط نظام مبارك نفسه.

والأغرب أن الدكتور عصام العريان قد أكد أن الإخوان المسلمين لم يشككوا يوما في شرعية الرئيس مبارك لأنه رئيس كل المصريين.

والدلالة الواضحة لهذه الواقعة أن الإخوان المسلمين على أتم استعداد لتدعيم الاستبداد في مصر والتحالف معه مقابل تخفيف القبضة عليهم والاعتراف بهم.

وهذا السلوك بكل أسف ليس غريبا على تاريخهم بل هو القاعدة التي حكمت سلوكهم السياسي منذ إنشاء الجماعة.

فقد تحالف الإخوان المسلمون دائمًا، بلا استثناء واحد، مع الاستبداد ضد القوى الوطنية المطالبة بالديمقراطية.

تحالفوا مع إسماعيل صدقي جلاد الشعب ومع الملك فاروق بل وأيدوا حكومة

الثورة في حل الأحزاب السياسية وإلغاء الحياة الحزبية كلها مقابل استثنائهم من الحل باعتبارهم جمعية دينية قبل أن ينقلبوا على الزعيم عبد الناصر بعد ذلك.

وتحالفوا مع أنور السادات قبل أن ينقلبوا عليه. وهذا السلوك لا يعكس فقط الانتهازية السياسية وإنما يعود بالأساس إلى عدم اقتناع الإخوان بفكرة الديمقراطية من أساسها.

والحق أن أدبيات الإخوان المسلمين حافلة بالأفكار المعادية للديمقراطية. وقد حاول أبناء الجيل الجديد من الإخوان أن يغيروا هذه الفكرة وتحدثوا كثيرا عن تطورهم الفكري الذي جعل منهم ديمقراطيين حقيقيين.. لكنهم للأسف فشلوا في أول اختبار.

فما إن لوح لهم النظام من بعيد حتى هرولوا إليه. ونحن نسأل الدكتور عصام العريان، الذي نحترمه، من أين يستمد الرئيس مبارك شرعيته التي أشدت بها يا دكتور..؟

هل استمدها من الاستفتاءات التي اعترف هو نفسه بأنها كلها مزورة.

أم من المسرحية الهزلية المسماة بالانتخابات الرئاسية..؟

هل اختار المصريون بإرادتهم الحرة حسني مبارك كرئيس لهم مرة واحدة خلال ربع قرن من الحكم..؟

أم إنه حكمهم دائمًا بواسطة أمن الدولة والأمن المركزي..؟.. أتمنى أن يراجع الإخوان موقفهم لأنه فعلا معيب ويدل على أن أفكارهم الاستبدادية لم تتغير.

(٣)

نشرت الأستاذة هبة الشرقاوي موضوعا ممتازا في جريدة الدستور عن مجمع البحوث الإسلامية الذي أصدر قرارات مفاجئة بمصادرة مجموعة من الكتب ومنعها من الطبع والتداول بحجة مخالفتها للدين الإسلامي. والمدهش أن الكتب المصادرة ليست كلها دينية بل إن بينها مذكرات صحفية ودراسة نقدية لديوان شعر.

ومن البديهي أن علماء الأزهر مع احترامنا الكامل لهم، ليسوا مؤهلين بحكم دراستهم وعملهم لتقييم الأعمال الفنية والأدبية. والواضح أنهم كثيرا ما يتخذون القرار بمصادرة الكتب بناء على مشاعر شخصية، فقد اتخذ مجمع البحوث قرارا بمنع دراسة

عن المفكر سيد قطب لأن المؤلف قد هاجم بشدة المرحوم أحمد حسن الباقوري وحيث إن شيوخ المجمع يحبون الشيخ الباقوري فقد قرروا مصادرة الكتاب. إن ما يفعله مجمع البحوث يشكل قيدا إضافيا ثقيلا على حرية الفكر والإبداع.

وهذه التصرفات تسيء للإسلام ولا تحميه. فليس الإسلام العظيم محتاجا إلى المنع والمصادرة. كما أن منع الأفكار عبر التاريخ لم يؤد قط إلى إلغائها.

فالفكر لا يمكن دحضه إلا بالفكر. ولو أنصف المجمع وأراد حقا حماية الإسلام لكان قد صرف جهده إلى الرد على الأفكار المسيئة وتفنيدها بدلا من مصادرتها.

والسؤال الآن: لماذا أعطت الحكومة المصرية مجمع البحوث سلطة المراقبة على أفكار الناس ومصادرة الكتب..؟

الإجابة: إن النظام يزايد على التيار الإسلامي في كل ما لا يؤثر على انفراده بالحكم.

لقد أعطى وزير العدل للمجمع سلطة مصادرة الكتب في عام ٢٠٠٤ وهو أكثر الأعوام التي شهدت الضغط الداخلي والخارجي على النظام من أجل تطبيق الديمقراطية.

وكان غرض النظام من ذلك أن يفتح جبهة جانبية يخفف بها الضغط عليه في معركة الديمقراطية.. وأن يفتح أيضا «صراعا مصطنعا» بين شقي المعارضة: الإسلامي والعلماني.

والحق أن النظام المصري لا يهمه ما ينشر في الكتب في قليل وكثير.

أو هو، بالأحرى، لايهمه أي شيء على وجه الأرض سوى أن يظل قابضا على السلطة غارقا في نعيمها ولذائذها.

ونحن نسأل المشايخ الأجلاء في مجمع البحوث: هل انحصر دفاعكم عن الإسلام في منع الكتب ومصادرة الأفكار..؟

ألم يأمركم الإسلام بالعدل والمساواة والحرية..؟

أليست قمة الجهاد في الإسلام كلمة حق عند سلطان جائر..؟

ألم يدافع ديننا العظيم عن كرامة الناس..؟

ألم يعطهم الحق في اختيار من يحكمهم..؟

لماذا لا تعترضون أبدا على تزوير الانتخابات..؟

لماذا لا تدينون اعتقال الأبرياء وتعذيبهم وهتك أعراضهم على أيدي زبانية الداخلية..؟

أيها المشايخ الأجلاء: لماذا لا تقاومون الاستبداد والفساد والظلم..؟

لعل المانع خير.

ضحاياك يامولاي!(*)

(١)

من المسئول عن آلاف الشباب الذين يهربون من وطأة الفقر والبطالة بحثا عن لقمة عيش فيغرقون وتبتلعهم الأمواج..؟ من المسئول عن تعذيب المواطنين المصريين في أقسام الشرطة وجلدهم وسحلهم وانتهاك أعراض زوجاتهم أمام أعينهم..؟ من المسئول عن إصابة ملايين المصريين بالسرطان والفشل الكلوي من جراء المبيدات المسرطنة والأغذية الفاسدة..؟ المسئول عن كل هذا الشقاء والظلم والفقر.. شخص واحد هو الرئيس حسني مبارك. في الدول الديمقراطية هناك مبدأ معروف اسمه المسئولية السياسية.. فيكون رئيس الوزراء في النظام البرلماني أو رئيس الجمهورية في النظام الجمهوري، المسئول الأول عن كل ما يحدث في عهده.. هناك نواب للشعب جاءوا بانتخابات حرة ورأي عام يقظ يحاسب الرئيس بشدة ويدعو إلى إقالته إذا ارتكب ما يستوجب ذلك. وهم لا يسمحون للرئيس أبدا أن يحكم أكثر من فترتين.

أما عندنا في مصر فالرئيس مبارك يحتكر السلطة منذ أكثر من ربع قرن.. تدهورت خلالها أحوال البلد حتى وصلت إلى الحضيض لكن سيادة الرئيس يبدو وكأنه غير مسئول إطلاقا عما يحدث في عهده.. طالعتنا الصحف الحكومية بأن الرئيس مبارك سيلقي على الأمة بيانا تاريخيا وتوقعت أن يتحدث الرئيس عن الضحايا الذين يتساقطون كل يوم جراء الظلم والفساد والفقر والإهمال.. لكن الرئيس لم يقل كلمة واحدة عنهم.. لم يقل كلمة واحدة عن معاناة ملايين المصريين في عهده السعيد.. جاء خطاب مبارك

(*) العربي ١٨/ ١١/ ٢٠٠٧.

كالعادة مجموعة من العبارات الإنشائية العامة التي لا تعكس أي شيء محدد.. شيء محزن حقا ألا يحس الرئيس مبارك بآلام الناس ومعاناتهم.. والمحزن أكثر أن يُقَابَلْ هذا الخطاب الإنشائي في مجلس الشعب بتصفيق حاد وهتافات وأهازيج.. ولا نعرف لهذا التهريج سببا إلا محاولة أعضاء الحزب الوطني وجماعات المنتفعين إرضاء الرئيس ومجاملته على حساب الوطن وأبنائه.

يا سيادة الرئيس إن أكثر من نصف المصريين يعيشون حياة قد لا تقبل بها الحيوانات.. يا سيادة الرئيس إن ضحايا التعذيب والذين احترقوا في القطارات وضحايا عبارات الموت وشهداء الهجرة في عهدكم قد فاق عددهم ضحايا الاحتلال الإنجليزي لمصر..!

تتحدثون عن مشروعكم النووي..؟ ألم تسخروا من قبل طويلا من فكرة المفاعلات النووية فما الذي غير رأيكم..؟ أليس من الأجدى ياسيادة الرئيس أن تأمروا بإيصال المياه إلى محافظات عديدة يتضور أهلها عطشا في بلاد النيل..؟ سيادة الرئيس:

ألم تشاهدوا صور أهالي الغرقى هربا من جحيم نظام الحكم الذي تمثلونه..؟

ألم ينقل لكم مكتبكم الصحفي وقائع تعذيب المواطنين في أقسام الشرطة تحت إشراف وزير الداخلية الذي عينتموه.. سيادة الرئيس كل هؤلاء المصريين المسلوبة حقوقهم المهدرة كرامتهم.. ذنبهم في رقبتكم.

سيادة الرئيس عش ماشئت فإن الله سيتوفاك يوما ما.. وفي يوم القيامة لن تنفعك مباحث أمن الدولة ولا الأمن المركزي ولا العلاقة الخاصة المتميزة مع الولايات المتحدة.. سوف تقف بين يدي الله عز وجل ليسألك عن كل هؤلاء الضحايا الذين سقطوا في عهدك.

ماذا أنت قائل يومئذ ياسيادة الرئيس..؟

(٢)

الأنبا بيشوي سكرتير المجمع المقدس ونائب البابا شنودة طلع علينا في جريدة «المصري اليوم» بتصريح غريب أكد فيه «أن جمال مبارك أفضل من يتولى رئاسة مصر في الوقت الحاضر.. لأنه رزين ومؤدب ويعمل في صمت».

وقد أدهشني هذا التصريح ودفعني للتساؤل: هل يكفي المرء أن يكون رزينا ومؤدبا ليكون أفضل من يتولى رئاسة البلد؟.. إن معظم من أعرفهم يتمتعون بالرزانة والأدب فهل يصلحون جميعًا للرئاسة؟.. ثم ما معنى أن يعمل جمال مبارك في صمت؟.. معظم الناس يعملون في صمت فهل هذه صفة عظيمة نادرة تؤهل الإنسان لرئاسة مصر؟.. وهل يرضى الأنبا بيشوي لبلادنا أن يتم توريثها من الأب إلى الابن وكأنها مزرعة للدواجن؟.. أليس من حق المصريين مثل بقية شعوب الأرض أن يختاروا بحرية من يحكمهم..؟ والسؤال الأهم: هل يعبّر الأنبا بيشوي عن رأيه الشخصي أم إن هذا رأي الكنيسة..؟.. وهل تملك الكنيسة السلطة الروحية على الأقباط أم أن دورها يتعدى ذلك إلى قيادتهم سياسيا..؟ وماذا سوف تفعل مع الأقباط المعارضين للنظام مثل الأستاذ جورج إسحق..؟ هل تعتبرهم مارقين عنها..؟

لا أعتقد أن الأنبا بيشوي يستطيع أن يدلي بتصريحات بهذه الخطورة دون موافقة البابا ورضاه.. كما أن البابا شنودة الذي أكن له كل الاحترام والمحبة قد دعا الأقباط أكثر من مرة إلى مبايعة الرئيس مبارك.. كل هذا يعكس أزمة حقيقية في موقف الكنيسة المصرية.. الواضح أن الكنيسة تؤازر نظام مبارك بكل قوة خوفا من وصول الإخوان إلى الحكم.. وهذا الموقف خطأ فادح لأنه يفصل بين المصلحة القبطية والمصلحة المصرية ويعطي الأولوية لمصلحة الأقباط على بقية المصريين.. وكأن الكنيسة بمؤازرتها للاستبداد تقول للحاكم:

«أعط الأقباط ما يطلبونه من حقوق وسوف نؤيدك بغض النظر عما سوف تفعله في بقية المصريين» وهذا موقف طائفي مؤسف، غريب تماما عن تاريخ الكنيسة المصرية التي ساندت بكل قوتها كل حركات التحرر الوطني وقاومت دائمًا مخطط الاحتلال الإنجليزي لإحداث الفتنة.. أثناء ثورة ١٩١٩ وقف القمص سرجيوس خطيبا في جامع الأزهر فقال:

«إذا كانت ذريعة الإنجليز لاحتلال بلادنا هي حماية الأقباط.. فليمت الأقباط وليعش المسلمون أحرارا».

أتمنى أن يعيد السيد بيشوي قراءة التاريخ العظيم للكنيسة التي يمثلها. إن الموقف الحقيقي للكنيسة مع الشعب وليس مع الاستبداد.. واجب الكنيسة أن تطالب بحقوق

المصريين جميعًا. إن مصر وطن الجميع. وإذا تحررت مصر من الظلم والاستبداد فسوف نحصل جميعًا على حقوقنا.. أقباطا ومسلمين.

(٣)

بعد أن أتحفنا بفتواه الشهيرة عن شرب بول الرسول.. خرج علينا المفتي علي جمعة بفتوى غريبة عن الفقراء الذين ضاقت بهم السبل في بلادهم وخاطروا بحياتهم من أجل لقمة العيش في دول الغرب ثم غرقوا في البحر.. أكد فيها أن هؤلاء ليسوا شهداء ولن يدخلوا الجنة أبدا لأنهم طماعون.. ولم تمض بضعة أيام أخرى حتى أصدر فتوى أخرى أغرب تؤكد أن من يقف أمام السيارة فتدهسه يكون هو الجاني على نفسه.. والغرض منها التغطية على جريمة شنعاء ارتكبها ضابط شرطة في المطرية عندما أمر سائق عربته بأن يدهس مواطنة مصرية اعترضت على هتك أعراض أهلها بواسطة رجال الشرطة.. كل هذه الفتاوى المجاملة للحكومة قد أثارت استياء بالغا في أوساط المصريين لكنني مع ذلك أجدها مفيدة.. فقد آن الأوان لأن نناقش دور رجل الدين في حياتنا.

إن رجل الدين في الواقع مثل القاضي، يجب ألا يحكِّم إلا ضميره فيما يطلقه من أحكام وفتاوى.. وبالتالي يجب على رجل الدين أن يكون حرا ومستقلا كالقاضي سواء بسواء.. ولا يمكن أن يتحقق هذا الاستقلال إذا كان رجل الدين معينا من قبل الحكومة.. فالمعروف أن ولاء الموظف يكون دائمًا لمن عينه.. وبالتالي فإن كل هؤلاء الشيوخ المعينين من الحكومة لا يتوافر لهم الاستقلال الكافي لكي يعبّروا عن آرائهم بحرية.. إن معركة الحرية لا تتجزأ.. كما نطالب بتداول السلطة ونزاهة الانتخابات واستقلال القضاء عن الحكومة.. نتمنى أن نرى في مصر رجال دين مستقلين يواجهون الحكام بالحق وينتزعون منهم حقوق الناس.. كما يقضي الدين الصحيح.

كلمات للتأمل:

* «الناس مش عارفة تعيش من الفقر.. احنا مش لاقيين العيش الحاف»

أحد أهالي شهداء الهجرة لجريدة «الوفد»

* «حوادث الغرق للمهاجرين المصريين مسئولة عنها الدول الأوروبية التي وعدت بفتح مشروعات في مصر للقضاء على البطالة ثم لم تف بوعودها»

جهاد عودة في جريدة المصري اليوم

* «.. أطفئوا السجائر في جسمه.. جلدوه وسحلوه وضربوه لغاية ما جاله رشح في المخ وفشل كلوي.. ومات»

هبة أخت المواطن أحمد صابر
«الذي قتله ضباط الشرطة في قسم العمرانية»

* «في كفر الشيخ قام الضابطان سعد أحمد سعد وفؤاد زياد بتعذيب خمسة أطفال ثم قاموا بتجريدهم من ملابسهم وأمروهم بممارسة اللواط أمامهم».

جريدة الدستور

* «الرائد وليد نجا الضابط في قسم المطرية أمر سائق سيارة الشرطة بدهس الفتاة رضا بكير لأنها تعلقت بالسيارة.. وتحركت السيارة فسحلت الفتاة تحت عجلاتها حتى ماتت وتلطخ الشارع كله بدمائها»

من أقوال السائق أمام النيابة

* «أيها الإخوة والأخوات.. أقولها لكم بوضوح.. إن مصر ليست فقط الأرض.. وإنما العرض والكرامة أيضا» (تصفيق حاد)

من خطاب الرئيس مبارك التاريخي الأخير

من هنا نبدأ(*)

على مدى قرنين من الزمان ظل المثقفون المصريون يقودون الحركة الوطنية.. ثورات القاهرة ضد الحملة الفرنسية قادها طلبة الأزهر.. ثورة ١٩١٩ اندلعت عندما ذهب المثقفون الوطنيون بقيادة سعد زغلول إلى المعتمد البريطاني ليطالبوا بجلاء الإنجليز.. حتى ثورة ١٩٥٢ قام بها الضباط الأحرار متأثرين ـ كما أكد معظمهم في مذكراتهم ـ بمقالات إحسان عبد القدوس وأحمد حسين وغيرهما من الكتاب الوطنيين. وقد تراوحت علاقة الزعيم جمال عبد الناصر بالمثقفين بين شد وجذب وإن كان الخلاف دائمًا على الوسائل وليس الأهداف، بدليل أن كثيرين من الذين اعتُقلوا في عهد عبد الناصر صاروا بعد وفاته من أكبر المدافعين عن التجربة الناصرية..

أما أنور السادات فقد كان صدامه مع المثقفين عنيفا ومستمرا وقد حاول بالإغراء والتهديد أن يستأنسهم لكنه فشل مما دفعه في النهاية إلى اعتقالهم جميعًا على اختلاف توجهاتهم.. وعندما تسلم الرئيس مبارك السلطة سعى لتحسين الصورة فأفرج عن المثقفين والتقى بهم وأظهر لهم الود وإن كان هذا الود بالطبع شكليا لم يؤثر في توجهه السياسي وانفراده بالحكم.. وفي أواخر الثمانينيات عين فاروق حسني وزيرا للثقافة فبدأ صفحة جديدة مختلفة مع المثقفين.. أدرك الوزير الجديد أن المثقفين قد يبدون لأول وهلة أفرادا ضعاف الحيلة من السهل تجاهلهم أو قمعهم أو حتى اعتقالهم بضربة واحدة، لكن هؤلاء الأفراد القلائل سوف يفعلون الكثير إذا اجتمعوا على موقف وطني حقيقي.. عندئذ يكون بمقدورهم أن يسددوا للنظام ضربات موجعة ومحرجة..

(*) العربي ٩/ ١١/ ٢٠٠٣.

ومنذ اليوم الأول رفع فاروق حسني شعار «مكان لكل مثقف»، شعار جميل بلا شك لكن التطبيق العملي أسفر عن خطة منظمة غرضها إدخال المثقفين المتمردين في علاقات مصالح مع وزارة الثقافة وهكذا تم صرف المكافآت وتدبير المنافع لكل مثقف، كل واحد وفقا لرتبته في سلم الثقافة، كبار المثقفين تم تعيينهم كمستشارين ورؤساء لجان ومهرجانات مقابل آلاف الجنيهات.. والمثقفون من جيل الوسط تم إرضاؤهم بمنح التفرغ وعضوية اللجان المربحة.. والمحررون في صفحات الثقافة تمت مجاملتهم بالامتيازات والسفريات وطبع كتبهم على نفقة الدولة بغض النظر عن قيمتها الأدبية.. حتى حرافيش المثقفين من المتعطلين على المقاهي لم يطردهم الوزير من رحمته فتم إيواؤهم في وظائف صورية مقابل عقود مؤقتة تجدد سنويا.

وقد حققت سياسة فاروق حسني نجاحا باهرا ومحزنا في استئناس المثقفين الأمر الذي أدى بهم ليس فقط إلى مهادنة وزير الثقافة بل وإلى ممالأة النظام نفسه أحيانا كثيرة، حتى إن بعض المثقفين اصطنعوا نظرية غريبة ارتموا بموجبها في أحضان النظام بدعوى مناصرة الدولة المدنية ضد الفاشية الدينية التي تمثلها الجماعات الإسلامية، وتناسى هؤلاء أنه لا توجد في مصر دولة مدنية أساسا حتى نقف معها أو ضدها، فالسلطة في مصر عسكرية استبدادية قمعية بل إن فاشية المتطرفين الإسلاميين ليست إلا الوجه الآخر أو رد الفعل لفاشية الدولة نفسها.. هكذا تم إسكات المثقفين بالمنافع والعطايا وإذا بحثت على مدى السنوات الأخيرة لن تجد موقفا حقيقيا اتخذه المثقفون المصريون ضد النظام.

صارت معظم بيانات المثقفين وكتاباتهم قاصرة على إدانة القوى الخارجية وكم هي بليغة وعنيفة البيانات والعرائض التي وقّعها المثقفون لشجب إسرائيل والإمبريالية الأمريكية، لكنك لن تجد أبدا موقفا قويا مماثلا من أجل منع توريث الحكم أو إلغاء قانون الطوارئ أو منع التعذيب وتزوير الانتخابات.. توجد دائمًا طبعا بعض المواقف المعلنة هنا وهناك، لكنها تكون أقرب إلى تسجيل الموقف وإبراء الذمة منها إلى مواقف حقيقية تضغط على النظام من أجل تحقيق العدل.. ولا أقصد هنا أن أتهم كل المتعاملين مع وزارة الثقافة بخيانة مبادئهم.. لكنها ببساطة طبيعة الناس والأشياء التي يفهمها الوزير فاروق حسني جيدا (ربما أكثر من فهمه لشئون الثقافة).. فعندما تحقق دخلا كبيرا من التعامل مع وزارة الثقافة أو عندما تكون نفقات بيتك وأولادك

متوقفة على منحة التفرغ التي تمنحها لك الوزارة وقد تمنعها في أي وقت، يكون من الطبيعي عندئذ أن تحسب موقفك أكثر من مرة قبل أن تغضب المسئولين عن رزقك.. وكانت نتيجة هذه السياسة ليس فقط خسارة المثقفين لدورهم الوطني.. بل خسارة مصر كلها لنخبة واعية ووطنية شريفة كانت حتى السبعينيات في مقدمة الأحداث تقود الناس إلى حقوقهم المشروعة.

ونذكر هنا ـ كمثال ـ تضامن المثقفين المصريين الكامل مع الحركة الطلابية (١٩٦٨ ـ ١٩٧٣) وكيف وقّع الأدباء والكتاب بيانهم الشهير ليعلنوا لأنور السادات تأييدهم الكامل لمظاهرات الطلبة وكيف دفعوا راضين ثمن موقفهم من اعتقال وملاحقة وقطع أرزاق.. وإذا سألنا اليوم لماذا تتقاعس النخبة المصرية عن أداء واجبها الوطني ومعارضة الظلم والفساد؟.. فإن الإجابة نجدها واضحة في كشوف مكافآت وزارة الثقافة.. وأمام تزايد البؤس والفساد وعجز النظام وفشله الكامل في كل المجالات (ماعدا القمع والتضليل).. انفجر الغضب الشعبي أكثر من مرة في مظاهرات حاشدة تعامل معها النظام بوحشية بالغة فتم ضرب الطالبات وسحلهن في الشوارع وتم اعتقال الطلبة وتعذيبهم ببشاعة بل وأطلق الرصاص على المتظاهرين فسقط شهداء وأصيب المئات.. كل ذلك يجري تحت سمع وبصر المثقفين المصريين فيلوذون بصمت محزن خوفا من غضب السلطات وضياع المنافع.

* * *

حتى كان مساء ٢٢ أكتوبر عندما فجر الكاتب الكبير صنع الله إبراهيم قنبلته ووجّه للنظام لطمة موجعة حقا بعد أن رفض جائزة الرواية احتجاجا على سياسة حكومة فاسدة تقمع المصريين وتنهبهم وتحكمهم بالحديد والنار، وقد كان من حسن حظي أن شهدت ـ بالصدفة ـ هذه المناسبة ولن أنسى ما حييت ذلك الشعور الإنساني النبيل الجارف الذي جعل مئات الحاضرين يندفعون لمصافحة صنع الله وتقبيله ويعانقون بعضهم بعضًا بل إن بعضهم انفجر باكيا من صدق اللحظة العظيمة.. لن أنسى ذلك الشاب الذي اخترق الزحام حتى يقول لصنع الله لاهثا بانفعال بالغ: «أنت أكبر من كل جوائزهم.. أنت بتعبر عننا إحنا..».. لقد أثبت صنع الله إبراهيم أن استئناس المثقفين لا ينفع مع الجميع وأن الكاتب الحقيقي غير قابل للشراء

لأن المعنى عنده أثمن من أموال الدنيا.. بل وكسر صنع الله حلقة التواطؤ التي نعيشها جميعًا بشكل أو بآخر: أن نعرف الحق ونسكت عنه.. أن نوجه بعض النقد إلى السلطة ثم نتواءم معها.. أن نكتب عن الفقراء والمهمشين ثم ننساهم ونتجنب الحديث عنهم إذا جلسنا في حضرة السلطان.. كل هذا السلوك المريض بدده صنع الله إبراهيم بموقفه الشجاع النبيل الذي أكد على أن كلمة الكاتب يجب أن تكون واحدة مهما تكن الظروف.

معانٍ كثيرة عظيمة تبدت لي وأنا أرى هذا الشيخ الأشيب النحيل واقفا بشموخ أمام كاميرات التليفزيون القادمة من كل الدنيا لتصوير عرس وزارة الثقافة الكاذب، ارتفع صوته بالحق ليدين الفساد والظلم والقمع والحكم الظالم الجاثم على أنفاس المصريين رغما عنهم وفي النهاية ألقى صنع الله بمائة ألف جنيه في وجوههم ومضى.. في تلك الليلة رأيت مصر وكأنها حاضرة في القاعة.. إن الحماس الصادق العظيم الذي أحاط بصنع الله ليس له إلا تفسير واحد: أن المصريين يفهمون كل شيء ويعرفون ما يحدث لكنهم صامتون لأن أحدا لم يبدأ.. وما إن يبدأ أحد بكلمة الحق حتى ينهضوا خلفه جميعًا.

ولو أن المثقفين المصريين تصرفوا خلال العقد الأخير ببعض الشجاعة التي أبداها صنع الله إبراهيم تلك الليلة لتغير كل شيء في مصر حتما إلى الأفضل.. وقد تلقت وزارة الثقافة (والنظام الذي تمثله) اللطمة المدوية فترنحت بشدة ثم سرعان ما بدأت حملة منظمة في غاية الشر والشراسة للسخرية من صنع الله إبراهيم وتلويثه بأية طريقة.. واشترك في هذه الحملة بكل أسف أسماء لها وزنها في عالم الثقافة (وفي ميزانية وزارة الثقافة أيضا) وكنت أظن أن موقف صنع الله النبيل سيطهرهم من الكذب ويخلّصهم من حساباتهم النفعية الصغيرة. ولكن يبدو أن وزارة الثقافة، كما تفعل دائمًا الجيوش المهزومة، قامت باستدعاء الاحتياطي من الكتّاب الذين تنفق عليهم.. وقام هؤلاء بإثبات جدارتهم بمرتباتهم الكبيرة عن طريق كتابة مقالات مليئة بالافتراء على صنع الله إبراهيم والنفاق الرخيص للنظام وللرئيس مبارك.

* * *

على أن الباب الذي فتحه صنع الله يستحيل إغلاقه.. وما فعله خطوة في طريق

صحيح سوف يسير من خلفه كثيرون.. ومن الآن فصاعدا سوف يفكر كل كاتب في مصر مليا قبل أن يقبل جائزة من حكومة كتلك التي تحكم مصر.. نعم يجب على الكتّاب المصريين مقاطعة جوائز الحكومة فهذه ليست جوائز مصر كما يقول السيد جابر عصفور، إنها جوائز حكومة لم يخترها أحد ولم ينتخبها أحد ولولا المجازر البشرية في مباحث أمن الدولة وقمع جيوش الأمن المركزي لما استقرت هذه الحكومة في السلطة يوما واحدا، حكومة نهبت المصريين وأفقرتهم وقمعتهم وتحالفت ضدهم مع أعدائهم لكي تبقى.. كيف يستقيم موقفنا إذا كنا نعتبر الحكم في مصر غير شرعي لأنه لم يأت عن طريق انتخابات حقيقية وفي نفس الوقت نصفق ونهلل ونتزاحم للحصول على جوائز من المسئولين في هذا الحكم.

مكان المثقفين ليس في القاعات المكيفة لوزارة الثقافة ولا في اللجان مدفوعة الأجر حيث المناقشات العقيمة حول قصيدة النثر وإشكاليات السرد وجماليات النص.. مكان المثقفين الصحيح هناك.. في المناطق العشوائية حيث يعيش ملايين المصريين في ظروف تأنف منها الحيوانات.. مكانهم مع ١٨ ألف معتقل بدون محاكمة، مع عبد الحميد شتا وإبراهيم دسوقي وغيرهما من المنتحرين يأسا من تحقق العدل، مع عشرات البؤساء الذين تعذبهم الشرطة المصرية كل يوم وتهتك أعراض نسائهم أمامهم ليعترفوا بجرائم لم يرتكبوها.. مكان المثقفين الحقيقي ليس في احتفاليات السيد جابر عصفور ولكنه مع ملايين المصريين الذين ينتظرون منا أن نعبر عنهم بصدق ونرفع مظالمهم ولو مرة واحدة.. من هنا.. من حيث يقف صنع الله إبراهيم الآن.. يجب أن نبدأ.

كلمات للتأمل:

* «في عهد مبارك وفي ظل قيادته الحكيمة.. لأول مرة يشعر المصريون بالأمان التام..»

عبد العظيم رمضان

* «الضرب والسحل والتعليق والصعق بالكهرباء وتجريد النساء من ثيابهن وهتك أعراضهن أمام أزواجهن وأبنائهن.. كل هذه الممارسات عادية ويومية في مصر،

في أقسام الشرطة ومباحث أمن الدولة، ولا يمر شهر واحد بغير أن يموت مواطنون من شدة التعذيب..»

منظمة العفو الدولية

* «قدرنا أن يكون حسني مبارك زعيمنا ليقودنا نحو الإصلاح الشامل..»

صفوت الشريف

* «١١ مليون مصري يعيشون في مناطق عشوائية بدون خدمات و٨ ونصف مليون مصري يعيشون ما بين ٥ و٨ أفراد في غرفة واحدة.. ينامون جميعًا في نفس الغرفة وأحيانا مع الحيوانات..»

إحصائية حكومية

* «أنا قلت للأمريكان قبل الحرب.. عاوزين تخلصوا من صدام حسين ما تشوفوا طريقة.. ناس في الكونجرس قالوا لي ما تشوف لنا طريقة..قلت لهم أنا أقول لكم طريقة؟!.. ايش عرفنا؟!.. انتم عندكم الأجهزة بتاعتكم..»

الرئيس حسني مبارك

نوفمبر٢٠٠٣

«چو.. وزع الفيشات»!!!(*)

«أمتار قليلة، تفصل بين عالم وعالم» هكذا يخطر لي في الصباح وأنا أجتاز ميدان التحرير إلى شارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا).. هنا أنا أترك ورائي القاهرة العملاقة المعدنية القبيحة وأدلف إلى وسط البلد، قلب القاهرة، الحي الأوروبي القديم المشيد على طرز العشرينيات والثلاثينيات، وسط البلد ليست كبيرة، بضعة شوارع متداخلة، مساحتها تقل عن أي حي جديد كمدينة نصر، أو المهندسين لكنها كقطرة عطر معتق رائحتها نفاذة آسرة.

أسير في «سليمان باشا» وأتذكر هنا قضيت طفولتي وصباي. كان لأبي ـ رحمه الله ـ مكتب محاماة بجوار سينما ميامي وفي الصباح كان يعمل مستشارا في نادي السيارات المصري (الملكي سابقا) في العطلات والإجازة الصيفية كان أبي يأخذني معه إلى وسط البلد. كم كانت الشوارع النظيفة! لا قمامة ولا شحاذين ولا باعة أرصفة دور السينما فاخرة متلألئة لدرجة تبعث على الرهبة والمطاعم، كل أنواع المطاعم في وسط البلد، مطعم «الأونيون» الفرنسي أمام دار القضاء العالي: الموسيقى الخافتة والستائر المخملية والمفارش الناصعة، الزهور والشموع وزجاجات النبيذ الرابضة في الخوص، النبيذ الأبيض مع السمك والنبيذ الأحمر مع اللحم، و«النادلون» يرتدون معاطف بيضاء ويحملون فوطا مطوية على أذرعهم، ينحنون ويبتسمون.. أما المطاعم الشرقية فأهمها «الشيمي» في ميدان التوفيقية و«خميس» في شارع فؤاد، ثم المطاعم الأمريكية حيث السندوتشات الخفيفة مثل «الأمريكين» «والنيوكورسال».

(*) أخبار الأدب ٦/ ٤/ ١٩٩٧.

ما إن أفكر في وسط البلد حتى ينبعث في ذاكرتي عالم كامل بتفاصيله وألوانه، شجرة عيد الميلاد الضخمة المرصعة بالزينة في محل جروبي، صياح الأجانب السكارى في ليلة رأس السنة، الشوارع الخاوية أيام الآحاد إلا من بعض المتنزهين وأصوات الموسيقى والغناء والضحكات المنبعثة من البارات المتناثرة هنا وهناك.

حتى الروائح تعاودني: رائحة عطور السيدات النفاذة في السينما، رائحة الفل والياسمين في محلات بيع الورد بشارع شريف، رائحة الصابون والماء الساخن في محل «مونسنيور» للحلاقة في ميدان سليمان باشا، كان أبي يأخذني هناك لأقص شعري وكنت أفرح لأنهم يعاملونني كرجل كبير، يلقاني صاحب المحل بمعطفه الأبيض الناصع. يبتسم ويقول بلهجة مسرحية «بونچور» ثم يجلسني مساعده إلى مقعد الحلاقة الوثير ويبسط على صدرى فوطة نظيفة مكوية ويمد أمامي مجموعة من الجرائد العربية والأجنبية لأختار.

أما نادي السيارات، ذلك المبنى الصغير في شارع قصر النيل، فيبدو أمامي ـ الآن ـ كعالم مستقل بذاته مفعم بالأسرار والحكايات والشخوص الغريبة، كنت أذهب مع أبي إلى مكتبه في النادي، نتناول معا إفطارا شهيا يبعث أبي في طلبه من محل جروبي: «كرواسون» أو «باتيه» بالسبانخ والجبن، بعد ذلك يطلب أبي فنجان القهوة فيكون ذلك إيذانا بالفراق، ينصرف أبي إلى عمله وأنصرف أنا إلى أصدقائي. وأصدقائي هم كل الموظفين والعاملين في النادي. أمر أولًا على مكتب الإدارة في الدور الأرضي، ألقي تحية الصباح على مسيو كساب «اليهودي»، أذكر قامته الضئيلة وصلعته ونظارته المستديرة وعينيه الزرقاوين وأكمام من الساتان الأسود يضعها على قميصه لئلا يتلوث بالحبر، كما أذكر سفنجة صغيرة أنيقة كان يبلل بها أطراف ظروف الخطابات قبل إغلاقها.

بجوار مسيو كساب تجلس «چاكي» الموظفة اليونانية البدينة الطيبة، مصدري الرئيسي في البونبون والشيكولاته طوال النهار بعد ذلك أصعد إلى الدور العلوي حيث المطعم والبار وصالة البريديچ. هنا أعز أصدقائي: الطباخون و«البارمانات» والسفرجية، كلهم نوبيون، كانوا يجلبون أطفالا من بلادهم ويتلقون تعليما مخصوصا ليخدموا بعد ذلك في مكان من ثلاثة إما القصور الملكية أو نادي محمد علي (نادي

التحرير الآن) أو نادى السيارات، كانوا جميعًا في منتهى اللطف والأدب، يتحدثون الفرنسية بطلاقة وبعضهم يتحدث التركية أيضا.

أذكر من هؤلاء عم عيد عامل المصعد وعم ذهب البارمان الرجل ذو الحكاية الغريبة: يوسف «زرار» أقدم العمال في صالة البريدچ، كان عم يوسف يخدم الملك فاروق وحاشيته كل ليلة عندما يلعبون القمار في النادي، يظل واقفا بجوار المائدة، يحضر لهم المشروبات ويستبدل النقود بـ«فيشات» اللعب الملونة ومع كل دور لعب جديد يفتح كوتشينة جديدة (ملحوظة: كان الملك يلعب الورق بكوتشينات مطلية بماء الذهب، رأيتها بعيني، تستعمل الكوتشينة مرة واحدة وتستبعد بعد ذلك) وشيئًا فشيئًا أحب يوسف زرار مولانا الملك (كما كان يسميه) ويبدو أن الملك أعجبه أدب يوسف وتفانيه فكان المشهد الآتي يحدث كل ليلة:

يجلس الملك والكبراء يلعبون البريدچ فإذا كسب الملك لم يمد يده إلى المكسب كان ينادي يوسف ويقول: «چو.. وزع الفيشات على الأولاد» عندئذ كان عم يوسف يوزع النقود على العاملين في الصالة.. أما إذا خسر الملك أمام واحد من الحاشية فكان يمسك بالـT (والـTهي عصا لها شكل حرف T تستعمل في جمع الفيشات على مائدة القمار) ويأخذ جانبا من فيشات الفائز ويقول ليوسف «چو.. خذ.. عشاءك».

وهكذا كسب يوسف زرار أموالا طائلة من وراء الملك، وظل يوسف يحب الملك بشدة حتى بعد أن قامت الثورة وطردت الملك كان لدية اعتقاد جازم بأن الملك سيعود حتما ليحكم مصر وظل يوسف يردد أن بريطانيا «العظمى» قد وضعت خطة محكمة لإعادة مولانا، وكان زملاؤه السفرجية يسخرون منه فيسألونه بدعابة: «يوسف.. الملك راجع؟!» عندئذ ينتفض يوسف غضبا ويصيح: «طبعا راجع ـ بإذن الله ـ راجع» وما زلت، بعد ثلاثين عاما، أذكر ذلك الصباح، لما رأيت يوسف زرار واقفا وحده في صالة البريديچ الخالية، كان محنيا على إحدى الموائد وجسده العجوز ينتفض، أخذ يبكي بحرقة جعلتني، وأنا طفل، أبكي معه.. يومها كان عم يوسف قد عرف لتوه بمقتل الملك في إيطاليا.

* * *

وبعد.. فهذه قطرات قليلة من البحر.

أحيانا أسأل نفسي: ماذا يتبقى من وسط البلد بعدما تغيرت القاهرة وصارت لها أحياؤها الجديدة المتألقة؟! لكن وسط البلد تظل - رغم كل شيء - عالما إنسانيا مفعما وفريدا.. أي حي جديد في القاهرة تستطيع أن تلخصه في جملة، وأحيانا في كلمة.. أما وسط البلد فكل ركن فيها يحمل طيات وطبقات من الحياة والذكريات.

يكفي أن تجوب وسط البلد حتى ترى الجميع: الأجانب والمثقفين وتجار العملة والأثرياء الجدد.. القوادين والسكارى وموظفي البنوك والعاملات في محلات الملابس، جامعي التبرعات لبناء مساجد والشواذ ومدمني المخدرات.. كل هؤلاء، ينتظرون من يكتب عنهم.

من إدوارد سعيد إلى مقهى ريش(*)

ينتمي المفكر الكبير إدوارد سعيد إلى أسرة فلسطينية مسيحية ثرية عاشت في مصر خلال الأربعينيات، وكان أبوه رجل الأعمال وديع سعيد حاصلًا على الجنسية الأمريكية وفخورًا بها حتى إنه كان يردد دائمًا أنه مواطن أمريكي بل إنه قام بتغيير اسمه إلى اسم أمريكي هو «وليم».. كما حرص على تربية أولاده في جو غربي خالص فألحقهم جميعًا بالمدارس الإنجليزية وتخيّر أصدقاءهم جميعًا من الأجانب وكانت الإنجليزية لغة التخاطب الوحيد في المنزل.. وفي سيرته الذاتية الرائعة التي صدرت بعنوان «خارج المكان» (عن دار الآداب ترجمة فواز طرابلسي) يحكي إدوارد سعيد واقعة مدهشة حدثت له وهو طفل، فقد كان عضوًا مع أسرته في نادي الجزيرة وكان مدير النادي الإنجليزي المستر بيلليه صديقًا حميمًا لوالد إدوارد وكثيرًا ما يسهر معه.. وذات يوم كان إدوارد الصغير يتجول في نادي الجزيرة على دراجته عندما فوجئ بالمستر بيلليه يشير إليه صائحًا بانفعال:

ـ إدوارد.. ماذا تفعل هنا؟!

وأجابه إدوارد ببراءة:

..أنا أتنزه على الدراجة.

ـ ألا تعرف أن هذه المنطقة ممنوع عليك دخولها.

ـ ولماذا هي ممنوعة؟!

هكذا سأله إدوارد.. وهنا احمر وجه المدير من الغضب وقال:

(*) العربي ١١/ ٢٠٠١.

ـ هذه المنطقة من النادي مخصصة للإنجليز فقط.. وأنت عربي.

وشعر إدوار الصغير بصدمة (لن تفارقه بعد ذلك أبدًا) وذهب ليشكو إلى أبيه من تصرف صديقه المستر بيلليه إلا أن أباه استقبل ما حدث بهدوء محزن ويكتب إدوارد سعيد «بدا لي يومها أنه يوجد عقد استسلامي بيني وبين أبي توافقنا فيه على أننا ننتمي بالضرورة إلى مرتبة دنيا، كان هو يعرف ذلك، أما أنا فقد اكتشفته لأول مرة».

كان الطفل إدوارد أبيض البشرة ومسيحيًا بروتستنتيًّا مثل الإنجليز ويتقن الإنجليزية كأهلها لكن كل ذلك لم يشفع له عند المستر بيلليه عندما تجاوز منطقة معينة، أنه لقاء مبكر مع العنصرية الغربية سوف يتكرر بعد ذلك كثيرًا فعندما ينهي إدوارد سعيد دراسته الثانوية في الولايات المتحدة ويجيء ترتيبه الأول تحرمه إدارة المدرسة من إلقاء كلمة حفل التخرج وتعهد بها إلى طالب أمريكي ترتيبه متأخر عنه والسبب أنه عربي ولا يمكن أن يتساوى مع الطالب الأمريكي حتى ولو تفوق عليه.. هناك دائمًا خط أحمر، منطقة محظورة ينتهي عندها كل ما يملكه الغربيون من تسامح.. ويكتب إدوار سعيد:

«بدأت نضالًا سوف يستمر طوال حياتي لفضح الانحياز والخبث الكامنين في السلطة التي تعتمد في مصادر قوتها اعتمادًا مطلقًا على صورتها الأيديولوچية عن ذاتها بوصفها فاعلًا أخلاقيًّا يتصرف بقصد شريف وبنوايا لا يرقى إليها الشك.. وفي نظري أن ظلم السلطات إنما يعتمد بالدرجة الأولى على صلاحياتها في أن تغير قواعد حكمها، فقد تجدك كامل الأوصاف في يوم وتصير جانحًا أخلاقيًّا في اليوم التالي».

هذا التحليل الدقيق للعنصرية الغربية يفسر لنا أشياء كثيرة: لماذا يبدو القادة الغربيون راضين عن أنفسهم وطائراتهم تقتل يوميًّا مئات الأفغان الأبرياء؟

لماذا يهتم الغربيون بحيواناتهم الأليفة أكثر بكثير من الأطفال الفلسطينيين الذين تذبحهم إسرائيل؟ إن العنصرية تبدأ دائمًا من اعتقاد راسخ بأن الغربيين متفوقون على الأجناس الأخرى، وبالتالي لا يمكن أن يتساووا معهم في الحقوق؟!.. سُئِلَ السفير الأمريكي في مصر عن رأيه في مقتل آلاف المدنيين بالقنابل العنقودية الأمريكية في أفغانستان فأجاب:

ـ لقد بدأت القصة عندما مات المواطنون الأمريكيون في ١١ سبتمبر.. كان هذا

أوضح تصريح عن طبيعة الحرب الحالية، فالانتقام الأمريكي لا يقتصر على بن لادن أو حركة طالبان بل يتعدى ذلك إلى عامة المسلمين الذين يجب أن يموت منهم مئات الآلوف قبل أن يشفي القادة الغربيون غليليهم، ولا بأس من إذلال المسلمين بإلقاء الطعام مع القنابل مع تعليمات مكتوبة لهم لكي يميزوا بينهما.. ولا بأس أيضًا من طرح السؤال: هل يجب أن يتوقف القصف في رمضان؟ وتنهال الإجابات والتخمينات وفي النهاية يأتي القرار الأمريكي الحاسم.. «سوف نستمر في قصف المسلمين خلال شهر رمضان» (لئلا يكون لديهم أية أوهام عن مكانتهم أو حقوقهم في هذا العالم).

ولنتخيل مثلًا أن أسامة بن لادن كان مختبئًا في هولندا أو بلچيكا، هل كانت أمريكا ستقصف دولة أوروبية وتقتل مواطنيها بحجة مطاردة بن لادن؟! بالتأكيد كانت الولايات المتحدة ستحرص للغاية على ألا يصاب مواطن أوروبي واحد بأقل مكروه وكانت سوف تجد الوسيلة الكفيلة بالقبض على بن لادن بدون قتل المدنيين.. نفس المنطق العنصري هو ما جعل الحكومة الأمريكية تقتل ٣ ملايين ڤيتنامي بحجة مكافحة الشيوعية وتقتل مئات الألوف من العراقيين بحجة تحرير الكويت وقد سُئِلَتْ مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة يومًا: إن كان الحصار الأمريكي لنظام صدام حسين يبرر في رأيها قتل مليون طفل عراقي من نقص الدواء؟!.. فأجابت بلا تفكير: أرى ذلك مبررًا تمامًا.

إن الأطفال والنساء الذين تذبحهم إسرائيل كل يوم لا يمكن أن يثيروا عطف الغرب مثل ضحايا ١١ سبتمبر، فهؤلاء غربيون وهؤلاء عرب والفرق شاسع.. كما أن الانحياز الغربي الأعمى لإسرائيل لا يرجع فقط إلى تحقيق إسرائيل لمصالح الغرب أو سيطرة اليهود على الإعلام الغربي أو تحكمهم في الانتخابات الأمريكية، كل هذه أسباب موضوعية صحيحة لكنها لا تكفي ويبقى العامل الأساسي الذي نجهله أو نتجاهله: إن الغرب يعتبر إسرائيل جزءًا من الحضارة الغربية، حضارة الرجل الأبيض، وبالتالي فلا يمكن أن يساوي الذهن الغربي بين حقوق الإسرائيليين وحقوق العرب.. هذه الحقيقة المحزنة تجعلنا نفهم مرة واحدة إلى الأبد طبيعة الحضارة الغربية التي أبدعت ولا شك مبادئ إنسانية عظيمة لكنهاقصّرت تطبيقها فقط على المواطن الغربي.. إن أعرق الديمقراطيات الغربية قامت على الحملات الاستعمارية بكل ما تعنيه من قتل ونهب. وأكثر الحكومات الغربية احترامًا لحقوق الإنسان لا تجد غضاضة في الحفاوة

بحكام عرب مستبدين وفاسدين ما داموا يحققون مصالحها.. بل إن القوانين الاستثنائية التي يتم إعدادها في الغرب الآن من أجل مكافحة الإرهاب، لا تؤرق الضمير الغربي الديمقراطي لأنها ببساطة ستطبق فقط على العرب والمسلمين المشتبه فيهم دائمًا.. أتمنى حقًّا أن نفهم طبيعة التحيز الغربي حتى نقلع عن اللهاث خلف العدل الغربي الذي لن يجيء أبدًا، إن الطريق الوحيد لتحقيق العدل هو أن ننتزع حقوقنا بأنفسنا.. عندما نعود ـ كما كنا ـ أمة قوية لها أهداف كبرى وكرامة وطنية لا تسمح لأحد بإهانتها.. عندئذ فقط سوف يسمع الغرب كلمتنا.

كان المؤرخ المعروف د. يونان لبيب رزق جالسًا في مكتبه عندما جاءه رجل أجنبي وعرّف نفسه بأنه مؤرخ هولندي وبعد التحيات التقليدية فوجئ الدكتور يونان بالضيف الأجنبي يخبره بأنه إسرائيلي وقد جاء ليدعوه إلى إلقاء محاضرات في الجامعات الإسرائيلية فما كان من المؤرخ الوطني إلا أنه رفض التعامل معه وطرده من مكتبه.

هذه الواقعة التي رواها الدكتور يونان في مجلة أريف الشهرية الأرمينية، تؤكد أن الدوائر الإسرائيلية تبذل مجهودًا متصلًا من أجل استقطاب المثقفين المصريين، والإسرائيليون من الذكاء بحيث يعرفون أن مقاطعة المثقفين هي الجدار الأخير من مقاومة التطبيع فإذا انهار الجدار سهل عليهم بعد ذلك النفاذ إلى الأمة كلها.. وهم يقدمون إلى المثقفين المتعاملين معهم جميع أنواع الخدمات: بدءًا من الرحلات والمحاضرات مدفوعة الأجر إلى ترجمة المؤلفات إلى العبرية وصولًا إلى التزكية للحصول على المناصب الثقافية الكبرى.. فالسفارتان الإسرائيلية والأمريكية لهما بكل أسف كلمة مسموعة عند السلطة المصرية، وفي هذا الإطار وقع اختيار المركز الإسرائيلي في القاهرة على مقهى ريش ليعقد فيه لقاءات أسبوعية بين المسئولين الإسرائيليين والمثقفين المصريين الراغبين في التطبيع، واختيار مقهى ريش كمكان للتطبيع له عدة أهداف أولها ارتباط هذا المقهى بالحركة الوطنية خلال الستينيات والسبعينيات وكأن الرسالة التي تبعث بها إسرائيل أن عهد المقاومة الوطنية في مصر قد انتهى.. والهدف الثاني التيسير على المصريين الذين يرغبون في التعامل مع إسرائيل، فبدلًا من التردد على السفارة الإسرائيلية بكل ما يصاحب ذلك من فضيحة واستجوابات أمنية يكفي المثقف الراغب في التطبيع أن يجلس في مقهى ريش ليجد في المائدة المجاورة له يوسي أميتاي رئيس المركز الأكاديمي الإسرائيلي ومعه علي سالم وأشباهه.. عندئذ يحدث اللقاء بطريقة طبيعية وآمنة، وقد كشف الكاتب الإسرائيلي تسيفي

برئيل في مقال كتبه في جريدة «هاآرتس» عن لقب تطبيعي تم الترتيب له في مقهى ريش وحضره صاحب المقهى وتسيفي برئيل وعلي سالم والأخ محمود صلاح رئيس تحرير مجلة آخر ساعة ومثقفون آخرون لم يكشف الكاتب الإسرائيلي عن أسمائهم، وقد ردد المصريون الحاضرون أثناء الجلسة كل ما يحب الإسرائيليون أن يسمعوه فسخروا من فكرة العروبة ومن جمال عبد الناصر ومن الجرائد الوطنية المناهضة لإسرائيل (وأولها جريدة العربي طبعًا) بل إن أحدهم قال ساخرًا: «نحن المصريين فراعنة ولا علاقة لنا بالعرب.. نحن لا نحب العقال والكوفية»، وقد أعجبت هذه العبارة الكاتب الإسرائيلي فاختارها عنوانًا لمقاله.. أما الأخ محمود صلاح فقد شن هجومًا كاسحًا على الانتفاضة الفلسطينية وسخر منها وسوف أورد هنا نص كلماته كما نشرتها جريدة «هاآرتس» قال رئيس تحرير آخر ساعة المحترم:

«لقد ضقت ذرعا بهؤلاء الفلسطينيين والإسرائيليين على حد سواء، فكلاهما يهدد أمني كمصري.. لقد وضعت أسفل زجاج مكتبي صورة لشارون وبجوارها صورة لياسر عرفات وكلما نظرت إليهما وأمعنت النظر بدا لي أنهما توأمان، فكلاهما قبيح بنفس الدرجة وتستطيع أن تشم رائحة عفونتهما من خلال الصورة.. ومن جهتي فليقتل أحدهما الآخر أنا لا يهمني من يكون المنتصر».

وقد احتفت الصحافة الإسرائيلية طبعًا بكلام محمود صلاح ونشرته باعتباره رأي قطاع عريض من المصريين.. ولا أجد ما أصف به من يتكلم بهذه الطريقة في حق بلاده وشهدائها.. أترك التعليق للقراء.

تحتكر الحكومة في مصر توجيه الإعلام والصحافة القومية وتتحكم تمامًا في تعيين المسئولين عنها وقد أدى ذلك إلى تفشي النفاق في وسائل الإعلام بطريقة شنيعة قد لا تجدها في بلد آخر، ولعلنا نذكر المهازل التي تحدث دائمًا في مهرجانات مبايعة رئيس الجمهورية من أول وثائق التأييد المكتوبة بالدم إلى لافتات التهاني والمباركة التي تهدر فيها ملايين الجنيهات من أموال الشعب.

وقد ظهر وزير الاقتصاد السابق مرة في التليفزيون ليؤكد للمشاهدين أنه برغم حصوله على الدكتوراه في الاقتصاد من عشرين عامًا إلا أنه لا زال يتعلم الفكر الاقتصادي من تعليمات الرئيس مبارك!! بل إن رئيس تحرير صحيفة قومية وصف الرئيس مرة بأنه

«زعيم الشرق والغرب» بينما تخصص رئيس تحرير آخر في تأليف كتاب سنوي عن «عبقرية الرئيس مبارك» يفوز به دائمًا بجائزة معرض الكتاب.. كل هذا النفاق يصيب الناس بالقرف والإحباط!!.. وقد وجد الكتبة المنافقون في الأحداث الجارية فرصة للمزيد من الطبل والزمر فطلعوا علينا بمقولات غريبة جدًّا مفادها أن الحكومة المصرية أفضل من الحكومة الغربية بكثير لأن حكومتنا استطاعت أن تقضي على الإرهاب بينما عجزت عن ذلك حكومات الغرب، كما أن دعوة الحكومة المصرية إلى مؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب تجسد عين العقل والحكمة.. وكل هذه مغالطات، فالحكومات المصرية لم تقض على الإرهاب وإنما قضت على الإرهابيين والفرق كبير: فالقضاء على الإرهاب يستوجب إزالة أسبابه بتطبيق الديمقراطية والقضاء على الفقر والفساد والاستبداد، أما القضاء على الإرهابيين فيحتاج فقط إلى اعتقالهم وتعذيبهم وإعدامهم أمام المحاكم العسكرية، ولا أظن هذه الجرائم تبعث على الفخر.. أما المؤتمر الدولي لمكافحة الإرهاب فلو أنه انعقد فعلًا على أسس صحيحة لكان موقف المسئولين المصريين حرجًا للغاية لأن عليهم عندئذ إجابة هذا السؤال: ألا بعد احتكار السلطة وتزوير الانتخابات والتنكيل بالمعارضين واعتقالهم لسنوات بدون محاكمة، ألا يعد كل ذلك إرهابًا ضد الشعب؟!.. أظن الإجابة معروفة.

متى يُعلن عن الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية فيتقدم أكثر من مرشح ليختار الناس أفضلهم؟.. متى يتم إلغاء قانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائية وتطلق حرية تكوين الأحزاب ويتشكل برلمان حقيقي عن طريق انتخابات جدية ونظيفة؟!

متى تتحقق الديمقراطية في مصر؟!!

.. هل يستحق المصريون الديمقراطية؟!(*)

في عام ١٩٧٤ كان جمال ابن الرئيس أنور السادات طالبا في الثانوية العامة بمدرسة بورسعيد في الزمالك وقد عرف عنه آنذاك تعثره البالغ في مادة الرياضيات مما يعني صعوبة التحاقه بكلية الهندسة التي كان يتمناها، وفي ذلك الوقت كان المسئول الأول عن الرياضيات في وزارة التعليم المفكر والمناضل الكبير الدكتور عبد العظيم أنيس (أستاذ الرياضيات بجامعة عين شمس) ويبدو أن تعثر جمال السادات في الرياضيات قد ذاع أمره فبدأت الصحف القومية تكتب عن صعوبة منهج الرياضيات في الثانوية، بل وشكلت لجنة وزارية عليا لوزراء التأمينات والإسكان والتعليم وكبار المسئولين لمناقشة هذا الموضوع الخطير.. لماذا تكون الرياضيات في الثانوية صعبة ومعقدة إلى هذا الحد الفظيع؟!.. ولماذا لا نقوم بحذف بعض أجزاء المنهج وتبسيط بقية أجزائه تيسيرا على التلاميذ (وأولهم طبعا جمال السادات).. والطريف أن أكثر الحاضرين إلحاحا على اختصار منهج الرياضيات كان السيد وزير الإسكان..!.. الذي ليست له أية علاقة بالموضوع لكنه أدرك بذكائه أن حذف الرياضيات رغبة سياسية عليا وبالتالي فقد تحمس بشدة لتنفيذها.. على أن الدكتور عبد العظيم أنيس وقف بالمرصاد لأيه محاولة للعبث بالمنهج، ولما كان الدكتور عبد العظيم يضع امتحان الرياضيات للشهادة الثانوية فقد عاد إلى بيته ذات مساء فأخبره الجيران بأن سيارة من رئاسة الجمهورية قد جاءت إليه مرتين ولما لم يجدوه تركوا أرقام تليفونات على ورقه مكتوب عليها مكتب رئيس الجمهورية وطلبوا من الجيران إخباره بأن يتصل بهذه التليفونات للضرورة القصوى.. واتصل بهم الدكتور أنيس فرد عليه شخص قدم نفسه باسم العقيد رؤوف وطلب منه أن يذهب فورا إلى منزل جمال السادات ليساعده

(*) العربي ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢.

في استذكار الرياضيات، واعتذر الدكتور أنيس عن عدم الذهاب لكن العقيد رؤوف ألحّ عليه فما كان من العالم الفاضل إلا أن صاح به:

أظنك تعرف أن القانون يعاقب أستاذ الجامعة إذا أعطى دروسا خصوصية.. وأظنك أيضا تعرف أنني وضعت أسئلة امتحان الثانوية في مادة الرياضيات لهذا العام وبالتالي لا يجوز إطلاقا أن أساعد أي تلميذ على التأهل لامتحان أنا الذي وضعته حتى ولو كان هذا التلميذ ابن رئيس الجمهورية.

وانتهت المكالمة لكن الدكتور أنيس لم يهدأ طوال الليل وفي الصباح الباكر هرع إلى مكتب وزير التعليم وشكا إليه مما حدث فإذا بالوزير المحترم لا يغضب ولا يستنكر وإنما يحاول إقناعه بالذهاب لمساعدة جمال السادات في الاستذكار ويقول:

«اذهب إليه يا دكتور حتى ولو لمرة واحدة.. ماذا يجري لو جلست معه لمجرد «تقييمه من الناحيه العلمية»؟!.. هل تعلم أن السيدة چيهان السادات منزعجة وخائفة عليه جدًّا من امتحان الرياضيات وقد اتصلت بي أكثر من مرة حتى أجد حلا لهذه المشكلة؟!.. وكما تعلم فإن سيادة الرئيس السادات لازال مجهدا من حرب أكتوبر ولا وقت لديه لمساعدة ابنه جمال وبالتالي فإن واجبنا جميعًا أن نساعد الولد.

وأصّر الدكتور عبد العظيم أنيس على رفض هذه المهزلة وكتب يصف شعوره ذلك اليوم: «.. انصرفت من مكتب الوزير حزينا وتملّكني الشعور بأن ليس إلا المحاولة الثانية بعد فشل المحاولة الأولى في اختصار المناهج بشدة على يد اللجنة الوزارية، وكان أشد ما أحزنني هو الشعور بأن مصر العظيمة تُحكم وكأنها عزبة. ويجب على الخولي والأنفار أن يكونوا في خدمة السيد صاحب العزبة.. وأن الحديث عن سيادة القانون «عبث في عبث..»».. وقد توالت الضغوط على وزارة التعليم حتى تقرر رسميا ذلك العام ولأول في مصر أن تقبل الجامعات المصرية شهادة الثانوية الإنجليزية مع الثانوية المصرية، والمعروف أن منهج الثانوية الإنجليزية أضعف بكثير من المصرية (خصوصا في الرياضيات) وهذه الشهادة لا تكفي للالتحاق بالجامعات البريطانية إذ يجب على الطالب البريطاني الحاصل عليها أن يدرس عامين إضافيين قبل الالتحاق بالجامعة، وهكذا وجد الطالب جمال السادات الحل أخيرا فحصل على الثانوية الإنجليزية بسهولة والتحق بكلية الهندسة كما أراد.. وكانت هذه الشهادة ولا زالت حتى اليوم مفتاح الفرج

لأولاد الأغنياء المتعثرين الذين يتقدمون إليها بمصاريف باهظة لتكون بديلا سهلا عن الثانوية العامة يدفع بهم إلى الكليات التي يرغبون في الالتحاق بها ولا يقدرون على تحقيق مجموعها في الثانوية المصرية.

هذه الواقعة المدهشة رواها الدكتور عبدالعظيم أنيس في مذكراته المهمة التي صدرت منذ أيام في «كتاب الهلال» بعنوان «ذكريات من حياتي».. ولا يملك الإنسان بعد قراءتها إلا أن يتساءل: كيف يدار بلد كبير وعريق كمصر بهذه الطريقة؟! وكيف يتغير نظام تعليمي أساسي يؤثر في مستقبل ملايين الطلبة من أجل إرضاء طالب واحد حتى ولو كان ابن رئيس الجمهورية؟! وكيف يقبل وزير محترم أن يتلقى من حرم رئيس الجمهورية توجيهات تخص صميم عمله؟!.. وما الصفة الدستورية للسيدة حرم رئيس الجمهورية حتى يتداخل نشاطها مع الوزراء فتجتمع بهم وتضغط عليهم لتنفيذ طلباتها؟!.. وهل كان رئيس الجمهورية يعلم بمدى تدخل زوجته في شئون الوزارات المختلفة؟!.. إن كان لا يعلم فهذه مصيبة وإن كان يعلم فالمصيبة أفدح.. الإجابة على كل هذه الأسئلة جملة واحدة انعدام الديمقراطية.. إذ إن الطريقة التي يتم بها اختيار الوزراء تحدد سلوكهم في مناصبهم فالوزراء المنتخبون يحرصون دائمًا على ثقة الناخبين الذين جاءوا بهم إلى مقاعدهم وهم إذا تعرضوا إلى ضغوط قد تشوه صورتهم أمام الرأي العام، يسارعون بتقديم استقالاتهم وكلهم ثقة بأنهم يحافظون بذلك على مستقبلهم السياسي لأنهم ببساطة سوف يرشحون أنفسهم بعد ذلك ويعودون إلى الحكم عن طريق الانتخابات.. أما الوزراء في بلادنا فيتم اختيارهم وتعيينهم وعزلهم بغير أن يعرف الناس السبب في ذلك وبالتالي يكونون أقرب إلى الموظفين الذين ينفذون تعليمات رئيسهم ويحرصون على إرضائه لأنه الوحيد الذي يستطيع أن يعزلهم؟!.. بل إن احتقار الحكومات المصرية للرأي العام كثيرا ما يجعلها تقرر عزل وزراء أجمع الناس على حبهم واحترامهم بينما تتمسك في نفس الوقت بوزراء آخرين ضج الناس بالشكوى من تصرفاتهم.. انعدام الديمقراطية إذن السبب الأصلي في كل التخلف والفساد والفقر الذي نعاني منه ولكن كيف تتحقق الديمقراطية..؟!.. لا يمكن أن نتوقع من الحكومة أن تتحول إلى الديمقراطية من تلقاء نفسها لأن من يقبض على السلطة في أي بلد يحاول دائمًا أن يستأثر بها لكنه في النظام الديمقراطي يصطدم بمقاومة عنيفة تجبره على الخضوع لسلطة الشعب وهذه المقاومة ترتكز على عاملين أساسيين: «تقاليد الديمقراطية» و«الرأي العام»: ونحن في مصر ليست لدينا تقاليد ديمقراطية تمنع الانفراد بالسلطة وبالتالي فإن تطبيق الديمقراطية

يتوقف على الرأي العام المصري الذي لم يضغط حتى الآن بالقدر الكافي لتحقيقها.. وقد تظاهر آلاف المصريين في مناسبات مختلفة اعتراضا على العدوان الإسرائيلي أو على زيادة أسعار السلع أو حتى على طبع رواية «وليمة لأعشاب البحر». لكن مظاهرة واحدة في مصر لم تخرج اعتراضا على تزوير الانتخابات أو سياسة الاعتقالات أو مد العمل بقانون الطوارئ الذي نُحكم به من عشرين عاما.. وهنا نواجه الحقيقة.. إن المصريين يبدون وكأنهم لا يهتمون كثيرا بالديمقراطية، وعدم مبالاتهم هذه قد ترجع إلى يأسهم الكامل في تحقيقها أو عدم إدراكهم لأهميتها أو طول عهدهم بالاستبداد لكن المؤكد والمؤسف أن الناس في مصر قلما يفكرون في تدهور أحوالهم المعيشية كنتيجة حتمية لانفراد الحاكم بالسلطة وهكذا ينفصل الاستبداد في وعي المصريين عن نتائجه الطبيعية من فقر وفساد وبطالة.. لكن هذا النقص في الوعي لا يمكن أن يُسأل عنه ملايين الفقراء الأميين الذين يقاتلون كل صباح لمجرد البقاء على قيد الحياة، لكن المسئول الأول أفراد النخبة المصرية الذين يقع على عاتقهم الواجب الديمقراطي لكنهم لا يقومون به.. إذا كان البسطاء لا يدركون أهمية الديمقراطية فإننا ـ نحن المثقفين ـ ندرك وهذا الإدراك يفرض علينا أن ننوب عن الناس في مطالبتهم بحقوقهم.. وفي مصر أحزاب معارضة عديدة ومتنوعة تتفق وتختلف فيما بينها ولكنها لم تتفق أبدا على مطلب ديمقراطي موحد يشكل الحد الأدنى من طموح المصريين.. ولو أن جميع القوى السياسية في مصر اجتمعت مرة واحدة على رفض العمل بقانون الطوارئ لربما فكرت الحكومة مائة مرة قبل أن تمده إلى ما شاء الله.. ولو أن جرائد المعارضة جميعًا تبنت حملة كبيرة متصلة لمنع التعذيب أو منع تزوير الانتخابات لربما تغير الواقع المصري.. إن واجب المثقفين الوطنيين جميعًا أن يبذلوا جهودهم من أجل الإصلاح الديمقراطي.. هذه هي المهمة الوطنية الأولى وعلينا أن نختار: إما أن نسعى جاهدين لكي تتحقق الديمقراطية في مصر وإما أن نتقبل النتائج المحتومة للاستبداد، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم والشعب الذي لا يطالب بالديمقراطية لا يستحقها.

كلمات للتأمل:

* «بيان الرئيس بوش نصر مؤكد لسياسة شارون وقد يعطي الضوء الأخضر للمزيد من الاعتداء على الشعب الفلسطيني..»

جريدة الأندبندنت

* «اتصل بي أحمد ماهر وزير الخارجية ليبلغني تأييد مصر ودعمها لبيان الرئيس بوش..»

كولن باول

* «في مصر الآن ١٦ ألف معتقل والتعذيب في المعتقلات يحدث بصورة وحشية ومستمرة..»

منظمات حقوق الإنسان

* «اللواء حبيب العادلي وزير الداخلية يتخذ قرارات إنسانية يستحق عليها ألف وردة.. ووردة..»

سمير رجب

* «ارتفعت معدلات الفساد والبطالة في مصر إلى أرقام غير مسبوقة وما يقرب من نصف المصريين تحت خط الفقر.. ٣٧٪ منهم (نحو ١٠ ملايين مواطن) يسكنون في مناطق عشوائية، من بين هؤلاء ثلاثة ونصف مليون أسرة يعيشون في حجرات غير معدة للسكن أصلا، بلا مطبخ ولا مرحاض منفصل..»

جريدة الأهالي

* «الرئيس مبارك لم يتول مهمة واحدة في حياته ـ أمدها الله تعالى ـ إلا وأنجزها كما ينبغي..»

محمد عبد المنعم

رئيس تحرير «روزا اليوسف»

أول حقوق الإنسان.. أن ترحلوا عنا(*)

في مثل هذه الأيام منذ ٩٧ عاما.. كانت مصر واقعة تحت الاحتلال البريطاني وذات صباح نظم بعض الجنود الإنجليز رحلة لصيد الحمام في أنحاء محافظة المنوفية.. وحدثت مشادة بين الجنود الإنجليز والفلاحين المصريين أصيب خلالها بعض الفلاحين بجراح واشتعلت النار في بيوتهم وخاف الإنجليز من غضب الأهالي فلاذوا بالفرار ركضا تحت الشمس الحارقة مما أدى إلى إصابة أحدهم بضربة شمس أدت إلى وفاته.. وقد ثارت سلطات الاحتلال للغاية واعتبرت ما حدث تمردا على هيبتها وقرر اللورد كرومر ـ المعتمد البريطاني آنذاك ـ عقاب الفلاحين بكل شدة فأمر بتشكيل محكمة مخصوصة لا تخضع للقانون العادي ولا يمكن الطعن في أحكامها بإعدام ٤ فلاحين وجلد وحبس عدد آخر منهم.. وتم تنفيذ هذه الأحكام علنا فيما عرف بعد ذلك بمذبحة دنشواي التي أدت إلى نتائج خطيرة في مصر وبريطانيا على السواء.. فقد ثار الرأي العام المصري ضد الإنجليز وتعاطف الناس بشدة مع الشهداء حتى يروي الكاتب الراحل.. الكبير عباس محمود العقاد أنه كان مع بعض أصدقائه يقرءون وصف الصحف لتنفيذ الإعدام في دنشواي فإذا بأحدهم لا يتمالك أعصابه ويسقط مغشيا عليه من هول الموقف.. وقد أثارت المأساة قريحة كبار الشعراء فكتب عنها أمير الشعراء أحمد شوقي وشاعر النيل حافظ إبراهيم ومن ناحية أخرى شن الزعيم المصري مصطفى كامل حملة شعواء على الطغيان البريطاني ترددت أصداؤها في أوروبا كلها.. أما في بريطانيا فقد ثار الكتّاب والمفكرون بقيادة الكاتب العظيم چورچ برنارد شو وأدانوا مذبحة دنشواي.. وانضم إلى الحملة نواب في مجلس العموم البريطاني اعتبروا ما حدث إجراما بريطانيا غير مسبوق وهمجية لا تليق

(*) العربي ٢٢/ ٦/ ٢٠٠٣.

بعصرنا الحديث وتساءلوا بمرارة: كيف تتم محاكمة المصريين أمام محكمة مخصوصة لا تتقيد بقانون ولا يطعن في أحكامها؟!.. ثم كيف يعاقب الفلاحون المصريون بالجلد..؟! أليست هذه همجية تعيدنا إلى العصور الوسطى؟!.. وانهمرت الاستجوابات على الحكومة البريطانية حول دنشواي حتى اضطرت من أجل إنقاذ موقفها إلى إقالة اللورد كرومر من منصبه في مصر (بعد أن قضى فيه ربع قرن) ثم أصدرت عفوا عاما عن جميع المسجونين في دنشواي.. ومع ذلك فقد ظلت مذبحة دنشواي وصمة عار في تاريخ بريطانيا.. وظللنا نحن في مصر نحتفل كل عام بذكرى دنشواي كدليل على إجرام الاحتلال البريطاني في حق شعبنا.. لكنني لاحظت في الأعوام الأخيرة أن الحديث عن دنشواي قد خفت حتى انقطع تماما وصارت ذكراها في شهر يونيو تمر كل عام فلا يذكرها أحد.. وسبب ذلك في رأيي أنها لم تعد ذات موضوع.. فالذي فعله الاستعمار البريطاني في دنشواي منذ قرن تفعله السلطة الوطنية في مصر كل يوم.. وبدلا من محكمة مخصوصة واحدة في دنشواي لدينا الآن عشرات المحاكم من نوع أمن الدولة (طوارئ) ومحاكم عسكرية يحاكم أمامها المعارضون السياسيون في مصر ويتم التخلص منهم بانتظام إما بالإعدام أو بالحبس لسنوات طويلة.. وعقوبة الجلد التي اعتبرناها منذ قرن كامل جريمة إنجليزية بشعة تُعتبر دعابة لطيفة إذا قارناها بأنواع التعذيب الجهنمية التي تمارسها الشرطة المصرية ضد مواطنيها المعتقلون السياسيون (والمتهمون الجنائيون أيضا) في مصر يتعرضون مع الضرب والجلد إلى الكي بالنار وإطفاء السجائر في الجلد وهتك العرض بإدخال عصا غليظة وكهربة الأعضاء الحساسة وكثيرا ما يقبض على زوجات هؤلاء المعتقلين وأمهاتهم ويتم تجريدهن من ثيابهن أمام أزواجهن وأبنائهن وتهديدهن بالاغتصاب بواسطة الجنود.. كل هذه الفظائع الموثقة في عشرات التقارير الدولية تجعل الحديث عن مذبحة دنشواي بلا معنى.. بل إن شهداء دنشواي الأربعة يسقط أضعاف عددهم كل عام شهداء للتعذيب الوطني سواء في أقسام الشرطة أو داخل السلخانات البشرية المقامة في مباحث أمن الدولة.. إن الجرائم التي ترتكبها حكوماتنا الوطنية في مصر قد فاقت بكثير جرائم الاحتلال البريطاني.. وهذه الجرائم تتم تحت سمع وبصر حكامنا الذين يحبون أن يتحدثوا عن أزهى عصور الديمقراطية التي ننعم بها.. لكن التطورات الأخيرة وسقوط النظام في العراق والحديث الأمريكي عن انتهاكات حقوق الإنسان.. كل ذلك دفع الحكم في مصر إلى إنشاء ما يسمى بالمجلس الأعلى لحقوق الإنسان، وقد نشأ المجلس المذكور بلا

سلطات ولا اختصاصات ولا صلاحيات للتحقيق وأعضاؤه جميعًا معينون من الحكومة والواضح أنه سيكون أشبه بالمسرح القومي حيث يندفع كل ممثل إلى أداء دوره المرسوم وفي نهاية الحفل يُسدل الستار وينصرف المتفرجون إلى بيوتهم ليناموا وبالإضافة إلى تجميل وجه النظام فإن لمجلس حقوق الإنسان الجديد وظيفة مهمة وهي تقديم السيد جمال مبارك في صورة نصير الحريات ورجل الديمقراطية وذلك تمهيدا لتوليه السلطة في مصر خلفا لوالده.. والطريف أن الاحتفال بالمجلس تزامن في نفس الأسبوع مع القبض على الصحفي الوطني مصطفى بكري وشقيقه في ظروف غامضة تماما.. فإذا كان القبض عليهما تنفيذا لحكم قضائي فلماذا تأخر تنفيذ الحكم كل هذه الفترة..؟!.. وإذا كانت الحكومة حريصة على تنفيذ أحكام القضاء فلماذا لا تنفذها جميعًا..؟.. لماذا لا تعود جريدة الشعب الممنوعة.. تنفيذا لعشرة أحكام نهائية في صالحها..؟! لماذا لا تُنفذ الأحكام النهائية التي تقضي ببطلان تشكيل مجلس الشعب..؟! هل تنفذ الحكومة أحكام القضاء وتعطلها طبقا لحساباتها السياسية..؟! وهذا التنفيذ الانتقائي بالأحكام القضائية ألا يدل على انعدام القانون في بلادنا..؟! والمدهش والمحزن حقا أن نرى رجال قانون وأساتذة جامعيين يفضلون مصالحهم الشخصية على واجبهم الوطني فيقبلون التعيين في هذا المجلس المزعوم ولا أعرف كيف يواجهون ضمائرهم وهم يحتفلون بحقوق الإنسان في بلد محكوم بقانون الطوارئ منذ أكثر من عشرين عاما..؟ هل يجرؤ أحد في هذا المجلس على المطالبة بتداول السلطة أو منع التعذيب أو الإفراج عن عشرات الألوف من المعتقلين السياسيين المحتجزين لسنوات طويلة بلا محاكمة أو تهمة محددة؟ إن المصريين لا يحتاجون إلى مجلس لحقوق الإنسان.. لكنهم يتوقون إلى حقوق الإنسان نفسها.. وأول حقوق الإنسان أن يرحل عنا المخلّدون في مواقع السلطة.. أن نترك للشعب حقه الطبيعي في انتخاب من يحكمه عن طريق انتخابات ودستور ديمقراطي فعلا.. عندئذ فقط تتحقق حقوق الإنسان.. بعيدًا عن المجالس والمؤتمرات..

* * *

يتعرض الأستاذ الكبير جمال الغيطاني هذه الأيام إلى حملة شريرة منظمة تهدف إلى تلويث سمعته.. إذ راحت بعض الأقلام تتهمه بأنه كاتب الروايات التي نشرها صدام حسين باسمه.. اتهام جزافي مرسل بلا دليل تستطيع أن تطلقه على أي كاتب

وترديده على أمل أن يصدقه بعض الناس.. وقد اتسعت تهمة التعامل مع النظام العراقي السابق لتشمل مع الغيطاني مجموعة من أهم وأفضل كتاب وفناني مصر.. وكأن كل من أحب العراق وعارض العدوان عليها عميل لصدام حسين ونحن نسأل هنا: ماذا عن مئات الألوف من المصريين الذين تظاهروا من أجل العراق في الشوارع وتم ضربهم واعتقالهم وتعذيبهم وكثيرون منهم محتجزون حتى اليوم.. هل كل هؤلاء عملاء لصدام حسين؟!.. لكن المنطق لا يجدي مع من يتهمون الشرفاء بغير دليل التنكيل بكل من شعب العراق.. وفي حالة جمال الغيطاني ثمة أسباب إضافية تجعله هدفا للتشهير لأنه من أشهر الأدباء في مصر وخارجها مما يحرك ضده مشاعر الحسد من بعض زملائه.. ولأنه قاد في جريدة «أخبار الأدب» حملات عديدة ناجحة لفضح التجاوزات والانحرافات في وزارة الثقافة.. وقد أصبح لوزارة الثقافة جيش حقيقي مسلح من الكتّاب الذين يقبضون مرتبات كبيرة ومستعدون للدفاع عن الوزارة بالحق أو بالباطل ويكفي أن تنتقد الوزير فاروق حسني أو تختلف معه حتى تنقض عليك ميليشياته المسلحة بالخناجر والسكاكين لتمزقك إربا على صفحات الجرائد.. ووسط هذه المعمعة أجد من واجبي أن أكتب كلمة حق عن رجل عرفته جيدا وله معي مواقف جميلة لا يمكن أن أنساها.. فمنذ أكثر من عشر سنوات أصدرت مجموعتي القصصية الأولى وأرسلتها إلى جمال الغيطاني (ولم أكن رأيته في حياتي) ففوجئت في الأسبوع التالي بمقال طويل في جريدة الأخبار يحتفي فيه الغيطاني بالعمل الأول لأديب لا يعرفه أحد.. وقد ظللت في الأعوام التالية أنشر قصصي في أخبار الأدب بلا وساطة ولا غطرسة ولا تحكم كما يحدث من رؤساء التحرير في مجلات أخرى كثيرة.. وعندما انتهيت من روايتي الأخيرة «عمارة يعقوبيان» واعتذر لي أكثر من ناشر عن عدم نشرها خوفا من مضمون الرواية السياسي والاجتماعي.. فوجئت بجمال الغيطاني يتحمس لها ويتخذ قرارا شجاعا بنشر الرواية مسلسلة في أخبار الأدب على مدى أربعة أشهر بل ويتوسط بنفسه لنشرها في كتاب.. وهذه المواقف المحترمة للغيطاني لا يتخذها بدافع من محبة شخصية بقدر ما يدفعه إليها إحساسه بواجبه العام نحو الأدب والأدباء.. والدليل على ذلك أن ما فعله معي فعله مع كثيرين أعرفهم.. ولا يستطيع مثقف منصف في مصر أن ينكر أن جريدة أخبار الأدب قدمت عشرات الكتّاب الموهوبين والأعمال الجديدة وأنها خاضت معارك ضارية وشريفة من أجل حرية الإبداع وفضح الفساد

الثقافي.. من هنا أقول للصديق الكبير جمال الغيطاني.. إن الغبار كثيف وقذر ومزعج حقا لكنه مجرد غبار.. سرعان ما ينقشع وتبقى القيمة الصادقة على توهجها الدائم.. ونحن جميعًا في انتظار رواية الغيطاني الجميلة القادمة.

كلمات للتأمل:

* «معاملة المواطنين في أقسام الشرطة.. فعلا.. ممتازة..»

كمال الشاذلي

* «الصعق بالصدمات الكهربائية والضرب والتعليق من الرسغين أو كاحلي القدمين، بالإضافة إلى التهديد بالقتل أو اغتصاب المعتقل أو زوجته جنسيا.. كل هذه الجرائم تمارس بدأب في أقسام الشرطة والمعتقلات في مصر»

منظمة العفو الدولية

* «قبضوا علي أثناء المظاهرة في ميدان التحرير وضربني ضابط أمن دولة في وجهي ورفسني بحذائه في بطني ثم جذبني من شعري وأخذ يسحلني على أرض الشارع لمسافة كبيرة أمام الناس الذين خافوا من أن يعترضوا وعندما ذهبت إلى القسم استمر التعذيب حتى أصبت بنزيف داخلي في عيني.. وقال لي الضابط هناك نغتصبك الآن حتى تنشغلي عن السياسة»

من شهادات منال
(واحدة من المعتقلات في الأحداث الأخيرة)

* «كرامة الفرد من كرامة الوطن»

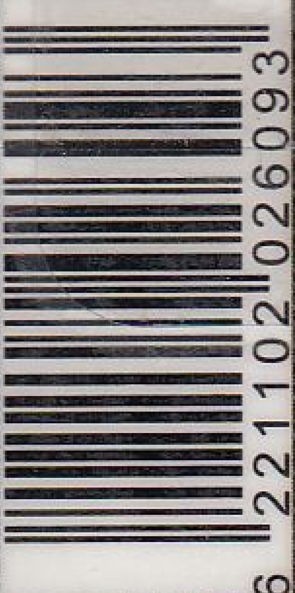
الرئيس حسني مبارك

مقالات
علاء الأسواني

في هذا الكتاب يختار لنا الكاتب علاء الأسواني المجموعة الأولى من مقالاته الصحفية الجريئة والتي نشرها على صفحات جرائد مصرية عديدة حتى ٢٠٠٨. وفيها يتناول هموما مصرية شغلتنا جميعا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر. يناقش الأسواني ويحلل أوضاع المصريين أمام حكامهم، والزمن الصعب الذي يعيشونه. ويستعرض أبرز الأفكار السياسية والأزمات الديمقراطية التي لفتت انتباه كل مهموم بمستقبل مصر. كما يتطرق إلى الأوضاع العربية وما شهدته الساحة السياسية العربية من تغيرات عنيفة في تلك السنوات القلقة. يسجل علاء الأسواني يومياته ومشاهداته والجدالات التي دخل فيها مع مثقفين مصريين وعرب وأجانب امتازت جميعا بأسلوب الكاتب الذي اعترف له الجميع بأن كل ما يكتبه يمسك بتلابيب القارئ ولا يدعه حتى ينتهي من القراءة.

علاء الأسواني طبيب أسنان وأديب مصري. ولد في ٢٦ مايو ١٩٥٧ وأتم دراسته الثانوية في «الليسيه» الفرنسية. ثم حصل على شهادة الماجستير في طب الأسنان من جامعة إلينوي في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية. القصة القصيرة والرواية والمقال الصحفي. وقد أ روايته «عمارة يعقوبيان» التي صدرت طبعتها الأولى عا وتوالت طبعاتها بعد ذلك محدثة زلزالا روائيا وثقافيا نتابعه كل يوم. كما شهدت روايته الثانية «شيكاجو» نجا أنا حتى أنها وصلت إلى الطبعة الثالثة عشرة الأولى في يناير ٢٠٠٧، تم تكريم علا كثر من دولة وترجمت أعماله لأكثر من ١٧ لغة.







دار الشروق
www.shorouk.com
تصميم الغلاف عمرو الكفراوى